وَحْىُ القَلَم

«بيانٌ كأَنه تنزيلٌ من التنزيل،»
«أَو قَبسٌ من نور الذِّكْرِ الحكيم»
سعد باشا زغلول

مصطفى صادق الرافعى

الجزء الأول

طبعة خاصة بدولة الإمارات العربية المتحدة



وزارة الثقافة والشباب وتنمية المجتمع





كتب ثقافية

مصطفى صادق الرافعى، مصطفى صادق بن عبد الرازق
ابن سعيد بن أحمد، 1881 - 1937.
وحى القلم/ مصطفى صادق الرافعى.
القاهرة: دار المعارف، 2015.
مج 1، 24 سم
طبعة خاصة بدولة الإمارات العربية المتحدة
تدمك 0 8254 02 977 978
1 – المقالات العربية.
2 – الأدب العربى – مجموعات
(أ) العنوان.
تصنيف ديوى: 814
رقم الإيداع: 22775/ 2015
رقم الكونجرس: × - 840010 - 01 - 2

تصميم الغلاف:
أيمن القاضى

تم التنفيذ فى مطابع دار المعارف
- ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة -
جمهورية مصر العربية

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg





تمت الطباعة بدعم من

مؤسسة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان

للأعمال الخيرية والإنسانية





بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

سورة الأنعام: (٨٨ – ٩٠).

دعوة الأستاذ الإمام

حكيم الإسلام الشيخ محمد عبده رحمه الله
لمؤلف «وحى القلم» فى أول عهده بالأدب

ولدنا الأديب الفاضل مصطفى أفندي صادق الرافعي زاده الله أدبا

لله ما أثمر أدبك ولله ما ضمن لي قلبك لا أقارضك ثناء بثناء فليس ذلك
شأن الآباء مع الأبناء ولكني أعدك من خلص الأولياء وأقدم صفك على صف
الأقرباء وأسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفا يمحق به الباطل وأن يقيمك
في الأواخر مقام حسان في الأوائل والسلام

محمد عبده

٥ شوال ١٣٢١

نص كتاب الأستاذ الإمام

ولدنا الأديب الفاضل مصطفى أفندى صادق الرافعى: زاده الله أدبًا. لله ما أثْمَرَ أدَبُك، ولله ما ضَمِنَ لى قلبُك، لا أقارضُكَ ثناءً بثناء، فليس ذلك شأنَ الآباء مع الأبناء، ولكنى أعُدُّك من خُلَّصِ الأولياء، وأَقدِّمُ صفَّك على صفِّ الأقرباء. وأسألُ اللهَ أن يجعلَ للحق من لسانك سيفًا يمحقُ الباطل، وأن يُقيمك فى الأواخرِ مَقَامَ حَسَّان فى الأوائل. والسلام.

٥ شوال سنة ١٣٢١هـ(*)

محمد عبده

(*) يوافق هذا التاريخ ٢٥ من ديسمبر سنة ١٩٠٣ للميلاد.

مؤلفات الكاتب

- تاريخ آداب العرب.
- إعجاز القرآن.
- تحت راية القرآن.
- المعركة بين القديم والجديد.
- كتاب المساكين.
- حديث القمر.
- رسائل الأحزان.
- السحاب الأحمر.
- أوراق الورد.
- ديوان الرافعى.
- ديوان النظرات.
- السفُّود.

تصدير

بقلم

محمد سعيد العريان

«.. ربما عابوا السمو الأدبى بأنه قليل، ولكن الخير كذلك، وبأنه مخالف، ولكن الحق كذلك، وبأنه محير، ولكن الحسن كذلك وبأنه كثير التكاليف، ولكن الحرية كذلك».

الرافعى

هذا كتاب آخر أنشأه الرافعى، ففيه النفحة الأخيرة من أنفاسه، والنبْضة الأخيرة من قلبه، والوَمْضَةُ الأخيرة من وجدانه... أفرأيت الليل المطبق كيف تتروَّح نسمائه الأخيرة بعبير الشجر وتتندَّى أزهارُه فى نسيم السحر؟

ألا وإنه إلى ذلك أولُ كتاب أنشأه على أسلوبه وطريقته، فقد عاش الرافعى ما عاش يكتب لنفسه وينشر لنفسه، لا يعنيه مما يكتب وينشر إلا أن يُحيل فكرةً فى رأسه أو لمحةً فى خاطره أو خفقة فى قلبه إلى تعبير فى لسانه أو معنى فى ديوانه، ولا عليه بعد ذلك أن يتأدى معناه إلى قارئه كما أراده أو يُغلقَ دونَه، فلما اتصل سببه بمجلة «الرسالة»[*] رأى لقارئه عليه حقا أكثر من حقّ نفسه، فكان أسلوبه الجديد الذى أنشأ به هذا الكتاب.

على أن هذا الكتاب - وشأنه ما قدّمْت - بجميع كل خصائص الرافعى الأدبية متميزة بوضوح، فمن شاء فليقرأه دون سائر كتبه، فسينكشف له الرافعى فى سائر

(١) اتصل الرافعى بمجلة الرسالة قبيل موته بثلاث سنوات، وكان ذلك أول اشتغاله بالصحافة، فلم يكن له قبلها صلة (صحافية) بجريدة من الجرائد أو مجلة من المجلات، وقد كان لذلك أثره فى أسلوبه من قبل ومن بعد إلى أسباب أخرى، وانظر (فترة جمام) و(عمله فى الرسالة) و(نقلة اجتماعية) من كتابنا (حياة الرافعى).

كتبه. والأديب الحق تستعلِن نفسه بطريقتها الخاصة فى كل زمان ومكان على اختلاف أحواله وما يحيط به.

* * *

والرافعي عند طائفة من قراء العربية أديب عَسِرُ الهضم، وهو عند كثير من هذه الطائفة متكلِّف لا يُصدر عن طبع، وعند بعضهم غامض معمى لا تخلص إليه النفس، ولكنه عند الكثرة من أهل الأدب وذوى الذوق البيانى الخالص، أديب الأمة العربية المسلمة، يعبِّر بلسانها، وينطق عن ذات نفسها، فما يعيب عليه عائب إلا من نقص فى وسائله، أو كدرة فى طبعه، أو لأن بينه وبين طبيعة النفس العربية المسلمة التى ينطق الرافعى بلسانها حجابا يباعد بينه وبين ما يقرأ روحا ومعنى.

فمن شاء أن يقرأ ما كتب الرافعى ليتذوق أدبه فيأخذ عنه أو يحكم عليه، فليستوثق من نفسه قبلُ، ويستكمل وسائله، فإن اجتمعت له أداته من اللغة والذوق البيانى، وأحس إحساس النفس العربية المسلمة فيما تحبُّ وما تكره وما يخطر فى أمانيها فذوقه ذوق وحكمه حكم، وإلا فليسقط الرافعى من عداد من يقرأ لهم أو فليسقط نفسه من عداد هذه الأمة.

* * *

على أنه إذا حق لنا أن نرتب كتب الرافعى ترتيبا يعين قارئه على تذوقه أو دراسة أدبه فإن «وحى القلم» فى رأس هذا الثبت. هو آخر ما أنشأ ولكنه أول ما ينبغى أن يقرأ له، وإن البدء به لحقيقٌ أن يعود قارئه أسلوب الرافعى فَيسلس له صعبه وينقاد.

* * *

ذلك مجمل الرأى فى أسلوب هذا الكتاب، على أن قارئه قد يقف منه عند مواضع فيسأل نفسه: كيف تأتَّى للرافعى أن يعالج موضوعه على هذا الوجه؟ وكيف تهيأ له ذلك المعنى؟ وأين ومتى اجتمعت له هذه الخواطر؟ وفى أى أحواله كان يكتب؟ وعلى أى نسق كا يؤلف موضوعه ويجمع أشتاته ويحشد خواطره ويصنف عبارته؟...

... ولست أرى من حقى أن أطيل القول هنا فى هذا الكتاب وقد ذكرتُه فى كتاب «حياة الرافعى»، وإن موضوع هذا الكتاب لهو الحقيق بالدرس والعناية.

والكتاب كما يُشعِر به عنوانه، هو مجموعة فصول ومقالات وقصص، من وحى القلم وفيض الخاطر فى ظروف متباينة، وأكثره ما كتبه لمجلة الرسالة بين سنتى ١٩٣٤م و١٩٣٧م، ولكل فصل أو مقالة أو قصة من هذه المجموعة، سببٌ أوحى إليه موضوعها وأملى عليه القول فيها، ولقد كان على أن أثبِتَ عند رأس كل موضوع منها باعثه وحادثته، لعلَّ من ذلك نورا يكشف عن معنى مغلق أو يوضح فكرة يكتنفها بعض الغموض، ولكن بعض الضرورات قد ألزمتنى أن أقتصد فى البيان هنا اكتفاء بما بينته فى موضعه وأشرت إليه فى هامش موضوعه.

ولقد يقرأ القارئ بعض القصص فى هذا الكتاب، فيسأل عن بعضها: أهذا حق يرويه أم باطل يدّعيه؟ ويسأل عند بعضها: أهذا مما ينقل من مأثورات الأدب والتاريخ القديم، أم إنشاء مما يُبدعه الخيال وتُوشيه الصنعة؟ ثم يقرأ رأى الرافعى فى القصة وكتاب القصة [*] فيقول: أين رأيه من حقيقته؟ وأين عمله من دعواه؟

ولهذه القصص حديث طويل، ولكن حسبى أن أقول إن الرافعى– وإن هجر القصة ولم يحفل بها زمانا – كانت القصة فى أدبه وفى طبعه.

* * *

وكما قلت من قبل إن هذا الكتاب يجمع كل خصائص الرافعى الأدبية متميزة بوضوح فى أسلوبه، كذلك أقول هنا إنه يجمع كل خصائصه العقلية والنفسية متميزة بوضوح فى موضوعه، ففيه خلقه ودينه، وفيه شبابه وعاطفته، وفيه تزمته ووقاره، وفيه فكاهته ومَرَحُه، وفيه غضبه وسخطه، فمن شاء أن يعرف الرافعى عرفان الرأى والفكرة والمعاشرة فليعرفه فى هذا الكتاب.

* * *

(١) الجزء الثالث من وحى القلم.

أمـا الجزء الثالث من هـذا الكتاب فقد خلفه المؤلف – رحمـه الله – على مكتبه قصاصات من صحف وصفحات من كتب ومجلات، فعاد كتابا بين دفتين، وقد رتبتُ فصولـه علـى ما بدا لى، إذ لم أجد فيما خلف المؤلف من أوراق ما يشـير إلى رأيه فى ترتيبه، ولكنه جمع أكثر مواده فى غلاف وأودعه درجَ مكتبه إلى ميعاد، ثم عاجلتْه منيتُه. وقد جمعت ما قدرت عليه بعد، فأضفته إلى ما جمع المؤلف، ورتبت كل ذلك وهيأته للمطبعة فإن كان قد فاتنى شـىء مما ينبغى إضافته إلى ذلك الجزء، أو قصر بى الجهد عن ترتيبه على الوجه الأمثل، فمعذرة إلى قارئه.

وللمؤلف فى ذيل بعض الصحائف تعليقات، ولى تعليقاتٌ غيرها اقتضاها مكانُها وموضوعُهـا، فإذا رأى القارئ رمز التعليـق فى الصلب وفى الهامش نجما أو نجوما (*) (**) فهو مما علقته، وإن كان الرمز رقما فهو مما علَّقه المؤلف – رحمه الله – لبيان معنى أو تفسير كلمة.

وإن فـى الكتاب لفنًّـا وفكرًا وبيانًا، وإن فيه لمواضع تقتضى البسـط والتطويل فى الحديث، وإن فيه لمذاهب فى الإنشـاء حقيقة بالـدرس والنظر، ولكنى أجتزئ من ذلك كله بالعرض دون البيان، لأدع لقارئه أن يقول ما يشاء ويحكم، ثم لأفسح المكان لمنشئ الكتاب أن يتحدث عن مذهبه فى البيان وهو عليه أقدر.

محمد سعيد العريان

■■■

صدر الكتاب

البيان

لا وجُودَ للمقالة البيانية إلا فى المعانى التى اشـتملت عليها يُقيمها الكاتبُ على حُدود ويديرها على طريقة، مُصيبًا بألفاظه مَواقعَ الشعور، مُثيرًا بها مَكامن الخيال، آخذًا بوَزْن تاركًا بوزنٍ لتأخذَ النفسُ كما يشاء وتَترك.

ونقـلُ حقائقِ الدنيا نقلاً صحيحًا إلى الكتابة أو الشـعر، هو انتزاعُها من الحياة فى أسـلوب وإظهارُها للحياة فى أسـلوب آخرَ يكون أوفى وَأدق وأجملَ، لوضعه كلَّ شـىء في خَاصِّ معناه وكَشْفهِ حقائقَ الدنيا كَشْـفَةً تحت ظاهرها الملْتَبس. وتلك هى الصناعـةُ الفنية الكاملة؛ تَسْـتَدْركُ النقصَ فتُتمُّهُ، وتتناولُ السـر فُتعلنُه، وتلمِسُ المقيّدَ فَتُطْلِقُه، وتأخذ المطلَقَ فتحُدُّه، وتكشفُ الجمال فتُظهره، وترفع الحياة درجةً فى المعنى وتجعل الكلامَ كأنه وجد لنفسه عقلاً يعيش به.

فالكاتـبُ الحقُّ لا يكتبُ ليكتب؛ ولكنه أداةٌ فـى يد القوة المصوِّرة لهذا الوجود، تُصوِّر به شـيئًا من أعمالها فنًّا من التصوير، الحكمةُ الغامضةُ تريده على التفسـير، تفسير الحقيقة؛ والخطأ الظاهرُ يريده على التبيين، تبيين الصواب؛ والفَوضى المائجةُ تسـأله الإقرارَ، إقرار التناسـب؛ وما وراء الحياة، يتخذ من فكـره صلةً بالحياة؛ والدنيا كلها تنتقل فيه مَرْحَلَةً نفسيةً لتعلوَ به أو تنزل. ومن ذلك لا يُخلق المُلْهَمُ أبدًا إلا وفيه أعصابه الكهربائية، وله فى قلبه الرقيقِ مواضعُ مُهيَّأة للاحتراق تنفذ إليها الأشعةُ الروحانيةُ وتتساقط منها بالمعانى.

وإذا اختير الكاتبُ لرسـالة ما، شعر بقوة تفرض نفسها عليه؛ منها سدادُ رأيه، ومنهـا إقامـة برهانه، ومنها جمالُ مـا يأتى به، فيكون إنسـانًا لأعماله وأعمالها جميعًا، له بنفسـه وجودٌ ولد بها وجودٌ آخر؛ ومن ثَمَّ يُصبح عالَـمًا بعناصره للخير

أو الشر كما يُوجَّه؛ ويُلقى فيه مثلُ السر الذى يُلْقَى فى الشجرة لإخراج ثمرها بعمل طبيعىّ يُرىَ سهلاً كلَّ السهل حين يتمُّ، ولكنه صعبٌ أىُّ صعب حين يَبدأ.

هــذه القوة هى التــى تجعل اللفظة المُفْرَدَةَ فى ذهنه معنــىً تامًّا، وتحوّل الجملةَ الصغيرة إلى قصة، وتنتهى باللمحة السريعة إلى كشف عن حقيقة، وهى تُخرجه من حكم أشـياء ليحكُمَ عليها، وتُدخله فى حكم أشـياء غيرها لتحكم عليه؛ وهى التى تميز طريقته وأسلوبَه؛ وكما خلق الكون من الإشعاع تضع الإشعاعَ فى بيانه[1].

ولابد من البيان فى الطبائع المُلْهَمة ليتَّسِـع به التصرُّفُ، إذ الحقائقُ أسمى وأدقُّ مــن أن تُعرفَ بيقين الحاسـة أو تنحصر فى إدراكها. فلو حُـدَّت الحقيقةُ لما بقيت حقيقة، ولو تَلَبَّسَ الملائكةُ بهذا اللحمِ والدم أبطل أن يكونوا ملائكة؛ ومن ثَمَّ فكثرةُ الصـوَر البيانيةِ الجميلة، للحقيقة الجَميلةَ، هى كل ما يمكن أو يَتَسَـنَّى من طريقة تعريفها للإنسانية.

وأى بيان فى خُضرة الربيع عند الحيوان من آكِلِ العُشْبِ، إلا بيانُ الصورة الواحدةِ فى معِدتــهِ؟ غير أن صُوَرَ الربيع فى البيان الإنسـانىِّ على اختلاف الأرض والأمم، تكاد تكون بعدد أزهاره، ويكاد الندى يُنضِّرُها حُسْنًا كما ينضِّره.

ولهذا سـتبقى كل حقيقة مــن الحقائق الكبرى - كالإيمــان والجمال، والحب، والخير والحق - محتاجةً فى كل عصر إلى كتابة جديدة من أذهان جديدة.

* * *

وفــى الكتَّاب الفضلاء باحثــون مفكرون تأتى ألفاظُهم ومعانيهــم فنًّا عقليًّا غايتُه صحةُ الأداء وسـلامةُ النَّسَقِ، فيكونُ البيانُ فى كلامهم على نَدْرَة كوَخْزِ الخُضرة فى الشـجرة اليابسـةِ هنا وهنا. ولكن الفنَّ البيانى يرتفع على ذلك بأن غايته قوةُ الأداء مــع الصحة، وسموُّ التعبير مع الدقة، وإبداعُ الصورة زائدًا جمالَ الصورة. أولئك فى الكتابــة كالطير له جناح يجرى به ويَدِفُّ ولا يطير، وهؤلاء كالطير الآخر له جناح

(١) ثبت أن الإشعاع هو المادة التى صنع منها الكون.

يطير به ويجرى. ولو كتَبَ الفريقان فى معنى واحد لرأيتَ المنطقَ فى أحد الأسلوبين وكأنه يقول: أنا هنا فى معان وألفاظ؛ وترى الإلهامَ فى الأسلوب الآخر يُطالِعُك أنه هنا فى جلال وجمال وفى صُوَر وألوان.

ودَوْرَةُ العبارة الفنية فى نفس الكاتب البيانى دورةُ خَلْق وتركيب، تخرج بها الألفاظُ أكبرَ مما هى، كأنها شَبَّتْ فى نفسه شبابًا؛ وأقوى مما هى، كأنما كَسَبَتْ من روحه قوة؛ وأدلَّ مما هى، كأنما زاد فيها بصناعته زيادة. فالكاتبُ العلمىُّ تمرُّ اللغةُ منه فى ذاكرة وتخرج كما دخلت عليها طابعُ واضعيها؛ ولكنها من الكاتب البيانى تمر فى مصنع وتخرج عليها طابعهُ هو. أولئك أزاحوا اللغةَ عن مرتبة سامية، وهؤلاء عَلَوْا بها إلى أسمى مراتبها؛ وأنت مع الأولين بالفكر، ولا شىء إلا الفكرُ والنظر والحكم؛ غير أنك مع ذى الحاسَّة البيانية لا تكون إلا بمجموع ما فيك من قوة الفكر والخيال والإحساس والعاطفة والرأى.

وللكتابة التامة المفيدة مثلُ الوجهين فى خلْق الناس: ففى كل الوجوه تركيبٌ تامٌّ تقوم به منفعةُ الحياة، ولكن الوجهَ المنفردَ يجمع إلى تمام الخَلقْ جمالَ الخَلق، ويزيد على منفعة الحياة لذّةَ الحياة، وهو لذلك، وبذلك، يُرى ويؤثِّر ويُعشَق.

وربما عابوا السموّ الأدبىَّ بأنه قليل، ولكنَّ الخير كذلك؛ وبأنه مخالف، ولكن الحق كذلك؛ وبأنه مُحيَّر، ولكن الحسن كذلك؛ وبأنه كثير التكاليف، ولكن الحرية كذلك.

إن لم يكن البحرُ فلا تنتظر اللؤلؤ، وإن لم يكن النجمُ فلا تنتظر الشعاع، وإن لم تكن شجرةُ الورد فلا تنتظر الورد، وإن لم يكن الكاتبُ البيانىُّ فلا تنتظر الأدب.

مصطفى صادق الرافعى

■■■

اليمامتان

جاء فى تاريخ الواقدى «أن (المُقَوْقِسَ) عظيم القِبْطِ فى مِصر، زوّج بنتَه (أرمانوسة) من (قسطنطين من هِرَقْل) وجهَّزها بأموالها حَشمِا لتسير إليه، حتى يَبْنِىَ عليها فى مدينة قَيْسَارِيةَ [1]؛ فخرجت إلى بُلْبيْسَ وأقامتْ بها... وجاء عَمْرو بن العاص إلى بلبيس فحاصرها حصارا شديدا، وقاتلَ مَن بها، وقتل منهم زُهاء ألف فارس، وانهزم مَن بقى إلى المقوقس، وأخذت أرمانوسةُ وجميعُ ما لَها، وأخذ كلُّ ما كان للقبط فى بلبيس. فأحبَّ عمرٌو ملاطفة المقوقس، فسير إليه ابنته مكرَّمةً فى جميع مالها، (مع قَيْس بن أبى العاص السَّهْمى)؛ فسُرَّ بقدومها...».

* * *

هذا ما أثبتَه الواقدى فى روايته، ولم يكن مَعنْيًّا إلا بأخبار المَغازى والفُتوح، فكان يقتصر عليها فى الرواية؛ أما ما أغفله فهو ما نَقُصُّه نحن:

كانت لأرمانوسةَ وصيفةٌ مُوَلَّدةٌ تُسَمىَّ (مارية)، ذاتُ جمال يونانىّ أتمتَّه مصرُ ومَسَحتْه بسحرها، فزاد جمالُها على أن يكون مصريًّا، ونَقَصَ الجمالُ اليونانىّ أن يكُونَه؛ فهو أجملُ منهما، ولمصر طبيعةٌ خاصة فى الحسن؛ فهى قد تُهْملُ شيئًا فى جمال نسائها أو تُشَعِّث منه، وقد لا توفيه جُهدَ محاسنها الرائعة؛ ولكن متى نشأ فيها جمالٌ ينْزِعُ إلى أصل أجنبى أفرغتْ فيه سحرَها إفراغا، وأبتْ إلا أن تكون الغالبة عليه، وجعلته آيتها فى المقابلة بينه فى طابَعِه المصرىّ، وبين أصله فى طبيعة أرضه كائنةً ما كانت؛ تغارُ على سحرها أن يكون إلا الأعلى.

وكانت ماريةُ هذه مسيحيةً قويةَ الدين والعقل، اتخذها المقوقسُ كنيسةً حية لابنته، وهو كان واليًا وبَطْرِيْركا على مصر من قِبَلِ هِرَقْل؛ وكان من عجائب صُنْع الله

(١) بلدة بفلسطين. وبلبيس هى المدينة المعروفة بمحافظة الشرقية بمصر.

أن الفتح الإسلاميّ جاء فى عهده، فجعل اللهُ قلبَ هذا الرجل مفتاحَ القُفْل القبطيّ، فلم تكن أبوابُهم تُدافِعُ إلا بمقدار ما تُدفَع، تُقاتل شيئًا من قتال غير كبير. أما الأبوابُ الرومية فبقيتْ مستَغْلِقةً حصينةً لا تُذْعِنْ إلا للتحطيم، ووراءها نحو مائة ألف رومى يقاتلون المعجزة الإسلاميَّةَ التى جاءتهم من بلاد العرب أوَّلَ ما جاءت فى أربعة آلاف رجل، ثم لم يزيدوا آخِرَ ما زادوا على اثنى عشر ألفًا. كان الروم مائة ألف مُقاتل بأسلحتهم - ولم تكن المدافع معروفة - ولكن رُوح الإسلام جعلت الجيش العربيّ كأنه اثنا عشر ألفَ مِدفعْ بقنابلها، لا يقاتلون بقوّة الإنسان، بل بقوة الروح الدينية التى جعلها الإسلامُ مادةً منفجرةً تُشْبه الدِّيناميتَ قبل أن يُعْرَفَ الدِّيناميت!

ولما نزل عمرٌو بجيشه على بُلبيس، جَزعتْ مارية جزَعًا شديدًا؛ إذ كان الروم قد أرجفوا أن هؤلاء العربَ قومٌ جياعٌ يَنْفضُهم الجدْبُ على البلاد نَفْضَ الرمال على الأعين فى الريح العاصف، وأنهم جرادٌ إنسانى لا يغزو إلا لبَطْنِه؛ وأنهم غلاظُ الأكباد كالإبل التى يمتطونها، وأن النساء عندهم كالدّوابّ يُرْتَبَطْن على خَسْف، وأنهم لا عهد لهم ولا وفاء، ثَقُلت مطامعُهم وخَفَّت أمانتُهم، وأن قائدَهم عَمْرو ابن العاص كان جزَّارًا فى الجاهلَّية، فما تَدَعُه روحُ الجزَّار ولا طبيعتُه، وقد جاء بأربعة آلاف سالخ من أخلاط الناسِ وشُذَّاذِهم، لا أربعةِ آلاف مقاتل من جيش له نظامُ الجيش!

وتوهَّمتْ ماريةُ أوهامَها، وكانتْ شاعرةً قد درست هى وأرمانوسةُ أدبَ اليونانَ وفلسفتَهم، وكان لها خيالٌ مشبوبٌ متوقِّد يُشْعِرُها كلَّ عاطفة أكبرَ مما هى، ويضاعف الأشياء فى نفسها، وينزِعُ إلى طبيعته المؤنَّثة، فيبالغُ فى تهويل الحزنِ خاصَّة، ويجعل من بعض الألفاظ وَقُودًا على الدم...

ومن ذلك اسْتُطيرَ قلبُ مارية وأفزعتها الوساوس، فجعلت تَنْدُبُ نفسَها، وصنعت فى ذلك شعرًا هذه ترجمتُه:

جاءكِ أربعةُ آلاف جزّار أيَّتُها الشاةُ المسكينة!

ستذوق كلُّ شعرة منكِ ألمَ الذبح قبل أن تُذبَحى!
جاءكِ أربعةُ آلاف خاطف أيتها العذراء المسكينة!
ستموتين أربعة آلاف ميتة قبل الموت!
قَوِّنى يا إلهى، لأغمِدَ فى صدرى سِكِّينًا يردُّ عنى الجزارين!
يا إلهى، قَوِّ هذه العذراءَ، لتتزوَّج الموتَ قبل أن يتزوجها العربى..!

* * *

وذهبت تتلو شِعرَها على أرمانوسةَ فى صوت حزين يتوجَّع؛ فضحكتْ هذه وقالت: أنت واهمةٌ يا مارية؛ أنسيتِ أن أبى قد أهدى إلى نبيهم بنتَ (أنْصنا)[1]، فكانت عنده فى مملكة بعضُها السماء وبعضُها القلب؟! لقد أخبرنى أبى أنه بَعَثَ بها لتكشف له عن حقيقة هذا الدين وحقيقة هذا النبىّ، وأنها أنفذتْ إليه دَسيسًا يُعْلِمُه أن هؤلاء المسلمين هم العقلُ الجديدُ الذى سيضع فى العالم تمييزه بين الحق والباطل، وأن نبيهم أطهرُ من السحابة فى سمائها، وأنهم جميعًا ينبعثون من حُدود دينهم وفضائله، لا من حدود أنفسهم وشهواتِها، وإذا سَلُّوا السيفَ سَلُّوه بقانون، وإذا أغمدوه أغمدوه بقانون. وقالت عن النساء: لئن تخافَ المرأةُ على عفّتها من أبيها أقربُ من أن تخافَ عليها من أصحاب هذا النبىّ؛ فإنهم جميعا فى واجبات القلب وواجبات العقل، ويكاد الضميرُ الإسلامىُّ فى الرجل منهم يكون حاملًا سلاحًا يَضرِبُ صاحبَه إذا همّ بمخالفته.

وقال أبى: إنهم لا يُغِيرُون على الأمم، ولا يحاربونها حربَ المُلْك؛ وإنما تلك طبيعةُ الحركة للشريعة الجديدة، تتقدَّم فى الدنيا حاملة السلاحَ والأخلاق، قويةً فى ظاهرها وباطنها، فمن وراء أسلحتِهم أخلاقُهم؛ وبذلك تكون أسلحتهم نفسُها ذاتَ أخلاق!

---

(١) هى مارية القبطية التى أهداها المقوقس إلى النبى ﷺ وكانت من (أنصنا) بالوجه القبلى.

وقال أبى: إن هذا الدينَ سيندفعُ بأخلاقِه فى العالَم اندفاعَ العُصارة الحية فى الشجرة الجرداء، طبيعةٌ تعملُ فى طبيعة؛ فليس يَمضى غيرُ بعيد حتى تَخضَرَّ الدنيا وترمى ظلالها، وهو بذلك فوق السياسات التى تُشبْه فى عملها الظاهر المُلَفَّقِ ما يُعَدُّ كطلاء الشجرة الميتة الجرداء بلون أخضر... شَتَّانَ بين عمل وعمل، وإن كان لونٌ يشبه لونًا...

فاسترْوَحَتْ ماريةُ واطمأنت باطمئنان أرمانوسة، وقالت: فلا ضَيْرَ علينا إذا فتحوا البلد، ولا يكون ما نَستْضِرُّ به؟

قالت أرمانوسة: لا ضيرَ يا مارية، ولا يكون إلا ما نُحِبُّ لأنفسنا؛ فالمسلمون ليسوا كهؤلاء العُلوج من الروم، يفهمون متاعَ الدنيا بفكرة الحِرص عليه، والحاجة إلى حلاله وحرامه، فهم القُساةُ الغِلاظُ المُستكلبون كالبهائم؛ ولكنهم يفهمون متاعَ الدنيا بفكرة الاستغناء عنه والتمييز بين حلاله وحرامه، فهم الإنسانيُّون الرُّحماء المتعففون.

قالت مارية: وأبيك يا أرمانوسةُ، إن هذا لعجيب! فقد مات سقراط وأفلاطونُ وأرسْطو وغيرُهم من الفلاسفة والحكماء، وما استطاعوا أن يؤدِّبوا بحكمتهم وفلسفتهم إلا الكتبَ التى كتبوها...! فلم يخرجوا للدنيا جماعةً تامةَ الإنسانية، فضلا عن أمة كما وصفْت أنتِ من أمر المسلمين؛ فكيف استطاع نبيُّهم أن يُخرِجَ هذه الأمة وهم يقولون إنه كان أميًّا؟! أفتسْخَرُ الحقيقةُ من كبار الفلاسفة والحكماء وأهل السياسة والتدبير؛ فتدعُهم يعملون عَبَثًا أو كالعبث، ثم تستسلم للرجل الأمِّيِّ الذى لم يكتُب ولم يقرأ ولم يدرُس ولم يتعلم؟!

قالت أرمانوسة: إن العلماء بهيئة السماء وأجرامها وحساب أفلاكها، ليسوا هم الذين يَشُقُّون الفجر ويُطلعون الشمس، وأنا أرى أنه لابد من أمة طبيعية بفطرتها يكونُ عملُها فى الحياة إيجاد الأفكار العمليِّة الصحيحة التى يسير بها العالم، وقد درستُ المسيحَ وعملَه وزمنَه، فكان طِيلةَ عمره يحاول أن يوجِد هذه الأمة، غير أنه أوجدها مُصغَّرة فى نفسه وحوارِيِّيه، وكان عملُه كالبدء فى تحقيق الشىء العسير؛ حَسْبُه أن يُثْبِتَ معنى الإمكان فيه.

وظهــورُ الحقيقة من هذا الرجل الأمِّيّ هو تنبيهُ الحقيقة إلى نفســها، وبرهانها القاطــعُ أنها بذلك فى مظهرها الإلهىّ. والعجيــبُ يا مارية، أن هذا النبى قد خذله قومُه وناكروه وأجمعوا على خِلافه، فكان فى ذلك كالمســيح، غير أن المســيحَ انتهى عنــد ذلك؛ أما هذا فقد ثبت ثبــاتَ الواقع حين يقع، لا يرتدُّ ولا يتغير، وهاجَر من بلده، فكان ذلك أول خُطا الحقيقة التى أعلنت أنها ستَمشــى فى الدنيا، وقد أخذتْ من يومِئذ تمشى [1]. ولو كانت حقيقةُ المسيح قد جاءت للدنيا كلهًّا لما جرتْ به كذلك، فهذا فرقٌ آخر بينهما. والفرقُ الثالثُ أن المســيح لم يأت إلا بعبادة واحدة هى عبادة القلب، أما هذا الدينُ فعلمتُ من أبى أنه ثلاثُ عبادات يشُــدُّ بعضها بعضًا: إحداها للأعضــاء، والثانيةُ للقلب، والثالثــةُ للنفس؛ فعبادةُ الأعضــاء طهارتُها واعتيادُها الضبــط؛ وعبادةُ القلبِ طهارتُــه وحبُّه الخير؛ وعبادةُ النفــسِ طهارتُها وبذلُها فى ســبيل الإنســانية. وعند أبى أنهم بهذه الأخيرة ســيملكون الدنيا؛ فلــن تُقهر أمةٌ عقيدتُها أن الموتَ أوسع الجانبين وأسعدُهما.

قالت مارية: إن هذا والله لسِرٌّ إلهِىٌّ يدلُّ على نفسه؛ فمن طبيعة الإنسان ألا تنبعثَ نفسُــه غيرَ مباليةٍ الحياةَ والمــوتَ إلا فى أحوال قليلة، تكون طبيعة الإنســان فيها عميــاء: كالغضب الأعمى، والحبّ الأعمى، والتكـُّـبر الأعمى؛ فإذا كانت هذه الأمَّةُ الإســلاميةُ كما قلتِ منبعثةً هذا الانبعاث، ليس فيها إلا الشــعورُ بذاتيتها العالية فما بعد ذلك دليلٌ على أن هذا الدين هو شعورُ الإنسان بسموّ ذاتيتهِ، وهذه هى نهاية النهايات فى الفلسفة والحكمة.

قالت أرمانوسة: وما بعد ذلك دليلٌ على أنك تتهيئين أن تكونى مسلمة يا مارية!

فاسْــتَضْحَكتَا معًا، وقالــت مارية: إنما ألقيت كلاما جاريتُكِ فيه بحَسَــبِه، فأنا وأنتِ فكرتان لا مسلمتان.

***

(١) انظر المقالات النبوية فى صدر الجزء الثانى من هذا الكتاب.

قال الراوى: وانهزم الرومُ عن بُلبيس، وارتـدُّوا إلى المقوقس فى (منَف)، وكان وحيُ أرمانوسـةَ فى ماريةَ مدةَ الحِصار - وهى نحو الشـهر - كأنه فكرٌ سكَنَ فكرًا وتمدَّد فيه؛ فقد مر ذلك الكلامُ بما فى عقلها من حقائق النظر فى الأدب والفلسـفة، فصنع ما يصنعُ المؤلفُ بكتاب ينقِّحه، وأنشأ لها أخْيِلَةً تُجادلها وتدفعها إلى التسليم بالصحيح لأنه صحيح، والمؤكَّدِ لأنه مؤكد.

ومـن طبيعة الكلام إذا أثر فى النفس، أن ينتظـم فى مثل الحقائق الصغيرة التى تُلقَى للحفظ؛ فكان كلامُ أرمانوسـة فى عقل مارية هكذا: «المسيحُ بدءٌ وللبدء تَكْمِلة، ما من ذلك بدّ. لا تكون خدمةُ الإنسـانية إلا بذات عالية لا تبالى غيرَ سموِّها. الأمةُ التى تبذل كل شـىء وتستمسـكُ بالحياة جُبْنًا وحرصًا لا تأخذ شـيئا، والتى تبذل أرواحها فقط تأخذ كل شىء».

وجعلتْ هذه الحقائقُ الإسـلاميةُ وأمثالُها تُعـرّب هذا العقلَ اليونانى؛ فلما أراد عمـرو بن العـاص توجيهَ أرمانوسـةَ إلى أبيها، وانتهى ذلـك إلى ماريةَ قالت لها: لا يَجْمُلُ بمن كانت مثلك فى شـرفها وعقلها أن تكون كالأخِيذة، تَتَوَجَّهُ حيثُ يسارُ بها؛ والرأى أن تبدئى هذا القائدَ قبل أن يبدأك؛ فأرسلى إليه فأعلميه أنك راجعة إلى أبيك، واسـأليه أن يُصْحِبك بعضَ رجاله؛ فتكونى الآمرةَ حتى فى الأسْر، وتصنعى صُنْعَ بناتِ الملوك!

قالت أرمانوسـة: فلا أجد لذلك خيرا منك فى لسـانك ودَهائك؛ فاذهبى إليه من قِبَلى، وسيَصحبُك الراهبُ (شطَا)، وخُذى معك كوكبةً فرساننا.

* * *

قالت ماريةُ وهى تقصُّ على سـيدّتها: لقد أديتُ إليه رسَالَتك، فقال: كيف ظنُّها بنـا؟ قلت: ظنُّها بفعـلِ رجلٌ كريم يأمره اثنان: كرمُه، ودينُـه. فقال: أبلغيها أن نبينا ﷺ قال: «اسْتَوْصُوا بالقبط خيرًا فإن لهم فيكم صِهْرًا وذِمة» وأعلميها أننا لسنا على غارة نُغيرُها، بل على نفوس نُغّيّرُها.

قالت: فَصِفيهِ لى يا مارية.

قالت: كان آتيًا فى جماعة من فرسانه على خيولهم العِراب، كأنها شياطينُ تحمل شـياطينَ من جنسٍ آخر؛ فلما صار بحيث أتبيَّنُه أوْمأ إليه التَّرْجُمَانُ- وهو (وَرْدانُ) مـولاه- فنظرتُ، فإذا هـو على فرَس كُمَيْت أحّمَّ[1] لم يخلُص للأسْـوَدِ ولا للأحمر، طويـلِ العنق مُشْـرِف له ذُؤابــةٌ أعلى ناصيته كطُـرَّةِ المرأة، ذيَّالٍ يتبختر بفارسـه ويُحَمْحِم كأنه يريد أن يتكلم، مُطهَّم..

فقطعت أرمانوسة عليها وقالت: ماسألتكِ صفةَ جودِه...

قالت مارية: أما سلاحُه...

قالت: ولا سِلاحه، صفيه كيف رأيتهِ (هو)!

قالت: رأيتُه قصـيرَ القامةِ علامةَ قوة وصلابة، وافرَ الهامةِ علامةَ عقل وإرادة، أدعجَ العينين...

فضحكت أرمانَوسة وقالت: علامة ماذا؟...

... أبلجَ يُشْرِقُ وجهُه كأنه فيه لألاء الذهب على الضوء، أيِّدًا اجتمعتْ فيه القوَّةُ حتى لتكاد عيناه تأمران بنظرهمـا أمرًا... داهيةً كتِبَ دَهاؤه على جبهته العريضة يجعـل فيها معنىً يأخذ ما يراه، وكلما حاولـتُ أن أتفرسَّ فى وجهِه رأيتُ وجهَه لا يُفسّره إلا تكررُ النظر إليه..

وتضرَّجتْ وجنتاها، فكان ذلك حديثًا بينها وبين عينَىْ أرمانوسة... وقالت هذه: كذلك كلُّ لذة لايفسرها للنفس إلا تكرارُها...

فغضَّـت ماريةُ من طَرْفِها وقالت: هـو والله ما وَصَفْت، وإنى ما ملأتُ عينى منه، وقد كدتُ أنكر أنه إنسان لما اعترانى من هيبته...

قالت أرمانوسة: من هَيبته أم عَينيه الدعجاوَيْن...؟

* * *

---

(١) الكميت الأحم: هو الأحمر الضارب للسـواد، لا يخلص لأحد اللونين، فإذا كان أحمر خالصًا قيل فيه: كميت مذمى (بتشديد الميم الثانية وفتحها).

ورجعـت بنتُ المقوقس إلى أبيها فى صحبة (قَيس)، فلما كانوا فى الطريق وَجَبَت الظُّهر، فنـزل قيسٌ يُصَلىّ بمن معه والفتاتان تنظران، فلما صاحـوا: «الله أكبـر...!» ارتعش قلبُ مارية، وسألت الراهبَ (شطا): ماذا يقولون؟ قال: إن هذه كلمةٌ يدخلون بهـا صلاتَهم، كأنمـا يخاطِبون بها الزمنَ أنهم السـاعةَ فى وقت ليـس منه ولا من دنياهم، وكأنهم يعلنون أنهم بين يدىْ من هو أكبر من الوجود؛ فإذا أعلنوا انصرافَهم عن الوقت ونزاع الوقت وشَهَواتِ الوقت، فذلك هو دخولهم فى الصلاة، كأنهم يَمْحُون الدنيا من النفس سـاعةً أو بعضَ ساعة، ومَحْوُها من أنفسـهم هو ارتفاعُهم بأنفسهم عليها؛ انظرى، ألا تَرَيْنَ هذه الكلمة قد سَحَرَتَهم سِحْرًا فهم لا يلتفتون فى صلاتهم إلى شـىء، وقد شملتهم السـكينة، ورَجَعوا غَير مَن كانوا، وخشَـعوا خشـوع أعظمِ الفلاسفة فى تأملِهم؟ [1].

قالت مارية: ما أجملَ هذه الفطرةَ الفلسفية! لقد تَعِبَت الكتبُ لتجعلَ أهلَ الدنيا يسـتقرُّون سـاعةً فى سـكينة الله عليهم فما أفلحتْ، وجاءت الكنيسة فَهوَّلت على المُصَلين بالزخارف والصُّوَر والتماثيل والألوان، لتُوحِىَ إلى نفوسهم ضربًا من الشعور بسـكينة الجمال وتقديس المعنى الدّينىّ، وهى بذلك تحتال فى نقلهم من جوّهم إلى جوِّها، فكانت كسـاقى الخمـر؛ إن لم يُعطك الخمرَ عَجَزَ عن إعطائك النَّشْـوة. ومن ذا الذى يستطيع أن يحملَ معه كنيسةً على جواد أو حمار؟

قالت أرمانوسة: نعم إن الكنيسة كالحديقة؛ هى حديقةٌ فى مكانها، وقلما تُوحى شـيئا إلا فى موضعها؛ فالكنيسـةُ هـى الجدرانُ الأربعة، أما هـؤلاء فمعبدهم بين جهات الأرض الأربع.

قال الراهب شـطا: ولكن هؤلاء المسـلمين متى فُتِحَتْ عليهم الدنيا وافتتنوا بها وانغمسوا فيها فستكونُ هذه الصلاةُ بعينها ليس فيها صلاةٌ يومئذ.

قالت مارية: وهل تُفتَح عليهم الدنيا، وهل لهم قُوّاد كثيرون كعَمْرو..؟

---

(١) انظر مقالة (حقيقة المسلم) فى الجزء الثانى.

قـال: كيف لا تُفتـح الدنيا على قوم لا يحاربون الأمم بـل يحاربون ما فيها من الظلـم والكفر والرذيلة، وهم خارجـون من الصحراء بطبيعة قوية كطبيعة المَوْج فى المـدّ المرتفع؛ ليس فى دَاخلها إلا أنفُسٌ مندفعـةٌ إلى الخارج عنها، ثم يقاتلون بهذه الطبيعة أمما ليس فى الداخل منها إلا النفوسُ المستعدّةُ أن تهربَ إلى الداخل...!

قالت مارية: والله لكأننا ثلاثَتَنا على دِين عَمرو...

* * *

وانفتل قيسٌ من الصلاة، وأقبل يترحَّل، فلما حاذَى ماريةَ كان عندها كأنما سافر ورجع، وكانت ماتزال فى أحلام قلبها، وكانت من الحُلم فى عالَم أَخَذَ يتلاشى إلا من عَمرو وما يتصل بعمرو. وفى هذه الحياةِ أحوالٌ «ثلاثٌ» يغيب فيها الكونُ بحقائقه: فيغيبُ عن السـكران، والمخبول، والنائم؛ وفيها حالةٌ رابعة يتلاشى فيها الكون إلا من حقيقة واحدة تتمثَّل فى إنسان محبوب.

وقالت مارية للراهب شـطا: سَلْهُ: ما أَرَبُهم من هذه الحرب، وهل فى سياستهم أن يكونَ القائدُ الذى يفتح بلدًا حاكما على هذا البلد...؟

قال قيس: حسبكِ أن تعلمى أن الرجل المسلم ليس إلا رجلاً عاملاً فى تحقيق كلمةِ الله، أما حظُّ نفسهِ فهو فى غير هذه الدنيا.

وترجَـمَ الراهبُ كلامَـه هكذا: أما الفاتحُ فهو فى الأكثـر الحاكم المقيم، الحربُ فهى عندنا الفكرةُ وأما المُصْلِحَةُ تريد أن تَضربَ فى الأرض وتعمل، وليس حظُّ النفس شـيئًا يكون من الدنيا؛ وبهذا تكون النفسُ أكبر مـن غرائزها، وتنقلب معها الدنيا برعُونتها وحماقاتها وشَهَواتها كالطفل بين يدىْ رجل، فيهما قوةُ ضبطِه وتصريفِه. ولو كان فى عقيدتنا أن ثواب أعمالنا فى الدنيا، لانعكس الأمر.

قالت مارية: فَسَـلْهُ: كيف يصنعُ (عمرٌو) بهذه القِلَّةِ التى معهُ والرومُ لا يُحصَى عَدَدُهم، فإذا أخفقَ (عمرو) فمَن عسـى أن يسـتبدلوه منه؟ وهل هـو أكبرُ قُوَّادِهم، أو فيهم أكبرُ منه؟

قال الراوى: ولكن فَرَسَ قيس تمَطَّر وأسرع فى لِحَاقِ الخيل على المقدَّمة كأنه يقول: لَسْنا فى هذا...

* * *

وفُتحتْ مصرُ صُلحًا بين عمرو والقبط، وولَّى الروم مُصْعِدين إلى الإسكندرية، وكانت ماريةُ فى ذلك تستقرئ أخبارَ الفاتح تطوفُ منها على أطلال من شخص بعيد، وكان عمرو من نفسها كالملكة الحصينة من فاتح لا يملكُ إلا حُبَّهُ أن يأخذَها، وجعلت تذوى وشَحَبَ لونُها وبدأت تنظر النظرةَ التائهة، وبان عليها أثر الرُّوح الظَّمْأى، وحاطها اليأسُ بجوِّه الذى يُحرق الدم، وبَدَت مجروحةَ المعانى؛ إذ كان يتقاتلُ فى نفسها الشعوران العَدُوَّان: شعورُ أنها عاشقة، وشعورُ أنها يائسة!

ورقَّتْ لها أرمانوسة، وكانت هى أيضًا تتعلق فتىً رومانيًّا، فسَهِرَتا ليلةً تُديران الرأى فى رسالة تحملها ماريةُ من قبلها إلى عمرو كى تصلَ إليه، فإذا وصلتْ بلَّغت بعينيها رسالةَ نفسها...

واستقرّ الأمرُ أن تكون المسألةُ عن ماريةَ القبطية وخبرها ونسلها وما يتعلَّقُ بها مما يطول الإخبارُ به إذا كان السؤالُ من امرأة عن امرأة. فلما أصبحتا وقَع إليها أن عمرًا قد سار إلى الإسكندرية لقتال الروم، وشاع الخبر أنه لما أمر بفُسْطاطه أن يُقَوَّضَ أصابوا يمامةً قد باضت فى أعلاه، فأخبروه فقال: «قد تَحَرَّمَتْ فى جوارنا، أَقِرُّوا الفسطاطَ حتى تطيرَ فِرَاخُها». فأقَرُّوه!

* * *

ولم يمض غيرُ طويل حتى قضت ماريةُ نحبها، وحَفِظت عنها أرمانوسةُ هذا الشعر الذى أسمته: نشيد اليمامة:

على فُسطاط الأمير يمامةٌ جاثمةٌ تَحْضُن بَيْضهَا.

تركها الأميرُ تَصنعُ الحياة، وذهب هو يَصنعُ الموت!

هى كأسعد امرأة؛ تَرَى وتلمسُ أحلامهَا.

إن سعادة المرأة أولُها وآخرُها بعض حقائق صغيرة كهذا البيض.

* * *

على فسطاط الأمير يمامةٌ جاثمةٌ تحضن بيضَها.
لو سُئلَتْ عن هذا البيض لقالتْ: هذا كَنْزى.
هى كأهنأ امرأة، مَلَكَتْ مِلْكها من الحياة ولم تفتقِر.
هل أُكلّف الوجودَ شيئًا كثيرًا إذا كلَّفْتُهُ رجُلًا واحدًا أحبه!

* * *

على فسطاط الأمير يمامةٌ جاثمةٌ تحضن بيضَها.
الشمسُ والقمرُ والنجوم، كلُّها أصغرُ فى عينها من هذا البيضِ.
هى كأرقّ امرأة؛ عرفت الرّقَّةَ مرتين: فى الحبّ، والولادة.
هل أُكلف الوجود شيئًا كثيرًا إذا أردتُ أن أكون كهذه اليمامة!

* * *

على فسطاط الأمير يمامةٌ جاثمة تحضن بيضَها.
تقول اليمامة: إن الوجودَ يحب أن يُرى بلونين فى عين الأنثى؛
مرةً حبيبًا كبيرًا فى رَجُلها، ومرة حبيبًا صغيرًا فى أولادها.
كلُّ شىء خاضعٌ لقانونه؛ والأنثى لا تريد أن تخضع إلا لقانونها.

* * *

أيتُها اليمامة، لم تعرفى الأميرَ وتركَ لك فسطاطَه!
هكذا الحظّ: عدلٌ مضاعفٌ فى ناحية، وظلمٌ مضاعفٌ فى ناحية أخرى.
احمدى الله أيتُها اليمامة، أنْ ليس عندكم لغاتٌ وأديان،
عندكم فقط: الحبُّ والطبيعةُ والحياة.

* * *

على فسطاط الأمير يمامةٌ جاثمة تحضن بيضَها،
يمامة سعيدة، ستكون فى التاريخ كهُدْهُد سليمان،
نُسِبَ الهدهدُ إلى سليمان، وستُنسب اليمامةُ إلى عمرو.
وآهًا لكَ يا عَمرو! ما ضَرَّ لو عرفْتَ (اليمامة الأخرى)...!

■■■

اجتلاء العيد

جاء يوم العيد؛ يومُ الخروج من الزمن إلى زمنٍ وحدَهُ لا يستمرُّ أكثرَ من يوم.

زمنٌ قصيرٌ ظريــفٌ ضاحك، تفرضُهُ الأديانُ على النــاس، ليكونَ لهم بين الحينِ والحينِ يومٌ طبيعيٌّ فى هذه الحياة التى انتقلت عن طبيعتها. يومُ الســلام، والبِشْر، والضَّحك، والوفاء، والإخاء، وقول الإنسانِ للإنسان: وأنتم بخير.

يــومُ الثيابِ الجديدة على الكل إشــعارًا لهم بأن الوجهَ الإنســانىَّ جديدٌ فى هذا اليوم.

يــومُ الزينة التى لا يراد منها إلا إظهارُ أثَرِها فى النفس ليكونَ الناسُ جميعًا فى يوم حب.

* * *

يومُ العيد؛ يومُ تقديم الحَلوى إلى كل فم لتحلوَ الكلماتُ فيه...

يوم تعُمُّ فيه الناسَ ألفاظ الدعاء والتهنئة مرتفعةً بقوة إلهية فوق منازعات الحياة.

ذلك اليومُ الذى ينظر فيه الإنســانُ إلى نفسه نظرةً تلمحُ السعادة، وإلى أهلِه نظرةً تُبصر الإعزاز، وإلى داره نظرةً تُدرك الجمال، وإلى الناسِ نظرةً ترى الصداقة.

ومن كل هذه النظرات تستوِى له النظرةُ الجميلةُ إلى الحياة والعالَم؛ فتبتهجُ نفسُه بالعالم والحياة.

وما أسماها نظرةً تكشفُ للإنسان أن الكلَّ جمالُه فى الكل!

* * *

وخرجتُ أجتلى العيدَ فى مظهره الحقيقىّ على هؤلاء الأطفال السعداء.

على هذه الوجوهِ النضرة التى كبرَتْ فيها ابتساماتُ الرَّضاع فصارت ضَحِكات.

وهذه العيونِ الحالمةِ التى إذا بكت بكت بدموع لا ثِقْلَ لها.

وهــذه الأفواه الصغيرة التى تنطق بأصوات لاتــزال فيها نبراتُ الحَنان من تقليد لغة الأمّ.

وهــذه الأجســامِ الغضَّةِ القريبةِ العهــد بالضمّات واللثَّمَات فــلا يزال حولها جوُّ القلب.

***

على هؤلاء الأطفال السعداء الذين لا يعرفون قياسا للزمن إلا بالسرور. وكلٌّ منهم مَلكٌ فى مملكة؛ وظَرفُهم هو أمرُهم الملوكى.

هؤلاء المجتمعين فى ثيابهم الجديدة المَصبغَّة اجتماع قَوسِ قُزَحَ فى ألوانه.

ثيــابٌ عَمِلتْ فيها المصانعُ والقلوب، فلا يتم جمالُها إلا بأن يراها الأبُ والأمُّ على أطفالُهما.

ثيابٌ جديدةٌ يلبسونها فيكونون هم أنفسُهم ثوبًا جديدًا على الدنيا.

***

هؤلاء السَّحَرةُ الصغارُ الذين يُخرجون لأنفسهم معنى الكَنزِ الثمين من قرشين...

ويَسْحَرون العيدَ فإذا هو يومٌ صغيرٌ مثلُهم جاء يدعوهم إلى اللَّعِب... وينتبهون فى هذا اليوم مع الفجر، فيبقى الفجرُ على قلوبهم إلى غُروب الشمس.

ويُلْقُون أنفُســهم على العالَم المنظورِ، فيبنون كلَّ شــىء على أحد المعنيين الثابتين فى نفس الطفل: الحبِّ الخالص، واللهو الخالص.

ويبتعدون بطبيعتهم عن أكاذيب الحياة، فيكونُ هذا بعينه هو قُرْبَهَم من حقيقتها السعيدة.

***

هؤلاء الأطفال الذين هم السهولة قبل أن تتعقَّد.

والذين يَروَن العالَم فى أول ما ينمو الخيالُ ويتجاوزُ ويمتدّ.

يُفتّشون الأقدارَ من ظاهرها؛ ولا يَسْتَبْطِنُون كيلا يتألَّموا بلا طائل.

ويأخذون من الأشـياء لأنفسـهم فيفرحون بها، ولا يأخذون من أنفسِهم للأشياء كيلا يُوجِدوا لها الهمّ.

* * *

قانعون يكتفون بالتَّمرة، ولا يحاولون اقتلاعَ الشجرة التى تحملُها.

ويعرفون كُنْه الحقيقة، وهى أن العِبرَةَ بروح النعمة لا بمقدارها...

فيجدون من الفرح فى تغيير ثوب للجسم، أكثر مما يجده القائدُ الفاتحُ فى تغيير ثوب للمملكة.

* * *

هؤلاء الحكماء الذين يُشْبه كل منهم آدمَ أولَ مجيئه إلى الدنيا، حين لم تكن بين الأرض والسماء خليقةٌ ثالثةٌ معقَّدةٌ من صُنع الإنسان المتحضّر.

حِكْمتُهم العليا أن الفكرَ الساميَ هو جعلُ السرورِ فكرًا وإظهارُه فى العمل.

وشِـعْرهم البديعُ أن الجمالَ والحبَّ ليسا فى شيء لا فى تجميل النفس وإظهارها عاشقة للفرح.

* * *

هؤلاء الفلاسـفةُ الذين تقوم فلسفتُهم على قاعدة عملية، وهى أن الأشياء الكثيرةَ لا تكثُر فى النفس المطمئنَّة.

وبذلك تعيشُ النفسُ هادئةً مستريحة كأنْ ليس فى الدنيا إلا أشياؤها المُيَسَّرة.

أما النفوسُ المضطربةُ بأطماعها وشهواتها فهى التى تُبْتَلَى بهموم الكثرة الخيالية، ومثَلُها فى الهمّ مَثَلُ طُفَيْلِيّ مغفَّل يَحزنُ لأنه لا يأكل فى بطنين...

* * *

وإذا لم تكثُر الأشياء الكثيرةُ فى النفس، كَثُرت السعادةُ ولو من قِلَّة.

فالطفلُ يقلِّب عينيه فى نساء كثيرات، ولكن أمَّه هى أجملُهن وإن كانت شَوْهاء.

فأمه وحدَها هى أمُّ قلبِه، ثم لا معنى للكثرة فى هذا القلب.

هذا هو السرُّ؛ خذوه أيها الحكماء عن الطفل الصغير!

وتأملتُ الأطفال، وأثَرُ العيدِ فى نفوسهم التى وَسِعَتْ من البشاشة فوق مِلْئها؛ فإذا لسانُ حالهم يقولُ للكبار: أيتها البهائم، اخلعى أرسانَكِ ولو يومًا...

أيها الناسُ، انطلقوا فى الدنيا انطلاقَ الأطفال يوجِدون حقيقتَهم البريئةَ الضاحكة، لا كما تصنعون إذ تنطلقون انطلاق الوحش يُوجِد حقيقته المفترسة.

أحرارٌ حرِّيَّةَ نشاطِ الكون ينبعث كالفوْضَى، ولكن فى أدقّ النواميس.

يُثيرون السخطَ بالضَّجيج والحركة، فيكونون مع الناس على خِلاَف، لأنهم على وِفَاق مع الطبيعة.

وتَحتدمُ بينهم المعارك، ولكن لا تتحطَّم فيها إلا اللُّعَب...

أما الكِبارُ فيصنعون المِدْفَعَ الضخمَ من الحديد، للجسمِ الليّنِ من العَظْم.

أيتها البهائمُ، اخلعى أرسانَكِ ولو يومًا...

* * *

لا يفرح أطفالُ الدار كفرحهم بطفل يُولد؛ فهم يستقبلونه كأنه محتاجٌ إلى عقولهم الصغيرة.

ويملؤهم الشعورُ بالفرح الحقيقى الكامن فى سر الْخَلْقِ، لقُرْبهم من هذا السر.

وكذلك تحمل السنَةُ ثم تلد للأطفال يومَ العيد؛ فيستقبلونه كأنه محتاج إلى لهوِهم الطبيعى. ويملؤهم الشعوُر بالفرح الحقيقى الكامن فى سر العالم لقربهم من هذا السر.

* * *

فيا أسَفنَا علينا نحن الكِبار! ما أبْعدَنَا عن سرّ الْخَلقِ بآثام العمر!

وما أبعدنا عن سر العالَم، بهذه الشهوات الكافرة التى لا تؤمن إلا بالمادة!

يا أسَفًا علينا نحن الكبار! ما أبعدنا عن حقيقة الفرح!

تكاد آثامُنا واللهِ تجعلُ لنا فى كل فَرْحَة خَجْلَة...

* * *

أيتها الرياضُ المنوّرَةُ بأزهارها،
أيتها الطيورُ المغرّدةُ بألحانها،
أيتها الأشجارُ المصفقِّة بأغصانها،
أيتها النجوم المتلألئة بالنور الدائم،
أنتِ شَتَّى؛ ولكنكِ جميعًا فى هؤلاء الأطفال يوم العيد!

■■■

المعنى السياسى فى العيد

ما أشدّ حاجَتنا نحن المسلمين إلى أن نفهم أعيادَنا فهما جديدا، نتلقاها به ونأخذُها من ناحيته، فتجيء أيامًا سعيدة عاملةً، تنبّه فينا أوصافَها القوية، وتجدّد نفوسَنا بمعانيها، لا كما تجيء الآن كالِحةً عاطلةً ممسوحةً من المعنى، أكبرُ عملها تجديدُ الثياب، وتحديدُ الفراغ، وزيادةُ ابتسامةٍ على النفاق...

فالعيدُ إنما هو المعنى الذى يكون فى اليوم لا اليومُ نفسُه، وكما يفهمُ الناسُ هذا المعنى يتلقون هذا اليوم، وكان العيد فى الإسلام هو عيدَ الفكرة العابدة، فأصبح عيدَ الفكرة العابثة، وكانت عبادةُ الفكرة جمْعَها الأمةَ فى إرادة واحدة على حقيقة عملية، فأصبح عَبَثُ الفكرة جمعَها الأمةَ على تقليدٍ بغير حقيقة؛ له مظهرُ المنفعة وليس له معناها.

كان العيدُ إثباتَ الأمة وجودَها الروحانى فى أجمل معانيه، فأصبح إثباتَ الأمةِ وجودَها الحيوانى فى أكثر معانيه، وكان يومَ استرواح القوة من جِدّها، فعاد يومَ استراحِة الضعفِ من ذُله، وكان يومَ المبدأ، فرجع يومَ المادة!

* * *

ليس العيدُ إلا إشعارَ هذه الأمة بأن فيها قوةَ تغيير الأيام، لا إشعارها بأن الأيام تتغير، وليس العيدُ للأمة إلا يومًا تعرض فيه جمالَ نظامِها الاجتماعى، فيكون يومَ الشعور الواحد فى نفوس الجميع، والكلمة الواحدة فى ألسنة الجميع، يومَ الشعور بالقدرة على تغيير الأيام، لا القدرةِ على تغيير الثياب... كأنما العيدُ هو استراحةُ الأسلحة يوما فى شعبها الحربى.

وليس العيدُ إلا تعليمَ الأمة كيف تتسع روحُ الجِوار وتمتدّ، حتى يرجعَ البلدُ العظيمُ وكأنه لأهله دارٌ واحدة يَتحقق فيها الإخاء بمعناه العَملى، وتظهرُ فضيلة

الإخلاص مُسْتَعْلِنةً للجميع، ويُهدى الناسُ بعضُهم إلى بعض هدايا القلوب المخلصة المحبة؛ وكأنما العيدُ هو إطلاقُ روح الأسرَةِ الواحدة فى الأمة كلها.

وليس العيدُ إلا إظهارَ الذاتية الجميلة للشعب مهزوزةً من نشاط الحياة، ولا ذاتيةَ للأمم الضعيفة، ولا نشاطَ للأمم المستَعبَدة. فالعيدُ صوتُ القوة يهتف بالأمة: أخرجى يومَ أفراحك، أخرِجى يومًا كأيام النصر!

وليس العيدُ إلا إبرازَ الكُتلة الاجتماعية للأمة متميزة بطابعها الشَّعبى، مفصولةً من الأجانب، لابسةً من عمل أيديها، معلنةً بِعيدها استقلالَين فى وجودها وصناعتها، ظاهرةً بقوتين فى إيمانها وطبيعتها، مبتهجة بفرحَين فى دُورها وأسواقها؛ فكأن العيدَ يومٌ يفرح الشعب كله بخصائصه.

وليس العيد إلاّ التقاء الكبار والصغارِ فى معنى الفرح بالحياة الناجحة المتقدمة فى طريقها، وتركَ الصغار يلقون دَرسَهم الطبيعى فى حماسة الفَرح والبهجة، ويعلّمون كبارَهم كيف تُوضَع المعانى فى بعض الألفاظ التى فَرَغَتْ عندهم من معانيها، ويُبَصّرُونهم كيف ينبغى أن تعملَ الصفاتُ الإنسانيةُ فى الجموع عملَ الحَلِيف لحليفه، لا عملَ المُنابِذ لمُنابِذه؛ فالعيدُ يومُ تسلُّط العنصر الحىّ على نفسية الشعب.

وليس العيدُ إلا تعليمَ الأمة كيف توجِّه بقوتها حركةَ الزمن إلى معنى واحد كلما شاءت؛ فقد وضع لها الدينُ هذه القاعدةَ لتُخرّجَ عليها الأمثلة، فتجعلَ للوطن عيدًا ماليًّا اقتصاديًّا تبتسم فيه الدراهم بعضُها إلى بعض، وتخترع للصناعة عيدَها، وتوجد للعلم عيدَه، وتبتدع للفن مَجَالَى زينته؛ وبالجملة تُنشئ لنفسها أياما تعمل عمل القُوَّاد العسكريِّين فى قيادة الشعب، يقودُه كلّ يوم منها إلى معنى من معانى النصر.

***

هذه المعانى السياسيةُ القوية هى التى من أجلها فُرض العيدُ ميراثًا دهريًّا فى الإسلام، ليستخرجَ أهلُ كل زمن من معانى زمنهم فيُضيفوا إلى المِثال أمثلةً مما يُبدعه نشاطُ الأمة، ويحققه خيالُها، وتقتضيه مصالحُها.

وما أحسب الجمعةَ قد فُرِضت على المسلمين عيدًا أسبوعيًّا يُشترط فيه الخطيبُ والمِنبر والمسجدُ الجامع إلا تهيئةً لذلك المعنى وإعدادًا له؛ ففى كل سبعة أيام مسلمة يومٌ يجىء فيُشْعِرُ الناسَ معنى القائد الحربى للشعب كله.

ألا ليت المنابر الإسلاميةَ لا يخطب عليها إلا رجالٌ فيهم أرواحُ المدافع، لا رجالٌ فى أيديهم سيوف من خشب[1]...

■■■

(١) انظر (قصة الأيدى المتوضئة) فى الجزء الثانى من هذا الكتاب.

الربيع

خرجتُ أشهَدُ الطبيعةَ كيف تُصبح كالمعشوق الجميل، لا يقدّم لعاشقه إلا أسبابَ حبهَ!

وكيف تكونُ كالحبيب، يزيدُ فى الجسم حاسَّةَ لمسِ المعانى الجميلة!

وكنتُ كالقلب المهجور الحزين، وجد السماء والأرض، ولم يجد فيهما سماءه وأرضَه.

ألاَ كم آلاف السنينَ وآلافِها قد مضت منذُ أُخرج آدمُ من الجنة! ومع ذلك فالتاريخُ يعيد نفسَه فى القلب؛ لا يَحزنُ هذا القلبُ إلا شعر كأنه طُرِدَ من الجنة لساعته.

* * *

يقف الشاعرُ بإزاء جمال الطبيعة، فلا يملك إلا أن يتدفَّقَ ويهتزَّ ويطرَب.

لأن السرَّ الذى انْبَثَقَ هنا فى الأرض، يريد أن ينبثقَ هناك فى النفس.

والشاعرُ نبىُّ هذه الديانة الرقيقة التى من شريعتها إصلاحُ الناسِ بالجمال والخير.

وكل حُسن يلتمس النظرةَ الحيةَ التى تراه جميلاً لتُعْطِيَه معناه.

وبهذا تقف الطبيعة مُحْتَفِلَةً أمام الشاعرِ، كوقوف المرأة الحسناء أمامَ المصور.

* * *

لاحت لى الأزهارُ كأنها ألفاظُ حب رقيقةٌ مُغَشَّاةٌ باستعارات ومَجازات.

والنسيم حولها كثوب الحسناء على الحسناء، فيه تعبيرٌ من لابِسَتِه.

وكلُّ زهرة كابتسامة، تحتها أسرارٌ من معانى القلب المعقَّدة.

أهى لغةُ الضوء الملوَّن من الشمس ذاتِ الألوان السبعة؟

أم لغة الضوء الملوَّنِ من الخد، والشفة، والصدر، والنحر، والدّيباج، والحِلَى؟

* * *

وماذا يفهم العشاقُ من رموز الطبيعة فى هذه الأزاهر الجميلة؟

أتُشير لهم بالزهر إلى أن عُمرَ اللذة قصير، كأنها تقول: على مقدار هذا؟

أتُعْلمهم أن الفرقَ بين جميل وجميل، كالفرق بين اللونِ واللون، وبين الرائحة والرائحة؟

أتُناجيهم بأن أيامَ الحب صُوَرُ أيام لا حقائق أيام؟

أم تقولُ الطبيعة: إن كلَّ هذا لأنكِ أيتها الحشراتُ لا تنخدعين إلا بكل هذا[1] ...؟

***

فى الربيع تظهرُ ألوانُ الأرض على الأرض، وتظهر ألوانُ النفس على النفس. ويصنع الماء صُنْعَه فى الطبيعة فتُخْرِجُ تَهاويلَ النبات، ويصنع الدمُ صنعَه فيُخرج تهاويلَ الأحلام، ويكون الهواء كأنه من شِفاه متحابَّة يتنفَّس بعضُها على بعض، ويعود كلُّ شيء يلتمع لأن الحياةَ كلَّها يَنْبِضُ فيها عِرْقُ النور، ويرجع كلُّ حيّ يُغَنّى لأن الحبَّ يُريد أن يرفع صوتَه.

***

وفى الربيع لا يضىء النورُ فى الأعين وحدها، ولكن فى القلوب أيضًا.

ولا ينفذُ الهواء إلى الصدور فقط، ولكن إلى عواطفها كذلك.

ويكون للشمس حرارتان إحداهما فى الدم.

ويطغَى فَيَضَانُ الجمال كأنما يراد من الربيع تَجْرِبَةُ مَنْظَر من مناظر الجنة فى الأرض.

والحيوانُ الأعجمُ نفسهُ تكونُ له لفَتَاتٌ عقليةٌ فيها إدراك فلسفةِ السرور والمَرح.

وكانت الشمسُ فى الشتاء كأنها صورةٌ معلَّقةٌ فى السحاب.

وكان النهارُ كأنه يضىء بالقمر لا بالشمس.

وكان الهواء مع المطر كأنه مطرٌ غيرُ سائل.

---

(١) ثبت أن ألوان الأزهار وعطرها وما فى ظاهرها وباطنها كل ذلك لاجتذاب الحشرات إليها كى تنقل اللقاح من زهرة إلى زهرة.

وكانت الحياة تضع فى أشياء كثيرة معنى عُبوس الجوّ.

فلما جاء الربيع كان فرحُ جميع الأحياء بالشمس كفرح الأطفالِ رجعتْ أمُّهم من السفَر.

* * *

وينظر الشبابُ فتظهرُ له الأرض شابَّة.

ويشعر أنه موجودٌ فى معانى الذات أكثر مما هو موجودٌ فى معانى العالَم.

وتمتلئ له الدنيا بالأزهار، ومعانى الأزهار، ووحْى الأزهار.

وتُخرِج له أشعةُ الشمس ربيعًا وأشعةُ قلبِه ربيعًا آخر.

ولا تنسى الحياة عجائزَها، فربيعُهم ضوء الشمس...

* * *

ما أعجَبَ سرّ الحياة! كلُّ شجرة فى الربيع جمالٌ هندسيٌّ مستقل.

ومهما قطعتَ منها وغيرتَ من شكلها أبرزتْها الحياةُ فى جمال هندسيّ جديد كأنك أصلحتَها.

ولو لم يبق منها إلا جِذْرٌ حيّ أسرعت الحياةُ فجعلت له شكلاً من غصون وأوراق.

الحياة الحياة. إذا أنت لم تُفسدها جاءتك دائمًا هداياها.

وإذا آمنتَ لم تَعُدْ بمقدار نفسك، ولكن بمقدار القوة التى أنت بها مؤمن.

* * *

﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ ﴾ سورة الروم الآية ٥٠.

وانظر كيف يخلُق فى الطبيعة هذه المعانىَ التى تبهج كلّ حيّ، بالطريقة التى يفهمُها كلُّ حى.

وانظر كيف يجعلُ فى الأرض معنى السرور، وفى الجو معنى السعادة.

وانظر إلى الحشَرة الصغيرة كيف تؤمن بالحياة التى تملؤها وتطمئن؟

انظر انظر ! أليس كل ذلك ردًّا على اليأس بكلمة: لا... ؟

عرش الورد (*)

كانت جَلوَةُ العَروس كأنها تصنيفٌ من حُلم، توافَتْ عليه أخيلة السعادة فأبدعت إبداعَها فيه، حتى إذا اتَّسقَ وتمّ، نقلته السعادةُ إلى الحياة فى يوم من أيامها الفَرْدَةِ التى لا يتفق منها فى العمر الطويل إلا العددُ القليل، لتُحَقّق للحىّ وجودَ حياته بسحرها وجمالها، وتعطيه فبما يُنسَى مالا يُنسى.

خرج الحُلم السعيدُ من تحت النوم إلى اليقظة، وبرز من الخيال إلى العين، وتمثّلَ قصيدةً بارعةً جعلت كل ما فى المكان يحيا حياةَ الشعر؛ فالأنوارُ نِساء، والنساء أنوار، والأزهار أنوار ونساء، والموسيقى بين ذلك تتمّم من كل شىء معناه، والمكانُ وما فيه، وزْن فى وزن، ونَغَم فى نغم، وسحرٌ فى سحر.

* * *

ورأيتُ كأنما سُحِرَتْ قطعةٌ من سماء الليل، فيها دَارةُ القمر، وفيها نَثْرَهُ من النجوم الزُّهْر، فنزلتْ فحلَّت فى الدار، يتوضَّحْن ويأتَلِقن من الجمال والشعاع، وفى حسن كل منهن مادة فجر طالع، فكنَّ نساء الجلوة وعَروسَها.

ورأيتُ كأنما سُحر الربيع، فاجتمع فى عرش أخضر، قد رُصّع بالورد الأحمر، وأقيم فى صدر البَهْوِ ليكون مِنَصَّةً للعروس، وقد نُسِقَت الأزهارُ فى سمائه وحواشيه على نظْمين: منهما مُفَصَّلٌ ترى فيه بين الزَّهرتين من اللون الواحد زهرةً تخالف لونَهما، ومنهما مُكَدَّسٌ بعضُه فوق بعض، من لون متشابه أو متقارب، فبدا كأنه عُشُّ طائر مَلَكىّ من طيور الجنة أبدع فى نَسْجه وترصيعِه بأشجار سقى الكَوْثَرُ أغصانَها.

(*) يصف المؤلف فى هذه القطعة زفاف ابنته «وهيبة» إلى ابن عمها وهى أول من تزوج من ولده، وانظر «عمله فى الرسالة» من كتابنا (حياة الرافعى).

وقامت في أرض العرش تحت أقدام العروسين، رَبْوَتان من أفانينِ الزهر المختلفةِ ألوانهُ، يحملُهما خَمْلٌ من ناعم النّسيج الأخضر على غصونه اللُّدْن تَتَهافَتُ من رقتها ونُعومتها.

وعُقِـدَ فوق هذا العرش تاجٌ كبيرٌ من الورد النادر، كأنما نُزع عن مَفْرِق مَلِك الزمن الربيعى، وتنظر إليه يسطع فى النور بجماله الساحر، سُطوعا يخيّل إليك أن أشعةً من الشمس التى رَبَّتْ هذا الوردَ لا تزال عالِقةً به، وتراه يزدهى جَلالاً، كأنما أدرك أنـه فى موضعه رمزُ مملكة إنسـانية جديدة، تألفت من عَروسـين كريمين. ولاح لى مـرارًا أن التاجَ يضحكُ ويسـتحى ويتدلّل، كأنما عرف أنه وحـده بين هذه الوجوه الحسان يمثل وجهَ الوَرد.

ونُصَّ على العرش كرسـيان يتوهج لونُ الذهب فوقهما، ويكسـوهما طِرازٌ أخضرُ تلمع نَضَارتُه بِشرًا، حتى لتحسب أنه هو أيضًا قد نالته من هذه القلوب الفرِحة لمسةٌ من فرَحها الحىّ.

وتدلَّـت على العرش قلائدُ المصابيح، كأنها لؤلؤٌ تخلَّق فى السـماء لا فى البحر، فجاء من النور لا من الدُّر، وجاء نورًا من خاصّته أنه متى اسـتضاء فى جوّ العَروس أضاء الجو والقلوب جميعًا.

وأتى العروسـان إلى عرش الورد، فجلسا جِلْسَةَ كوكبين حدودهُما النورُ والصفاء، وأقبلـت العَذَارى يتخطَّرْنَ فى الحرير الأبيض كأنه من نُور الصبح، ثم وقفن حافَّات حـول العرش، حاملات فـى أيديهن طاقات من الزَّنبق، تراهـا عَطِرةً بيضاء ناضرة حَيِيَّـة، كأنها عَذارى مع عَذارى، وكأنما يحملن فـى أيديهن من هذا الزنبق الغضّ معانى قلوبهـنَّ الطاهرة، هذه القلوبِ التى كانت مـع المصابيح مصابيح أخرى فيها نورُهـا الضاحك. واقتعدَتْ دَرَجَ العرش تحت رَبْوَتى الزَّهر ودون أقدام العروسـين، طفلةٌ صغيرةٌ كالزهرة البيضاء تحملُ طفولتها، فكانت من العرش كلّه كالماسـة المدلاَّة من واسطة العقْد، وجعلت بوجهها للزهر كلّه تمامًا وجمالًا، حتى ليظهر من دونها كأنه غَضبانُ مُنْزَوٍ لا يريد أن يُرَى.

وكان ينبعث من عينيها فيما حولها تيارٌ من أحلام الطفولة جعل المكانَ بمن فيه كأن له روحَ طفل بَغتته مَسرَّةٌ جديدة.

وكانت جالسةً جِلْسَةَ شِعْرٍ تمثل الحياةَ الهنيئةَ المبتكَرة لساعتها ليس لها ماض في دنيانا.

ولو أن مُبْدِعًا افتَنَّ فى صُنع تمثال للنية الطاهرة، وجىء به فى مكانها، وأخِذَتْ هى فى مكانه لتشابها وتشاكَل الأمر.

وكان وُجودُها على العرش دعوةً للملائكة أن تَحْضُرَ الزفافَ وتباركَه.

وكانت بِصِغَرِها الظريف الجميلِ تعطى لكل شىء تماما، فيُرَى أكبرَ مما هو، وأكثرَ مما هو فى حقيقته. كانت النقطةَ التى استعلنتْ فى مركز الدائرة، ظهورُها على صِغَرِها هو ظهورُ الإحكام والوزنِ والانسجام فى المحيط كلّه.

***

لا يكون السرورُ دائما إلا جديدًا على النفس، ولا سرورَ للنفس إلا من جديد على حالة من أحوالها؛ فلو لم يكن فى كل دينار قوةٌ جديدةٌ غيرُ التى فى مثله لما سُرّ بالمال أحد، ولا كان له الخطرَ الذى هُوَ له، ولو لم يكن لكل طعام جوعٌ يُورِدُه جديدًا على المعدة لما هَنَأ ولا مَرَأ، ولو لم يكن الليلُ بعد نهار، والنهارُ بعد ليل، والفصول كلها نقيضًا على نقيضه، وشيئًا مختلفًا على شىء مختلف لما كان فى السماء والأرض جمال، ولا منظَرُ جمال، ولا إحساسٌ بهما؛ والطبيعةُ التى لا تُفلح فى جعلك معها طفلا تكون جديدًا على نفسك لن تُفلح فى جعلك مسرورًا بها لتكون هى جديدةً عليك.

وعرشُ الورد كان جديدًا عند نفسى على نفسى، وفى عاطفتى على عاطفتى، ومن أيامى على أيامى؛ نزل صباحُ يومِه فى قلبى بروح الشمس، وجاء مساء ليلته لقلبى برُوح القمر، وكنتُ عنده كالسماء أتلألأ بأفكارى كما تتلألأ بنجومها، وقد جعلتنى أمتدُّ بسرورى فى هذه الطبيعة كلّها، إذ قَدَرْتُ على أن أعيشَ يومًا فى نفسى، ورأيتُ وأنا فى نفسى أن الفرحَ هو سر الطبيعة كلها، وأن كلَّ ما خلق الله جمالٌ فى جمال،

فإنه تعالى نورُ السموات والأرض، وما يجيء الظلام مع نوره، ولا يجيء الشُّر مع أفراح الطبيعة إلا من محاولة الفكر الإنسانى خَلْقَ أوهامِه فى الحياة، وإخراجِه النفسَ من طبائعها، حتى أصبح الإنسانُ كأنما يعيش بنفس يحاول أن يصنعَها صناعة، فلا يصنع إلا أن يَزيغَ بالنفس التى فطرها الله.

يا عجبا! ينفرُ الإنسانُ من كلمات الاستعباد، والضعَّةَ، والذّلة، والبؤس، والهم، وأمثالها، وينكرها ويردّها، وهو مع ذلك لا يبحث لنفسه فى الحياة إلا عن معانيها.

* * *

إن يومًا كيوم عرش الورد لا يكون من أربع وعشرين ساعة، بل من أربعة وعشرين فرحًا؛ لأنه من الأيام التى تجعل الوقتَ يتقدم فى القلب لا فى الزمن، ويكونُ بالعواطف لا بالساعات، ويتواتر على النفس بجديدها لا بقديمها.

كان الشبابُ فى موكب نصره، وكانت الحياةُ فى ساعةِ صُلْح مع القلوب، حتى اللغةُ نفسها لم تكن تُلقى كلماتها إلا ممتلئةً بالطرب والضحك والسعادة، آتيةً من هذه المعانى دون غيرها، مُصَوّرَةً على الوجوه إحساسَها ونَوازعَها، وكلُّ ذلك سِحْرُ عرش الورد، تلك الحديقة الساحرةِ المسحورةِ، التى كانت النسماتُ تأتى من الجو ترفرفُ حولها متحيرةً كأنما تتساءل: أهذه حديقةٌ خُلِقَت بطيور إنسانية؛ أم هى شجرة ورد من الجنة بمن يتفيَّأنَ ظلَّها ويَتنسَّمْنَ شذَاها من الْحُور؛ أم ذاك منبعٌ ورديٌّ عطريّ نُورانيّ لحياة هذه الملِكة الجالسة على العرش؟

يا نَسَمَاتِ الليلِ الصافيةَ صفاء الخير، أسأل الله أن تنبع هذه الحياةُ المقبلة فى جمالها وأثرها وبركتها من مثل الورد الْمُبْهِج، والعطرِ المنعش، والضوء الْمُحْيى؛ فإن هذه العروسَ المعتليةَ عرشَ الورد:

هى ابنتى...

■■■

أيها البحر![*]

إذا احْتَـدَمَ الصيـفُ، جعلـتَ أنت أيُّهـا البحـرُ[1] للزمن فصلا جديدًا يسـمى «الربيعَ المائى».

وتنتقِلُ إلى أيامِك أرواحُ الحدائق، فتنبتُ فى الزمن بعضُ الساعاتِ الشهيَّةِ كأنها الثمرُ الحُلوُ الناضجُ على شجره.

ويُوحـى لونُكَ الأزرقُ إلى النفوس ما كان يوحيه لونُ الربيع الأخضر، إلا إنه أرقُّ وألطف.

ويرى الشعراء فى ساحلك مثلَ ما يرَوْن فى أرض الربيع، أنوثةً ظاهرة، غير أنها تلدُ المعانىَ لا النبات.

ويُحِسُّ العشاقُ عندك ما يُحسُّونه فى الربيع: أن الهواء يتأوَّه...

* * *

فـى الربيع، يتحرك فى الدم البشـرىّ سـرُّ هذه الأرض، وعنـد «الربيع المائى» يتحرك فى الدم سرُّ هذه السُّحُب.

نوعان من الخمر فى هواء الربيع وهواء البحر، يكون منهما سكرٌ واحدٌ من الطرَب.

وبالربيعَـيْن الأخضـرِ والأزرقِ ينفتح بابان للعالم السـحرىّ العجيب: عالم الجمال الأرضىّ الذى تدخله الروحُ الإنسانية كما يدخلُ القلبُ المحب فى شعاع ابتسامةٍ ومعناها.

* * *

فى «الربيع المائى»، يجلسُ المرء، وكأنه جالسٌ فى سحابة لا فى الأرض.

ويشعرُ كأنه لابسٌ ثيابًا من الظلّ لا من القماش، ويجدُ الهواء قد تنزَّه عن أن يكون هواء التراب.

(*) كتبها فى مصيفه بالإسكندرية.

(١) كتبنا فى (أوراق الورد) رسالة عن البحر والحب فيها أوصاف كثيرة للبحر.

وتخِفُ على نفســه الأشـياء، كأن بعضَ المعانى الأرضيةِ انتُزعتْ من المادة. وهنا يدركُ الحقيقة: إن السرورَ إن هو إلا تنبُّهُ معانى الطبيعةَ فى القلب.

* * *

وللشمس هنا معنى جديدٌ ليس لها هناك فى «دنيا الرزق».

تُشـرقُ الشمسُ هنا على الجسم، أما هناك فكأنما تطلُعُ وتَغرُبُ على الأعمال التى يعملُ الجسمُ فيها.

تطلعُ هناك على ديوان الموظف لا الموظف، وعلى حانوت التاجر لا التاجر، وعلى مصنَع العامل، ومدرسة التلميذ، ودار المرأة.

تطلع الشمسُ هناك بالنور، ولكنّ الناسَ – وآسفاه – يكونون فى ساعاتهم المظلمة...

الشـمسُ هنا جديدة، تُثبتُ أن الجديدَ فى الطبيعة هو الجديدُ فى كيفية شـعور النفس به.

* * *

والقمرُ زاه رفَّافٌ من الحسْن، كأنه اغتسل وخرج من البحر.

أو كأنه ليس قمرًا، بل هو فجرٌ طلَع فى أوائل الليل؛ فحصرَته السـماء فى مكانه ليستمرَّ الليل.

فجرٌ لا يُوقظ العيونَ من أحلامها، ولكنه يُوقظُ الأرواحَ لأحلامها.

ويُلقى من سحره على النجوم فلا تظهر حوله إلا مُسْتَبْهِمةً كأنها أحلامٌ معلَّقة.

للقمر هنا طريقةٌ فى إبهاج النفس الشـاعرة، كطريقة الوجه المعشـوق حين تقبّله أولَ مرة.

* * *

و«للربيع المائى» طيورُه المغرّدة وفَراشُه المتنقّل:

أما الطيورُ فنساء يَتَضَاحَكْنَ، وأما الفَراشُ فأطفالٌ يتواثبون.

نساء إذا انغمَسْنَ فى البحر، خُيّلَ إلىّ أن الأمواجَ تَتَشاحنُ وتتخاصَمُ على بعضهن...

رأيتُ منهن زهراء فاتنةً قد جلست على الرمل جِلْسَةَ حوّاء قبل اختراع الثياب، فقال البحر: يا إلهى! قد انتقل معنى الغَرَق إلى الشاطئ...

إن الغريقَ مَن غَرِقَ فى مَوْجة الرملِ هذه...

* * *

والأطفالُ يلعبون ويصرُخون ويضِجُّون كأنما اتسعت لهم الحياةُ والدنيا.

وخُيّل إليهم أنهم أقلقوا البحر كما يُقلقون الدار، فصاح بهم: ويحكم يا أسماكَ التراب.....! ورأيتُ طفلًا منهم قد جاء فَوَكَزَ البحر برِجْله! فضحك البحر وقال: انظروا يا بنى آدم!!

أعَلَى الله أن يَعْبَأ بالمغرور منكم إذا كَفَر به؟ أعَلَيّ أن أعبأ بهذا الطفل كيلا يقولَ إنه ركلَنى برجله....؟

* * *

أيها البحر، قد ملأتْك قوةُ الله لتُثبِتَ فراغَ الأرضِ لأهل الأرض.

ليس فيك ممالكُ ولا حدود، وليس عليك سلطانٌ لهذا الإنسان المغرور.

وتجيش بالناس وبالسفُنِ العظيمة، كأنك تحمل من هؤلاء وهؤلاء قشًّا ترمى به.

والاختراعُ الإنسانىُّ مهما عَظُم لا يُغْنى الإنسانَ فيك عن إيمانه.

وأنت تملأ ثلاثةَ أرباع الأرض بالعظَمَةَ والهوْل، ردًّا على عَظمة الإنسان وهوله فى الربع الباقى؛ ما أعظمَ الإنسانَ وأصغره!

* * *

ينزل فى الناس مائك فيتساوَوْن حتى لا يختلفَ ظاهرٌ عن ظاهر.

ويركبون ظهرَك فى السفُن فيحِنُّ بعضُهم إلى بعض حتى لا يختلف باطنٌ عن باطن.

تُشعرهم جميعًا أنهم خرجوا من الكُرة الأرضية ومن أحكامِها الباطلة.

وتُفقرهم إلى الحب والصداقة فقرًا يُريهم النجومَ نفسها كأنها أصدقاء، إذ عرفوها فى الأرض.

يا سحرَ الخوف، أنت أنت فى اللُّجَّة كما أنت أنت فى جهنم.

***

وإذا ركبك المُلْحِدُ أيها البحر، فرَجَفْتَ من تحته، وهَدَرْتَ عليه وثُرْتَ به، ورأيتَهُ رأى العين كأنه بين سماءين ستنطبقُ إحداهما على الأخرى فَتُقْفِلَان عليه، تركته يَتَطأْطَأ ويتواضع، كأنك تهزُّه وتهزُّ أفكاره معًا، وتُدَحْرِجُهُ وتدحرجُها.

وأطَرْتَ كلَّ ما فى عقله فيلجأ إلى الله بعقل طفل.

وكشفت له عن الحقيقة: إن نسيانَ الله ليس عمَلَ العقل، ولكنه عملُ الغَفلة والأمنِ وطولِ السلامة.

***

ألا ما أشبَه الإنسانَ فى الحياة بالسفينة فى أمواج هذا البحر!

إن ارتفعت السفينةُ، أو انخفضتْ، أو مادتْ، فليس ذلك منها وحدَها، بل مما حولها.

ولن تستطيع هذه السفينةُ أن تملكَ من قانون ما حولها شيئًا، ولكن قانونَها هو الثباتُ، والتوازنُ، والاهتداء إلى قصدها، ونجاتُها فى قانونها.

فلا يَعْتِبَنَّ الإنسانُ على الدنيا وأحكامها، ولكن فليجتهدْ أن يحكم نفسَه.

■■■

فى الربيع الأزرق[1]

خواطر مرسلة (*)

ما أجمل الأرضَ على حاشـيةِ الأزرقَيْن البحرِ والسـماء، يكادُ الجالسُ هنا يظنُّ نفسَه مرسومًا فى صورة إلهية.

* * *

نظـرتُ إلى هذا البحر العظيم بعينَـىْ طفل يتخيل أن البحرَ قد مُلِئ بالأمس، وأن السماء كانت إناء له، فانكفأ الإناء فاندفَق البحر، وتَسرَّحْتُ مع هذا الخيال الطفلىّ الصغير فكأنما نالنى رَشاشٌ من الإناء....

إننـــا لن ندركَ رَوعةَ الجمال فى الطبيعة إلا إذا كانت النفسُ قريبةً من طفولتها، ومرَح الطفولةِ، ولَعبِها، وهَذَيانِها.

* * *

تبدو لك السماء على البحر أعظمَ مما هى، كما لو كنتَ تنظر إليها من سماء أخرى لا من الأرض.

* * *

إذا أنا سافرتُ فجئتُ إلى البحر، أو نزلتُ بالصحراء، أو حللتُ بالجبل، شعرتُ أولَ وَهْلَة من دهشـــة السرور بما كنت أشعر بمثله لو أن الجبلَ أو الصحراء أو البحرَ قد سافرتْ هى وجاءت إلىّ.

* * *

(*) كتبها فى مصيفه بالإسكندرية.

(١) هذه تسمية جديدة للمصيف على ساحل البحر، وقد شاع استعمالها بعد نشر هذه المقالة.

في جمال النفس يكون كلُّ شيء جميلًا؛ إذ تُلقى النفسُ عليه من ألوانها، فتنقلب الدارُ الصغيرةُ قصرًا لأنها في سَعَة النفس لا في مساحتها هي، وتَعرفُ لنور النهار عُذوبـةً كعذوبة الماء على الظمأ، ويظهر الليلُ كأنه معرضُ جواهرَ أقيم للحور العِين في السماوات، ويبدو الفجرُ بألوانه وأنواره ونسماتِه كأنه جنةٌ سابحةٌ في الهواء.

في جمال النفس ترى الجمالَ ضرورةً من ضرورات الخليقة؛ وَىْ كأن الله أمرَ العالَم ألا يَعبَسَ للقلب المبتسم.

* * *

أيامُ المصيف هي الأيامُ التي ينطلق فيها الإنسانُ الطبيعيُّ المحبوسُ في الإنسان؛ فيرتدُّ إلى دهره الأول، دهرِ الغابات والبحار والجبال.

إن لم تكن أيامُ المصيف بمثل هذا المعنى، لم يكن فيها معنى.

* * *

ليست اللذةُ في الراحة ولا الفراغ، ولكنها في التعب والكَدْح والمشقة حين تتحولُ أيامًا إلى راحة وفراغ.

* * *

لا تتمُّ فائدةُ الانتقال من بلد إلى بلد إلا إذا انتقلت النفسُ من شعور إلى شعور؛ فإذا سافر معك الهمُّ فأنت مقيمٌ لم تَبرحْ.

* * *

الحياةُ في المصيف تُثبت للإنسان أنها إنما تكونُ حيث لا يُحْفَلُ بها كثيرًا.

* * *

يشعر المرء في المُدُن أنه بين آثار الإنسانِ وأعماله، فهو في رُوح العَناء والكَدْح والنزاع، أما في الطبيعة فيُحِسُّ أنه بين الجمال والعجائب الإلهية، فهو هنا في رُوح اللذة والسرور والجلال.

* * *

إذا كنــتَ فى أيام الطبيعة فاجعل فكرك خاليًا وفَرّغْه للنَّبْت والشـجر، والحجّر والـمَدَر، والطير والحيوان، والزهر والعُشْــب، والماء والسماء، ونورِ النهار، وظلام الليل، حينئذ يَفتحُ العالَم بابَه ويقول: ادخل ...

***

لُطْفُ الجمال صورةٌ أخرى من عَظَمة الجمال؛ عرفتُ ذلك حينما أبصرتُ قطرةً من الماء تلمعُ فى غصن، فخيّل إلىَّ أن لها عظمَة البحر لو صَغُر فعُلّق على ورقة.

***

فى لحظة من لحظات الجســد الروحانية حين يفورُ شعرُ الجمالِ فى الدم، أطَلْتُ النظــرَ إلى وردة فــى غصنها زاهية عَطِرة، متأنقة، متأنّثــة؛ فكدت أقول لها: أنت أيتها المرأة، أنت يا فلانة....

***

أليــس عجيبًا أن كلَّ إنســان يرى فــى الأرض بعضَ الأمكنة كأنهــا أمكنةٌ للروح خاصة؛ فهل يدلُّ هذا على شــىء إلا أن خيالَ الجنة منذ آدمَ وحوَّاء، لا يزال يعملُ فى النفس الإنسانية؟

***

الحياةُ فى المدينة كشُـرب الماء فى كُوب من الخَزَف، والحياةُ فى الطبيعة كشرب الماء فى كُوب من البَلُّور الساطع؛ ذاك يحتوى الماء وهذا يحتويه ويُبدى جمالَه للعين.

***

وآسفاه، هذه هى الحقيقة: إن دقَّةَ الفهم للحياة تُفسدها على صاحبها كدقة الفهم للحــب، وإن العقــلَ الصغيرَ فى فهمه للحب والحياة، هو العقــلُ الكاملُ فى التذاذهِ بهما. وآسفاه، هذه هى الحقيقة!

***

فى هذه الأيام الطبيعية التى يجعلها المصيفُ أيامَ سرور ونسيان، يشعرُ كل إنسان أنه يستطيع أن يقول للدنيا كلمةَ هزَلْ ودُعابة....

* * *

من لم يُرزق الفكرَ العاشقَ لم يرَ أشياء الطبيعة إلا فى أسمائها وشِيَاتِها، دون حقائقها ومعانيها، كالرجل إذا لم يعشق رأى النساء كلَّهن سواء، فإذا عشق رأى فيهن نساء غيرَ من عرَف، وأصبحن عنده أدلةً على صفات الجمال الذى فى قلبه.

* * *

تقوم دنيا الرزق بما تحتاجُه الحياة، أما دنيا المصيف فقائمةٌ بما تَلَذُّه الحياة، وهذا هو الذى يغيّر الطبيعةَ ويجعلُ الجوَّ نفسَه هناك جوَّ مائدة ظُرفاء وظريفات....

* * *

تعمل أيام المصيف بعد انقضائها عملًا كبيرًا، هو إدخالُ بعضِ الشّعر فى حقائق الحياة.

* * *

هذه السماء فوقنا فى كل مكان، غير أن العجيب أن أكثرَ الناس يرحلون إلى المصايف ليروا أشياء منها السماء...

* * *

إذا استقبلتَ العالَم بالنفس الواسعة رأيتَ حقائقَ السرور تزيد وتتسع، وحقائقَ الهموم تصغُرُ وتَضيق، وأدركتَ أن دنياك إن ضاقتْ فأنت الضيِّقُ لا هى.

* * *

فى الساعة التاسعة أذهبُ إلى عملى، وفى العاشرة أعمل كَيْت، وفى الحاديةَ عشرةَ أعمـلُ كَيتَ وكَيت؛ وهنا فى المصيف تفقدُ التاسـعةُ وأخواتُها معانيها الزمنيةَ التى كانت تضعها الأيامُ فيها، وتستبدلُ منها المعانىَ التى تضعها فيها النفسُ الحرة.

هذه هى الطريقة التى تُصْنَع بها السعادةُ أحيانًا، وهى طريقةٌ لا يقدر عليها أحدٌ فى الدنيا كصغار الأطفال.

* * *

إذا تلاقَى الناسُ فى مكان على حالة متشابهة من السرور وتَوَهُّمه والفكرةِ فيه، وكان هذا المكانُ مُعَدًّا بطبيعته الجميلة لنسيان الحياة ومكارِهها، فتلك هى الروايةُ وممثلوها ومَسْرَحُها[1]، أما الموضوعُ فالسخريةُ من إنسان المدنيَّة ومدنية الإنسان.

* * *

ما أصدقَ ما قالوه: إن المرئىَّ فى الرائى. مرضتُ مدةً فى المصيف، فانقلبت الطبيعةُ العَروسُ التى كانت تتزينُ كل يوم إلى طبيعة عجوز تذهب كلَّ يوم إلى الطبيب...

■■■

(١) يظن صديقنا العلامة الكبير الأمير شكيب أرسلان أن المسرح لدار التمثيل غير صحيح. وأن صوابها المزرح ولكن الصاحب بن عباد استعملها فى قريب من معنى دار التمثيل وأصلها من مرادفات ندى القوم ومجتمعهم.

حديث قِطّين

جاء فى امتحان شـهادة إتمام الدراسة الابتدائية لهذا العام (١٩٣٤م) فى موضوع الإنشاء ما يأتى:

«تقابَـلَ قطّان: أحدُهما سَمينٌ تبدو عليه آثارُ النعمة، والآخر نحيفٌ يدل منظرهُ على سُوء حاله؛ فماذا يقولان إذا حدَّث كل منهما صاحبَه عن معيشته؟».

وقـد حار التلاميذُ الصغارُ فيما يضَعون على لسـان القطَّـين، ولم يعرفوا كيف يوجّهـون الكلامَ بينهمـا، وإلى أىّ غاية ينصرفُ القولُ فـى مُحاورتهما، وضاقوا جميعًا – وهم أطفال – أن تكونَ فى رءوسـهم عقولُ السَّـنانير، وأعياهم أن تنزلَ غرائزُهم الطيبةُ فى هذه المنزلة من البهيميَّة ومن عيشها خاصَّة، فيكتَنهوا تدبيرَ هـذه القِطَاطِ لحياتهـا، وينفُذوا إلى طبائعهـا، ويندَمجوا فى جُلودهـا، ويأكلوا بأنيابها، ويمزّقوا بمَخَالبها.

قال بعضُهم: وسَخِطنا على أسـاتذتنا أشدَّ السخط، وعبناهم بأقبح العيب؛ كيف لم يعلّمونا من قبل – أن نكونَ حَميرًا – وخيلًا، وبغالًا، وثيرانًا، وقِرَدَةً، وخنازير، وفئرانًـا، وقِطَطَةً، ومـا هبَّ ودبَّ، وما طار ودَرَجَ، وما مَشَـى وانْسَـاح؛ وكيف – ويحهم – لم يلقّنونا مع العربية والإنجليزية لغاتِ النَّهيق، والصَّهيل، والشَّـحيج، والخُـوار، وضَحِكَ القرد، وقُبَاعَ الخنزيـر، وكيف نَصِىء ونَموء، ونَلْغط لَغَطَ الطَّير، ونَفُـحّ فَحيـحَ الأفعى، ونَكِشُّ كَشِـيشَ الذبَّابات[1]، إلى ما يتم به هـذا العلمُ اللغوىُّ الجليلُ، الذى تقوم به بلاغةُ البهائم والطير والحشرات والهمَج أشباهها..... ؟

وقـال تلميذ خبيث لأسـتاذه: أما أنا فأوجـزتُ وأعجزت. قال أسـتاذه: أجدتَ وأحسنتَ، ولله أنت! وتالله لقد أصبت! فماذا كتبت؟ قال: كتبت هكذا:

---

(١) هذه أصوات هذه الأجناس فى اللغة.

يقول السمين: ناوْ، ناوْ، ناوْ... فيقولُ النحيف: نَوْ، ناوْ، نَوْ... فيردُّ عليه السمين: نَوْ، ناوْ، ناوْ... فيغضبُ النحيف، ويكْشِرُ عن أسنانه، ويحرك ذَيلَه ويصيح: نَوْ، نَوْ، نَوْ... فيلطمهُ السمينُ فيَخْدِشُه ويصرخ: ناوْ... فيثبُ عليه النحيفُ ويصْطَرِعان، وتختلط «النَّوْنَوَة» لا يمتاز صوتٌ من صوت، ولا يَبِينُ معنًى من معنى، ولا يمكنُ الفهمُ عنهما فى هذه الحالة إلا بتعب شديد، بعد مراجَعة قاموس القِطاط... !

قال الأستاذ: يا بنىّ، بارك الله عليك! لقد أبدعتَ الفنَّ إبداعًا، فصنعتَ ما يصنع أكبرُ النوابغ، يُظهر فنَّه بإظهار الطبيعة وإخفاء نفسه، وما ينطق القِطّ بلغتنا إلا مُعجِزةً لنبىّ، ولا نبىَّ بعد محمد ﷺ؛ فلا سبيلَ إلا ما حكيتَ ووصفتَ، وهو مذهبُ الواقع، والواقعُ هو الجديدُ فى الأدب؛ ولقد أرادوك تلميذًا هِرًّا، فكنت فى إجابتك هِرًّا أستاذًا، ووافقتَ السَّنانيرَ وخالفتَ الناس، وحقَّقتَ للممتحنِين أرقى نظريات الفن العالى، فإن هذا الفن إنما هو فى طريقة الموضوع الفنية، لا فى تلفيق المواد لهذا الموضوع من هنا وهناك، ولو حفظوا حرمةَ الأدب ورَعَوا عهد الفن لأدركوا أن فى أسطرك القليلة كلامًا طويلًا بارعًا فى النادرة والتهكم، وغرابةِ العبقرية، وجمالها وصدقِها، وحسنِ تَنَاولها، وإحكام تأديتها لما تؤدّى[1]؛ ولكن ما الفرق يا بنى بين «ناوْ» بالمد، و «نَوْ» بغير مد...؟ قال التلميذ: هذا عند السنانير كالإشارات التلغرافية: شَرْطة ونقطة وهكذا.

قال: يا بنى، ولكن وَزارة المعارف لا تُقِرُّ هذا ولا تعرفه، وإنما يكون المصحّحُ أستاذًا لا هِرًّا... والامتحان كتابىّ لا شَفَوى.

قال الخبيث: وأنا لم أكن هِرًّا بل كنت إنسانًا، ولكن الموضوع حديث قِطَّين، والحكم فى مثل هذا لأهله القائمين به، لا المتكلّفين له، المتطفّلين عليه؛ فإن هم خالفونى قلتُ لهم: اسألوا القطاط؛ أوْ لا فليأتوا بالقِطين: السمينِ والنحيفِ، فليجمعوا بينهما، وليُحَرّشوهما، ثم ليُحْضروا الرُّقباء هذا الامتحان، وليكتبوا

---

(١) هذا كلام تهكم كما هو ظاهر.

عنهما ما يسمعونه، ولْيصفوا منهما ما يَرونه، فو الذى خلَقَ السنانيرَ والتلاميذَ والممتحنين والمصحّحين جميعًا ما يزيدُ الهرَّان على «نَوْ، وناوْ» ، ولا يكونُ القول بينهما إلا من هذا، ولا يقع إلا ما وصفتُ، وما بُدٌّ من المهارَشَة والمواثَبة بما فى طبيعةِ القوىّ والضعيف، ثم فرارِ الضعيف مهزومًا، وينتهى الامتحان!

* * *

إن مثلَ هذا الموضوع يشبه تكليفَ الطالبِ الصغيرِ خلقَ هرَّتين لا الحديثَ عنهما؛ فإن إجادة الإنشاء فى مثل هذا الباب ألوهيةٌ عقلية نَخلق خلقَها السَّوِىَّ الجميلَ نابضًا حيًّا، كأنما وَضعتْ فى الكلام قلبَ هرّ، أو جاءت بالهر له قلبٌ من الكلام، وأين هذا من الأطفال فى الحادية عشرةَ والثانية عشرةَ وما حولهما؛ وكيف لهم فى هذه السن أن يمتزجوا بدقائق الوجود، ويُداخلوا أسرارَ الخليقة، ويُصبحوا مع كل شىء رَهْنًا بعلَلِه، وعند كل حقيقة موقوفين على أسبابها؟ وقد قيل لهم من قبل فى السنوات الخالية: «كن زهرةً وصفْ. واجعلْ نفسَك حبةَ قمح وقُلْ». وإنما هذا ونحوه غايةٌ من أبعدِ غايات النبوَّة أو الحكمة؛ إذ النبى تعبيرٌ إلهىٌّ تتخذه الحقيقة الكاملةُ لتنطقَ به كلمتَها التى تسمى الشريعة، والحكيمُ وجهٌ آخرُ من التعبير، تتخذه تلك الحقيقةُ لتُلقى منه الكلمةَ التى تسمَّى الفن.

وقد كان فى القديم امتحانٌ مثل هذا، لم ينجح فيه إلا واحد فقط من آلاف كثيرة، وكان الممتحن هو الله جل جلالهُ، والموضوعُ حديثُ النملة مع النمل، والناجحُ سليمان عليه السلام.

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ سورة النمل الآيتان ١٨، ١٩.

إن الكون كله مستقر بمعانيه الرمزية فى النفس الكاملة؛ إذ كانت الروح فى ذاتها نورًا، وكان سرُّ كل شىء هو من النور، والشعاعُ يجرى فى الشعاع كما يجرى الماء فى الماء، وفى امتزاج الأشعة من النفس والمادة تجاوُبٌ روحانىّ هو بذاته

تعبيـــرٌ فى البصيرة وإدراكٌ فى الذهن، وهو أســاسُ الفن علــى اختلاف أنواعه: فى الكلمة والصورة، والمثال والنغْمة؛ أى الكتابةِ والشعرِ والتصوير والحفر والموسيقى.

ومــن ذلك لا يكون البيانُ العالى أتمَّ إشــراقًا إلا بتمام النفس البليغة فى فضيلتها أو رذيلتها على السواء؛ فإن من عجائب السخرية بهذا الإنسان أن يكونَ تمام الرذيلة فــى أثره فى العمل الفنىّ، هو الوجهَ الآخرَ لتمــام الفضيلة فى أثره فى هذا العمل؛ والنقطة التى ينتهى فيها العلوُّ من مُحيط الدائرة هى بعينها التى يبدأ منها الانحدارُ إلى السُّــفْل؛ ومن ثَمّ كانت الفنونُ لا تُعتبر بالأخــلاق، حتى قال علماؤنا: إن الدين عن الشــعر بمَعْزِل. فالأصلُ هناك ســموُّ التعبير وجمالهُ، وبلاغــةُ الأداء ورَوْعتُها؛ ولا يكــون الســؤال الفنىُّ ما هى قيمة هــذه النفس، ولكن ما طريقتُهــا الفنية؟ وأى عجيــب فى ذلك؟ أليس لجهنم حق فى كبار أهــل الفن، كما للجنة حق فى نوابغه؟ وإذا قالــت الجنة: هذه فضائلى البليغة. أفلا تقول الجحيــمُ: وهذه بلاغةُ رذائلى؟ وكيف لَعمرى يستطيع إبليسُ أن يؤدىَ عملَه الفنى.... ويصوّرَ بلاغتَه العاليةَ إلا فى ساقطينَ من أهل الفكر الجميل، وساقطات من أهل الجسم الجميل..؟

* * *

لقد بعدنا عن القطين، وأنا أريد أن أكتبَ من حديثهما وخبرَهما.

كان القــطّ الهزيل مُرابطًا فــى زقاق، وقد طارد فأرةً فانْجَحَرَتْ فى شِــقّ، فوقف المســكينُ يتربَّص بها أن تخرج، ويؤامر نفسَــه كيف يُعالجهــا فيَبتَزُّها، وما عقْلُ الحيوان إلا من حرفة عيشه لا من غيرها. وكان القطّ السمينُ قد خرج من دار أصحابه يريد أن يفرّجَ عن نفســه بأن يكون ســاعةً أو بعض ساعة كالقطَطة بعضها مع بعض، لا كأطفــال الناس مع أهليهم وذَوى عنايتهم، وأبصر الهزيلَ من بعيد فأقبل يمشــى نحوه، ورآه الهزيل وجعل يتأمله وهو يتخلَّع تخلُّعَ الأسد فى مشيته، وقد ملأ جلدتَه من كل أقطارها ونواحيها، وبَســطَتْه النعمةُ من أطرافــه، وانقلبت فى لحمه غلَظًا، وفى عَصَبه شدةً، وفى شَعره بَريقًا، وهو يموجُ فى بدنه من قوة وعافية، ويكاد إهابُه ينشقُّ سمَنًا وكدْنة. فانكسرت نفسُ الهزيل، ودخلَته الحسرة، وتَضَعْضَعَ لمرأى هذه

النعمة مَرِحَةً مختالة. وأقبل السمينُ حتى وقف عليه، وأدركته الرحمة له؛ إذ رآه نحيفًا متقبّضًا، طاويَ البطن، بارزَ الأضلاع، كأنما همت عظامُه أن تترك مسكنَها من جلده لتجدَ لها مأوًى آخر.

فقال له: ماذا بك، ومالى أراك مُتَيَبّسًا كالميت فى قبره غير أنك لم تمت، ومالك أعطيتَ الحياةَ غير أنك لم تحيَ، أو ليس الهرُّ منا صورةً مختزَلةً من الأسد، فمالك – ويحكَ – رجعتَ صورةً مختزلةً من الهر؛ أفلا يسقُونك اللبن، ويُطعمونك الشَّحمة واللحمة، ويأتونك بالسمَك، ويقطعون لك من الجبن أبيضَ وأصفر، ويَفُتُّون لك الخبزَ فى المَرق، ويُؤثرك الطفلُ ببعض طعامه، وتدللك الفتاةُ على صدرها، وتَمسَحُك المرأة بيديها، ويتناولك الرجلُ كما يتناول ابنَه...؟ وما لجلدك هذا مُغبَرًّا كأنك لا تَلْطَعُه بلُعابك، ولا تتعهَّده بتنظيف، وكأنك لم تر قط فتًى أو فتاةً يجرى الدّهانُ بَريقًا فى شعره أو شعرها، فتحاول أن تصنعَ بلعابك لشعرك صنيعَهما، وأراكَ متزايلَ الأعضاء متفكّكًا حتى ضَعُفْتَ وجَهدتَ، كأنه لا يرَكبك من حُب النوم على قَدْر من كسلك وراحتك، ولا يركبك من حب الكسل على قدر من نعيمك ورَفاهتك، وكأن جنبيك لم يعرفا طِنْفِسَةً ولا حَشيّةً ولا وسادةً ولا بِساطًا ولا طِرازًا، وما أشبهَك بأسد أهلكه ألاّ يجد إلا العُشْبَ الأخضر والهشيمَ اليابس، فما له لحمٌ يجيء من لحم، ولا دمٌ يكون من دم، وانحط فيه جسمُ الأسد، وسكنتْ فيه روحُ الحمار!

قال الهزيل: وإن لك لحمةً وشَحمةً، ولبنًا وسمكًا، وجُبنًا وفُتاتًا، وإنك لتَقضى يومَك تَلْطَعُ جِلدَك ماسِحًا وغاسلاً، أو تَتَطَرَّح على الوسائد والطنافس نائمًا ومتمدّدًا؟ أمَا والله لقد جاءتك النعمةُ والبلادةُ معًا، وصلحتْ لك الحياة وفسدتْ منك الغريزة، وأحكمتَ طبعًا ونَقَضْتَ طِباعًا، ورَبحتَ شِبَعًا وخَسِرْتَ لذة، عطفوا عليك وأفقدوك أن تعطفَ على نفسك، وحملوك وأعجزوك أن تستقلّ، وقد صرتَ معهم كالدَّجاجةُ تُسمَّن لتُذبح، غير أنهم يذبحونك دَلالاً ومَلالاً.

إنك لتأكلُ من خِوانِ أصحابك، وتنظرُ إليهم يأكلون، وتطمع فى مؤاكلتهم، فتَشبع بالعين والبطنِ والرغبة ثم لا شيء غيرُ هذا، وكأنك مُرتَبَط بحبالٍ من اللحم تأكل منها وتحتَبسُ فيها.

إن كان أولُ ما فى الحياة أن تأكل فأهونُ ما فى الحياة أن تأكل، وما يقتلك شىء كاستواء الحال، ولا يُحييك شىء كتَفَاوتها، والبطنُ لا يتجاوز البطن ولذتُه لذتُه وحدَها، ولكن أين أنت عن إرثُكِ من أسلافك، وعن العِلَل الباطنة التى تحرّكنا إلى لذات أعضائنا، ومتاع أرواحنا، وتَهَبُنا من كل ذلك وجودَنا الأكبر، وتجعلنا نعيشُ من قِبَل الجسم كله، لا من قبَل المعدة وحدها؟

قال السمين: تالله لقد أكسبك الفقرُ حكمةً وحياة، وأرانى بإزائك معدومًا بزوال أسلافى منى، وأراك بإزائى موجودًا بوجود أسلافك منك. ناشدتُكَ اللهَ إلا ما وصفتَ لى هذه اللذاتِ التى تعلو بالحياة عن مرتبة الوجود الأصغر من الشِّبع، وتستطيل بها إلى مرتبة الوجود الأكبر من الرضى؟

فقال الهزيل: إنك ضخم ولكنك أبله، أما علمتَ - ويحك - أن المِحْنةَ فى العيش هى فكرة وقوة، وأن الفكرةَ والقوةَ هما لذةٌ ومنفعة، وأن لهفةَ الحِرمان هى التى تضع فى الكَسْب لذةَ الكسب، وسُعَارَ الجوع هو الذى يجعل فى الطعام من المادة طعامًا آخر من الروح، وأن ما عُدل به عنك من الدنيا لا تعوّضك منه الشَّحمةُ واللحمة، فإن رغباتِنا لابد لها أن تجوعَ وتغتذىَ كما لابد من مثل ذلك لبطوننا، ليوجدَ كلٌّ منهما حياتَه فى الحياة، والأمور المطمئنة كهذه التى أنت فيها هى للحياة أمراضٌ مطمئنة، فإن لم تَنقُصْ من لذتها فهى لن تزيدَ فى لذتها، ولكنَّ مكابدةَ الحياة زيادةٌ فى الحياة نفسِها.

وسرُّ السعادة أن تكون فيك القُوَى الداخليةُ التى تجعل الأحسن أحسنَ مما يكون، وتمنع الأسوأ أن يكونَ أسوأ مما هو، وكيف لك بهذه القوة وأنت وادع قار محصورٌ من الدنيا بين الأيدى والأرجل؟ إنك كالأسد فى القفص، صَغُرت أجَمَتُهُ ولم تزل تصغُر حتى رجعتْ قفَصًا يحدُّه ويحبسه، فصغُرَ هو ولم يزل يصغر حتى أصبح حركةً فى جلد؛ أما أنا فأسدٌ على مَخالبى ووراء أنيابى، وغَيْضَتى أبدًا تتّسع ولا تزال تتسع أبدًا، وإن الحريةَ لتجعلنى أتشمَّمُ من الهواء لذةً مثل لذة الطعام، وأستَرْوِحُ من التراب لذة كلذّة اللحم، وما الشقاء إلا خَلَّتان من خلال النفس: أما واحدةٌ فأن يكونَ فى شَرَهِك

ما يجعل الكثيرَ قليلاً، وهذه ليست لمثلى مادمتُ على حدّ الكَفَاف من العيش؛ وأما الثانية فأن يكونَ فى طمعك ما يجعلُ القليلَ غيرَ قليل، وهذه ليس لها مثلى مادمتُ على ذلك الحد من الكفاف. والسعادةُ والشقاء كالحق والباطل، كلّها من قِبَل الذات، لا من قِبل الأسباب والعلل، فمن جاراها سَعِد بها، ومن عكَسها عن مجراها فبها يشقَى.

ولقد كنتُ الساعةَ أخْتِلُ فأرةً انجحرتْ فى هذا الشق، فطَعِمتُ منها لذةً وإن لم أطعم لحمًا، وبالأمس رمانى طفل خبيث بحجر يريد عَقْرِى فأحدثَ لى وجعًا، ولكن الوجعَ أحدث لى الاحتراس، وسأغشَى الآن هذه الدار التى بإزائنا، فأيةُ لذة فى السَلَّة والخَطْفة والاسْتِرَاق والانتهاب ثم الوثْب شدًّا بعد ذلك؟ هل ذقتَ أنت برُوحك لذةَ الفُرصة والنهزة، أو وجدتَ فى قلبك راحة المخالَسة واستراق الغفلة من فأرة أو جُرَذ، أو أدركت يومًا فرحةَ النجاة بعد الرَّوَغان من عابثٍ أو باغ أو ظالم؟ وهل نالتك لذةُ الظفر حين هَوَّلَك طفلٌ بالضرب، فهوَّلتَه أنت بالعضّ والعَقْر، ففرّ عنك منهزمًا لا يلوى؟

قال السمين: وفى الدنيا هذه اللذاتُ كلها وأنا لا أدرى؟ هلمّ أتوحشْ معك، ليكونَ لى مثل نُكْرِك ودهائِك واحتيالِك، فيكونَ لى مثلُ راحتك المكدودة، ولذتِك المتعَبة، وعُمرِم المحكوم عليه منك وحدك. وسأتصدَّى معك للرزق أطارِدُه وأواثبه، وأغاديه وأراوحُه... فقطع عليه الهزيل وقال:

يا صاحبى، إن عليك من لحمك ونعمتك علامةَ أسرك، فلا يلقانا أولُ طفل إلا أهوى لك فأخذك أسيرًا، وأهوى عَلَيَّ بالضرب لأنطلق حُرًّا، فأنت على نفسك بلاء، وأنت بنفسك بلاء عَلَيّ.

وكانت الفأرةُ التى انجحرتْ قد رأت ما وقع بينهما، فسرَّها اشتغالُ الشر بالشر... وطالت مراقبُتها لهما حتى ظنت الفرصة ممكنةً، فوثبت وثبةَ من ينجو بحياته ودخلت فى باب مفتوح، ولمحها الهزيلُ، كما تلمح العينُ برقًا أومض وانطفأ، فقال للسمين: اذهب راشدًا، فحسبُك الآن من المعرفة بنفسك وموضعِها من الحياة، إن الوقوفَ معك ساعةً هو ضَياعُ رزق، وكذلك أمثالك فى الدنيا، هم بألفاظهم فى الأعلى وبمعانيهم فى الأسفل...

بين خروفين

«اجتمع ليلةَ الأضْحَى خروفان من أضاحِى العيد، فتكلّما؛ فماذا يقولانِ؟».

هذا هو الموضوعُ الذى استخرجه أصغرُ أولادى (الأستاذ) عبد الرحمن، وسألنى أن أكتب فيه للرسالة، وهو أصغر قرائها سنًّا، تَرِفُّ عليه النَّسمةُ الثالثةَ عشرةَ من ربيع حياته(*) بارك الله له فيها حاضرةً ومُقْبِلة.

ولأستاذنا هذا كلمةٌ هى شعارُه الخاصُّ به فى الحياة، يحفظُها لتحفظَه، فلا يميلُ عن مَدْرَجَتها، ولا يَخرجُ من معناها، وهى هذه الكلمةُ العربية: «كالفَرَس الكريم فى مَيْعَة حضْرِه[1]، كلما ذهب منه شَوْط جاء شَوط». فهو يعلم من هذا أن كَرم الأصل فى كرم الفعل، ولا يُغنِى شىء منهما عن شىء، وأن الدمَ الحرَّ الكريمَ يكون مُضاعَفَ القوّة بطبيعته، عظيمَ الأمل بهذه القوة المضاعَفة، نزَّاعًا إلى السبق بمقدار أمله العظيم، مترفِّعًا عن الضعف والهُوَينا بهذا النُّزوع، متميزًا فى نبوغ عمله وإبداعهِ باجتماع هذه الخصال فيه على أتمّها وأحسنِها. فمن ثَمّ لا يَرمى الحرُّ الكريم إلا أن يبلغ الأمَدَ الأبعدَ فى كل ما يحاوله، فلا يألو أن يبذلَ جهدَه إلى غاية الطاقة ومبلغ القدرة، مستمدًّا قوةً بعد قوة، محقّقًا السحرَ القادرَ الذى فى نفسه، متلقيًا منه وسائلَ الإعجاز فى أعماله، مُرسِلاً فى نبوغه من توهُّج دمه أضواء كأضواء النجم، تُثبتُ لكل ذى عينين أنه النجمُ لا شىء آخر.

ولما قدَّم إلىّ (الأستاذ) موضوعَه فى هذا الوزن المدرسىّ – وأظنه قد نَزَعتْه حاجةٌ مدرسيةٌ إليه – قلتُ: حُبًّا وكَرامة. وهأنذا أكتبه منبعثًا فيه «كالفرس الكريم فى معية حُضره» ... ولعل الأستاذ حين يقرؤه لا يثوِّرُ فيه علاماتٍ كثيرةً بقلمه الأحمر...!

* * *

(*) كان ذلك فى عام ١٩٣٤م.

(١) هذا كما يقال العامية: فى عز جريه.

اجتمع ليلةَ الأضحى خروفان من الأضاحي في دارنا: أما أحدُهما فكبْشٌ أقْرَنُ، يَحملُ على رأسه من قرنيه العظيمين شجرةَ السنين، وقد انتهى سِمنَهُ حتى ضاق جِلْدُه بلحمه، وسَحَّ بدنه بالشحم سَحًّا، فإذا تحرّك خِلَته سحابةً يضطربُ بعضُها في بعض، ويهتزُّ شيء منها في شيء، وله وافِرةٌ[1] يجرُّها خلفه جرًّا، فإذا رأيتَها من بعيد حسبتَها حَمَلاً يتبعُ أباه، وهو أصوَفُ، قد سَبَغَ صُوفُه واستكْثَفَ وتراكم عليه؛ فإذا مشى تَبَخْتَرَ فيه تبختُرَ الغانية في حُلَّتها، كأنما يشعر مثلَ شعورها أنه يلبسُ مَسَرَّاتِ جسمِه لا ثوبَ جسمه، وهو من اجتماع قوّته وجَبرُوتِه أشبهُ بالقلعة، يعلوها من هامته كالبُرج الحربيّ فيه مِدفعان بارزان. وتراه أبدًا مُصعّرًا خدّ كأنه أمير من الأبطال، إذا جلس حيث كان شعر أنه جالسٌ في أمرِه ونهيه، لا يَخرج أحدٌ من نهيه ولا أمره.

وأما الآخر فهو جَذَعٌ في رأس الحَوْل الأول من مَوْلده، لم يُدْرِكْ بعدُ أن يُضَحَّى، ولكن جيء به للقَرَم إلى لحمه الغَضّ؛ فالأول أضْحيَّة وهذا أكُولةَ، وذاك يُتَصَدّقُ بلحمه كلِّه على الفقراء، وهذا يُتصدق بثُلُثيه ويبقى الثلثُ طعامًا لأهل الدار.

وكان في لِينه وتَرجرُجه وظَرفِ تكوينه ومَرَح طبعه، كأنما يُصوّر لكَ المرأةَ آنسة رقيقةً مُتودِّدة. أما ذاك الضخمُ العاتي المتجبّر الشامخُ، فهو صورةُ الرجل الوحشيّ أخرجته الغابةُ التي تخرج الأسدَ والحيةَ وجذوعَ الدَّوْحة الضخمة، وجعلتْ فيه من كل شيء منها شيئًا يُخافُ ويُتَّقَى.

وكان الجذَعُ يَثْغُو لا ينقطع ثُغاؤه، فقد أخذ من قطيعه انتزاعًا فأحسّ الوحشةَ، وتنبهتْ فيه غريزةُ الخوف من الذئب، فزادته إلى الوحشة قَلَقًا واضطرابًا، وكان لا يستطيع أن يَنْفلت، فهو كأنما يهربُ في الصوت ويعدو فيه عدْوا.

أما الكبشُ فيَرى مثلَ هذا مَسَبَّةً لقرنيه العظيمين، وهو إذا كان في القطيع كان كبشَه وحاميَه والمُقَدَّمَ فيهُ، فيكونُ القطيعُ معه وفي كَنَفِه ولا يكون هو عند نفسه

---

(١) ألية عظيمة ويقال كبش أليان إذا كان عظيم الألية.

مــع القطيع؛ فإذا فقد جماعتَه لم يكن فى منزلة المنتظر أن يَلحق بغيره ليحتمىَ به فَيقْلقَ ويضطرب، ولكنه فى منزلة المرتقب أن يَلحقَ به غيرُه طلبًا لحمايته وذِماره، فهو ساكن رابطُ الجأش مغتبطُ النفس، كأنما يتصدَّقُ بالانتظار..

***

فلما أدبر النهارُ وأقبل الليلُ، جىء للخروفين بالْكلأ من هذا البرسـيم يَعْتلفانِه، فأحسَّ الكبشُ أن فى الكلأ شـيئًا لم يدرِ ما هو، وانقبضت نفسُــه لما كانت تنبسـطُ إليــه من قبل، وعَرَته كآبة من روحه، كأنمــا أدركتْ هذه الروحُ أنه آخر رزقِه على الأرض، فانكســر وظهــر على وجهه معنــى الذبح قبل أن يُذبح، وعَــافَ أن يَطْعَم، ورجَع كأوّل فِطامه عن أمه لا يعرف كيف يأكل، ولا يتناولُ من أكله إلا أدنى تَناوُل.

وكأنما جَثَم الظلامُ على شحمه ولحمه؛ فإنه متى ثَقُلَ الهمُّ على نفس من الأنفس، ثقل على ساعتها التى تكون فيها، فتطولُ كآبتُها ويطولُ وقتُها جميعًا. فأراد الكبشُ أن يتفرَّجَ مما به، ويُنفّسَ عن صدره شيئًا، وكان الصغير قد أنس إلى المكان والظلمة، وأقبــل يعتلفُ ويَخْضِمُ الكَلأَ، فقال له الكبش: أراك فارهًا يا بن أخى، كأنك لا تجد ما أجد؛ إنــى والله أعلم علمًــا لا تعلمه، وإنى لأحسُّ أن القــدر طريقُه علينا فى هذه الليلة، فهو مُصْبِحُنا ما من ذلك بُدّ.

قال الصغير: أتعنى الذئب؟

قــال: ليته هو، فأنــا لكَ به لو أنه الذئب؛ إن صوفى هــذا دِرْع من أظافره، وهو كالشبكة يَنْشَبُ فيها الظّفر ولا يتخلص، ومن قرنىَّ هذين تُرْس ورُمح، فأنا واثق من إحراز نفســى فى قتله، ومَن أحرز نفسه من عدّوه فذاك قتلُ عدوه، فإن لم يقتله فقد غاظه بالهزيمة، وذاك عند الأبطال فنٌّ من القتل. وهذا القَرن الملتفُّ الأعقدُ المذَرَّبُ كالسّــنان، لا يــكاد يراه الذئب حتى يعلم أنه حاطِمةُ عظامــه، فيَحْدُثُ له من الفزَع ما تنحلُّ به قوّتُه، فما يُواثِبُنى إلا مُتَخاذلا، ولا يُقدِمُ علىّ إلا تَوَهُّمَ الذئبيَّة للخَرُوفيَّة، فإن أساسَ القوة والضعف كليهما فى السُّوس والطبيعة، غير أنه لا يعلم أنى خرجت

من الخروفية إلى الجاموسيّة...! فما يُعَلِّمه ذلك إلا بَقْرُ بطنِه أو التطويح به من فوق هذا القَرن، أقْذفُه قذفةً عاليةً تُلقيه من حَالقٍ، فتدقُّ عظامه وتحطم قوائمه!

قال الصغير: فماذا تخشى بعد الذئب؟ إن كانت العصا فهى إنما تضرب منك الصوفَ لا الظهر.

قال الكبش: ويحك! وأىّ خروف يخشى العصا؟ وهى إنما تكون عصا من يَعلِفهُ ويَرعاه، فهى تنزلُ عليه كما تنزلُ على ابن آدم أقدارُ ربه، لا حطْمًا ولكن تأديبًا أو إرشادًا أو تهويلًا؛ ومن قبْلها النعمةُ، وتكون معها النعمة، وتجىء بعدها النعمة؛ أفبلغ الكفرُ ما يبلغ كفر الإنسان بنعمة ربه: إذا أنعم عليه أعرضَ ونأى بجانبه، وإذا مسَّه الشر انطلق ذا صُراخ عريض؟

وكيف ترانى (ويحك) أخشى الذئب أو العصا، وأنا من سُلالة الكبش الأسدىَّ؟

قال الصغير: وما الكبشُ الأسدىّ، وكيف علمتَ أنك من نَجْله، ولا علم لى أنا إلا هذا الكلأ والعلفُ والماء والمَرَاحُ والْمَغْدى؟

قال الكبش: لقد أدركت أمى وهى نعجةٌ قَحْمَةٌ كبيرة، وأدركتُ معها جَدتى وقد أفرطَ عليها الكِبرُ حتى ذهب فمُها، وأدركت معهما جدّى وهو كبش هَرِمٌ مُتقَدّدٌ أعجفُ كأنه عظام مُغطاةٌ، فعن هؤلاء أخذتُ ورَوَيْتُ وحفظت:

حدثتنى أمى، عن أبيها، عن أبيه، قالت: إن فخر جنسنا من الغنم يرجع إلى كبش الفداء الذى فَدَى اللهُ به إسماعيلَ بن إبراهيمَ عليهما السلام، وكان كبشًا أبيضَ أقْرَنَ أعْينَ، اسمه حَرير.

(قال): واعلم يا بن أخى أن مما انفردتُ أنا به من العلم فلم يُدركه غيرى، أن جدنا هذا كان مكسوًا بالحرير لا بالصوف، فلذلك سمى حريرًا...

(قالت أمى) : والمحفوظ عند علمائنا أن ذاك هو الكبشُ الذى قَرَّبه هابِيلُ حين قتَل أخاه، لتتمّ البليةُ على هذه الأرض بدم الإنسان والحيوانِ معًا.

(قالوا) : فَتُقُبّل منه وأرسل الكبشُ إلى الجنة فبقى يرعَى فيها حتى كان اليوم الذى هم فيه إبراهيم أن يذبح ابنَه تحقيقًا لرؤيا النبوّة، وطاعةً لما ابتُلى به من ذلك

الامتحان، وليُثْبِتَ أن المؤمنَ بالله إذا قَوى إيمانُه لم يجزع من أمر الله ولو جَرّ السكّينَ على عُنُق ابنه، وهو إنما يجرها على ابنهِ وعلى قلبه!

(قالت) فهذا هو فخر جنسنا كلّه.

أما فخر سُلالتى أنا، فذاك ما حدثتنى به جدتى، ترويه عن أبيها، عن جدها، وذاكَ حين توسَّمتْ فىّ مَخايلَ البُطولة، وَرَجَتْ أن أحفظَ التاريخ.

قالت: إن أصلنا من دِمَشق، وإنه كان فى هذه المدينة رجل سَبَّاع، قد اتخذ شِبْلَ أسد فربَّاه وراضَه حتى كبر، وصار يطلب الخيل، وتأذّى به الناس، فقيل للأمير[1]: هذا السبُعُ قد آذى الناس، والخيلُ تنفِر منه وتجد من ريحه ريحَ الموت، وهو ما يزال رابضًا ليلَه ونهارَه على سُدَّة بالقرب من دارك. فأمر فجاء به السبّاعُ وأدخله إلى القصر، ثم أمر بخروف مما اتُخِذ فى مطبخه للذبح، وأدخلوه إلى قاعة، وجاء السبَّاع فأطلق الأسدَ عليه، واجتمعوا يرون كيف يَسطُو به ويفترسُه.

قالت جدتى: فحدّثنى أبى، قال: حدّثنى جدك: أن السبَّاع أطلق الأسدَ من ساجُورِه[2] وأرسله، فكانت المعجزةُ التى لم يَفُزْ بها خروف ولم تؤثَر قطّ إلا عن جدنا، فإنه حسب الأسدَ خروفًا أجمَ لا قُرون له، ورأى دِقة خَصره، وضُمورَ جنبيه، ورأى له ذيلاً كالألية المُفْرَغة الميتة، فظنه من مَهازيل الغنَم التى قتلها الْجدَب، وكان هو شَبْعان ريَّان، فما كَذبَ أن حَمل على الأسد ونطَحه، فانهزم السبُعُ مما أذهله من هذه المفاجأة وحسب جدُّنا سَبُعًا قد زاده الله أسلحةً من قرنيه، فاعتراه الخوفُ وأدبر لا يلوى. وطمع جدُّنا فيه فاتبعه، ومازال يُطارِدُه وينطحه، والأسد يفرُّ من وجهه ويدورُ حول البِرْكة، والقومُ قد غلبهم الضحك، والأمير ما يملك نفسَه إعجابًا وفخرًا بجدْنا. فقال: هذا سبعٌ لئيم، خذوه فأخرجوه، ثم اذبحوه، ثم اسلُخوه. فأخِذ

(١) هذه القصة شهدها الأمير الأديب (أسامة بن منقذ) المتوفى سنة ٥٨٤ للهجرة، وقصها فى كتابه (الاعتبار)، والأمير المذكور فى القصة هو (معين الدين أنر) وزير شهاب الدين محمود. وقد تصرفنا فى عبارة القصة.

(٢) الساجور: سلسلة الأسد والكلب ونحوهما.

الأسـدُ وذُبح، وأعتِقَ جدُّنا من الذبح، وكان لنا فى تاريخ الدّنيا: إنسانها وحيوانِها أثران عظيمان؛ فجدُّنا الأول كان فِداء لابن نبىّ، وجدنا الثانى كان الأسد فداءه!

***

قال الصغير للكبش: قلتَ: الذبح، والفداء من الذبح؛ فما الذبح؟

قـال الكبش: هذه السـنَّة الجاريةُ بعد جدنا الأعظم، وهـى الباقية آخرَ الدهر؛ فينبغى لكل منا أن يكون فداء لابن آدم!

قـال الصغير: ابـن آدم هذا الذى يخدمنـا ويجتزُّ لنا الكلأ، ويقـدّم لنا العلَف، ويمشـى وراءنا فنسـحبُه إلى هنا وهنا...؟ تالله ما أظن الدنيا إلا قد انقلبت، أوْلا، فأنت يا أخا جدّى ... قد كبرتَ وخَرِفْتَ!

قال الكبش: ويحكَ يا أبله! متى تتحلَّل هذه العقدة التى فى عقلك؟ إنك لو علمتَ مـا أعلـم لما اطمأنت بـك الأرض، ولرَجَعْتَ من القَلق والاضطـراب كحبة القمح فى غِربال يهتزُّ وينتفِض!

قال الصغير: أتعنى ذلك الغِربال وذلك القمح وما كان فى القرية، إذ تناولت ربة الـدار غِربالَها تنفُض به قمحَها، فغافلْتُها ونطحت الغِربالَ فانقلب عن يدها وانتثرَ الحب، فأسرعت فيه التقاطًا حتى ملأت فمى قبل أن تُزيحَنى المرأة عنه؟

فهز الكبش رأسـه فِعْلَ مَن يريدَ الابتسامَ ولا يسـتطيعه، وقال: أرأيتَ حانوت القَصّاب، ونحن نمرّ اليوم فى السوق؟

قال: وما حانوت القصَّاب؟

قال: أرأيتَ ذلك السَّليخَ من الغَنم البِيضِ المُعلَّقة فى تلك المَعاليق، لا جِلْدَ عليها ولا صُوف، وليس لها أرؤسٌ ولا قوائم؟

قـال الصغير: وما ذاك السَّـليخ؟ إنه إن صح ما حدّثتَنى بـه عن أمك، فهذه غنم الجنـة، تبيت ترعى هنـاك ثم تجىء إلى الأرض مع الصبح، وإنى لمترقب شـمسَ الغد، لأذهب فأراها وأملأ عينىَّ منها.

قال: اسـمع أيها الأبله! إن شـمس الغد ستشعر بها من تحتِك لا من فوقك.. لقد رأيت أخي مذ كنت جَذَعا مثلك، ورأيت صاحبَنا الذى كان يعلُفه ويُسَمنّهُ قد أخذه، فأضجَعَه، فجَثَم على صدره شـرًّا من الذئب، وجاء بشَفْرة بيضاء لامعة، فجرَّها على حلقه، فإذا دَمُه يَشْخَب ويتفجَّر، وجعل المسكين ينتفض ويَدْحَص برِجله، ثم سَكَنَ وبَردَ؛ فقام الرجل فَفَصَلَ عنقَه، ثم نَخَس فى جلده ونفخَه حتى تَطَبَّل ورجع كالقِربة التى رأيتَها فى القَرية مملوءة ماء فحسـبتَها أمَّك، ثم شـقّ فيه شقًّا طويلاً. ثم أدخل يَده بين الجِلدِ والصّفَاق، ثم كشَـطَه وسَحَفَ الشَّحمَ عن جَنبيه، فعاد المسكين أبيضَ لا جِلـد لـه ولا صوف عليه، ثم بَقَرَ بطنَه وأخرج ما فيه، ثم حطمَ قوائمه، ثم شـدّه فعلّقه فصار سَليخًا كغنم الجنة التى زعمت! وهذا – أيها الأبله – هو الذبح والسلخ!

قال الصغير: وما الذى أحدث هذا كلَّه؟

قال: الشَّفرة البيضاء التى يسمونها السّكين!

قال الصغير: فقد كانت الشفرة عند حلقه حِيالَ فمه؛ فلماذا لم ينتزِعْها فيأكلَها؟

قـال الكبش: أيها الأبله الذى لا يعلم شـيئًا ولا يحفظ شـيئًا، لو كانت خضراء لأكلها!

قـال: وما خَطْب أن تجيء الشَّـفرة على العنق، أفلم يكـن الحبل فى عنقك أنت فجعلتَ تجاذِب فيه الرجلَ حتى أعييتَه، ولولا أنى مشيت أمامك لما انْقَدْتَ له؟

قال الكبش: ما أدرى والله كيف أفهمُك أن هذا كلَّه سيجرى عليك، فستَرى أمورًا تنكرها، فتعرف ما الذبح والسـلخ، ثم تصير أشـلاء فى القُدور نُضْرَم عليها النار، فيأكلُك ابن آدم كما تأكل أنت هذا الكَلأ...!

قال الصغير: وماذا علىّ أن يأكلنى ابن آدم، ألا ترانى آكل العُشْـب، فهل سمعتَ عُودًا منه يقول: الرجُل والسكين، والذبح والسلخ...؟

قال الكبش فى نفسه: لَعَمرى إن قوة الشباب فى الشباب أقوى من حكمة الشيوخ فى الشـيوخ، وما نَفْع الحكمة إذا لم تكن إلا رأيًا ليس له ما يمْضيه، كرأى الشـيخ الفانى؛ يرى بعقله الصوابَ حين يكون جسـمُه هو الخطأ مركَّبًا فى ضعفهِ غَلطةً على

غلطة لا عُضوًا على عضو... ؟ وهل الرأى الصحيح للعالم الذى نعيش فيه إلا بالجسم الذى نعيش فيه، وما جَدْوَى أن يعرفَ الكبير حكمةَ الموت، وهو من الضعف بحيث تنكسر نفسُه للمرض الهيّن، فضلاً عن المرض المُعْضِل، فضلاً عن المرض المُزْمِن، فضلاً عن الموت نفسه، وما خَطَر أن يجهل الشباب تلك الحكمة، وهو من قوة النفس بحيث لا يبالى الموتَ، فضلاً عن المرض؟

لو أُذنَ الشابُّ من الفتيان بيوم انقطاع أجَلِهِ، وعلم أنه مُصْبِحُه أو مُمْسِيه، لأمدّته نفسُه بأرواح السنينَ الطويلة، حتى ليرى أن صبحَ الغد كأنما يأتى من وراء ثلاثين أو أربعين سنة، فما يَتبينه إلا كالفكر المنسىّ مضى عليه ثلاثون سنةً أو أربعون. ولو أذِنَ الشيخ بيوم مَصْرَعه، وأيقن أن له مُهْلَةً إلى تمام الحول، لطار به الذّعْر واستَفرَغَه الوجَل من ساعته، ورأى يومَه البعيدَ أقربَ إليه من الصبح، وابتلتْه طبيعة جسمه المختلّ بالوساوس الكثيرة، تجتلبها كما تجتلب الرياحَ صُدوع المنزل الْخَرِب. فذاك بالشباب يقبض على الزمن؛ فيعيش فى اليوم القصير مثلَ العام رَخِيًّا ممدودًا؛ فهو رابطٌ جَلْد، وهذا بالكِبَر يقبض الزمن عليه فيعيش فى العام الطويل مثلَ اليوم متلاحِقًا آخره بأوّلِه، فهو قَلِقٌ طائر. ولا طبيعة للزمن إلا طبيعة الشعور به، ولا حقيقة للأيام إلا ما تضعه النفس فى الأيام.

* * *

ثم إن الكبش نظر فرأى الصغيرَ قد أخذته عينه واستَثْقَلَ نومًا، فقال: هنيئًا لمن كان فيه سرُّ الأيام الممدودة. إن هذا السرَّ هو كسرّ النبات الأخضر، لا يُقْطَع من ناحية إلا ظهر من غيرها ساخرًا هازئًا، قائلاً على المصائب: هأنذا...

فهذا الصغير ينام ملء عينيه والشفرة محدودةٌ له، والذبحُ بعد ساعات قليلة، كأنما هو فى زمنين، أحدهما من نفسه، فبه ينام، وبه يلهو، وبه يسخَر من الزمن الآخر وما فيه وما يجلبه.

إن الألم هو فهمُ الألم لا غير. فما أقبحَ عِلمَ العقل إذا لم يكن معه جهلُ النفس به وإنكارُها إياه. حَسْبُ العلم والعلماء فى السخرية بهم وبه هذه الحقيقةُ من النفس.

أنا لو ناطحتُ كبشًا من قُروم الكِباش، ووقفتُ أفكر وأدبّر وأتأمل، وأعتبرُ شيئًا بشيء ذهب فكرى بقوتى، واسترخى عَصَبى، وتحلَّل غضبى كلّه، وكان العلمُ وبالا علىّ؛ فإن حاجتى حينئذ إلى الروح وقواها وأسبابها أضعافُ حاجتى إلى العلم، والروح لا تعرف شيئًا اسمهُ الموتُ، ولا شيئًا اسمه الوَجعَ؛ وإنما تعرف حظّها من اليقين، وهدوءها بهذا الحظ، واستقرارَها مؤمنةً ما دامت هادئةً مستيْقِنة.

وقد واللّه صَدَقَ هذا الجذعُ الصغير؛ فما على أحدنا أن يأكلَه الإنسان؟ وهل أكْلُنا نحن هذا العُشبَ، وأكلُ الإنسان إيانا، وأكلُ الموت الإنسان – هل كلُّ ذلك إلا وضعٌ للخاتمة فى شكل من أشكالها؟

يُشبهُ واللّه إن أنا احتججتُ على الذبح واغتممتُ له، أن أكونَ كخروف أحمق لا عقل له، فظنّ إطعامَ الإنسان إياه من باب إطعامه ابنه وابنته وامرأته ومن تجب عليه نفقتُه! وهل أوجبَ نفقتى على الإنسان إلا لحمى؟ فإذا استحقّ له فلعمرى ما ينبغى لى أن أزعم أنه ظلمنى اللحمَ إلا إذا أقررتُ على نفسى بَديًّا أنى أنا ظلَمْتُ العَلَفَ وسرقتُه منه.

كلُّ حىّ فإنما هو شيء للحياة أعْطِيهَا على شرطها، وشرطُها أن تنتهى؛ فسعادته فى أن يعرفَ هذا ويقرّرَ نفسَه عليه حتى يستيقنَه، كما يستيقنُ أن المطر أول فصل الكَلأ الأخضر. فإذا فعل ذلك وأيقن واطمأن، جاءت النهايةُ متممةً له لا ناقصةً إياه، وجَرَتْ مع العمر مجرى واحدًا وكان قد عرفها وأعَدَّ لها. أما إذا حسب الحىُّ أنه شيء فى الحياة، وقد أعطيَها على شرطه هو، من تَوَهُّم الطمع فى البقاء والنعيم، فكلُّ شقاء الحى فى وهمه ذاك، وفى عمله على هذا الوهم؛ إذ لا تكون النهايةُ حينئذ فى مجيئها إلا كالعقوبة أنزلتْ بالعمر كلّه، وتجيء هادمةً منغّصة، ويبلغ من تنكيدها أن تسبِقَها آلامُها؛ فتؤلمَ قبل أن تجيء، شرًّا مما تؤلم حين تجيء!

لقد كان جدّى واللّه حكيمًا يوم قال لى: إن الذى يعيش مترقبًا النهاية يعيش مُعدًّا لها؛ فإن كان مُعدًّا لها عاش راضيًا بها، فإن عاش راضيًا بها كان عمرَه فى حاضر مستمر، كأنه فى ساعة واحدة يشهد أولَها ويُحس آخرها، فلا يستطيع الزمن

أن ينغّصَ عليه ما دام ينقاد معه وينسجم فيه، غيرَ محاول فى الليل أن يُبعِدَ الصبح، ولا فى الصبح أن يُبعد الليل. قال لى جدّى: والإنسانُ وحدَه هو التَّعِس الذى يحاولُ طردَ نهايته، فيشقىَ شقاء الكبش الأخرق الذى يريد أن يطرد الليل، فيبيت ينطح الظلمةَ الـمُتدجّيةَ على الأرض، وهو لحمقه يظن أنه ينطح الليلَ بقرنيه ويزحزِحهُ...!

وكم قال لى ذلك الجد الحكيم وهو يعظى: إن الحيوانَ منا إذا جمع على نفسه همًّا واحدًا، صار بهذا الهم إنسانًا تَعِسًا شقيًّا، يُعطَى الحياةَ فيقلبُها بنفسه على نفسه شيئًا كالموت، أو موتًا بلا شيء...!

***

وتحرك الصغير من نومه، فقال له الكبش: إنه ليقع فى قلبى أنك الساعة كنتَ فى شأن عظيم، فما بالك منتفخًا وأنت ههنا فى المَنْحَر لا فى المرعَى!

قال الصغير: يا أخا جدّى.... لقد تحققتُ أنك هَرِمتَ وخَرفتَ، وأصبحتَ تَمُجُّ اللُّعابَ والرأى....!

قال الكبش: فما ذاك ويلك؟

قال: إنك قلتَ: إن هذا الإنسان غاد علينا بالشَّفْرة البيضاء، ووصفتَ الذبحَ والسلخَ والأكل، وأنا الساعةَ قد نمتُ فرأيت فيما أرى، أننى نطحتُ ذاك الرجل الذى جاء بنا إلى هنا، وهجْتُ به حتى صرعتُه، ثم إنى أخذتُ الشفرةَ بأسنانى، فثلمته فى نحره حتى ذبحته، ثم افتلَذتُ منه مُضْغةً فلُكْتُها فى فمى، فما عرفتُ والله فيما عرفت لَخنًا ولا عَفَنًا فى الكلأ هو أقبحُ مذاقًا منه!

إن الإنسانَ يستطيبُ لحمنَا، ويتغذى بنا، ويعيش علينا: فما أسعْدنَا أن نكون لغيرنا فائدةً وحياة، وإذا كان الفَناء سعادةً نعطيها من أنفسنا، فهذا الفناء هو سعادةٌ نأخذها لأنفسنا. وما هلاكُ الحىّ لقاء منفعة له أو منفعة منه إلا انطلاق الحقيقة التى جعلتْه حيًّا، صارت حرةً فانطلقت تعملُ أفضلَ أعمالها.

قال الكبير: لقد صدقتَ والله، ونحن بهذا أعقلُ وأشرف من الإنسان؛ فإنه يقضي العمر آخذًا لنفسه، متكالبًا على حظها، ولا يُعطِي منها إلا بالقَهر والغَلبَة والخوف. تعالَ أيها الذابح، تعالَ خذ هذا اللحم وهذا الشحم؛ تعالَ أيها الإنسانُ لنعطيك؛ تعالَ أيها الشحاذ....!

■■■

الطفولتان

(عصِمت) ابن فلان باشا طفلٌ مُتْرَفٌ يكادُ ينعصرُ لينًا، وتراه يَرِف رَفيفًا مما نشأ في ظلال العزّ، كأن لروحه من الرقَّة مثلَ ظلّ الشجرة حولَ الشجرة. وهو بين لِداتِه من الصّبيان كالشـوَّكة الخضراء فى أمْلودِها الريَّان، لها منظرُ الشـوكةِ، على مجسّة لينة ناعمة تُكَذّب أنها شوكةٌ إلاَ أن تَيبْسَ ونَتَوَقَّح.

وأبوهُ «فلان» مديرٌ لمديرية كذا، إذا سُئل عنه ابنه قال: إنه مدير المديرية. لا يكاد يعــدو هذا التركيب، كأنه مــن غُرور النعمة يأبى إلا أن يجعلَ أباه مديرًا مرَّتين.... وكثيرًا ما تكون النعمةُ بذيئةً وَقَاحًا سيّئةَ الأدب فى أولاد الأغنياء، وكثيرًا ما يكون الغنِى فى أهله غنِى من السيئات لا غير!

وفــى رأى (عصمــت) أن أباه من عُلُـوّ المنزلة كأنه على جنَاح النَّسـر الطائر فى مَسْبَحه إلى النجم، أما آباء الأطفال من الناس فهم عنده من سُقوط المنزلة على أجنحة الذباب والبَعوض!

ولا يغدو ابنُ المدير إلى مدرسـته ولا يَترَوَّح منها إلا وراءه جُنْدى يمشى على أثره فــى الغَدْوة والرَّوْحة إذ كان ابنَ المدير، أى ابـنَ القوّة الحاكمة، فيكون هذا الجندىُّ وراء هذا الطفل كالـمَنْبَهةِ له عند الناس، تُفْصِحُ شـارتـهُ العسـكريةُ بلغات السابلَة جَمعَاء أن هذا هو ابنُ المدير. فإذا رآه العربى أو اليونانى، أو الطليانىُّ أو الفرنسـّى، أو الإنجليزىُّ أو كائنٌ من كان من أهل الألسـنة المتنافِرة التى لا يَفهَم لسـانٌ منها عن لسـان فهموا جميعًا من لغة هذه الشارة أن هذا هو ابنُ المدير، وأنه من الجندىّ الذى يَتْبعُهُ كالمادة من القانون وراءها الشرح....!

ولقـد كان يجـب لابن المدير هذا الشـرفُ الصّبيانىّ. لو أنه يـوم وُلِد لم يولد ابنَ سـاعتهِ كأطفال الناس، بل وُلد ابنَ عشـر سنينَ كاملة لتشـهَد له الطبيعةُ أنه كبيرٌ قـد انصدعتْ به مُعجـزة! وإلا فكيف يمشــى الجندىُّ من جنود الدولـة وراء طفل

فيتبعُــه ويخدمُه ويَنْصاعُ لأمره، وهذا الجنديُّ لو كان طَريدَ هَزيمة قد فرَّ فى معركة مــن معارك الوطن، وأريدَ تخليدُه فى هزيمته وتخليدُهــا عليه بالتصوير لما صُوّرَ إلا جنديًّا فى شارته العسكرية منقادًا لمثل هذا الطفل الصغير كالخادم، فى صورة يُكتَب تحتها: «نُفَايَةٌ عسكرية!».

* * *

ليس لهذا المنظر الكثير حدوثه فى مصر إلا تأويلٌ واحد: هو أن مكان الشخصيات فــوق المعانى، وإن صَغُرتْ تلــك وجَلَّت هذه؛ ومن هنا يكــذبُ الرجلُ ذو المنصب، فيُرفَــع شــخصُه فوق الفضائل كلها، فيكْبُر عن أن يكــذبَ فيكون كَذِبُه هو الصدق، فلا يُنكَــر عليــه كَذِبُه أىْ صِدْقُه....! ويخرج من ذلــك أن يتقرر فى الأمة أن كَذِبَ القوّة صِدْقٌ بالقوّة!

وعلى هذه القاعدة يُقاسُ غيرُها من كل ما يُخذَل فيه الحق. ومتى كانت الشخصياتُ فوق المعانى السامية طَفِقَتْ هذه المعانى تموجُ مَوْجَها محاولةً أن تعلو، مُكْرَهَةً على أن تنزل؛ فلا تستقيم على وجهة ولا تنتظمُ على طريقة، وتُقْبِل بالشىء على موضعه، ثم تَكُــرُّ كَرَّها فُتدبِرُ به إلى غير موضعه، فتضلُّ كل طبقة من الأمة بكُبرائها، ولا تكون الأمــةُ علــى هذه الحالة فى كل طبقاتها إلا صغارًا فوقهــم كبارُهم، وتلك هى تهيئةُ الأمة للاســتعباد متــى ابتُليتْ بالذى هو أكبرُ من كبارها؛ ومن تلك تَنشــأ فى الأمة طبيعةُ النفاق يحتمى به الصّغَرُ من الكِبَر، وتنتظم به ألفْةُ الحياة بين الذلّة والصَّولة!

* * *

وتخلَّــَف الجنــدىُّ ذاتَ يوم عن موعد الرَّواح من المدرســة، فخرج (عصمت) فلم يجده، فبدا له أن يتسكَّع فى بعض طرق المدينة لينطلقَ فيه ابنُ آدم لا ابنُ المدير، وحنّ حنينه إلى المغامرة فى الطبيعة، ولبسَــت الطرق فى خياله الصغير زينتَها الشــعريةَ بأطفال الأزقة يلعبون ويتَهوَّشــون ويتَعابَثون ويتشــاحنون، وهم شتَّى وكأنهم أبناء بيت واحد مسَّتْ بكل من كل رَحِمٌ، إذ لا ينتسبون فى اللهو إلا إلى الطفولة وحدها.

وانساق (عصمت) وراء خياله، وهرَب على وجهه من تلك الصورة التى يمشى فيه الجندىّ وراء ابن المدير، وتَغَلْغَل فى الأزقَّة لا يبالى ما يعرفه منها وما لا يعرفه إذ كان يسير فى طرق جديدة على عينه كأنما يحلُم بها فى مدينةٍ من مدن النوم.

وانتهى إلى كَبْكَبَة من الأطفال قد استجمعوا لشأنهم الصبيانى، فانْتَبذَ ناحيةً ووقف يُصغى إليهم متهيّبًا أن يُقْدِمَ، فاتصل بسمعه ونظره كالجبان، وتسمَّع فإذا خبيثٌ منهم يعلمّ الآخرَ كيفَ يضرب إذا اعتَدى أو اعتُدىَ عليه، فيقول له: اضرب أينما ضربت، من رأسِه، من وجهِه، من الْحُلقوم، من مَرَاقِّ البطن، قال الآخر: وإذا مات؟ فقال الخبيث: وإذا مات فلا تقُل إنى أنا علَّمتُك....!

وسمع طفلًا يقول لصاحبه: أمَا قلتُ لك: إنه تعلمَّ السرقةَ من رؤيته اللصوصَ فى السِّيما؟ فأجابه صاحبه: وهل قال له أولئك اللصوص الذين فى السّيما كن لصًّا واعمل مثلنا؟

وقام منهم شيطان فقال: يا أولاد البلد، أنا المدير! تعالوْا وقولوا لى: «يا سعادة الباشا، إن أولادنا يريدون الذهاب إلى المدارس، ولكنا لا نستطيع أن ندفع لهم المصروفات..» فقال الأولاد فى صوت واحد: «يا سعادة الباشا، إن أولادنا يريدون الذهاب إلى المدارس، وكلنا لا نستطيع أن ندفع لهم المصروفات» فردّ عليهم (سعادته): اشتروا لأولادكم أحذية وطرابيش وثيابًا نظيفة، وأنا أدفع لهم المصروفات.

فنظر إليه خبيث منهم وقال: يا سعادة المدير، وأنت فلماذا لم يشتر لك أبوك حذاء؟

وقال طفل صغير: أنا ابنك يا سعادة المدير، فأرسلنى إلى المدرسة وقتَ الظهر فقط...!

* * *

وكان (عصمت) يسمع ونفسه تهتز وترفُّ بإحساسها، كالورقة الخضراء عليها طَلُّ الندى، وأخذ قلبُه يتفتّح فى شعاع الكلام كالزهرة فى الشمس، وسَكِر بما يسكَر به الأطفال حين تقدّم لهم الطبيعة مكانَ اللهو مُعَدًّا مهيَّأ كالحانة ليس فيها إلا أسباب السّكر والنَّشوة، وتمامُ لذّتها أن الزمنَ فيها منسى، وأن العقل فيها مُهمَل...

وأحسّ ابن المدير أن هذه الطبيعةَ حين ينطلق فيها جماعةُ الأطفال على سَجيّتهم وسجيتها إنما هى المدرسة التى لا جُدرانَ لها، وهى تربيةُ الوجود للطفل تربيةً تتناوله من أدقّ أعصابه فتُبّدد قواه ثم تجمعها له أقوى ما كانت، وتُفرِغُه منها ثم تملؤه بما هو أتمّ وأزيد وبذلك تكْسِبهُ نمو نشاطه، وتعلّمه كيف ينبعث لتحقيق هذا النشاط، فتَهديه إلى أن يُبدعَ بنفسه ولا ينتظر من يُبدع له، وتجعلُ خُطاه دائما وراء أشياء جديدة، فتُسدّده من هذا كلّه إلى سر الإبداع والابتكار، وتلتّيه العِلمَ الأعظم فى هذه الحياة، عِلمَ نَضْرة نفسه وسرورها ومرَحِها، وتطبعه على المزاج المتطلّق المتهلّل المتفائل، وتَتدفَق به على دنياه كالفَيَضَان فى النهر، تفور الحياة فيه وتفور به، لا كأطفال المدارس الخامدين، تعرف للواحد منهم شكلَ الطفل وليس له وجودُه ولا عالَمَهُ، فيكونُ المسكين فى الحياة ولا يجدها، ثم تراه طفلاً صغيرًا، وقد جمعوا له همومَ رجل كامل!

ودبَّت روحُ الأرض دبيبَها فى (عصمت)، وأوحت إلى قلبه بأسرارها، فأدرك من شعوره أن هؤلاء الأغمار الأغبياء من أولاد الفقراء والمساكين، هم السعداء بطفولتهم، وأنه هو وأمثالُه هم الفقراء والمساكينُ فى الطفولة، وأن ذلك الجندى الذى يمشى وراءه لتعظيمه إنما هو سجن، وأن الألعابَ خير من العلوم، إذ كانت هى طِفْلِيَّةَ الطفل فى وقتها، أما العلوم فرُجولةٌ مُلزَقَةٌ به قبل وقتها تُوقّرُه وتحوّله عن طباعه، فتقتل فيه الطفولة وتهدم أساسَ الرجولةَ، فينشأ بين ذلك لا إلى هذه ولا إلى هذه، ويكون فى الأول طفلا رجلاً، ثم يكون فى الآخر رجلاً طفلاً.

وأحسّ مما رأى وسمع أن مدرسة الطفل يجب أن تكون هى بيتَه الواسعَ الذى لا يتحرّجُ أن يصرخَ فيه صُراخَه الطبيعى، ويتحرك حركتَه الطبيعية، ولا يكون فيه مدرسون ولا طَلبَة، ولا حاملو العصِىّ من الضبَّاط؛ بل حقُّ البيت الواسع أن تكونَ فيه الأبوّة الواسعة، والأخوّةُ التى تَنفسِح للمئات؛ فيمرّ الطفل المتعلم فى نشأته من منزل إلى منزل إلى منزل، على تدريج فى التوسّع شيئًا فشيئًا، من البيت، إلى المدرسة، إلى العالَم.

***

وكان (عصمت) يحلم بهذه الأحلام الفلسفية، وطفولته تَشِبّ وتسترجِل، ورَخاوتُه تشتدُّ وتتماسك، وكانت حركاتُ الأطفال كأنها تُحرّكه من داخله، فهو منهم كالطفل في السيما حين يشهد المتلاكمين والمتصارعين، يَستطيرُه الفرحُ، ويتوثب فيه الطفلُ الطبيعي بمرَحِه وعُنْفُوانِه، وتتقلَّصُ عضَلاته، ويتكَشَّفُ جِلْده، وتجتمع قوتُه؛ حتى كأنه سيُظاهر أحدَ الخصمين ويَلكم الآخر فيُكَوّرُه ويصرعه، ويفُض معركةَ الضرب الحديديّ بضربته اللينة الحريرية..!

فما لبث صاحبنا الغريرُ الناعمُ أن تخشَّن، وما كذّب أن اقتحم، وكأنما أقبل على روحه الشارعُ والأطفالُ ولهوُهم وعبثُهم، إقبالَ الجوّ على الطير الحبيس المعلَّق في مسمار إذا انفرج عنه القفص، وإقبالَ الغابة على الوحش القَنيصِ إذا وثب وثبةَ الحياة فطار بها، وإقبالَ الفلاةِ على الظَّبى الأسير إذا ناوَص فأفلَتَ من الحِبالة.

وتقدم فادغَمَ في الجماعة وقال لهم: أنا ابنُ المدير. فنظروا إليه جميعًا، ثم نظر بعضُهم إلى بعض، وسَفَرتْ أفكارُهم الصغيرة بين أعينهم، وقال منهم قائل: إن حذاءه وثيابه وطربوشه كلها تقول إن أباه المدير.

فقال آخر: ووجهه يقول إن أمه امرأة المدير....

فقال الثالث: ليست كأمّك يا بعْطيطي ولا كأم جُعْلُص[1]!

فقال الرابع: يا ويلك لو سمع جُعلص، فإن لَكَماتِه حينئذ لا تترك أمّك تعرف وجهَك من القفا!

قال الخامس: ومن جُعلص هذا؟ فليأت لأرِيَكم كيف أصارعه، فأجتذبُه فأعصِرُه بين يدىّ، فأعتقلُ رِجلَه برجلى، فأدفعُه، فيتخاذل، فأعرُكُه، فيخِرُّ على وجهه؛ فأسمّره في الأرض بمسمار!

فقال السادس: هاها! إنك تصف بأدق الوصف ما يفعله جُعلص لو تناولك في يده...!

(١) للعامة أسماء ونسب غريبة منها هذه.

فصاح السابع: ويلكم! ها هو ذا. جُعلص، جُعلص، جُعلص!

فتطَايَر الباقون يمينًا وشمالاً كالوَرق الجافّ تحت الشجر ضربته الريح العاصف. وقهقه الصبى من ورائهم، فثابوا إلى أنفسهم وتراجعوا. وقال المُسْتَطيل منهم: أما إنى كنت أريد أن يعدوَ جعلص ورائى، فأستطرِدُ إليه قليلاً أطمعُه فى نفسى، ثم أرتدُّ عليه فآخذه كما فعل «ماشيست الجبار»[1] فى ذلك المنظر الذى شاهدناه.

وقهقه الصبيانُ جميعًا....! ثم أحاطوا (بعصمت) إحاطة العشَّاق بمعشوقة جميلة، يحاول كلُّ منهم أن يكون المقرب المخصوصَ بالحظْوة، لا من أجل أنه ابنُ المدير فحسْبُ، ولكن من أجل أن ابنَ المدير تكون معه القروش... فلو وجدت القروش مع ابن زبَّال لما منعه نسُبه أن يكون أميرَ الساعة بينهم إلى أن تنفَدَ قروشُه فيعود ابن زبال...!

وتنافسوا فى (عصمت) وملاعبته والاختصاص به، فلو جاء المديرُ نفسُه يلعب مع آبائهم ويركبهم ويركبونه، وهم بين نجار وحداد، وبنّاء وحمّال، وحوذىّ وطباخ؛ وأمثالهم من ذى المهنة المَكْسَبة الضئيلة لكانت مطامع هؤلاء الأطفال فى ابن المدير، أكبر من مطامع الآباء فى المدير.

وجرت المنافسةُ بينهم مجراها، فانقلبت إلى مُلاحاة، ورجعت هذه الملاحاة إلى مشاحنة، وعاد ابنُ المدير هَدَفًا للجميع يدافعون عنه وكأنما يعتدون عليه، إذ لا يقصد أحدٌ منهم أحدًا بالغيظ إلا تعمدَ غيظ حبيبه، ليكون أنكأ له وأشد عليه!

وتظاهروا بعضُهم على بعض، ونشأت بينهم الطوائل، وأفسدهم هذا الغنى المتمثلُ بينهم. ويا ما أعجبَ إدراكَ الطفولة وإلهامَها! فقد اجتمعت نفُوسهم على رأى واحد، فتحولوا جميعًا إلى سفاهة واحدة أحاطت بابن المدير، فخَاطره أحدُهم فى اللعب فقمرَه، فأبى إلا أن يعلوَ ظهرَه ويركبه، وأبى عليه ابنُ المدير ودافَعه، يرى ذلك ثَلْمًا

---

(١) بحار إيطالى كالمارد؛ عريض الألواح، وثيق التراكيب، يعجب الأطفال به أشد الإعجاب، وإذا شهدوه فى السيما كاد تمثيله يشب بهؤلاء الأطفال إلى سن الرجولة فى ساعة واحدة.

فى شرفه ونسبه وسَطوةِ أبيه، فلم يكد يعتلّ بهذه العلة ويذكر أباه ليعرّفهم آباءهم... هاجت حتى كبرياؤهم، وثارت دفائنُهم، ورقصت شياطينُ رءوسهم؛ وبذلك وضع الغبى حِقدَ الفقر بإزاء سُخرية الغنى؛ فألقى بينهم مسألةُ المسائل الكبرى فى هذا العالم، وطرَحَها للحلّ....!

وتَنفّشُوا للصَّولة عليه، فسخِرَ منه أحدُهم، ثم هزأ به الآخر،وأخرج الثالثُ لسانَه، وصدمه الرابع بمنكبه، وأفحشَ عليه الخامس، ولكزَه السادس، وحثا السابعُ فى وجهه التراب!

وجهَد المسكينُ أن يفرّ من بينهم فكأنما أحاطوه بسبعة جُدران فبطَل إقدامُه وإحجامُه، ووقف بينهم كما كتب الله... ثم أخذته أيديهم فانجدل على الأرض، فتجاذبوه يُمرّغونه فى التراب!

وهم كذلك إذا انقلب كبيرُهم على وجهه، وانكفأ الذى يليه، وأزيح الثالث، ولُطِمَ الرابع، فنظروا فصاحوا جميعًا: «جُعْلُص، جعلص!» وتواثبوا يشتدُّون هَربًا. وقام (عصمت) يَنْتَخِلُ التراب من ثيابه وهو يبكى بدمعه، وثيابُه تبكى بترابها...! ووقف ينظر هذا الذى كشفَهم عنه وشردتهم صَوْلتُه، فإذا جُعلص وعليه رَجَفَانٌ من الغضب، وقد تَبرْطمَتْ شفتُه، وتَقَبَّض وجهه، كما يكون «ماشيست» فى مَعاركه حين يدفع عن الضعفاء.

وهو طفل فى العاشرة من لدات (عصمت)، غير أنه مُحْتَنِكٌ فى سن رجل صغير، غليظٌ عَبْلٌ شديد الجِبْلَةِ متراكِبٌ بعضهُ على بعض[1]، كأنه جِنّى مُتقاصِرٌ يَهُمُّ أن يطولَ منه المارد، فأنِسَ به (عصمت)، واطمأن إلى قوّته، وأقبل يشكو له ويبكى!

قال جعلص: ما اسمك؟

قال: أنا ابن المدير...!

---

(١) أى شديد فتل العضل مكتنز اللحم.

قــال جعلص: لاَ تَبْك يا بــن المدير. تعلَّمْ أن تكون جَلْدًا، فــإن الضرب ليس بذُل ولا عــار، ولكن الدموع هى تجعله ذلا وعــارًا؛ إن الدموعَ لَتجعلُ الرجل أنثى. نحن يا بــن المدير نعيش طول حياتنا إما فى ضرب الفقــر أو ضرب الناس، هذا من هذا، ولكنــك غنىّ يا بــن المدير، فأنت كالرغيــف (الفينو) ضخمٌ مُنتفخٌ، ولكنه ينكســر بلمْسة، وحَشوُهُ مثلُ القطن!

ماذا تتعلم فى المدرســة يا بن المدير إذا لم تعلمك المدرســة أن تكونَ رجلاً يأكلُ من يريدُ أكله، وماذا تعرف إذا لم تكن تعرف كيف تصبر على الشــر يوم الشر، وكيف تصبر للخير يوم الخير، فتكون دائمًا على الحالتين فى خير؟

قال عصمت: آه لو كان معى العسكرى!

قال جعلص: ويحك، لو ضربوا عنزًا لما قالت: آه لو كان معى العسكرى!

قال عصمت: فمن أين لك هذه القوة؟

قــال جعلص: من أنى أعْتَمِلُ بيدى فأنا أشــتدّ وإذا جعتُ أكلتُ طعامى، أما أنت فتنْسترخى، فإذا جعتَ أكلك طعامُك، ثم من أنّى ليس لى عسكرى..!

قال عصمت: بل القوةُ مَن أنك لستَ مثلَنا فى المدرسة؟

قال جعلص: نعم، فأنت يا بن المدرسة كأنك طفلٌ من وَرَق وكراسات لا من لحم، وكأن عظامَك من طَباشير! أنت يا بن المدرسة هو أنتَ الذى سيكون بعد عشرين سنة، ولا يعلــم إلا الله كيف يكــون، وأما أنا ابن الحياة، فأنا من الآن، وعلىّ أن أكونَ «أنا» من الآن!

أنتَ...

* * *

وهنا أدركهما العســكرىُّ المســخَّر لابن المدير، وكان كالمجنون يطير على وجهه فى الطرق يبحث عن (عصمت)، لا حبًّا فيه، ولكن خوفًا من أبيه، فما كاد يرى هذا العَفَرَ على أثوابه حتى رنَّت صفعتُه على وجه المسكين جُعلص.

فصعَّر هذا خده، ورشقَ عصمت بنظرِه، وانطلق يعدو عَدْوَ الظَّليم!

يا للعدالة! كانت الصفعةُ على وجه ابن الفقير، وكان الباكى منها ابنَ الغنىّ..!

* * *

وأنتم أيها الفقراء، حسبكم البطولة؛ فليس غنِى بَطَلِ الحرب فى المال والنعيم، ولكن بالجراح والمشقَّاتِ فى جسمه وتاريخه.

■■■

أحلام فى الشارع [*][1]

على عتَبــة (البنك) نام الغلام وأخته يفترشــان الرّخامَ البــارد، ويلتحفان جوًّا رخاميًّا فى برده وصلابته على جسميهما.

الطفــلُ مُتَكَبْكِبٌ فى ثَوبه كأنه جســمٌ قُطّعَ ورُكِمتْ أعضــاؤه بعضُها على بعض، وسُجّيَتْ بثوب، ورُمَى الرأسُ من فوقها فمال على خده.

والفتاة كأنها من الهُزال رَسْمٌ مُخَطَّط لامرأة، بدأها المصور ثم أغفلها إذ لم تُعجبه. كَتب الفقرُ عليها للأعين ما يكتبُ الذُّبولُ على الزهرة: إنها صارت قَشًّا...

نائمــةٌ فى صورةِ ميّتة، أو كميّتة فى صورةٍ نائمة، وقد انســكب ضوء القمر على وجههــا، وبقــى وجهُ أخيها فــى الظل، كأن فى الســماء ملَكًا وجَّــه المصباح إليها وحدَها؛ إذ عرف أن الطفلَ ليس فى وجهه علامةُ هم، وأن فى وجهها هى كل همها وهّم أخيها.

من أجل أنها أنثى قد خُلقتْ لتَلِدَ خُلق لها قلبٌ يحمل الهمومَ ويلدها ويربّيها.

من أجل أنها أعدّت للأمومة، تتألم دائمًا فى الحياة آلامًا فيها معنى انفجار الدم.

من أجل أنها هى التى تَزيد الوجودَ، يزيدُ هذا الوجودُ دائما فى أحزانها.

وإذا كانت بطبيعتها تُقَاسى الألَم لا يُطاقُ حين تلدُ فَرَحَها، فكيف بها فى الحزن... !

* * *

وكان رأسُ الطفل إلى صدر أختِه، وقد نام مطمئنا إلى هذا الوجود النّسْــوىّ، الذى لابــد منــه لكل طفل مثله، مــا دام الطفلُ إذا خرج من بطن أمه خــرج إلى الدنيا وإلى صدرها معًا.

(*) اقرأ قصة هذه المقالة فى (عمله فى الرسالة) من كتاب حياة الرافعى.

(١) منظر طفل متشرد كان هو وأخته نائمين على عتبة (البنك).

ونامت هى ويدُها مُرْسَلَةٌ على أخيها كيَدِ الأم على طفلها. يا إلهى! نامت ويدُها مستيقظة!

أهما طفلان؟ أم كلاهما تمثالٌ للإنسانية التى شَقِيتْ بالسعداء فعوضها الله من رحمته ألا تجدَ شقيًّا مثلَها إلا تضاعفت سعادتُها به؟

تمثالان يصوران كيف يَسْرى قلبُ أحد الحبيبين فى الجسم الآخر، فيجعلُ له وجودًا فوق الدنيا، لا تصلُ الدنيا إليه بفقرها وغناها، ولا سعادتَها وشقائِها، لأنه وجودُ الحب لا وجودُ العمر، وجودٌ سحرىّ ليس فيه معنى للكلمات، فلا فرقَ بين المال والتراب، والأمير والصُّعلوك؛ إذ اللغةُ هناك إحساسُ الدم، وإذ المعنى ليس فى أشياء المادة ولكن فى أشياء الإرادة.

وهل تحيا الألفاظُ مع الموت، فيكونَ بعده للمال معنى والتراب معنى....؟ هى كذلك فى الحب الذى يفعل شبيهًا بما يفعله الموتُ فى نقله الحياةَ إلى عالم آخر، بَيْدَ أن أحدَ العالَمين وراء الدنيا، والآخر وراء النفس.

* * *

تحت يد الأخت الممدودة ينام الطفلُ المسكين، ومن شعوره بهذه اليد، خف ثقلُ الدنيا على قلبه.

لم يبال أن نَبَذَه العالَمُ كلُّه، ما دام يجد فى أخته عالَم قَلبه الصغير وكأنه فرخٌ من فَراخ الطير فى عُشّه المعلّق، وقد جَمَعَ لحمةَ الغَض الأحمرَ تحت جنَاح أمه، فأحسّ أهنأ السعادة حين ضيَّق فى نفسه الكونَ العظيم، وجعله وُجودًا من الريش.

وكذلك يَسعد كلُّ من يملك قوةَ تغيير الحقائق وتبديلها، وفى هذا تفعلُ الطفولةُ فى نشأة عمرها ما لا تفعلُ بعضَه معجزاتُ الفلسفة العُليا فى جملة أعمارِ الفلاسفة.

وما صنع الذين جُنُّوا بالذهب، ولا الذين فُتنوا بالسُّلطة، ولا الذين هلكوا بالحب، ولا الذين تحطَّموا بالشهوات إلا إنهم حاولوا عبثًا أن يَرْشُوا رحمةَ الله لتُعطيَهم فى الذهب والسلطة والحبّ والشهوات ما نَولَتْه هذا الطفلَ المسكينَ النائم فى أشعة الكواكب تحت ذراع كوكب روُحه الأرضى.

ألا أن أعظمَ الملوك لن يستطيع بكل ملكه أن يشترىَ الطريقةَ الهنيئةَ التى يَنْبضُ بها الساعةَ قلبُ هذا الطفل.

* * *

وقفتُ أشهد الطفلين وأنا مستيقنٌ أن حولَهما ملائكةً تصعد وملائكةً تنزل؛ وقلت هذا موضعٌ من مواضع الرحمة، فإن الله مع المنكَسِرة قلوبُهم، ولعلّى أن أتعرضَ لنَفْحة من نفَحاتها، ولعل ملَكًا كريمًا يقول: وهذا بائسٌ آخر، فَيُرفُّنى بجناحه رَفَّةً ما أحوج نفسى إليها، تجدُ بها فى الأرض لمسةً من ذلك النور المتلألئ فوقَ الشمس والقمر.

وظهر لى بناء (البنك) فى ظلمة الليل من مرأى الغلامين أسودَ كالحًا، كأنه سجنٌ أقفل على شيطان يُمسكه إلى الصبح، ثم يُفتَح له لينطلق مُعَمّرًا، أىْ مخرّبًا.... أو هو جسمُ جبار كفَر بالله وبالإنسانية ولم يؤمن إلا بنفسه وحظوظ نفسه فمسخه الله بناء، وأحاطه من هذا الظلام الأسود بمعانى آثامه وكفره...

يا عجبا! بطنان جائعان فى أطمار بالية يبيتان على الطَّوَى والهم، ثم لا يكون وِسادُهما إلا عَتبة البنك! تُرَى مَن الذى لَعَن (البنك) بهذه اللعنة الحية؟ ومن الذى وضع هذين القلبين الفارغين موضعَهما ذلك ليثبتَ للناس أن ليس البنك خزائنَ حديديةً يملؤها الذهب، ولكنه خزائن قلبيةٌ يملؤها الحب...؟

* * *

وقفتُ أرى الطفلين رؤيةَ فكر ورؤية شعر معًا، فإذا الفكرُ والشعر يمتدان بينى وبين أحلامهما، ودخلت فى نفسين مضّهما الهمُّ واشتد عليهما الفقر، وما من شىء فى الحياة إلا كادَّهما وعاسَرَهُما؛ ونمت نومتى الشعرية...

قال الطفل لأخته: هلمّى فلنذهبْ من هنا فنقفَ على باب (السيما) نتفرجُ مما بنا، فَنرى أولادَ الأغنياء الذين لهم أبٌ وأم.

انظرى ها هم أولاء يُرَى عليهم أثرُ الغِنى، وتُعرَف فيهم رُوحُ النعمة؛ وقد شَبِعوا... إنهم يلبسون لحمًا على عِظامهم؛ أما نحن فنلبس على عظامنا جلدًا كجلد

الحذاء؛ إنهم أولادُ أهليهم، أما نحن فأولادُ الأرض، هم أطفال، ونحن حَطَبٌ إنسانىّ يابِس؛ يعيشون فى الحياة ثم يموتون؛ أما نحن فعيشُنا هو سَكرات الموت، إلى أن نموتَ؛ لهم عيشٌ وموتٌ، ولنا الموتُ مكررًا.

وَيْلى على ذلك الطفل الأبيضِ السمين، الحَسَنِ البَزَّةِ، الأنيقِ الشاردة، ذاك الذى يأكل الحلوى أكل لص قَّد سرق طعامًا فأسرع يَحْدِرُ فى جوفه ما سرق؛ هو الغِنَى الذى جعله يبتلعُ بهذه الشراهة، كأنما يشرَبُ ما يأكل، أو له حلقٌ غيرُ الحُلوق؛ ونحن - إذا أكلنا - نَغَصُّ بالخبز لا أدْم معه، وإذا ارتفعنا عن هذه الحالة لم نجدْ إلا البَشيعَ من الطعام، وأصبناه عَفِنًا أو فاسدًا لا يَسُوغُ فى الحَلق، فإذا انخفضنا فليس إلا ما نَتقَمَّم من قُشور الأرض ومن حُتَاتِ الخبز كالدوابّ والكلاب؛ وإن لم نجد ومسنَّا العُدْمُ وقفنا نَتَحَّينُ طعامَ قوم فى دار أو نُزُل، فنراهم يأكلون فنأكل معهم بأعيننا، ولا نطمع أن نستطعمَهم وإلا أطعمونا ضَرْبًا فنكونُ قد جئناهم بألم واحد فردُّونا بألمين، ونفقد بالضرب ما كان يُمسك رَمَقَنا من الاحتمال والصبر.

هؤلاء الأطفالُ يتصوَّرون شهوةً كلما أكلوا، ليعودوا فيأكلوا؛ ونحن نتضور جوعًا ولا نأكل، لنعودَ فنجوعَ ولا نأكل؛ وهم بين سمع أهليهم وبصَرهم؛ ما من أنَّة إلا وقعتْ فى قلب، وما من كلمة إلا وجدتْ إجابة؛ ونحن بين سمع الشوارع وبصرِها، أنينٌ ضائع، ودموعٌ غيرُ مرحومة!

آه لو كَبرتُ فصرتُ رجلاً عريضًا؟ أتدرين ماذا أصنع؟

- ماذا تصنع يا أحمد؟

- إننى أخنق بيدىَّ كلَّ هؤلاء الأطفال!

- سَوْأة لك يا أحمد، كلُّ طفل من هؤلاء له أمٌ مثلُ أمنا التى ماتت، وله أختٌ مثلى؛ فما عسى ينزل بى لو ثَكِلْتُك إذا خنقك رجلٌ طويل عريض؟

- لا، لا أخنقهم، بل سأرضيهم من نفسى، أنا أريد أن أصير رجلاً مثل (المدير) الذى رأيناه فى سيارته اليوم على حال من السطوة تعلن أنه المدير... أتدرين ماذا أصنع؟

- ماذا تصنع يا أحمد؟

- أرأيتِ عربةَ الإسعاف التى جاءت عند الظهر فانقلبت نعشًا للرجل الهرم المحطَّم الذى أغمى عليه فى الطريق؟ سمعتُهم يقولون: إن المدير هو الذى أمر باتخاذ هذه العربة، ولكنه رجل غُفلٌ لم يتعلم من الحياة مثلنَا، ولم تُحْكمْه تجاربُ الدنيا؛ فالذى يموت بالفُجاءة أو غيرها لا يُحييه المديرُ ولا غير المدير، والذى يقع فى الطريق يجدُ من الناس من يبتدرونه لنَجدتِه وإسعافِه بقلوب إنسانية رحيمة، لا بقلبِ سوَّاق عربة ينتظر المصيبةَ على أنها رزقٌ وعَيش.

إن عَرباتِ الإسعاف هذه يجب أن يكونَ فيها أكْل... ويجب أن تحمل أمثالنا من الطرق والشوارع إلى البيوت والمدارس؛ وإن لم يكن للطفل أمّ تطعمه وتُؤويه فلتُصْنَع له أمّ.

كلُّ شىء أراه لا أراه إلا على الغلَط، كأن الدنيا منقلبة أو مدبِرَة إدبارها، وما قطُّ رأيتُ الأمور فى بلادنا جاريةً على مجَاريها؛ فهؤلاء الحكام لا ينبغى أن يكونوا إلا من أولاد صالحى الفقراء، ليحكمُوا بقانون الفقر والرحمة، لا بقانون الغنى والقسوة، وليتقحَّموا الأمور العظيمةَ المشتبهةَ بنفوس عظيمة صريحة قد نبتتْ على صلابة وبأس، وخُلُق ودين ورحمة؛ فإنه لا ينهزم فى معركة الحوادث إلا روحُ النعمة فى أهل النعمة، وأخلاقُ اللين فى أهل اللين؛ وبهؤلاء لم يبرح الشرقُ من هزيمة سياسية فى كل حادثة سياسية.

إن للحكم لحمًا ودمًا هم لحم الحاكم ودمهُ فإن كان صُلبًا خَشِنًا فيه رُوحُ الأرض ورُوحُ السماء فذاك، وإلا قَتَل اللينُ والترَفُ الحكْم والحاكمَ جميعًا. وهؤلاء الحكامُ من أولاد الأغنياء لا يكون لهم همّ إلا أن يرفعوا من شأن أنفسهم، إذ السلطةُ درجةٌ فوق الغِنى، ومن نال هذه اسْتَشْرَف لتلك، فإذا جمعوهما كان منهما الخُلُق الظالم الذى يصوّر لهم الاعتداء قوةً وسطوة وعلوًّا، من حيث عَدمُوا الخلُقَ الرحيمَ الذى يصوّر لهم هذه القوة ضعفًا وجُبنًا ونذالة. إن أحدَهم إذا حكم وتسلط أراد أن يضرب، ثم لم تكن ضربته الأولى إلا فى المبدأ الاجتماعى للأمة، أو فى الأصل الأدبى للإنسانية.

يحرصون على ما به تمامُهم، أى على السلطة، أى على الحكم؛ فيحملهم ذلك على أن يتكلفوا للحرصِ أخلاقَه، وأن يجمعوا فى أنفسهم أسبابه؛ من المداراة والمصانَعة والمهاوَنة، نازلاً فنازلاً إلى دَرَكٍ بعيد، فينشرون أسوأ الأخلاق بقوة القانون ما داموا هم القوة.

– وماذا تريد أن يصنع أولاد الأغنياء يا أحمد؟

– أما أولاد الأغنياء فيجب أن يباشروا الصناعةَ والتجارةَ، ليجدوا عملا شريفًا يُصيبون منه رزقَهم بأيديهم لا بأيدى آبائهم، فإنه والله لولا العمى الاجتماعىُّ لما كان فرقٌ بين ابن أمير متبطل فى أملاك أبيه من القصور والضياع، وابن فقير متبطّل فى أملاك المجلس البلدى من الأزقة والشوارع.

وابن الأمير إذا كان نجارًا أو حدادًا أصلح السوق والشارع بأخلاقه الطيبة اللينة، وتعفُّفِه وكرمِه، فيتعلم سوادُ الناس منه الأمانةَ والصدق، إذ هو لا يكذبُ ولا يسرق ما دام فوق الاضطرار، ولا كذلك ابنُ الفقير الذى يضطره العيشُ أن يكون تاجرًا أو صانعًا، فتكونَ حرفته التجارة وهى السرقة، أو الصناعة وهى الغش، ويكون فى الناس أكثرَ عُمره مادَة كَذِب وإثم ولصوصية.

آه لو صرتُ مديرًا! أتدرين ماذا أصنع؟

– ماذا تصنع يا أحمد؟

– أعمدُ إلى الأغنياء فأردُّهم بالقوة إلى الإنسانية، وأحملُهم عليها حملاً، أصلح فيهم صفاتِها التى أفسدَها التَرف واللين والنعمة، ثم أصلح ما أخل به الفقرُ من صفات الإنسانية بالفقراء، وأحملُهم على ذلك حملا، فيستوى هؤلاء وهؤلاء، ويتقاربون على أصل فى الدم إن لم يلده آباؤهم ولدَه القانون. ألاَ إن سقوطَ أمتنا هذه لم يأت إلا من تعادى الصفات الإنسانية فى أفرادها، فتَقطَّعَ ما بينهم، فهم أعداء فى وطنهم، وإن كان اسمهم أهلُ وطنهم.

ومتى أحْكِمَت الصفاتُ الإنسانية فى الأمة كلها ودانى بعضُها بعضًا صار قانونُ كل فرد كلمتين، لا كلمة واحدة كما هو الآن. القانون الآن (حَقّى) ونحن نريد أن يكون

(حَقّــى وواجبى) وما أهلك الفقراء بالأغنيــاء، ولا الأغنياء بالفقراء ولا المحكومين بالحكام إلا قانونُ الكلمة الواحدة.

***

أنا أحمد المدير.... لستُ المديرَ بما فى نفس أحمد، ولا بمعدته وبطنه، ولا بما يريد أحمد لنفسه وأولاده.... كلا، أنا عملٌ اجتماعىّ منظَّم يحكم أعمال الناس بالعدل، أنا خُلــقٌ ثابت يوجّه أخلاقَهم بالقوة، أنا الحياة الأمُّ مع الحياة الأطفالِ الأخوة فى هذا البيت الذى يســمى الوطن، أنا الرحمةُ، عندى الجنة ولكن عندى جهنم أيضًا ما دام فى الناس من يعَصى، أنا بكل ذلك لست أحمد، لكنى الإصلاح.

هأنذا قد صرتُ مديرًا أعُسُّ فى الطريق بالليل وأتفقَّد الناسَ ونوائبَهم.

مــن أرى؟ هذا طفلٌ وأختُــه على عَتبة البنك فى حيــاة كأهدامهما المرقَّعة، فى دُنيا تمزقتْ عليهما، قم يا بنىّ، لا تُرَعْ إنما أنا كأبيك، تقول: اسمك أحمد، واسم أختك أمينة؟

تقــول إنك مــا نمتَ من الجوع، ولكــن مَضْمَضْتَ عينَك بشُــعاع النــوم؟ يا ولدى المســكينين، بأىّ ذنب من ذنوبكما دقَّتكما الأيامُ دقًّا وطحنتكما طحنًا، وبأى فضيلة من الفضائل يكون ابنُ فلان باشا، وبنتُ فلان باشا فى هذا العيش اللين يختاران منه ويتأنَّقان فيه، ما الذى ضرّ الوطنَ منكما فتموتا، وما الذى نفع الوطن منهما فيعيشا؟

إن كنتَ يا بنى لا تملك لنفســك الانتصار من هذه الظَّليمة فأنا أملكها لك، وإنما أنا المظلومُ إلى أن تنتصر، وإنما أنا الضعيفُ إلى أن آخذَ لك الحق.

إلىّ يا بن فلان باشا وبنتَ فلان باشا.

يا هذا عليكَ أخاك أحمد ولتكن به حَفِيًّا، ويا هذه، عليك أختَك الآنسة أمينة....

أتأبيان، أنَفْرَةً من الإنسانية، وتمرُّدًا على الفضيلة، أحقًّا بلا واجب، دائمًا قانون الكلمة الواحدة؟! خُلقتما أبيضين ســخريةً من القدرَ وأنتما فى النفس من أحْبوشَــة الزنج ومنَاكيد العبيد.

ورفع أحمد يدَه....

وكان الشـرطى الذى يقوم على هذا الشـارع، وإليه حراسةُ البنك، قد تَوَسَّنَهما[1] ودخلتْـه الرّيبة، فانتهـى إليهما فى تلك اللحظة، وقبل أن تنزلَ يدُ سـعادة المدير بالصفعة على وجه ابن الباشـا وبنتِ الباشا كان هذا الشرطىُّ قد ركَلَه برجله، فوثَب قائمًا واجتذب أختَه وانطلقا عَدْوَا الخيل من ألْهُوبِ السَّوط.

وتمجَّدت الفضيلة كعادتها..! ..أن مسكينًا حَلِم بها..

■■■

(١) توسنهما: أتاهما نائمين.

أحلام فى قصر[*]

كان فلانٌ ابنُ الأمير فلان يتنبَّل فى نفســه بأنه مُشْـتَقَ ممن يضع القوانين لا ممن يخضع لها، فكان تيَّاهًا صَلِفًا يشمَخُ على قومه بأنه ابنُ أمير، ويختالُ فى الناس بأن له جَدًّا من الأمراء، ويرى من تَجَبُّرِه أن ثيابيهَ على أعطافه كحدود الملكة على المملكة لأن له أصلاً فى الملوك.

وكان أبوه من الأمراء الذين وُلدوا وفى دمهم شعاعُ السيف، وبريقُ التاج، ونخوةُ الظفّـر، وعِز القَهرْ والغَلبة؛ ولكـنَّ زمنَه الحصار ضربَ عليــه، وأفضت الدولةُ إلى غيره، فتراجعتْ فيه ملكاتُ الحرب من فتح الأرض إلى شــراء الأرض، ومن تشــييد الإمارات إلى تشــييد العمــارات، ومن إدارة معركة الأبطــال إلى إدارة معركة المال، وغَبَرَ دهرَه يملك ويجمع حتى أصبحت دفاترُ حسابه كأنها (خريطة) مملكة صغيرة.

وبعضُ أولاد الأمراء يعرفون أنهم أولادُ أمراء، فيكونون من التكبُّر والغرور كأنما رَضُوا من الله أن يرسلهم إلى هذه الدنيا ولكن بشروط...

* * *

وانتقل الأميرُ البخيل إلى رحمة الله، وترك المالَ وأخذ معه الأرقام وحدَها يُحاسَب عنها، فورِثَه ابنُه وَأَمَرَّ يدَه فى ذلك المال يبعثره، وكانت الأقدارُ قد كتبت عليه هذه الكلمة: غير قابل للإحسان. فمحتها بعد موت أبيه، وكتبت فى مكانها هذه الكلمة: جُمع للشيطان.

أما الشــيطانُ فــكان له عملٌ خاص فى خدمة هذا الشــاب، كعمــل خازن الثياب لسيده، غير أنه لا يُلبِسه ثيابًا بل أفكارًا وآراء وأخْيِلَة. وكان يجهدُ أن يُدخِل الدنيا كلهــا إلى أعصابه ليخرِجَ منها دنيــا جديدةً مصنوعة لهــذه الأعصاب خاصة، وهى

(*) انبعثت خواطر هذه المقالة فى نفس الرافعى على أثر كتابته مقالة «أحلام فى الشــارع» الســابقة، ولكنه لم يكتبها إلا بعد زمان.

أعصابٌ مريضة ثائرة متلهّبة لا يكفيها ما يكفى غيرَها فلا تَبرحُ تسأل الشيطانَ بين الحين والحين: ألاَ تُوجد لذةٌ جديدة غيرُ معروفة؟ ألاَ يستطيعُ إبليسُ القرنِ العشرين أن يخترعَ لذةً مبتكرة؟ ألا تكونُ الحياة إلا على هذه الوتيرة من صبُحها لصبُحها؟

كان الشاب كالذى يريد من إبليس أن يخترعَ كأسًا تَسَعُ نهرًا من الخمر، أو يجدَ له امرأة واحدةً وفيها كلُّ فنون النساء واختلافِهنَّ. وكان يريد من الشيطان أن يُعينَه فى اللَّذة على الاستغراق الرُّوحانى ويَغْمُرَه بمثل التجلّيات القُدسية التى تنتهى إليها النفسُ من حدَّة الطرب وحِدَّة الشوق؛ وذلك فوق طاقة إبليس، ومن ثَمّ كان معه فى جهُد عظيم حتى ضجر منه ذاتَ مرة فهمَّ أن يرفع يدَه عنه ويَدَعَه يدخلُ إلى المسجد فيصلّى مع بعض الأمراء الصالحين.

وهؤلاء الفُسَّاقُ الكثير والمال إنما يعيشون بالاستطراف من هذه الدنيا؛ فهمُّهم دائمًا الألَذّ والأجملُ والأغلى، ومتى انتهت فيهم اللذةُ منتهاها ولم تجدْ عاطفتُهم من اللذات الجديدة ما يُسْعِدُها، ضاقت بهم فظهرتْ مظهرَ الذى يُحاول أن ينتحر، وذلك هو الملل الذى يُبْتَلون به. والفاسقُ الغنىُّ حين يملُّ من لذاته يُصبح شأنُه مع نفسه كالذى يكون فى نفَق تحت الأرض ويريد هناك سماء وجوًّا يطير فيهما بالطيارة...

* * *

قالوا: واعترض ابن الأمير ذات يوم شحاذٌ مريضٌ قد أسنَّ وعجز يتحاملُ بعضُه على بعض، فسأله أن يُحسن إليه وذكر عَوَزَه واختلالَه، وجعل يَبُثُّه من دمُوعه وألفاظِه. وكان إبليسُ فى تلك الساعة قد صَرَفَ خواطرَ الشاب إلى إحدى الغانيات المتمنعات عليه، وقد ابتاع لها حليةً ثمينة اشتطَّ بائعُها فى الثمن حتى بلغ به عشرة آلاف دينار، فهو يريد أن يهديها إليها كأنها قَدرٌ من قادر... وقَطَعَ عليه الشحاذُ المسكين أفكارَه المضيئةَ فى الشخص المضيء، فكان إهانةً لخياله السامى... ووجد فى نفسه غَضَاضةً من رؤية وجهِه، واشمأزَّ فى عُروقه دمُ الإمارة، وتحركت الوراثة الحربية فى هذا الدم...

ثم ألقى الشيطانُ إلقاءه عليه، فإذا هو يرى صاحبَ الوجه القَذِر كأنما يتهكم به يقول له: أنت أميرٌ يبحث الناسُ عن الأمير الذى فيه فلا يجدون إلا الشيطانَ الذى فيه، وليس فيك من الإمارة إلا مثلُ ما يكون من التاريخ فى الموضع الأثرىّ الخَرِب، ولن تكون أميرًا بشهادة عشرة آلاف دينار عند مُومِس، ولكن بشهادة هذا المال عند عشرة آلاف فقير. أنت أمير، فهل تثْبِتُ الحياةُ أنك أمير أو لهذا معنى فى كلمة من اللغة؟ إن كانت الحياةَ فأين أعمالُك، وإن اللغةُ فهذه لفظةٌ بائدة تدلُّ فى عصور الانحطاطِ على قِسْطِ حاملها من الاستبداد والطغيان والجَبَروت، كأن الاستبدادَ بالشعب غنيمةٌ يتناهَبُها عظماؤه، فقِسْمٌ منها فى الحاكم وقسمٌ فى شبه الحاكمُ يترجَم عنه فى اللغة بلقب أمير.

ألاَ قُلْ للناس أيها الأمير: إن لقبى هذا إنما هو تعبيرُ الزمن عما كان لأجدادى من الحق فى قتل الناس وامتهانهم...

* * *

وكان هذا كلامًا بين وجه الشحاذ وبين نفس ابن الأمير فى حالة بخصوصها من أحوال النفس، فلا جَرَم أهين الشحاذُ وطُرد ومضى يدعو بما يدعو.

ونام ابنُ الأمير تلك الليلةَ فكانت خيالتُه[1] من دنيا ضميره وضميرِ الشحاذ: فرأى فيما يرى النائم أن مَلكًا من الملائكة يهتف به:

ويلكَ! لقد طَردتَ المسكينَ تخشى أن تنالك منه جراثيمُ تمرضُ بها، وما علمتَ أن فى كل سائل فقير جراثيمَ أخرى تمرض بها النعمة؛ فإن أكرمته بقيتْ فيه، وإن أهَنتَه نَفَضها عليك. لقد هلكت اليومَ نعمتُك أيها الأمير، واستردّ العاريةَ صاحبُها، وأكلت الحوادثُ مالَك فأصبحتَ فقيرًا محتاجًا ترومُ الكِسْرةَ من الخبز فلا تتهيأ لك إلا بجهد وعمل ومشَقة؛ فاذهبْ فاكْدَح لعيشك فى هذه الدنيا، فما لأبيك حقّ على الله أن تكونَ عند الله أميرًا.

(١) الخيالة: ما يتراءى للنائم من الأشباح فى نومه.

قالــوا: وينظر ابنُ الأمير فإذا كلُّ ما كان لنفســه قد تركــه حين تركه المال، وإذا الإمــارة كانت وهمًا فرضه على الناس قانونُ العادة، وإذا التعاظم والكبرياء والتجبر ونحوُها إنما كانت مَكْرًا من المكْر لإثبات هذا الظاهر والتعزُّز به. وينظر ابنُ الأمير، فإذا هو بعد ذلك صُعلوكٌ أبترُ مُعْدِمٌ رَثُّ الهيئة كذلك الشحاذ، فيصيح مغتاظًا: كيف أهملتنى الأقدار وأنا ابنُ الأمير؟

قالــوا: ويهتفُ به ذلــك الملك: ويحكَ إن الأقدار لا تُدلّلُ أحــدًا، لا ملكا ولا ابنَ ملِك، ولا سُوقيًّا ولا ابن سُوقى، ومتى صرتم جميعًا إلى التراب فليس فى التراب عظمٌ يقول لعظم آخر: أيها الأمير....

* * *

قالوا: وفكَّر الشــاب المسكينُ فى صواحبه من النســاء، وعندهن شبابهُ وإسرافُه، ونفقَاته الواســعة، فقال فى نفســه: أذهبُ لإحداهن؛ وأخذ سَمْتَه إليها، فما كادت تعرفــه عيناها فى أسماله وبَذاذته وفقره أمــرتْ به فجُرَّ بيديه ودُفع فى قفَاه. ولكن دمَ الإمــارة نــزا فى وجهه غضَبًــا، وتحركت فيه الوراثة الحربيــة، فصاح وأجْلَب واجتمع الناس عليه واضطربوا، وماج بعضُهم فى بعض. فبينما هو فى شــأنه حانت منه التفاتةٌ فأبصر غلامًا قد دخل فى غُمارِ الناس، فدَسَّ يدَه فى جيب أحدهم فنَشل كيسَه ومضى.

قالوا: وجرى فى وهم ابن الأمير أن يلحقَ بالغلام فيكْبِسَه كبسةَ الشُّرْطى وينتزعَ منه الكيس وينتفعَ بما فيه، فتســلَّل من الزحام وتبع الصبىّ حتى أدركه ثم كَبَســه وأخــذ الكيس منــه وأخرج الكنزَ، فإذا ليس فيه إلا خــاتمَ وحجاب وبعضُ خرَزَات مما يتبرك العامة بحمله، ومفتاح صغير...

فامتلأ غيظًا وفار دمُ الإمارة وتحركت الوراثة الحربية التى فيه. وألم الصبىُّ بما فــى نفســه، وحَدَسَ على أنه رجل أفّاقٌ مُتَبطّل، لانَفَــاذَ له فى صناعة يرتزقُ منها، فرثَى لفقره وجهلِهِ ودعاه إلى أن يعلّمه السرقةَ وأن يأخذَه إلى مدرستها. وقال: إن لنا

مدرسة، فإذا دخلتَ القسم الإعدادىَّ منها تعلمتَ كيف تحمل المِكْتَل[1] فتذهب كأنك تجمع فيه الخِرَقَ الباليةَ من الدُّور حتى إذا سَـنحَتْ لك غَفلة انسللتَ إلى دار منها، فسـرقتَ ما تناله يـدُك من ثوب أو متاع، ولا تزال فى هـذا الباب من الصنعة حتى تُحْكِمَه، ومتى حذقته ومَهَرْتَ فيه انتقلت إلى القسم الثانوى...

فصـاح ابن الأمير: اُغْـرُبْ عنى، عليك وعليك، أخـزاك الله! ولعن الله الإعدادىّ والثانوىّ معًا.

ثم إنه رمى الكيس فى وجه الغلام وانطلق، فبينما هو يمشى وقد تَوزَّعتْه الهمومُ، أنشـأ يفكر فيما كان يراه من الـمُكَدّين، وتلك العلـل التى ينتحلونها للكُدْية كالذى يَتَعامـى والذى يتعَارج والذى يُحدِث فى جسـمه الآفـة؛ ولكن دَم الإمارة اشمأز فى عروقـه وتحركت فيه الوراثة الحربية! وبَصُر بشـاب من أبناء الأغنياء تنطق عليه النعمـة فتعـرَّض لمعروفه، وأفضى إليه بهمّه، وشـكا ما نزل به ثـم قال: وإنى قد أمّلْتـك وظنّى بـك أن تصطفينى لمنادمتك أو تُلحِقَنى بخدمتـك، وما أريد إلا الكفافَ من العيش، فإن لم تبلغ بى، فالقليلُ الذى يعيش به المُقِلّ. وصعَّد فيه الشاب وصوَّب ثم قال له: أتحسـن أن تلطُف فى حاجتى؟ قال: سـأبلغ فى حاجتك ما تحب. قال الشاب: ألك سابقةٌ فى هذا؟ أكنت قوَّادًا؟ أتعرف كثيرات منهن...؟

فانتفـض غضبًا وهمَّ أن يبطُـشَ بالفتى لولا خوفُه عاقبةَ الجريمة، فاسـتخْذَى ومضى لوجهـه، وكان قد بلغ سوقًا فأمَّل أن يجد عملاً فى بعض الحوانيت، غيرَ أن أصحابَها جعلوا يزجرونه مرةً ويطردونه مرة، إذ وقعتْ به ظِنَّةُ التلصُّص، وكادوا يُسلِمونه إلى الشرطِى فمضى هاربًا، وقد أجمع أن ينتحر ليقتل نفسَه ودهرَه وإمارتَه وبؤسَه جميعًا.

قالـوا: ومر فى طريقه إلى مَصْرعــه بامرأة تبيع الفُجْلَ والبصـلَ والكُراث، وهى بادنَــة وَضيئةُ ممتلئةُ الأعلى والأسـفل، وعلى وجهها مَسْـحةُ إغـراء، فذكر غزْله

(١) هو كالقفة يعمل من الخوص.

وفتنتَه واستغواءه للنساء، ونازعتْه النفسُ، وحسب المرأةَ تكون له معاشًا ولهوًا، وظنها لا تُعجِزه ولا تفوتُه وهو فى هذا الباب خرَّاجٌ ولاَّجٌ منذ نشأ.. غير أن ما كاد يراودها حتى ابتدرته بلطة أظلم لها الجو فى عينه ثم هرت فى وجهه هَريرًا منكرًا واستَعْدَتْ عليه السابلةَ فأطافوا به وأخذه الصفعُ بما قَدُمَ وما حدُث، وما زالوا يَتَعاورونه حتى وقع مغشِيًّا عليه.

ورأى فى غَشْيته ما رأى من تمام هذا الكَرب، فضُرِب وحُبس وابتُلى بالجنون وأرسل إلى المارستان، وساح فى مصائب العالَم، وطاف على نكَبات الأمراء والسُّوقة بما يعى وما لا يعى، ثم رأى أنه أفاق من الإغماء فإذا هو قد استيقظ من نومه على فِراشِه الوثير.

* * *

وياليت من يدرى بعد هذا! أغدا ابنُ الأمير على المسجد وأقبل على الفقراء يُحسن إليهم، أم غدا على صاحبته التى امتنعت عليه فابتاع لها الحلية بعشرة آلاف دينار؟

ياليت من يدرى! فإن الكتاب الذى نقلنا القصة عنه لم يذكر من هذا شيئًا بل قطع الخبرَ عندما انقطع الصفع....

■■■

بنت الباشا...(*)

كانت هذه المرأةُ وضَّاحةَ الوجه، زَهراء اللون كالقمر الطالع، تحسبها لجمالها غذَّتْها الملائكة بنور النهار، وروَّتها من ضَوء الكواكب.

وكانت بَضَّةً مُقَسَّمَةً أبدعَ التقسيم، يلتفُّ جسمُها شيئًا على شيء التفافًا هندسيًّا بديعًا، يرتفع عن أجسام الغِيدِ الحسان؛ أفرغَ فيها الجمالُ بقدر ما يمكن إلى أجسام الدُّمى العبقريةِ التى أفرغ فيها الجمالُ والفنُّ بقدر ما يستحيل.

وكانت باسمةً أبدًا ما يتلألأ الفجر، حتى كأن دمها الغزّلىّ الشاعرَ يصنع لثغرها ابتسامتَها، كما يصنع لخديها حُمرتَهما.

ما لَها جلست الآن تحتَ الليل مُطْرِقةً كاسفَةً ذابلة، تأخذُها العينُ فما تَشكُّ أن هذا الوجهَ قد كان فيه مَنْبعُ نُور وغاض! وأن هذا الجسمَ الظمآنَ المعروقَ هو بُقْعَةٌ من الحياة أقيمَ فيها مأتم!

ما لهذه العينِ الكحيلة تُذرِى الدمعَ وتسترْسلُ فى البكاء وتَلجُّ فيه، كأن الغادةَ المسكينةَ تُبصر بين الدموع طريقًا تُفضى منه نفسُها إلى الحبيب الذى لم يَعُد فى الدنيا؛ إلى وحيدها الذى أصبحتْ تراه ولا تلمسه، وتكلّمه ولا يَرُدُّ عليها؛ إلى طفلها الناعم الظريفِ الذى انتقل إلى القبر ولن يرجع، وتتمثلُهُ أبدًا يريد أن يجيء إليها ولا يستطيع، وتتخيلهُ أبدًا يَصيح فى القبر يناديها: «يا أمى، يا أمى...».

قلبُها الحزينُ يُقَطّع فيها ويُمَزّقُ فى كل لحظة؛ لأنه فى كل لحظة يُريد منها أن تضمَّ الطفلَ إلى صدرها، ليستشعرَهُ القلبُ فيفرحَ ويتهنَّأ إذ يَمَسُّ الحياةَ الخارجةَ منه، ولكن أين الطفل؟ أين حياة القلبِ الخارجةُ من القلب؟

(*) انظر خبر هذه القصة وحديث «الزبال الفيلسوف» فى «عود على بدء» من كتابنا «حياة الرافعى».

لا طاقة للمسكينة أن تُجيب قلبَها إلى ما يطلب، ولا طاقةَ لقلبها أن يَهْدأ عمّا يطلب؛ فهو من الغيظ والقَهر يحاولُ أن يُفَجّرَ صدرها، ويريد أن يَدُقّ ضلوعَها، ليَخرجَ فيبحثَ بنفسه عن حبيبه!

مسكينةٌ تَتَرَنَّحُ وتتلَوَّى تحت ضَربات مُهْلكة من قلبها، وضَربات أخرى من خيالها، وقد باتت من هذه وتلك تعيشُ فى مثل اللحظة التى تكون فيها الذَّبيحةُ تحت السكّين، ولكنها لحظةٌ امتدّت إلى يوم، ويومٌ امتد إلى شهر. يا ويلَها من طول حياة لم تَعُدْ فى آلامها وأوجاعها إلا طولَ مدَّة الذَّبح للمذبوح.

ولو كان للموت قطارٌ يقفُ على محطَّة فى الدنيا، ليحملَ الأحبابَ إلى الأحباب، ويسافرَ من وجُود إلى وجود، وكانت هذه الأمُ جالسةً فى تلك المحطة منتظرةً تتربَّص، وقد ذُهلَتْ عن كل شىء، وتجردتْ من كل معانى الحياة، وجمدت جمودَ الانتقال إلى الموت لما كانت إلا بهذه الهيئة فى مجلسها الآن فى شُرفتها من قصرها، تُطلُّ على الليل المظلم وعلى أحزانها...!

* * *

هى فلانة بنت فلان باشا وزوجةُ فلان بك، تَرَادَفَت النّعمُ على أبيها فيما يَطلبُ ومالا يطلُب، وكأنما فرَغَ من اقتراحه على الزمان واكتفى من المال والجاه، فلم يُعجب الزمانَ ذلك، فأخذ يقترحُ له ويصنع ما يقترح، ويزيدُه على رَغمه نعَمًا تتوالَى!

وكان قد تقدم إلى خطْبة ابنته شاب مهذَّب، يملك من نفسه الشبابَ والهمةَ والعلم، ومن أسلافه العُنصرَ الكريمَ والشرفَ الموروث، ومن أخلاقه وشمائله ما يُكاثرُ به الرجالَ ويُفاخر. بَيْدّ أنه لا يملك من عيشه إلا الكفَافَ والقلّة، وأمَلاً بعيدًا كالفجر وراء ليل لابد من مُصابرته إلى حينِ يَنْبَثقُ النور.

وتقدم صاحبُنا إلى الباشا فجاءه كالنَّجم عاريا؛ أى فى أزهَى نُورانيّته وأضْوَئها، وكان قد عَلقَ الفتاةَ وعُلّقتْه، فظنّ عند نفسه أن الحبَّ هو مال الحب، وأن الرجولةَ هى مالُ الأنوثة، وأن القلوبَ تتعامل بالمسَرَّات لا بالأموال، ونَسىَ أنه يتقدم إلى رجل مالىّ جعلتْه حَقَارةُ الاجتماع رُتبة، أو إلى رتبة ماليّة جعلتها حقارةُ الاجتماع رجلاً..

وأن كلمة «باشا» وأمثَالَها إنما تخلّفت عن ذلك المذهب القديم: مذهبِ الألوهية الكاذبة التــى انتحلَها فَرْعونُ وأمثالُه، ليَتَعَبَّدُوا الناس منها بألفاظ قلوبهم المؤمنة؛ فإذا قيل «إله» كان جواب القلب: «عزّ وجلّ»، «سُبْحانه».....

ولمــا ارتقى النــاسُ عن عبادة النــاس، تلطَّفتْ تلك الألوهيــةُ ونزلت إلى درجاَت إنســانية، لتتعبّدَ الناسَ بألفاظِ عقولهم الســاذَجة؛ فإن قيل «باشا» كان جوابُ العقل الصغير: «سعادتلو أفندم!»[1].

نســى الشاب أنه «أفندى» سيتقدم إلى «باشا» وأعماه الحبُّ عن فَرْق بينهما؛ وكان سامىَ النفس، فلم يُدرك أن صغائر الأمم الصغيرة لابد لها أن تنتحلَ السموَّ انتحالا، وأن الشعبَ الذى لا يجد أعمالا كبيرة يتمجَّد بها، هو الذى تُخْتَرَع له الألفاظُ الكبيرةُ ليتلهَّــى بها؛ وأنــه متى ضعف إدراكُ الأمة، لم يكن التفــاوتُ بين الرجال بفضائل الرجولــة ومعانيها، بل بموضــع الرجولة من تلك الألفاظ؛ فإن قيل «باشــا»، فهذه الكلمــة هى الاختراعُ الاجتماعىُّ العظيم فى أمــم الألفاظ، ومعناها العلمىّ: قوةُ ألف فــدان أو أكثر أو أقل، ويقابلها مثلاً فى أمم الأعمــال الكبيرة لفظُ «الآلة البخارية»، ومعناها العلمى قوة كذا وكذا حصانًا أو أقل أو أكثر[2]!

نســى هذا الشاب أن «أمم الأكل والشرب» فى هذا المشرقِ المسكين، لا تتم عظَمتُها إلا بأن تَضَع لأصحاب المال الكثير ألقابًا هى فى الواقع أوصافٌ اجتماعية للمَعدة التى تأكل الأكثرَ والأطيبَ والألذّ، وتملك أسبابَ القدرة على الألذّ والأطيب والأكثر.

وتقدم (الأفندى) يتودَّد إلى (الباشــا) ما اســتطاع، ويتواضع وينكمش، ولا يألوه تمجيــدًا وتعظيمًــا؛ ولكن أين هو من الحقيقة؟ إنه لم يكن عند الباشــا إلا أحمق؛ إذ لم يعرف أن تقدُّمه إلى ذلك العظيم كان أولُ معانيه أن كلمة «أفندى» تطاولتْ إلى كلمة «باشا» بالسبّ عَلَنا....!

* * *

(١) هــذه ألقاب وضعتها الدولة العثمانية البائدة. فأفســدت الناس بكبرياء الألفاظ الفارغة وقد أرادت بها رفع الأعلى، فانتهى أمرها إلى سقوط الأعلى والأسفل.

(٢) انظر مقالة (البك والباشا) فى الجزء الثانى.

وانقبضوا عن (الأفندى) وأعرضوا عنه إعراضًا كان معناه الطرد، ثم جاء (البك) يخطب الفتاة.

و«بك» مَنْبَهَةٌ للاسم الخاطب، وشَرفٌ وقَدْرٌ وثناء اجتماعى، وذِكر شهير، وإرغامٌ على التعظيم بقوة الكلمة، ودليلٌ على الحُرُمَات اللازمة للاسم لزومَ السواد للعين، ولو لم يكن تحت (بك) رجلٌ، فإن تحتها على كل حال (بك)...! وأنْعَمَ له الباشا، ووصل يَده بيد ابنته فألبَسَها وألبَسَتْه، وأعلمها أبوها أنه قد فَحَصَ عن البك فإذا هو (بك) قوة مائتى فدان... أما الأفندى فظهر من الفحص الهندسّى الاجتماعىّ أنه (أفندى) قوة خمسة عشر جنيها فى الشهر...!

وخَنَسَ الأفندى وتراجَعَ مُنْخَزِلاً، وقد علم أن (الباشا) إنما زوَّج لقبَه قبل أن يزوج ابنَته، وأنه هو لن يملك مهرَ هذا اللقب إلا إذا ملك أن يُبدّل أسباب التاريخ الاجتماعى فى الأمم الضعيفة، فينقلَ إلى العقل أو النفس ما جعلتْه «أمم الأكل والشرب» من حق المعدة، فلا يكون (باشا) إلا مخترعٌ شرقىٌ مُفْلِس أو أديبٌ عظيمٌ فقير، أو مَن جرى هذا المجرَى فى سموّ المعنى لا فى سموّ المال.

وقدَّمت مائتَا الفدان مهرها «الطّينىَّ» العظيم بما تعبيُرهُ فى اللغة الطينية: ثمنُ عشرين ثورًا، ومثلها جاموسًا، ومثلها بِغالاً وأحمِرة، وفوقها مائةُ قنطار قطنًا، ومائة إردب قمحًا؛ ثم ذرةً، ثم شعيرًا. والمجموعُ الطينىُّ لذلك ألفُ جنيه، وعزّى الباشا أنه مستطيعٌ أن يقول للناس: إنها خمسة آلاف، اختزلتها الأزْمة قَبَّحَها الله....!

ثم زُفَّت «بنت الباشا» زفافًا طينيًّا بهذا المعنى أيضًا، كان تعبيرُهُ: أنه أنفق عليه ثمنُ ألفِ قنطارٍ بصلاً، ومائةِ غرارةٍ من السَّماد الكيماوى، كأنما فُرِش بها الطريق...!

وَطفِقَ الباشا يُفاخِر ويتمدَّحُ، وَيتَبَذَّخُ على الأفندى وأمثالِ الأفندى بالطين ومعانى الطين؛ فردَّت الأقدارُ كلامَه، وجعلت مَرْجعَه فى قلبه، وهيَّأتْ لبنت الباشا معيشةً «طِينية» بمعنى غير ذلك المعنى...

* * *

ومـات الطفل؛ فردَّت هذه النكبةُ بنتَ الباشـا إلى معانى انفرادِها بنفسـها قبل الزواج، وزادتها على انفرادها الحزنَ والألم، وألقت الأقدارُ بذلك فى أيامها ولياليها الترابَ والطين.

ولجّ الحزنُ ببنت الباشا فجعلت لا ترى إلا القبرَ، ولا تتمنى إلا القبر، تلحق فيه بولدها؛ فوضعت الأقدارُ من ذلك فى روُحِها معنى الطين والتراب.

وأسقم الهمُّ بنتَ الباشا وأذابها؛ فنقلت الأقدار إلى لحمها عَمَلَ الطين، فى تحليله الأجسامَ وإذابَتِها تحت البِلَى.

***

وكان وراء قصرهـا حِـوَاء[1] يأوى إليه قوم من «طين الناس» بنسـائهم وعيالهم، وفيهـم رجلٌ «زَبَّالٌ» لـه ثلاثة أولاَد، يراهم أعظمَ مَفَاخـره وأجملَ آثاره، ولا يزال يرفع صوتَه متمَدّحًا بهم، ويخترع لذلك أسـبابًا كثيرة لكى يَسمعَه جيرانُه كل ليلة مُفاخرًا، مرة بأحمد، ومرة بحَسن، ومرة بعَلىّ، وأعجَبُ أمرِه أنه يرى أولاده هؤلاء متمِّمين فى الطبيعة لأولاد «الباشوات»... وهو يحبهم حبَّ الحيوان المفترِسِ لصغاره؛ يرى الأسـدُ أشبالهَ هم صنعةَ قوَّته، فلا يزال يَحُوطُهم ويتمَّمهم ويرعاهم، حتى إنه ليقاتلُ الوجود من أجلهم؛ إذ يشـعر بالفطرة الصادقة أنه هو وجُودُهم، وأن الطبيعة وهبتْ له منهم مَسَـرَّاتِ قلبه، ذلك القلب الذى انحصرت مسرَّاتُه فى النسل وحده، فصار الشعورُ بالنسل عنده هو الحبَّ إلى نهاية الحب. وكذلك الزبَّالُ الأسد[2].

ومن سخرية القدر أن زبَّالنا هذا لم يسكن الحواء إلا فى تلك الليلة التى جلست فيها بنت الباشا على ما وصفْنا، وفى ضلوعها قلبٌ يُفَتِّتُ من كبدها، ويُمزِّق من أحشائها.

---

(١) الحواء: جماعة من البيوت كهذه العشش التى يسكنها الصعايدة فى بعض الأحياء.

(٢) هذا الزبال شـخصية حقيقية، لو قلنا بمذهب الرجعة لكان «أرسـطو» رجع زبالا ليتمم فلسـفته. والكاتـب يعرف الرجل ويـبره أحيانًا وكان (حضرته) قـد طلب إلينا أن نصنع له (مـوالا) يتغنى به فى (أوقات الصفاء) فوضعنا له الأغنية التى يراها القارئ بعد وهو يصدح بها فى لياليه. وسـنفرد لزبالنا هذا مقالا خاصا إن شاء الله.

وبينما تُناجى نفسَها وتَعْجَبُ من سخرية الأقدار بالباشا والبك، وتَسْتَحْمق أباها فيما أقدم عليه من نبذِ كُفْئها لعجزه عن مهرِ باشا، وإيثار هذا المهر الطينىّ، وتَبَاهيه بـه أمـام الناس، وانْدِرَائه بالطَّعن على من ليس له لقبٌ من ألقاب الطين - بَيْنما هى كذلك إذا بالزبال، كانِسِ التراب والطين يهتفُ فى جوف الليل ويتغنىّ:

يا ليلْ، يا ليلْ، يا ليـــلْ ما تنْجلى يـــا ليـــل

* * *

القلب[1] أهـو راضـــى لكَ حَمدى يـــا ربـــى
مِن الهمـــومْ فاضـــى افرحْ لى يـــا قلبـــى

* * *

يا دوُبْ كِـدا يـــا دوب زَىّ الحِمـــامْ عَايِـــشْ
ما يِمْتِلِكْ غيـرْ تُـــوبْ طُولْ عمرُه فِيهْ نافِـشْ...
يا ليلْ، يا ليلْ، يا لِيـــلْ ما تنْجِلى يـــا لِيـــلْ

* * *

إن قلت أنـــا فَرْحَـــانْ دا مِيـــنْ يِكَدّبْنـــى
واكْتَرْ مِـــنَ السلطـــانْ فرحانْ أنـــا بابْنـــى

* * *

بين السيوفْ يا نـــاسْ لمَ انكَســـرْ سِيفـــى
وابْن الغِنَى مِحْتَـــاسْ وأنا عـــل كيفـــى...
يا ليلْ، يا ليلْ، يا ليـــلْ ما تِنْجِلى يـــا ليـــلْ

* * *

وابْن الغِنَى فِ هْمـــوم والخالى خالى البـــالْ

---

(١) انظر هامش الصفحة السابقة رقم (٢).

والفقْــر مـــا بِيْـــدُومْ   وتْدُومْ همـــومِ المـــالْ

* * *

يا طِيرْ يا طِيرْ، يا طِيــر   الحُــرّ فـــوْقِ اللُّـــومْ
والخِيرْ، جميع الخِيـــر   لُقْمَهْ، وعافْيَه، ونُـــومْ
يا ليل، يا ليلْ، يا ليـــل   ما تِنْجِلِي يـــا لِيـــل

* * *

ولم تختَرْ الأقدارُ إلا زبالا تُرْسِـلُ فى لسـانه سـخريتها بذلك الباشا وبنت ذلك الباشا....!

وكسْرُ قلبٍ بكسرِ قلـــبٍ   وحَطْمُ نَفْس بحطْمِ نفـسِ
ورُبَّ عِزٍّ تَـراه أمســـى   كُنَاسةً هُيِّئَتْ لِكَنْـــس..

■■■

ورقة ورد(*)

«وضعنا كتابنا (أوراق الورد) فى نوع من الترسل لم يكن منه شىء فى الأدب العربى على الطريقة التى كتبناه بها، فى المعانى التى أفردناه لها؛ وهو رسائل غرامية تطارحها شاعر فيلسوف وشاعرة فيلسوفة على ما بيناه فى مقدمة الكتاب. وكانت قد ضاعت (ورقة ورد) وهى رسالة كتبها ذلك العاشق إلى صديق له، يصف من أمره وأمر صاحبته، ويصور له فيها سحر الحب كما لمسه وكما تركه. وقد عثرنا عليها بعد طبع الكتاب، فرأينا ألا ننفرد بها، وهى هذه:»

... كانت لها نفسٌ شاعرة، من هذه النفوس العجيبةِ التى تأخذُ الضّدَّين بمعنى واحد أحيانًا؛ فيَسُرُّها مرةً أن تُحْزِنَها وتستَدعىَ غضبَها، ويُحْزِنُها مرةً أن تَسُرَّها وتبلغ رضاها، كأنْ ليس فى السرور ولا فى الحزن مَعانٍ من الأشياء ولكنْ من نفسها ومشيئتها.

وكان خيالُها مشبوبًا، يُلْقِى فى كلِّ شىء لَمَعَانَ النور وانطفاءه؛ فالدنيا فى خيالها كالسماء التى ألْبسها الليلُ، مُلئِت بأشيائها مبعثَرة مضيئةً خافتةً كالنجوم.

ولها شعورٌ دقيق، يجعلُها أحيانًا من بلاغة حِسّها وإرهافه كأن فيها أكثرَ من عقلها، ويجعلها فى بعض الأحيان من دِقةِ هذا الحسّ واهتياجه كأنها بغير عقل...

وهى ترى أسمى الفكرِ فى بعض أحوالها ألا يكونَ لها فكر؛ فتتركُ من أمورها أشياء للمصادفة، كأنها واثقةٌ أن الحظَّ بعضُ عُشَّاقها. على أن لها ثلاثةَ أنواع من الذكاء، فى عقلها و روحِها وجسمِها: فالذكاء فى عقلها فَهْم، وفى روحها فِتنة، وفى جسمها... خَلاعة.

(*) انظر سبب إنشاء هذا الفصل فى «عود على بدء» من كتاب حياة الرافعى.

وكنت أراها مَرِحَةً مستطارة مما تَطْرَبُ وتتفاءل، حتى لأحسبُها تودُّ أن يخرجَ الكونُ من قوانينه ويطيش...، ثم أراها بعد متُضَوِّرةً مهمومة تحزَنَ وتتشاءم، حتى لأظنها ستزيد الكونَ هماًّ ليس فيه!

وكانت على كل أحوالها المتنافرة.. جميلةً ظريفة، قد تمَّت لها الصورةُ التى تَخلق الحب، والأسرارُ التى تبعثُ الفتنة، والسحرُ الذى يمُيِّزُ روحَها بشخصيتها الفاتنةِ كما تتميز هى بوجهها الفاتن.

* * *

وكان حبى إياها حريقًا من الحب. فمثِّل لعينيك جسمًا تَنَاوَل جِلْدَهُ مَس من لَهَب، فتسلَّع هذا الجلد[1] هنا وهناك من سَلْخ النار، وظهر فيه من آثار الحروق لَهَبٌ يابسُ أحمرُ كأنه عُروقٌ من الجمر انتشرت فى هذا الجسم، إنك إن تمثَّلت هذا الوصفَ ثم نقَلْتَه من الجلد إلى الدم كان هو حريقَ ذلك الحبِّ فى دمى!

والحبُّ - إن كان حبًّا - لم يكن إلا عذابًا؛ فما هو إلا تقديمُ البرهان من العاشق على قوةِ فعل الحقيقة التى فى المعشوق، ليس حالٌ منه فى عذابه، إلا وهى دليلٌ على شىء منها فى جبَرَوتها.

ولقد أيقنتُ أن الغرامَ إنما هو جنونُ شخصية المحب بشخصية محبوبه، فيَسقُطُ العالَمُ وأحكامُه ومذاهبُه مما بين الشخصيتين؛ وينتفى الواقعُ الذى يجرى الناس عليه، وتعودُ الحقائقُ لا تأتى من شىء فى هذه الدنيا إلا بعد أن تمرّ على المحبوب لتجىء منه، ويُصبح هذا الكونُ العظيم كأنه إطارٌ فى عين مجنونٍ لا يحملُ شيئًا إلا الصورةَ التى جُنّ بها!

وتالله لكأنّ قانونَ الطبيعة يقضى ألا تحبَّ المرأةُ رجلاً يسمى رجلا، وألاّ تكون جديرةً بمُحبها، إلا إذا جرت بينهما أهوالٌ من الغرام تتركها معه كأنها مأخوذةٌ فى

---

(١) أى تشقق وتسلخ.

الحرب... تلك الأهوال يُمثِّلها الحيوانُ المتوحّش عملاً جسميًّا بالقتال على الأنثى، ثم تَرقُ فى الإنسانِ المتحضر فيمثِّلهُا عملاً قلبيًّا بالحبّ...

❊ ❊ ❊

أحببتُها جهْدَ الهوى حتى لا مزَيدَ فيه ولا مطمعَ فى مزيد، ولكن أسرارَ فتنتها استمرتَّ تتعددُ فتدفعُنى أن يكون حبى أشدَّ من هذا؛ ولا أعرف كيف يمكنُ فى الحبّ أشدُّ من هذا؟

ولقد كنتُ فى استغاثتى بها من الحب كالذى رأى نفسهَ فى طريق السيَّل ففرَّ إلى ربْوَة عالية فى رأسها عقلٌ لهذا السيَّل الأحمق، أو كالذى فاجأه البركانُ بجنونه وغلِظتِه فهرب فى رقةِ الماء وحِلمه؛ ولا سيلَ ولا بركانَ إلا حُرقَى بالهوى وارتماضى من الحبّ.

أما والله إنه ليس العاشقُ هو العاشق، ولكن هى الطبيعة، هى الطبيعةُ فى العاشق.

هى الطبيعةُ، بجبروتها، وعسْفهِا، وتعنُّتهِا. إذا استراح الناسُ جميعًا قالت للعاشق: إلا أنت...!

إذا عقِل الناس جميعًا قالت فى العاشق: إلا هذا...

إذا بَرَأتْ جراحُ الحياة كلُّها قالت: إلا جَرْحَ الحبّ...!

إذا تشابهتِ الهمومُ كالدَّمعة والدمعة، قالت: إلا هَمَّ العشق...!

إذا تغيَّر الناس فى الحالة بعد الحالة، قالت فى الحبيب: إلا هو...!

إذا انكشف سرٌّ كل شىء، قالت: إلا المعشوقَ؛ إلا هذا المحجَّبَ بأسرار القلب...!

❊ ❊ ❊

ولما رأيتها أوّلَ مرةٍ، ولَمسَنى الحبُّ لمسةَ ساحر، جلستُ إليها أتأمّلهُا وأحْتَسى من جمالها ذلك الضياء الْمُسْكِرَ، الذى تُعرْبدُ له الروحُ عَرْبدَةً كلّها وقارٌ ظاهر... فرأيتُنى يومئذ فى حالة كغَشْية الوحْى، فوقها الآدميّةُ ساكنةً، وتحتها تيّارُ الملائكة يَعُبُّ ويجرى.

وكنتُ ألقَّى خواطر كثيرة، جَعَلتْ كلَّ شــىء منها ومما حولها يتكلم فى نفســى، كأن الحيــاةَ قد فاضــتْ وازدحمت فى ذلك الموضع تجلس فيه، فما شــىء يمرُّ به إلا مسَّتهْ فجعلته حيًّا يرتعش، حتى الكلمات.

وشــعَرْتُ أوّلَ ما شعرْتُ أن الهواء الذى تتنفَّس فيه يرقُّ رِقَّة نسيم السَّحرَ، كأنما انخدع فيها فَحَسبِ وجههَا نورَ الفجر!

وأحسســتُ فى المكان قوةً عجيبةً فى قدرتها على الجذب، جعلْتنى مبُعَثْرًا حولَ هذه الفتاَّنة، كأنها محدودةٌ بى من كلّ جهة.

وخُيّلَ إلىَّ أن النواميسَ الطبيعيةَ قد اختلَّت فى جسمى إما بزيادةٍ وإما بنقص؛ فأنا لذلك أعْظمُ أمامهَا مرةً، وأصغرُ مرة.

وظننتُ أن هذه الجميلة إنْ هى إلا صورة من الوجود النســائىّ الشــاذّ، وقع فيها تنقيحٌ إلهى لتُظهِر للدنيا كيف كان جمالُ حوَّاء فى الجنة.

ورأيتُ هذا الحُسْــنَ الفاتنَ يُشــعْرِنُى بأنه فوق الحسن، لأنه فيها هى، وأنه فوق الجمالِ والنَّضرةِ والمَرَح، لأن الله وَضعه فى هذا السرورِ الحىَّ المخلوقِ امرأة.

والتمستُ فى محاسنها عيبًا، فبعد الجهد قلتُ مع الشاعر:

* إذا عبِتْهُا شبَّهتُها البدر طالعا...! *

***

ورأيتها تضحكُ الضَّحك المسُــتْحَىِ: فيخرج من فمها الجميل كأنما هو شاعرٌ أنه تجرأ على قانون..

وتبَسْم ابتسامات تقول كل منها للجالسين: انظروها! انظروها...!

ويغمُرهُا ضحَكُ العين والوجه والفم وضحكُ الجسمِ أيضًا باهتزازِه وتَرجْرجُهِ فى حركات كأنما يبسم بعضُها ويُقَهْقهُ بعضُها...

وتُلقى نظرات جعَل الله معها ذلك الإغضاءَ وذلك الحياء ليضعَ شيئًا من الوقاية فى هذه القوةِ النّسْويَة، قوةّ تدمير القلب.

وهى على ذلك متساميةٌ فى جمالها حتى لا يتكلمَ جسمُها فى وساوس النفس كلامَ اللحم والدم، وكأنه جسْـمٌ ملائكىّ ليس له إلا الجلالُ طوعا أو كَرْهًا؛ جسم كالمعْبدَ، لايعَرف مَن جاءه أنه جاءه إلا ليبتهلَ ويخشعَ.

وتطالَعُك من حيث تأملتَ فكرةُ المنسجمة على هذا الجسم، تطلبُ منك الفهمَ وهى لا تُفْهَم أبدًا: أىْ تريد الفهمَ الذى لا ينتهى؛ أىْ تطلبُ الحبَّ الذى لا ينقطع.

وهِى أبدًا فى زينة حسـنها كأنها عروس فى معـرِض جَلْوتها؛ غير أن للعروس ساعةً، ولها هى كلُّ ساعة.

* * *

أما طَرفُها فيكاد يصيح تحت النظرات: أنا خائفٌ، أنا خائف!

ووجهُها تتَغَالب عليه الرزَّانةُ والخِفّة، لتقرأ فيه العينُ عقلَها وقلبهَا.

وهى مثل الشِّـعر، تُطْرِبُ القلبَ بالألم يوجَدُ فى بعض السـرور، وبالسرور الذى يُحَسُّ فى بعض الألم.

وهى مِثلُ الخمر، تحسبُ الشيطانَ مُتَرَقْرِقًا فيها بكل إغرائه!

وكلما تناولتْ أمامى شـيئًا أو صنعتْ شيئًا خلقتْ معه شيئًا؛ أشياؤها لا تزيد بها الطبيعة، ولكن تزيد بها النفس.

فيا كَبِدًا طارت صُدُوعا من الأسى...!

* * *

ورأيتُنى يومئذ فى حالة كغَشـيةَ الوحْى، فوقها الآدميّةُ سـاكنةً، وتحتها تيّارُ الملائكةِ يَعُبُّ ويجرى.

* * *

يا سـحْرَ الحب! تركتنى أرى وجههَا من بَعدُ هو الوجه الذى تضحكُ به الدنيا، وتعبسُ وتتَغيظ وتتَحامق أيضًا...

وجعلتْنَى أرى الابتسامةَ الجميلةَ هى أقوى حكومة فى الأرض...!

وجعلتنى يا سحرَ الحب؛ وجعلتى يا سحر الحب محنونًا...!

سُمُوُّ الحب[*]

صاح المنادى فى موسم الحج: «لا يُفْتى الناسَ إلا عَطاء بنُ أبى ربَاح»[1] وكذلك كان يفعلُ خلفاء بنى أمية؛ يأمرون صائحَهم فى الموسم، أن يدلَّ الناس على مفتى مكة وإمامها وعالِمها، ليَلقَوْه بمسائلهم فى الدين، ثم ليُمْسِكَ غيرهُ عن الفتوَى، إذ هو الحجةُ القاطعة لا ينبغى أن يكون معها غيرُها مما يختلف عليها أو يُعارضُها، وليس للحُجج إلا أن تُظاهرَها وتَترَادفَ على معناها.

وجلس عطاء يتحينَّ الصلاة فى المسجد الحرام، فوقف عليه رجلٌ وقال: يا أبا محمد، أنت أفْتَيْتَ كما قال الشاعر:

سَلِ المُفْتِى المكىَّ: هل فى تَزَاورُ ... وضَمَّةَ مُشتاق الفؤادِ جنُاحُ؟

فقال: مَعاذَ اللهِ أن يُذْهِبَ التُّقىَ ... تَلاَصُقُ أكباد بهن جِراحُ!

فرفع الشيخُ رأسه وقال: والله ما قلتُ شيئًا من هذا، ولكنّ الشاعر هو نحَلنَى هذا الرأىَ الذى نَفَثَهَ الشيطانُ على لسانه، وإنى لأخافُ أن تَشيعَ القالَةُ فى الناس، فإذا كان غدٌ وجلستُ فى حلْقَتى فاغْدُ علىَّ، فإنى قائل شيئًا.

وذهب الخبرُ يؤجُّ كما تؤجُّ النار، وتعالَمَ الناسُ أن عطاءً سيتكلمّ فى الحبّ، وعجبوا كيف يدرى الحب أو يُحسُن أن يقول فيه مَن غبَرَ عشرين سنة فراشهُ المسجد، وقد سمع من عائشة أم المؤمنين، وأبى هُريَرة صاحب رسول الله ﷺ، وابن عباس بحر العلم!

وقال جماعةٌ منهم: هذا رجلُ صامِتٌ أكثرَ وقته، وما تكلم إلا خُيّل إلى الناس أنه يُؤيَّد بمثل الوحى، فكأنما هو نَجِىٌّ ملائكة يسمع ويقول، فلعل السماء مُوحِيةٌ إلى الأرض بلسانه وحيًا فى هذه الضلالة التى عمَّت الناس وفَتَنَتْهمُ بالنساء والغناء.

(*) انظر «عود على بدء» من كتاب حياة الرافعى.

(1) ولد هذا الإمام سنة ٢٧هـ وتوفى سنة ١١٥هـ قالوا: ومات يوم مات وهو عند الناس أرضى أهل الدنيا.

ولما كان غدٌ جاء الناسُ أرسالاً إلى المسجد، حتى اجتمع منهم الجمعُ الكثير.

قال عبدُ الرحمن بنُ عبد الله أبى عمّار: وكنتُ رجلاً شابًّا من فتْيان المدينة، وفى نفسى ومن الدنيا ومن هَوى الشباب، فغدوتُ مع الناس، وجئت وقد تكلم أبو محمد وأفاض، ولم أكن رأيته من قبلُ، فنظرتُ إليه فإذا هو فى مجلسه كأنه غرابٌ أسود؛ إذ كان ابنَ أمَة تسمى «بَرَكَة» ورأيتهُ مع سواده أعورَ أفطسَ أشلَّ أعرجَ مفُلفَلَّ الشعَّر، لا يتأمل المرء منه طائلاً، ولكنك تسمعه يتكلم فتظن منه ومن سواده – والله – أن هذه قطعةُ ليل تسْطَعُ فيها النجوم، وتصعدُ من حولها الملائكةُ وتنزل.

قال: وكان مجلسهُ فى قصة يوسف عليه السلام، ووافقتُه وهو يتكلم فى تأويل قوله تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ ﴾ سورة يوسف الآيتان ٢٣، ٢٤.

قال عبد الرحمن: فسمعتُ كلامًا قُدْسيًّا تَضعُ له الملائكةُ أجنحتهَا من رضى وإعجابٍ بفقيه الحجاز. حَفِظْتُ منه قوله:

عَجبًا للحب! هذه ملكَة تعشق فتاها الذى ابتاعه زوجُها بثمن بَخْس؛ ولكنْ أين مُلْكُها وسطوةُ مُلْكها فى تصوير الآية الكريمة؟ لم تَزد الآية على أن قالت: ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي ﴾ و«التَّى» هذه كلمة تدلّ على كل امرأة كائنةً من كانت؛ فلم يَبْقَ على الحبّ مُلْك ولا مَنْزلة؛ وزالَتِ الملِكَةُ من الأنثى!

وأعْجَبُ من هذا كلمة «رَاوَدَتْه» وهى بصيغتها المفردةِ حكايةُ طويلةٌ تشير إلى أن هذه المرأة جعلتْ تعترض يوسفَ بألوان من أنوثتها لَوْن بعد لون؛ ذاهبةً إلىَ فن، راجعةً من فن؛ لأن الكلمةَ مأخوذة من رَوَدَان الإبل فىَ مشيتها؛ تذهبُ وتجىء فى رِفْق. وهذا يُصَوّر حَيْرَةَ المرأة العاشقة، واضطرابها فى حبها، ومحاولتها أن تنفُذ إلى غايتها؛ كما يصورّ كبرياء الأنثى إذ تختالُ وتترفّق فى عرض ضعفها الطبيعىّ كأنما الكبرياءُ شىء آخر غيرُ طبيعتها، فمهما تتهالك على مَن تحبّ وَجَبَ أن يكون

لهذا «الشىء الآخر» مَظهرُ امتناعٍ أو مظهر تحيُّر أو مظهرُ اضطراب، وإن كانت الطبيعةُ من وراء ذلك مندفعةً ماضيةً مصمِّمة.

ثم قال: ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ ليدُلّ على أنها لا تطمع فيه. ولكن فى طبيعته البشرية، فهى تعَرِض ما تعرض لهذه الطبيعة وحدها، وكأن الآيةَ مصرَّحةٌ فى أدب سام كل السموّ، منزَّه غايةَ التنزيه بما معناه: «إن المرأة بذلتْ كلّ ما تستطيع فى إغرائه وتَصبيَنه، مقْبلةً عليه ومتدللةً ومتبذلةً ومُنْصَبَّةً من كلّ جهة، بما جسمها وجمالها على طبيعته البشرية، وعارضةً كل ذلك عَرْض امرأة خلعتْ – أوّل ما خلعتْ – أمام عينيه ثوبَ المُلك».

ثم قال: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ ولم يقل «أغلقتْ» وهذا يُشعر أنها لما يئست، ورأت منه محاولةَ الانصراف، أسرَعتْ فى ثَورة نفسها مهتاجةً تتخيّل القفُل الواحدَ أقفالاً عدةً، وتجرى من باب إلى باب، وتضطربُ يدُها فى الأغلاق، كأنما تحاول سد الأبواب لا إغلاقَها فقطُ.

﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ ومعناها فى هذا الموقف أن اليأسَ قد دفع بهذه المرأة إلى آخر حدوده، فانتهت إلى حالة من الجنون بفكرتها الشهوانية، ولم تعد لا ملكَةً ولا امرأة، بل أنوثة حيوانيةً صِرْفةَ، متكشّفة مصرحّة، كما تكون أنثى الحيوان فى أشد اهتياجها وغَليَانها.

هذه ثلاثةُ أطوار يترقى بعضهُا من بعض، وفيها طبيعةُ الأنوثة نازلةً من أعلاها إلى أسفلها. فإذا انتهت المرأةُ إلى نهايتها ولم يَبْقَ وراء ذلك شىء تستطيعه أو تعرضه بدأت من ثَمَّ عظَمةُ الرجولة السامية المتمكّنة فى معانيها، فقال يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وهذه أسْمىَ طريقة إلى تنبيه ضمير المرأة فى المرأة، إذ كان أساسُ ضميرها فى كل عصر هو اليقين بالله، ومعرفةَ الجميل، وكراهةَ الظلم. ولكنّ هذا التنبيهَ المترادفَ ثلاثَ مرات لم يكسر من نَزْوَتِها، ولم يَفْثأ تلك الحِدة، فإن حبهًا كان قد انحصر فى فكرة واحدة اجتمعت بكلّ أسبابها فى زمنٍ فى مكان فى رَجلُ، فهى فكرةٌ مُحْتَبَسَة كأن الأبوابَ

مغلَّقـةٌ عليها أيضًـا؛ ولذا بقيت المرأة ثائرةً ثورةَ نفسـها. وهنا يعود الأدبُ الإلهىّ السـامى إلى تعبيره المعجز فيقول: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ﴾ كأنما يُومئُ بهذه العبارة إلى أنها ترامَتْ عليه، وتَعَلَّقَتْ به، والتجأت إلى وسيلتها الأخيرة، وهى لَـمْسُ الطبيعة بالطبيعة لإلقاء الجمرةِ فى الهشيم..!

جاءت العاشـقةُ فى قضيتها ببرهان الشـيطان يَقْذفُ به آخر محاولته. وهنا يَقع ليوسفَ عليه السلام برهانُ ربه كما وقع لها برهانُ شيطانها. فلولا برهانُ ربه لكان رجُلاً من البَشرِ فى ضعفه الطبيعى.

قـال أبو محمد: وههنا ههنا المعجـزةُ الكبرى، لأن الآية الكريمة تريد ألا تنفىَ عن يوسـف عليه السـلام فُحولةَ الرجولة، حتى لا يُظَنَّ به، ثم هى تريد من ذلك أن يتعلمّ الرجالُ، وخاصةً الشبانَ منهم، كيف يتسامَوْن بهذه الرجولة فوق الشهوات، حتـى فى الحالـة التى هى نهاية قـدرة الطبيعة؛ حالةِ مَلَكة مطاعة فاتنة عاشـقة مُخْتَلِية متُعَرَّضة متكشِّفَة متهالكة. هنا لا ينبغى أن ييأس الرجل، فإن الوسيلة التى تجعله لا يرى شيئًا من هذا – هى أن يرى برهانَ ربّه.

وهذا البرهانُ يُؤَوِّله كل إنسـان بما شاء، فهو كالمفتاح الذى يوضع فى الأقفال كلِّها فيفُضُّها كلها؛ فإذا مثل الرجلُ لنفسـه فى تلك السـاعة أنه هو وهـذه المرأة منتَصبان أمـام الله يراهما، وأن أمانى القلب التى تهجس فيه ويظنها خافيةً إنما هى صوتٌ عالٍ يسـمعه الله، وإذا تذكرَ أنه سـيموت ويُقْبرَ، وفكَّر فيما يصنعُ الثرى فى جسمه هذا، أو فكر فى موقفه يوم تَشْـهَدُ عليه أعضاؤه بما كان يعمل، أو فكّر فىأن هذا الإثم الذى يقتَرفُه الآن سيكون مَرْجعُه عليه فى أخته أو بيته – إذا فكّر فى هذا ونحوه رأى برهانَ ربهِّ يُطالعه فجأة، كما يكون السائر فى الطريق غافلاً مندفعًا إلى هاوية، ثم ينظر فجأة فيرى برهانَ عَيْنه؛ أترونْه يتردّى فى الهاوية حينئذ، أم يقف دونها وينجو؟ احفظوا هـذه الكلمةَ الواحدة التى فيها أكثر الكلام، وأكثُرالموعظة، وأكثرُ التربية، والتى هى كالدِّرْع فى المعركة بين الرجل والمرأة والشيطان، كلمةً «رأى برهانَ بهّ».

* * *

قال عبد الرحمن بن عبد الله وهو يتحدث إلى صاحبة سُهيَلْ بن عبد الرحمن: ولزِمْتُ الإمامَ بعد ذلك، وأجْمَعْتُ أن أتَشبهَّ به، وأسلكَ فى طريقة من الزهد والمعرفة؛ ثم رجعتُ إلى المدينة وقد حفظتُ الرجلَ فى نفسى كما أحفظ الكلام، وجعلتُ شِعارى فى كل نَزْعة من نَزَعات النفس هذه الكلمةَ العظيمة: ﴿رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾، فما ألممتُ بإثم قطّ، ولا دانيتُ معصيةً، ولا رَهقَنِى مَطْلَبٌ من مطالب النفس إلى يوم الناس هذا، وأرجو أن يعَصْمِنى الله فيما بقى، فإن هذه الكلمة ليست كلمة، وإنما هى كأمر من السماء تحملُه، تمرُّ به آمنًا على كل مَعاصى الأرض، فما يعتَرِضك شىء منها، كأن معك خاتَمَ الَملِكَ تجوزُ به.

قال سهُيل: لهذا لقبَك أهل المدينة «بالقْسَ» لعبادتك وزهدك وعُزُوفِكَ عن النساء، وقليلٌ لك – والله – يا أبا عبد الله، فلو قالوا: ما هذا بَشَرًا إن هذا إلا مَلكٌ، لصدقوا.

* * *

قالت سَلاّمة جاريةُ سُهيل بن عبد الرحمن المُغَنّيةُ، الحاذقةُ الظريفةُ، الجميلةُ الفاتنةُ، الشاعرةُ القارئة، المؤرخةُ المتحدثة، التى لم يجتمع فى امرأة مثلهِا حُسنُ وجهها، وحُسنُ غنائها، وحُسن شِعرها – قالت: واشترانى أمير المؤمنين يزيد ابن عبد الملك بعشرين ألفَ دينار «عشرة آلاف جنيه» وكان يقول: ما يُقِرُّ عينى ما أوتيتُ من الخلافة حتى أشترىَ سلاّمة، ثم قال حين ملكنى: ما شاء بعدُ من أمر الدينا فَلْيَفُتْنى! قالت: فلما عُرضتُ عليه أمرنى أن أغنيّه، وكنت كالمخبولةِ من حبّ عبد الرحمن القَسّ، حبًّا أراه فالِقًا كَبدِى، آتيا على حشُاشتى: فذهب عنى والله كلُّ ما أحفظه من أصوات الغناء، كما يُمسَح اللوحُ مما كُتِبَ فيه، وأنسيتُ الخليفة وأنا بين يديه، ولم أر إلا عبدَ الرحمن ومجلسَه منى يوم سألنى أن أغنيّه بشعره فِىَّ، وقَوْلى له يومئذ: حُبًّا وكرامةً وعزَاةً لوجهك الجميل. وتناولتُ العودَ وجسسته بقلبىِ قبل يدى، وضربتُ عليه كأنى أضرب لعبد الرحمن، بيد أرى فيها عقلاً يحتال حيلة امرأةٍ عاشقةٍ. ثم اندفعتُ أغنى بشعر حبيبى:

إن التى طَرَقَتْك بين ركائب ... تمشِى بمزْهَرِها وأنتَ حَرَامُ

لِتصِيد قَلبـَكَ، أو جـزاءَ مودَّة إن الرفيـقَ لـه علـيكَ ذمِـامُ
بـاتت تُعَلّلُنـا وتـَحْسبُ أننا فى ذاك أيقـاظٌ. ونحـن نـيامُ

وغنيتـه والله غِنـاءَ والهـة ذاهبـة العقل كاسـفة البـال، ورددته كمـا ردّدته لعبد الرحمـن، وأنا إذ ذاك بين يديه كالوردة أوّلَ مـا تتفتَّح. وأنا أنظر إليه وأتبين لصوتـى فى مِسْـمعيه صوتًا آخر... وقطَّعتـه ذلك التقطيعَ، ومدّدتُـه ذلك التمديدَ، وصحِت فيه صيحْة قلبى وجوارحى كلّها كما غنيتُ عبدَ الرحمن لكيما أؤدىَ إلى قلبه المعنـى الذى فى اللفظ والمعنى الذى فى النفس جميعًا. ولكيما أُسْـكرِهَ – وهو الزاهدُ العابد – سكرَ الخمر بشىء غير الخمر!

وما أفقْتُ من هذه إلا حين قطعْتُ الصوت. فإذا الخليفةُ كأنما يسمع من قلبى لا من فمى وقد زَلْزَلهُ الطرب، وما خفَيَ علىِ أنه رجلٌ قد ألمَّ بشأن امرأة، وخشيتُ أن أكونَ قد افْتضَحْتُ عنده، ولكنْ غلبتهْ شـهوتُه، وكان جَسـدًا بما فيه يريد جسدًا لمِا فيه، فمنْ ثَم لّم ينْكر ولم يتغيرَّ.

واشترانى وصِرْتُ إليه، فلما خلَوَنْا سألنى أن أغنى فلم أشعر إلا وأنا أغنيّه بشعر عبد الرحمن:

ألاقـلْ لهذا القلبِ: هـل أنت مبُصْـر وهـل أنـتَ عن سلاَّمـة اليوم مـقـُصْـرُ
إذا أخـذَتْ فـى الصوتِ كاد جليسهُـا يطيـرُ إليـها قـلبهُ حيـن تنـظـرُ

وأدّيتـه على ما كان يستحسـنه عبدُ الرحمن ويطربُ له؛ إذ يسـمعُ فيه هَمْسًـا من بكائى، ولهفةً مما أجدُ به، وحسَـرة على أنه ينسـكبُ فى قلبى وهو يَصُدُّ عنى ويتحامانى، وما غنَّيتُ: «وهل أنتَ عن سـَّلامةَ اليـومَ مقُصْر» إلا فى صوت تنوح به سلاّمةُ على نفسها وتندُب وتتفجّع!

فقال لَى يزيد وقد فَضحْتُ نفسـى عنده فضيحةً مكشوفة: يا حبيبتىّ مَن قائلُ هذا الشعر؟

قلت: أحدثّك بالقصة يا أمير المؤمنين؟

قال: حدثَّينى.

قلت: هو عبد الرحمن بن أبى عمار الذى يلقبونه بالقّس لعبادته ونسُكه، وهو فى المدينة يشبه عطاء بن أبى رَبَاح، وكان صديقًا لمولاى سُهيَلْ، فَمرَّ بدارنا يومًا وأنا أُغنى فوقف يسمع، ودخل علينا «الأحْوَصُ» (١)، فقال: ويْحَكُمْ؟ لكأنّ الملائكَةَ والله تتلو مزاميرَها بحَلْق سلاَّمة، فهذا عبد الرحمن القَس قد شغُل بما يسمع منها، وهو واقفٌ خارجَ الدار، فتسَارَعَ مولاى فخرج إليه ودعاه إلى أن يدخل فيسمعَ منىّ، فأبى! فقال له: أما عَلمْتَ أن عبد الله بن جعفر، وهو مَنْ هو فى محلِّه وبيته وعلمِه قد مشَىَ إلى جميلة أستاذة سلاَّمة حين عَلم أنها آلَتْ أليةَّ ألا تُغنَى أحدًا إلا فى منزلها؛ فجاءها فسمع منها، وقد هيّأتْ له مجلسها، وجعلت على رءوس جواريها شعورًا مُسدَلَةً كالعناقيد، وألبستهن أنواع الثياب المصبَغَّةَ، ووضعتْ فوق الشعور التيجان، وزينتهنّ بأنواع الحِلَى، وقامتْ هى على رأسه، وقام الجوارى صفَّنْ بين يديه، حتى أقسم عليها فجلسْت غير بعيد، وأمرت الجوارى فجلْسن، ومع كل جارية عودُها، ثم ضربْن جميعًا وغنّتْ عليهن، وغنى الجوارى على غنائها، فقال عبد الله: ما ظننتُ أن مثل هذا يكون! وأنا أقْعدُك فى مكان تسمع مِن سلامة ولا تراها، إن كنت عند نفسك بالمنزلة التى لم يبلغهْا عبد الله بن جعفر!

قالت سلاّمة: وكانت هذه والله - يا أمير المؤمنين - رُقْيَةً من رُقىَ إبليس؛ فقال عبد الرحمن: أمّا هذا فَنَعَمَ. ودخل الدار وجلس حيث يسمع، ثم أمرنى مولاى فخرجْت إليه خروجَ القمر مشَبْوُبًا من سحابة كانت تغطيّه؛ فأما هو فما رآنى حتى عَلقْت بقلبه، وسبَّحَ طويلًا طويلًا، وأما أنا فما رأيتهُ حتى رأيتُ الجنةَ والملائكةَ، ومُتُّ عن الدنيا وانتقلتُ إليه وحده...

***

قالت سلامة: وافْتَضَحْت مرة أخرى، فَتَنَحْنحَ يزيد... فضحكتُ وقلت: يا أمير المؤمنين، أحَدّثُك أم حسبك؟ قال: حدثينى ويْحَك! فوالله لو كنت فى الجنة كما أنت

(١) هو الأحوص الشاعر المعروف.

لأعدْت قصةَ آدمَ مع واحد واحد من أهلها حتى يُطْردوا جميعًا من حُسْنها إلى حسنك! فما فعَل القَسُّ ويحكِ؟

قلت: يا أمير المؤمنين، إنه يُدْعىَ القسّ قبل أن يهوانى.

فقال يزيد: وهل عَجَبٌ وقد فَتنته أن يَطردَه «البَطْريق»؟

قلت: بل العجب وقد فَتنْتُه أن يصير هو البطريق...!

فضحك يزيد وقال: إيه، ما أحسب الرَّجلَ إلا قد دُهىِ منك بداهية! فحدثينى فقد رفعتُ الغَيْرة؛ إنى والله أرى هذا الرجل فى أمره وأمرك إلا كالفَحل من الإبل، قد تُرِكَ من الركوب والعمل، ونعُمَّ وسُمِّن للفْحلَة فَنَدّ يومًا، فذهب على وجهه، فأقْحمَ فى مفَازة، وأصاب مَرتعًا فَتوحَّش واستأسد، وتبيَّن عليه أثر وحشيته، وأقبْل قبالَ الجن من قوة ونشاط وبأس شديد، فلما طال انفراده وتأبُّده عَرَضتْ له فى البَرّ ناقةٌ كانت قد ندتْ من عطنها، وكانت فارهة جسيمة قد انتهتْ سمنًا، وغطاها الشحم واللحم، فرآها البازلُ الصئولُ، فهاجَ وصال وَهدرَ، يخبطُ بيده ورجلْه، ويسمعَ لجَوْفهِ دَوِىٌّ من الغليَان، وإذا هى قد ألقتْ نفسهاَ بين يديه!

أما والله لو جَعل الشيطان فى يمينه رجلًا فحلًا قويًا جميلًا، وفى شماله امرأةً جميلةً عاشقةً تهواه، ثم تمطى متدافعًا ومَدّ ذراعيه فابتعدا، ثم تراجَعَ متداخلاً وضمَ ذراعيه فالتقيا؛ لكان هذا شَأنَ ما بينك وبين القَس!

قلت: لا والله يا أمير المؤمنين، ما كان صاحبى فى الرجال خلاً ولا خمرًا، وما كان الفحلَ إلا الناقةُ...! وما أحسبُ الشيطان يعرف هذا الرجل، وهل كان للشيطان عمل مع رجل يقول: إنى أعرف دائمًا فكرتى وهى دائمًا فكرتى لا تتغيّر . ذاك رجل أساسه كما يقول: ﴿ بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ ولقد تصنعَّتُ له مرةً يا أميرَ المؤمنين، وتشكلَّت وتحليَّت وتبرّجتُ، وحدّثت نفسى منه بكثير، وقلت إنه رجلٌ قد غبرَ شبابَه فى وجود فارغ من المرأة، ثم وجد المرأة فىّ وحدى. وغنيته يا أمير المؤمنين غناءَ جوارحى كلّها، وكنت له كأنى حرَيرٌ ناعم يترَجرْجُ وينُشَر أمامَه ويُطوْىَ.... وجلست كالنائمة

فى فراشها وقد خلا المجلس، وكنت من كل ذلك بين يديه كالفاكهة الناضجة الحُلوةِ تقول لمن يراها: «كُلْنى...!»

قال يزيد: ويحك ويحك! وبعد هذا؟

قلت: بعد هذا يا أمير المؤمنين، وهو يهوانى الهوى البَرْحَ، ويعشقنى العشقَ المُضْنى لم يَر فى جمالى وفتنتىّ واستسلامى إلا أن الشيطانَ قد جاء يَرْشوه بالذهب.. الذى يتعامل به!

فضحك يزيد وقال: لا والله، لقد عَرَضَ الشيطانُ منك ذهبهَ ولؤلؤَه وجواهرَه كلَّها، فكيف لعَمرى لم يُفْلح، وهو لو رشانى من هذا كلّه بدرهم لوجد أميرَ المؤمنين شاهدَ زور...!

قلت: ولكنى لم أيأس يا أمير المؤمنين، وقد أردت أن أظهرَ امرأةً فلم أفلح، وعملِتُ أن أظهْرَ شيطانةً فانخذلْت، وَجَهدت أن يرى طبيعتى فلم يرنى إلا بغير طبيعة، ولكما حاولتُ أن أنزل به عن سَكينته ووقَارهِ رأيتُ فى عينيه مالا يتغير كنور النجم، وكانت بعضُ نظراته والله كأنها عصا المؤدب، وكأنه يرى فى جمالى حقيقةً من العبادة، ويرى فى جسمى خُرافة الصنم، فهم مقُبْل عَلَىّ جميلةً، ولكنه منُصْرفٌ عنى امرأة.

لم أيأس على كل ذلك يا أمير المؤمنين، فإن أولَ الحب يطلب آخرهَ أبدًا إلى أن يموت. وكان يُكثِر من زيارتى، بل كانتْ إلىّ الغَدْوَةُ والرَّوحةُ، من حُبّه إياى وتعلقّه بى؛ فواعدتُه يومًا أن يجىء متى وارى الليل أهلَه لأغنيّه: «ألا قل لهذا القلب...» وكنت لحنتهَّ ولم يسمعْه بعد، ولبثتُ نهارى كله أستَرْوِحُ فى الهواء رائحة هذا الرجل مما أتلهَّف عليه، وأتمثل ظلامَ الليل كالطريق الممتدّ إلى شىء مخبوء أعلِّل النفسَ به، وبلغْتُ ما أقدرُ عليه فى زينة نفسى وإصلاح شأنى، وتشكلتُ فى صنُوف من الزهر، وقلت لأجملهن وهى الوردةُ التى وضعتها بين نهَدَىَّ: يا أختى، اجذْبى عينه إليك، حتى إذا وقَفَ نظرُه عليك فانزلى به قليلاً أو اصعدى به قليلاً...

قال يزيد وهو كالمحموم: ثُم ّثمّ ثمّ؟

قلت: يا أمير المؤمنين، ثم جاء مع الليل، وإنّ المجلسَ لخال ما فيه غيرى وغيرُه، بما أكابدُ منه وما يُعانى منى فغنيته أحرَّ غناء وأشجاه، وكان العاشقُ فيه يَطَرب لصوتى، ثم يَطْربُ الزاهدُ فيه من أنه استطاع أن يطرب، كما يطَيش الطفلُ ساعةَ ينطلقُ من حبس المؤدبَّ.

وما كان يسوءنى إلا إنه يُمارسِ فىّ الزهدَ ممَارسَة، كأنما أنا صُعوبةٌ إنسانيةٌ فهو يريد أن يغلبهَا، وهو يُجرّب قُوى نفسهِ وطبيعته عليها؛ أو كأنه يرانى خيالَ امرأة فى مرآة، لا امرأة مائلةً له بهواها وشبابها وحسنها وفتنتها، أو أنا عنده كالحورية من حوُر الجنة فى خيال من هى ثوابهُ، تكون معه، وإن بينها وبينه من البعد ما بين الدنيا والآخرة؛ فأجمعتُ أن أحطم المرآة ليرانى أنا نفسى لا خيالى، واستنجدتُ كلَّ فتنتى أن تجعله يفرُّ إلىّ كلما حاول أن يفرَّ منى.

فلما ظننتنُى ملأتُ عينيه وأذنيه ونفسَه وانصببتُ إليه من كل جوارحه، وهِجْتُ التيَّار الذى فى دمه ودفعتُه دفعًا - قلتُ له: «أنت يا خليلى شىء لا يعُرَف، أنت شىء متُلَفِّفٌ بإنسان، ومنَ التى تعشق ثوبَ رجل ليس فيه لابسُه؟»

ورأيته والله يطوفُ عند ذلك بفكره، كما أطَوّفُ أنا بفكرى حول المعنى الذى أردتُه. فملتُ إليه وقلت[1]: «أنا والله أحبك!»

فقال: «وأنا والله الذى لا إله إلا هو...»

قلت: «وأشتهى أن أعانقَك وأقبلك!»

قال: «وأنا والله!»

قلت: «فما يمنعك؟ فوالله إن الموضع لَخاَل!»

قال: يمنعنى قول الله عزّ وجلّ: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ٦٧ ﴾ سورة الزخرف الآية ٦٧. فأكره أن تحوُل مودتى لك عداوةً يوم القيامة.

(١) هذا نص كلامهما كما رواه صاحب الأغانى - إلى قوله: (يوم القيامة)؛ وهو كل القصة فى كتابه.

إنى أرى [برهانَ ربى] يا حبيبتى، وهو يمنعنى أن أكون من سيئاتك وأن تكونى من سـيئاتى، ولو أحببـتُ الأنثى لوجدتُك فى كل أنثى، ولكنــى أحب ما فيك أنت بخاصتّك، وهو الذى لا أعرفه ولا أنتِ تعرفينه، هو معناك يا سلاّمة لا شخصُك.

ثـم قام وهو يبكى، فما عاد بعد ذلك يا أمير المؤمنين ما عاد بعد ذلك، وترك لى ندامتــى وكلامَ دموعــه؟ وليتنى لم أفعل، ليتنى لم أفعل. فقـد رأى أن المرأة – فى بعض حالاتها – تكشف وجهها للرجل، وكأنها لم تُلق حجابها بل ألقتْ ثيابها.

■■■

قصة زواج(*) وفلسفة المهر

قال رســولُ عبد الملك: ويحكَ (يا أبا محمد) لَكأن دَمَكَ والله من عَدوِّك؛ فهو يفور بك لتَلِجَّ فى العناد فتُقْتَل، وكأنى بك والله بين سَبُعَيْنِ قد فَغَرَا عليك؛ هذا عن يمينك وهذا عن يسارك، ما تفرُّ من حَتْف إلا إلى حتف، ولا ترحمك الأنيابُ إلا بمخاليبها.

ههنا هِشَــامُ بنُ إسماعيلِ عامل أمير المؤمنين، إن دَخَلَته الرحمةُ لك استوثق منك فــى الحديد، ورَمَى بك إلى دمشــق، وهناك أمير المؤمنين، ومــا هو والله إلا أن يُطعم لحمك الســيفَ يَعض بك عض الحية فى أنيابها الســمّ؛ وكأنى بهذا الجنب مصروعًا لمضجعه، وبهذا الوجه مضرجًا بدمائه، وبهذه اللحية مُعَفَّرَةً بترابها، وبهذا الرأس مُحْتَــزًّا فــى يد (أبى الزُّعَيْزِعَة) جــلاّد أمير المؤمنين، يلقيه من ســيفه رَمْىَ الغُصن بالثمرة قد ثقلتْ عليه.

وأنت (يا ســعيد) فقيــهُ أهل المدينة وعالمُها وزاهدُها، وقــد عَلم أميرُ المؤمنين أن عبد الله بن عُمر قال فيك لأصحابه: «لو رأى هذا رســولُ الله ﷺ لَسَــرّه» فإن لم تَكْرُمْ عليك نفسُك فَلْيَكْرُمْ على نفسك المسلمون؛ إنك إن هلكت رَجَعَ الفِقْهُ فى جميع الأمصار إلى المَــوالى؛ ففقيهُ مكّةَ عطــاء، وفقيه اليمن طاووس، وفقيــه اليمامة يحيى بن أبى كثير، وفقيهُ البصرة الحسن، وفقيه الكوفة إبراهيم النخعىّ، وفقيهُ الشام مكحول، وفقيه خراســانَ عطاء الخراســانى. وإنما يتحدث الناسُ أن المدينة من دون الأمصارِ قد حرســها الله بفقيهها القرشــىّ العربىّ (أبى محمد بن المُسيَّب) كرامةً لرسول الله ﷺ. وقــد علم أهلُ الأرض أنــك حَجَجْتَ نيّفًا وثلاثين حَجّة، ومــا فاتتك التكبيرةُ الأولى فى المســجد منذ أربعين ســنة، وما قمتَ إلا فى موضعك من الصفّ الأول، فلم تنظر قطُّ إلى قفا رجل فى الصلاة، ولا وجد الشيطانُ ما يعرضُ لك من قبلِهِ فى صلاتك

(*) انظر «قصص الرافعى» فى «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعى».

ولا قَفَا رجُل؛ فاللّه الله يا أبا محمد، إنى والله ما أغشُّك فى النصيحة؛ ولا أخدعك عن الـرأى، ولا أنظر لك إلا خيرَ ما أنظر لنفسـى؛ وإن عبد الملك بـنَ مَرْوانَ مَنْ عَلِمتَ؛ رجلٌ قد عمّ الناس ترغيبُه وترهيبُه، فهو آخذُك على ما تكره إن لم تأخذه أنت على ما يُحبّ؛ وإنه والله يا أبا محمد، ما طَلَبَ إليك أميرُ المؤمنين إلا وأنت عنده الأعلى، ولا بعثنـى إليك إلا وكأنه يسـعَى بين يديك، رعايةً لمنزلتك عنـده، وإكبارًا لحقّك عليه، وما أرسـلنى أخطُب إليك ابنتَك لِوَلِّى عهده إلا وهو يبتذلُ نفسَه ابتذالاً ليَصِلَ بك رَحِمَهُ، ويُوَثِّقَ آصِرتَه؛ وإن يكن الله قد أغناك أن تنتفع به وبمُلْكه وَرَعًا وزَهادة، فما أحوجَ أهلَ مدينة رسول الله ﷺ أن ينتفعوا بك عنده، وأن يكونوا أصهارَ (الوليد) فيَسْـتَدْفِعُوا شَـرًّا ما به عنهم غنى، ويجتلبوا خيرًا ما بهم غنىً عنه، ولستَ تدرى مـا يكون من مَصَادر الأمور ومواردها. وإنـك والله إن لججتَ فى عنادك وأصْررْت أن تردّنى إليه خائبًا، لَتَهيجَنَّ قَرَمَ سـيوفِ الشـام إلى هذه اللحـوم ولَحْمُكَ يومئذ من أطيبها، ولأمير المؤمنين تارتان: لينٌ وشـدة؛ وأنا إليك رسـول الأولى، فلا تجعلْنى رسول الثانية...

* * *

وكان أبو محمد يسمع هذا الكلامِ وكأن الكلام لا يَخْلُصُ إلى نفسه إلا بعد أن تتساقطَ معانيه فى الأرض، هَيبةً منه وفرقًا من إقدامها عليه؛ وقد لان رسـولُ عبد الملك فى دَهائه حتى ظن عند نفسـه أنه سَـاغَ من الرجل مَسَاغَ الماء العذْبِ فى الحلْق الظامئ، واشـتدَّ فى وَعيده حتى ما يشكّ أنه قد سقاه ماء حميما فقطَّع أمعاءه؛ والرجلُ فى كل ذلك من فوقه كالسماء فوق الأرض، لو تحوَّل الناس جميعًا كنَّاسين يُثيرون من غبار هذه على تلك لما كان مرجع الغبار إلا عليهم، وبقيت السماءُ ضاحكةً صافيةً تتلألأ.

وقلَّب الرسـولُ نظرَه فى وجه الشـيخ، فإذا هو ليس فيه معنى رغبة ولا رهبة، كأن لم يَجعلْ له الأرضَ ذهبًا تحت قدميه فى حالة، ولم يملأ الجوَّ سيوفا على رأسه فى الحالة الأخرى؛ وأيقن أنه من الشيخ العظيم كالصبىّ الغِرّ قد رأى الطائرَ فى أعلى الشجرة فطمعَ فيه، فجاء من تحتها يناديه: أن انزلْ إلىّ حتى آخذَك وألعبَ بك...

وبعد قليل تكلم أبو محمد فقال:

يا هذا، أمّا أنا فقد سمعتُ، وأما أنت فقد رأيتَ، وقد روينا أن هذه الدنيا لا تعدِلُ عند الله جَناحَ بعوضة، فانظر ما جئتنى أنت به، وقسْـه إلى هذه الدنيا كلّها، فكمْ – رحمك الله – تكون قد قَسَمْتَ لى من جناحِ البعوضة. . ؟ ولقد دُعيتُ من قبلُ إلى نيّف وثلاثـين ألفًا لآخُذَها، فقلـت: لاحاجةَ لى فيها ولا فى بنى مـْروان، حتى ألقى الله فيحكـمَ بينى وبينهم «وهأنذا اليوم أُدعى إلـى أضعافها وإلى المزيد معها؛ أفأقبض يـدى عن جْمرة ثم أمدّها لأملأهَا جمرًا؟ لا والله مارغب عبدُ الملك لابنه فى ابنتى، ولكنه رجلٌ من سياسـته إلصاقُ الحاجة بالناس ليجعلَها مقَادَةً لهم فيُصَرّفهَمُ بها؛ وقد أعجزه أن أبايعَه، لأن رسول الله ﷺ نهى عن بيَعتين، وما عبدُ الملك عندنا إلا باطل كابن الزُّبير، ولا ابن الزبير إلا باطل كعبد الملك، فانظر فإنك ما جئت لابنتى وابنِه، ولكن جئت تخطبنى أنا لبيعته. . .

قال الرسـول: أيها الشـيخ، دع عنك البيعة وحديثها، ولكن مَنْ عسـى أن تجد لكريمتك خيرًا من هذا الذى سـاقه الله إليك؟ إنك لراع وإنها لرعيةٌ وستُسـأل عنها، وما كان الظنُّ بك أن تُسـىء رِعْيتَها وتبخـسَ حقَّها، وأن تَعْضِلَها وقد خطبها فارسُ بنى مروان، وإن لم يكن فارسـهم فهو وليُّ عهد المسـلمين، وإن لم يكن هذا ولا ذاك فهو الوليدُ ابن أمير المؤمنين؛ وأدنى الثلاث أرفعُ الشرف فكيف بهنّ جميعًا، وهنّ جميعًا فى الوليد؟

قال الشـيخ: أمّا إنى مسـئول عن ابنتى، فما رغبتُ عن صاحبك إلا لأنى مسئول عن ابنتى. وقد علمتَ أنت أن الله يسـألنى عنها فى يوم لعل أميرَ المؤمنين وابنَ أمير المؤمنيـن وألفافَهما لا يكونون فيه إلا وراء عبيدها وأوَباشـهِا ودُعّارِها وفجّارها[1]. يخرجون من حساب الفَجَرَةِ إلى حساب القَتَلَة، ومن حساب هؤلاء إلى الحساب على السـرقة والغصْب، إلى حساب أهل البغْى، إلى حساب التفريط فى حقوق المسلمين.

(١) الضمير راجع إلى الدنيا.

ويخفّ يومئذ عبيدُها وأوباشـها ودعّارُها وفجارُها فى زِحام الحشـر، ويمشى أميرُ المؤمنيـن وابنُ أميـر المؤمنين ومن اتصـل بهما، وعليهم أمثـالُ الجبال من أثقال الذنوب وحقوقِ العباد.

فهذا ما نظرتُ فى حسن الرعاية لابنتى، لو لم أضِنَّ بها على أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين لأَوْبَقتُ. لا والله ما بينى وبينكم عمل، وقد فرغْتُ مما على الأرض فلا يمرُّ السيفُ منى فى لحمٍ حىّ.

* * *

ولمـا كان غداةُ غدٍ جلس الشـيخ فى حَلقْته فى مسـجد رسـول الله ﷺ للحديث والتأويل، فسـأل رجلٌ من عُرض المجلس، فقال: يـا أبا محمد، إن رجلاً يُلاحِينى فى صداَق بنته ويكلّفنى مالا أطيق. فما أكثرُ ما بلغ إليه صداقُ أزواجِ رسـول الله ﷺ وصداقُ بناته؟

قال الشـيخ: رَوَيْنا أن عمـر (رضى الله عنه) كان ينهى عـن المغالاة فى الصداق ويقول: «ما تزوَّج رسـول الله ﷺ، ولا زَوَّج بناته بأكثر من أربعمائة درهم»[1]. ولو كانت المغالاة بمهور النساء مَكْرمةً لسبق إليها رسولُ الله ﷺ.

ورَوَيْنا عنه ﷺ أنه قال: «خير النساء أحسنهُنّ وجوهًا وأرخصُهنّ مهورًا».

فصـاح السـائل: يرحمك الله يا أبا محمـد، كيف يأتى أن يكونَ المرأة الحسـناءُ رخيصةَ المهر، وحُسـنهُا هـو يُغْلِيها على الناس؛ تَكثْرُ رغبتُهم فيها فيتنافسـون عليها؟

قال الشـيخ: انظر كيف قلت. أهم يُسـاومون فى بهيمة لا تَعقل، وليس لها من أمرها شـىء إلا إنها بِضاعةٌ من مطامع صاحبها يُغْليها على مطامع الناس؟ إنما أراد رسـول الله ﷺ أن خير النسـاء من كانت علـى جمال وجهها، فـى أخلاقٍ كجمال وجـهها، وكان عقلُها جمالا ثالثًا؛ فهذه إن أصابت الرجلَ الكُفء، يَسَّرتْ عليه، ثم

(١) الدرهم: خمسة قروش.

يسَّـرّتْ، ثم يسَّرت؛ إذ تعتبر نفسَها إنسـانًا، لامتاعًا يطلب شاريًا، وهذه لا يكون رخصُ القيمة فى مَهرها، إلا دليلاً على ارتفاع القيمة فى عقلها ودينها، أما الحمقاء فجمالُها يأبى إلا مضاعفةَ الثمن لحسـنها، أىْ لحُمقْها؟ وهى بهذا المعنى من شرِار النساء وليست من خيارهن.

ولقد تزوج رسـولُ الله ﷺ بعضَ نسـائه على عشـرة دراهم وأثـاثِ بيت، وكان الأثاث: رحى يدٍ، وجَرَّةَ ماء، ووِسادةً من أُدَم حشْوها ليف. وأوْلَم على بعض نسائه بِمُدَّيـن من شـعير، وعلى أخـرى بمدَّين من تمر ومدَّين من سَـويق. وما كان به ﷺ الفقر، ولكنه يَشْرَعُ بسنتِه ليُعلِّم الناسَ من عمله أن المرأة للرجل نَفْسٌ لِنَفْس لا متاعٌ لشاريه؛ والمتاع يُقوَّم بما بُذل فيه إن غاليًا وإن رخيصًا، ولكن الرجلَ يُقوَّم عند المرأة بما يكون منه؛ فمهرها الصحيح ليس هذا الذى تأخذه قبل أن تُحْمَل إلى داره، ولكنه الـذى تجده منه بعد أن تُحْمَل إلى داره؛ مهْرهـا معاملتُها، تأخذ منه يومًا فيومًا، فلا تزال بذلك عروسًـا على نفْس رجُلِها ما دامت فى معاشـرته. أما ذلك الصداق من الذهـب والفضة، فهو صداقُ العروس الداخلة على الجسـم لا على النَّفسْ؛ أفلا تراه كالجسـم يهلـك ويبلى، أفلا ترى هذه الغاَلِيةَ – إن لـم تجد النفْس فى رجُلها – قد تكون عروس اليوم ومطلَّقة الغد؟!

وما الصداق فـى قليله وكثيره، إلا كالإيماء إلى الرجولـة وقدْرتِها، فهو إيماء، ولكنّ الرجلَ قبْل. إن كل امرئ يسـتطيع أن يحمل سـيفًا، والسيفُ إيماء إلى القوة، غير أنه ليس كل ذوى السيوف سواء، وقد يحمل الجبانُ فى كل يد سيفًا، ويملك فى داره مائة سيف؛ فهو إيماء، ولكنَّ البطلَ قبْلُ، ولكن البطَل قَبْل.

مائة سيفٍ يمْهَر بها الجبان قوَّتَه الخائبة، لا تغْنى قوّتَه شيئًا، ولكنها كالتدليس على من كان جبانًا مثله. ويُوشِـك أن يكونَ المهر الغالى كالتدليس على الناس وعَلَى المرأة، كى لا تعلمَ ولا يعلم الناس أنه ثمنُ خيبتها؛ فلو عقلت المرأة لباهت النساء بيُسْـر مهرها، فإنهـا بذلك تكون قد تركت عقلها يعمل عملـه، وكَفَّتْ حماقتهَا أن تُفْسد عليه.

فصاح رجلٌ فى المجلس أيها الشيخ، أفى هذا من دليل أو أثر؟

قال الشيخ: نعم؛ أمَّا من كتاب الله فقد قال الله تعالى ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ سورة الأعراف الآية ١٨٩. فهى زَوْجُه حين تجده هو لا حين تجد مالَه؛ وهى زوجه حين تُتَمِّمُه لاحين تنقصُه، وحين تلائمه لا حين تختلف عليه؛ فمصلحة المرأة زوجةً ما يجعلها من زوجها، فيكونان معًا كالنَّفْس الواحدة، على ما ترى للعضو من جسمه؛ يريد من جسمه الحياةَ لاغيرها.

وأما من كلام رسول الله ﷺ فقد روينا: «إذا أتاكم منْ ترْضَوْن دينَه وأمانَته فزوِّجوه؛ إلاَّ تفعلوا تكنْ فتنةٌ فى الأرض وفساد كبير».

فقد اشترط الدِّينَ، على أن يكون مَرْضيًّا لا أىَّ الدينِ كان، ثم اشترط الأمانةَ، وهى مظهر الدين كله بجميع حسناته، وأيسرها أن يكون الرجلُ للمرأة أمينًا، وعلى حقوقها أمينًا، وفى معاملتها أمينًا؛ فلا يبخسُها ولا يُعْنِتُها، ولا يُسىء إليها؛ لأن كل ذلك ثَلْمٌ فى أمانته؛ فإن ردَّت المرأة مَنْ هذه حالُه وصفتُه من أجل المهر – تقدَّم إليها بالمهر من ليست هذه حالَه وصفتُه، فوقعت الفتنة، وفسدت المرأة بالرجل، وفسد هُوَ بها، وفسد النسل بهما جميعًا، وأهْمِلَ من لا يملك، وتعنَّسَتْ من لا تجد، ويرجع المهر الذى هو سبب الزواج سببًا فى منعه، ويتقارب النساءُ والرجالُ على رغم المهرِ والدينِ والأمانة؛ فيقع معنى الزواج، ويبقى المعطَّلُ منه هو اللفظ والشرع.

هل علمت المرأة أنها لا تدخُل بيتَ رجلها إلا لتجاهدَ فيه جهادَها، وتبلوَ فيه بلاءها؟ وهل يقوم مال الدنيا بحقِّها فيما تعمل وما تجاهد، وهى أم الحياة ومُنْشِئَتُها وحافظتُها؟ فأين يكون موضع المال ومكان التَّفرقةِ فى كثيره وقليله، والمال كلُّه دون حقَّها؟

ولن يتفاوتَ الناس بالمال تختلف درجاتهم به، وتكون مراتبهم على مقداره، تكثُر به مرة وتقلُّ مرة إلا إذا فسد الزمان، وبطلت قضيةُ العقل، وتعطَّل مُوجِب الشرع، وأصبحت السجايا تتحوَّل، يملكها من يملك المال، ويَخسرها من يخسره؛ فيكون الدِّين على النفوس كالدَّخيل المزاحم لموضعه، والمتَدَلى فى غير حقه، وبهذا يرجع باطل الغِنَى دينًا يتعاملُ الناس عليه، ودينُ الفقير بَهْرَجًا لا يروجُ عند أحد؛

وليس هـذا من ديننا، دينِ النفـس والخلق، وإن ألفَ بعير يقْنوهـا الرجل خالصةً عليه، ثابتةً له، لا تزيد فى منزلة دينه قدْر نملةٍ ولا ما دونها. والحجرَان: الذهب والفضة قد يكون شُعاعُهما فى هذه الدنيا أضْوأ من شمسها وقمرها، ولكنهما فى نور النفـس المؤمنة كحصَاتين يأخذهما من تحت قدميه، ويذهب يزعم لك أنهما فى قدرِ الشمس والقمر.

وهلاكُ الناس إنما يُقْضىَ بمحاولتهم أن يكونوا أناسًا بعيوبهم وذنوبهم؛ فهذا هو الإنسان المدُبر عن الله وعن نفسه وعن جنسه؛ لا يكون أبوه أبًا فى عطفه، ولا أمه أمًا فـى محبتها، ولا ابنُه ابنًا فى بِره، ولا زوجُته زوجةٍ فى وفائها؛ وإنما يكونون له مَهالِكَ، كما روينا عن رسول الله ﷺ : «يأتى على الناس زمانٌ يكون هلاكُ الرجل عَلَى يـد زوجته وأبويه ولدَه؛ يعيّرونه بالفقر، ويكلّفوُنــه ما لا يُطيق؛ فيدخل المَداخلَ التى يذهب فيها دينُه فيَهلِك».

* * *

وصاح المؤذن، فقطع الشـيخ مجلسَـه وقام إلى الصلاة، ثم خـرج إلى داره، فتلقّته ابنته وعلى وجهها مثلُ نوره، قالت: يا أبت كنت أتلو الساعة قولَه تعالى: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ سـورة البقرة الآية ٢٠١. فما حَسـنَةُ الدنيـا قال: يا بُنَيَّة، هى التى تَصْلُح أن تُذْكَرَ مع حسـنة الآخرة، وما أراها للرجل إلا الزوجةَ الصالحةَ، ولا للمرأة...

وطُرق الباب، فذهب الشـيخ يفتـح، فإذا الطارق (عبدالله بن أبـى وَدَاعة)؛ وكان يجالســه ويأخذ عنــه ويلزم حلقتَه، ولكنه فقده أيامًا؛ فدخل فجلس. قال الشـيخ: «أين كنت؟»

قال: «تُوفيتْ أهلى فاشتغلْتُ بها».

قال الشـيخ: «هـلاّ أخبرتنا فشـهدناها». ثم أخـذ يُفيض فى الـكلام عن الدنيا والآخرة؛ وشـعَر ابن أبى وداعة أن القبر ما يزال فى قلبه حتى فى مجلس الشـيخ، فأراد أن يقوم، فقال (سعيد):

«هل استحدثْتَ امرأةً غيرَها ؟»

قال: «يرحمك الله، أين نحن من الدنيا اليوم، ومَن يُزَوّجنى وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟»

قال الشيخ: «أنا.......»

* * *

أنا، أنا، أنا... دوَّى الجُو بهذه الكلمة فى أذن طالب العلم الفقير، فحسب كأن الملائكةَ تنشد نشيدًا فى تسبيح الله يَطِنُّ لحنُه: «أنا، أنا، أنا...».

وخرجت الكلمة من فم الشيخ ومن السماء لهذا المسكين فى وقت واحد، وكأنها كلمةٌ زوّجْته إحدى الحور العين.

فلما أفاق من غَشيَةِ أذنِهِ . . قال: «وَ تَفعَل؟»

قال (سعيد): «نعم» وفسر (نعمْ) بأحسنِ تفسيرها وأبلغهِ؛ فقال: قم فادع لى نفرًا من الأنصار فلما جاءوا حمد الله وصلى على النبى ﷺ، وزوجّه عَلَى ثلاثة دراهم (خمسة عشر قرشًا).

ثلاثة دراهم مهرُ الزوجة التى أرسل يخطبها الخليفة العظيم لولى عهده بثقلها ذهبًا لوشاءت.

وغشَّى الفرح هذه المرة عينى الرجل وأذنيه، فإذا هو يسمعُ نشيدَ الملائكة يطن لحنه: «أنا، أنا، أنا...».

ولم يشعر أنه على الأرض، فقام يطير، وليس يدرى من فرحه ما يصنع، وكأنه فى يوم جاءه من غير هذه الدنيا يتعرَّفُ إليها بهذه الصوت الذى لا يزال يطنُّ فى أذنيه «أنا، أنا، أنا..».

وصار إلى منزله وجعل يفكر: مِمّن يأخذ، ممن يستدين؟ فظهرت له الأرضُ خَلاءً من الإنسان، وليس فيها إلا الرجلُ الواحد الذى يضطرب صوته فى أذنيه: «أنا، أنا، أنا..».

وصلى المغربَ وكان صائمًا، ثم قام فأسرج، فإذا سراجُه الخافتُ الضئيلُ يسطع لعينيه سطوع القمر، وكأنه فى نوره وجهَ عروسٍ تقول له: «أنا، أنا، أنا..».

وقدّم عَشاءه ليُفطر، وكان خبزًا وزيتًا، فإذا البابُ يقرع؛ قال: من هذا، قال الطارق: سعيد....

سعيد؟ سعيد! من سعيد؟ أهو أبو عثمان؛ أبو على؛ أبو الحسن؟ فكّر الرجل فى كل من اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيَّب؛ إلا الذى قال له: «أنا...».

لم يخالجه أن يكونَ هو الطارق، فإن هذا الإمام لم يَطْرق بابَ أحد قَطّ، ولم يُرَ منذ أربعين سنة إلا بين داره والمسجد.

ثم خرج إليه، فإذا به سعيدُ بن المسيب، فلم تأخذه عينُه حتى رَجعَ القبرُ فَهَبَطَ فجأة بظلامه وأمواته فى قلب المسكين. وظن أن الشيخ قد بدَا له، فندم، فجاءه للطلاق قبل أنَ يشيعَ الخبر، ويتعذَّرَ إصلاحُ الغلطة! فقال: «يا أبا محمد، لو... لو.. لو – لو أرسلتَ إلىَّ لأتيتُك!».

قال الشيخ: «لأنْت أحقُّ أن تُؤْتَى».

فما صكَّت الكلمةُ سمعَ المسكين حتى أبْلَس الوجودُ فى نظره، وغشِىَ الدنيا صمتٌ كصمت الموت، وأحسّ كأن القبر يتمدد فى قلبه بعُروق الأرضِ كلهّا! ثم فاءَ لنفسه، وقدر أن ليس محلُّ شيخه إلا أن يأمر، وليس محله هو إلا أن يطيع، وأنَّ من الرجولة ألاَّ يكون مَعرَّةً على الرجولة، ثم نَكَس وَتَنَكسَّ َوقال بِذلَّة ومسكنة: «ما تأمرنى؟».

تفتحت السماء مرَّةً ثالثة، وقال الشيخ: «إنك كنتَ رجلاً عزبًا، فتزوجت، فكرهتُ أن تبيت الليلةَ وحدك؛ وهذه امرأتُك!».

وانحرفَ شيئًا، فإذا العروسُ قائمةٌ خلفه مستترةٌ به، ودفعها إلى الباب وسلَّم وانصرف.

وانبعث الوجود فجأة، وطنّ لَحْنُ الملائكة فى أذن أبى وداعة: «أنا، أنا، أنا...»

* * *

دخلت العروس البابَ وسقطت من الحياء، فتركها الرجل مكانَها، واستوثق من بابه، ثم خَطا إلى القصعة التى فيها الخبزُ والزيت، فوضعها فى ظل السراج كى لا تراها؛ وأغمض السراجُ عينَه ونشر الظلّ . . .

ثم صعد إلى السطح ورمى الجيرانَ بحُصيَّاتٍ؛ ليعلموا أن له شأنًا اعتراه، وأن قد وَجَبَ حقُّ الجار على الجار (وكانت هذه الحصيات يومئذ كأجراس التليفون اليوم) فجاءوه على سُطوحهم وقالوا: «ما شأنُك؟».

قال: «وَيْحَكُمْ! زَوّجَنِى سعيدُ بن المسيَّب ابنتَه اليوم؛ وقد جاء بها الليلةَ على غفلة».

قالوا: «وسعيد زَوَّجَكَ! أهو سعيد الذى زَوّجَكَ! أزَوَّجكَ سعيد؟»

قال: «نعم».

قالوا: «وهى فى الدار؟ أتقول إنها فى الدار؟»

قال: «نعم».

فانثال النساء عليه من هنا وههنا حتى امتلأت بهن الدار. وغشيت الرجلَ غشيةٌ أخرى، فحسب داره تتيه على قصر عبد الملك بن مروان، وكأنما يسمعها تقول: «أنا، أنا، أنا...»

* * *

قال عبد الله بن أبى وداعة: «ثم دخلتُ بها، فإذا هى من أجمل الناس وَأحْفَظِهم لكتاب الله تعالى، وأعْلَمِهمْ بسنَّة رسول الله ﷺ، وأَعرْفَهِمْ بحقّ الزوج. لقد كانت المسألة المعضِلة تُعى الفقهَاء فأسألها عنها فأجد عندها منهَا علْما».

قال: ومكثت شهرًا لا يأتينى سعيد ولا آتيه، فلما كان بعد الشهر أتيتهُ وهو فى حلقته فسلّمْتُ، فردُ علىُ السلام، ولم يكلمنى حتى تفرق الناس من المجلس وخلا وجهُه، فنظر إلىّ وقال:

«ما حالُ ذلك الإنسان...؟».

* * *

أما ذلك (الإنسان) فلم يعرف من الفرق بين قصر ولىّ العهد ابن أمير المؤمنين، وبين حجرة ابن أبى وداعة التى تُسَمَّى دارًا...! إلا أن هناك مضاعفة الهمّ، وهنا مضاعفة الحُبّ.

وما بين (هناك) إلى القبر مدةَ الحياة – سَتَخْفِتُ الروحُ من نورٍ بعد نورٍ، إلى أن تنطفئ فى السماء من فضائلها.

وما بين (هنا) إلى القبر مدةَ الحياة – تسطع الروح بنور على نور، إلى أن تشتعلَ فى السماء بفضائلها.

وما عند أمير المؤمنين لا يبقى، وما عند الله خيرٌ وأبقى.

***

ولم يزل عبد الملك يحتال (لسعيد) وَيَرْصدُ غَوَائلَهُ حتى وقعت به المِحنةُ، فضربه عامله على المدينة خمسين سوطًا فى يوم بارد، وصبّ عليه جرّة ماء، وعرَضه على السيف، وطاف به الأسواق عاريًا فى تُبَّان[1] من الشعر، ومنع الناس أن يجالسوه أوَ يخاطبوه. وبهذه الوقاحة، وبهذه الرذيلة، وبهذه المَخْزَاة، قال عبد الملك بن مروان: «أنا...؟»

■■■

(١) التبان: ما يسمى اليوم (المايوه) أو لباس البحر. ذكره الجاحظ وقال: هو سروال قصيريلبسه الملاحون.

ذيل القصة وفلسفة المال

ذهب الناس ُيمينًا وشمالاً فيما كتبناه من خبر الإمام سعيد بن المسيَّب وتزويجِه ابنتَــه من طالب علم فقير، بعد إذ ضنّ بهــا أن تكون زوجًا لولىّ عهد أمير المؤمنين عبــد الملك بن مروان؛ وقد جعلت قلوبُ بعض النســاء العصريات المتعلمات تصيح وتُولَوْلُ.... وحدثّنَا أديبٌ ظريف أن إحداهن سألت عن عنوان عبد الملك بن مروان...!

فتَرُاها ستكتبُ إليه أنها تقبل الزواج من ولى عهده؟

علــى أن للقصة ذيلاً، فإن الطبيعةَ الآدمية لا عصر لها، بل هى طبيعةُ كل عصر؛ والفضيلةُ الإنســانية يبدأ تاريخُهــا من الجنة، فهى هى لا تتجــدد ولا تزالُ تلوحُ وتختفى؛ أما الرذيلةُ فأولُ تاريخها من الطبيعة نفسِها، فهى هى لا تتغير ولا تزالُ تظهرُ وتَسْتتسَرّ.

***

زوج الإمــام ُابنتَه من ابن أبى وَدَاعة، أخذها بنفســه إليــه فى يوم زوجَّهَا منه، ومشــى بها فى طريقِ حَصــاه عنده أفضلُ من الدُّرّ، وترابُــه أكرمُ من الذهب، طارت الحادثةُ فى الناس، واسْــتَفاضَ لهــم قولٌ كثير ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ ﴾ ســورة التوبــة الآية ١٢٤. وقد قال جماعةٌ منهــم: تاللهِ لئن انقطع الوحْىُ، إن فى معانيه بقيَّةً ما تزال تنزلُ على بعض القلوب التى تُشــبه فى عَظَمتها قلوبَ الأنبياء، وما هذه الحادثةُ على الدنيا إلا فى معنى سُورة من السُّور قد انشقَّت لها السماءُ، ونزل بها جبريلُ يَخْفُقُ على أفئدة المؤمنين خفقةَ إيمان.

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ ﴾ســورة التوبة الآية ١٢٥. وقال أناسٌ منهم: أمَا واللهِ لو تَهَيَّأ لأحدنا أن يكون لصًّا يسرق أمير المؤمنين، أو ابنَ أمير المؤمنين، لركب رأسَــهُ فى ذلك، ما يَرُدّه عن السرقة شىء، فكيف بمن

تهيَّـأ له الصِّهْرُ والْحَسَـب، وجاءه الغِنَى يَطْرُقُ بابهَ، مـا بالُه يردُّ كل ذلك ويُخْزِى ابنتـهَ برجل فقير تعيشُ فى داره بأسـوأ حال، وكيف تَثْقُـلُ همتهُ وتَبْطُؤ وتموتُ، إذا كان الدرُّ والجوهرُ والذهبُ والخلافة؛ ثم ينبعث ويمضى لا يتلكّأ عزمُه، إذا كان العلم والفقرُ والدينُ والتقوى؟

وانتهـى كلام الناس إلـى الإمام العظيم، فلم يَجِئْهُ إلا من الظن خفيًّا خَفيًّا، كأنما هى أقوالٌ حَسِـبَها تقال عنه بعد خمسين وثلثمائة وألفِ سنة (فى زمننا هذا) حين يكون هو فى معانى السـماء، ويكون القائلون فى معانى التراب النَّجِس الذى نَفضتْهُ على الشرق نعالُ الأوربيين . . .؟

قال الراوى: ولم يسـتطع أحدٌ من الناس أن يواجهَ الإمامِ بشـفَةَ أو بنتِ شـفة، لا مُضيقًا عليه من قلبهِ ولا مُوَسَّـعا ،حتى كان يومٌ من أيام الجمعة، وقد مال الناسُ بعد الصلاة إلى حلْقة الشيخ، وتَقَصفُّوا بعضُهم على بعض، فغصّ بهم المسجد، وكان إمامُنا يفسرّ قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ سورة إبراهيم الآية ١٢.

قال الراوى: فكان فيما قاله الشيخ:

إذا هُدىَ المرءُ سبيلهَ كانت السبُلُ الأخرى فى الحياة إما عِداء له، وإما معارَضَةً، وإمـا رَدًّا، فهـو منها فى الأذّى، أو فـى معنى الأذى، أو عُرْضـةٌ للأذى. لقد وَجَد الطريقَ ولكنه أصاب العقَباتِ أيضًا، وهذه حالة لا يَمضى فيها الموَفَّقُ إلى غايته، إلا إذا أعانه الله بطبيعتين: أُولاهما العزمُ الثابت، وهذا هو المتوكلُ على الله، والأخرى اليقينُ المستبصِر، وهذا هو الصبرُ على الأذى.

ومتى عزم الإنسـانُ ذلك العـزمَ، وأيقن ذلك اليقين تحوّلـت العقبات التى تصدّه عـن غايته، فآل معناها أن تكون زيادةً فى عزمـه ويقينه، بعد أن وُضِعْنَ ليَكنُّ نقصًا منهمـا؛ فترجـع العقباتُ بعد ذلك وإنها لوسـائل تعين على الغاية. وبهذا يبسـطُ المؤمـنُ رُوحه على الطريق، فما بُدُّ أن يغلبَ على الطريق وما فيها. ينظر إلى الدنيا بنور الله فلا يجد الدنيا شيئًا – على سَعتهِا وتَناقُضِها – إلا سبيله وما حَوْلَ سبيله، فهو ماض قُدُمًا لايترادُّ ولا يَفتْرُ ولا يكلُّ، وهذه حقيقةُ العزم وحقيقةُ الصبر جميعًا.

ومن ثَمّ لا تكون الحياة لهذا المؤمن مهما تقلبت واختلفت إلا نَفَاذًا من طريق واحدة دون التَّخبطِّ فى الطرق الأخرى، ثم لا يكون العمرُ مهما طال إلا مدةَ صبر فى رأى المؤمن.

وعزيمةُ النفاذ وعزيمةُ الصبر، هما الضوء الروحانى القوىّ، الذى يكتسح ظلُمات النفس، مما يسميه الناس خمولاً ودَعَةً وتهاونً وغفلة وضجرًا ونحوَهاَ.

قال: ولكن كيف يُعان المؤمنُ على هذه المعجزة النفسية؟ هنا يتبين إعجازُ الآية الكريمة؛ فقد ذكر فيها التوكُّل ثلاث مرات، وافتتُحت به وختُمت، والتوكلُ هو العزمُ الثابت كما أوضحنا. وذُكرتْ فى الآية بين ذلك هدايةُ المرء سبيلهَ، وهذه الإضافة (سُبلنا) تُعينُ أنها هدايةُ الإنسان إلى سبيلِ نفسه؛ أىْ سبيله الباطنىّ الذى هو مَناطُ سعادته فى الشعور بالسعادة[1]. ثم ذُكرِ الصبرُ على أذى الناس، والأذى لا يقع إلا فى حيوانية الإنسان، ولا يؤثّر إلا فيها. فكأن الآية مُصرّحةٌ أن نجاح المؤمن ونفَاذه فى الحياة لا يكونان أول الأشياء وآخرها إلا بثلاث: العزم الثابت، ثم العزم الثابت، ثم العزم الثابت. وأن الصبر ليس شيئًا يُذكر، أو شيئًا يُجدِى، إن لم يكن صبرًا على أذى الحيوانية فى أفظع وحشيتها؛ فالروحُ لا تؤذِى الروح، ولكنَّ الحيوانَ يؤذى الحيوان. وأن ما يقع من هذه الحيوانية فيُسمى اعتداءً من غيرك، ويسمى أذى لك، هو شىء ينبغى أن يجعله العزم فخرًا لقوّة الاحتمال فيك، كما جعله البطشُ فخرًا للقدرة عند المعتدى.

وبهذا يكون العزم قد فَصَل بين نفسك الروحية وبين شخصك الحيوانىّ، ووَهَبكَ حقيقة الشعور، وصحَّحَ بمعانى رُوحيتك معانىَ حيوانيتكَ؛ وحينئذ تَرى السعادَة حق السعادة ما كان هدايةً لنفسك أو هدايةً بها، ولو انقلب فى الشخصِ الحيوانىّ منك أذَى وألمًا. ذلك صبرُ أُولى العزم من الرسل.

* * *

(١) سيأتى فى كلام الإمام بسط لهذا المعنى.

قال الراوى: وعند ذلك صاح رجل كان فى المجلس دسـةً عاملُ الخليفة، ليسـألَ الشـيخَ سؤالاً على مَلأ الناس، يكون كالتشـنيع عليه والتشهير به؛ وقد مَكرَ العاملُ فاختاره شـيخًا كبيـرًا أعْقَفَ، ليرحم الناسُ رِقَّةَ عظمه وكبرَ سـنّه فلا يَعرضون له بأذى، ثم ليكونَ صوتهُ كأنه صوتُ الدهر من بعيد. قال الصائح: ذلك أيها الشيخُ صبرُ أولى العزم من الرسـل، أو صبرُ ابنتك على مَكاره العيش مع ابن أبى وداعة، لا يجد إلا رُمْقَةً يُمْسـكُ بها الرَّمقَ عليها، وقد كانت النعمـة لها مُعْرِضة، فدفعتها إليه – زعمتَ – لتُهلِكَ به شخصَها الحيوانىَّ، وتوكلتَ على الله وألقيتَ ابنتك فى اليَمّ . . .؟

فتربَّدَ وجهُ الشيخ وأطرق هُنَيَّاتٍ، ثم رفع رأسه وقال: أين المتكلمَ آنفًا؟ فارتفع الصوت: هأنذا. قال: ادْنُ مِنّى. فتقاعَسَ الرجلُ كأنما تهيَّب ما فَرَط منه. فاسـتْدناه الثانية؛ فقام يتخطّى الناس حتى وقف بإزائه ثم جلس؛ فقرأ الشـيخ قوله تعالى: ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ سورة إبراهيم الآية ٢١.

ثم قال: أيها الرجل، لا تَسـمعْنى بأذُنِك وحدها. أرأيتَك[١] لو سمعتَ خبرًا ليس فى نفسك أصلٌ من معناه، أو وَرَدَ عليك الخبَرُ ونفسُك عنه فى شُغُل قد أهمّها؛ أفكنت تَنْشطُ له نشاطك للخبر احتفلتْ له نفسُك أو أصاب هوًى منك أو رأيتهَ موضعَ اعتبار؟

قال: لا.

قال الشـيخ: فإذا سـمعتَ بأذنك وحدها فإنما سمعتَ كلامًا يمرُّ بأذنك مرًّا، وإذا أردت الكلامَ لنفسك سمعتَ بأذنك ونفسْك معًا؟

قال: نعم.

قال الشـيخ: فكلُّ ما لا تنفرد به حاسـةٌ واحدة، بل تشـارك فيه الحواسُّ كلها أو أكثرها – لا يكون إلا موضعَ اهتمام للنفس؟

(١) أرأيتك: بمعنى أخبرنى، تبقى تاؤه على حالها فى الإفراد والتثنية والجمع ويسـلط التغيير على الكافه: أرأيتك أرأيتكما، أرأيتكم إلخ.

قال: نعم.

قال الشيخ: فمن هنا يكثر الفرحُ والحزن كلاهما إذا شاركَتْ فيهما الحواس، فيأتى كل منهما كثيرًا مهما قلَّ، وتزيد كلُّ حاسَّة فى اللذة لذةً وفى الألم ألمًا، فتعمل النفس فى ذلك أعمالا تَسْحَرُ بها، فيكون الشىء لصاحبه غيرَ ما هو للناس، كالصوت الباكى أو الضاحكِ فى لسان طفلك، تسمعه أنت منه بكلّ حواسك، فإذا أنت سمعت الصوت عينه من لسان رجل فى الناس رأيتهَ غير ذاك أكذلك هو؟

قال: نعم.

قال الشيخ: أفيكونُ السرورُ بالغًا عجيبًا أكثرَ ما هو بالغ، حين يجِدُ المالَ والغنِى فى الإنسان، أم حين يجد القوةَ النفسيةَ وطبيعةَ المرَح والرضى؟

قال: بل حين يَجدُ فى النفس . . .

قال الشيخ: أرأيتَ الإنسان يكون سعيدًا بما يتوهَّم الناسُ أنه به غنىٌّ سعيد، أم بشعوره هو وإن كان بَعدُ فيما لا يتوهم الناسُ فيه الغِنى والسعادة؟

قال: بل بشعوره.

قال الشيخ: أفلا توجدُ فى الدنيا أشياء من النفس تكونُ فوق الدنيا وفوق الشهوات والمطامع؛ كالطفل عند أمه، كلُّ ما تعلَّق به من شىء وزُن به هو لا بغيره، وكان الاعتبارُ عليه لا على سواه، أتعرف أمًّا ترضى أن يُذْبَح ابنُها فى حِجرها لِقاء أن يُمْلأ حجرُها ذهبًا وإن كانت فقيرة مُعْدمِة؟

قال: لا.

قال الشيخ: فإذا كانت النفسُ تشعرُ أكثرَ مما ترى؛ أفيذهب ما تراه فيما تشعر به، ويكون شعورُها هو وحدَه الذى يَلْبَسُ ما حولها ويصوّره ويُصرّفه؟

قال: نعم.

قال الشيخ: أفتعرف أن لكل نفس قوية من هذا العالم الذى نعيش فيه عالَمًا آخر هو عالَم أفكارِها، وإحساسها، وفيه وحدَه لذاتُ إحساسِها وأفكارِها؟

قال: نعم.

قال الشيخ: أفرأيتَ المرأةَ إذا صحّ حبُّها أو فرحُها أو عزمها، أرأيتها تكون إلا في عالَم أفكارِها؟ أرأيت كل ما يتصل برغبتها حينئذ يكون إلا من أشياء قلبها لا من أشياء الدنيا؟ أرأيتها لا تعيش في هذه الحالة إلا بالمعاملة مع قلبِها الذى لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يجمع المالَ ولا يريد إلا الشعورَ فقط؟

قال: نعم هو ذاك.

قال الشيخ: أرأيت إذا كان الإيمانُ قد وُلِد ونشأ وترَعْرَعَ في قلب المرأة، إلا يكون هو طفل قلبِها؟

قال: نعم.

قال الشيخ: أرأيتَ إذا كانت الخمرُ عند مُدْمِنها شيئًا عظيما، وكانت ضرورةً من ضرورات وجوده الضعيفِ المختلّ، فلا يستقيم وجودُه ولا سَفَهُ وجودَه إلاّ بها؛ أفيلزمُ من ذلك أن تكون الخمرُ من ضَرورات صاحبِ الوجود القويّ المنتظم؟

قال: لا.

قال الشيخ: أفَمُوقِنٌ أنت لابدّ من آخرِ لأيام الإنسان ولياليه في هذه الدنيا فينقطُع به العيش؟

قال: نعم.

قال الشيخ: أفَيُؤرِّخُ الإنسان يومئذ بتاريخ معدته وما حولها، أم بتاريخ نفسه وما فيها؟

قال: بل بتاريخ نفسه.

قال الشيخ: فإذا كنتَ صاحبَ حَرْبٍ، وكنتَ بطلاً من الأبطال، ومِسْعَرًا من المسَاعير، وأيقنتَ الموتَ في المعركة؛ أيكونُ الحقيقيُّ عندك في هذه الساعة هو الموت أم الحياة؟

قال: بل الحياةُ عندئذ وهْمٌ وباطل.

قال الشيخ: فتَفِرُّ في تلك الساعة إلى الحياة ولذّاتِها في خيالك، أم تفرّ منها ومن لذاتها؟

قال: بل الفرارُ منها، فإن خيالها يكون خَبَالا.

قال الشيخ: ففى تلك الساعة التى هى عُمْرُ نفسك، وعَمَلُ نفسك، ورجاءُ نفسك؛ تستشعر اللذةَ فى موتك بطلاً، أم تُحسُّ الكرْبَ، والمَقْتَ من ذلك؟

قال: بل أستشعرُ اللذة.

قال الشيخ: إذن فهى كبرياء الروح العظيمة على مادة التراب والطين فى أىّ أشكالها ولو فى الذهب.

قال: هى تلك.

قال الشيخ: إذن فبعضُ أشياء النفس تمحو فى بعض الأحوال كلَّ أشياء الدنيا، أو الأشياءَ الكثيرةَ من الدنيا.

قال: نعم.

قال الإمام: يرحمك الله؛ كذلك مُحِىَ عندنا أميرُ المؤمنين وابنُ أمير المؤمنين، ومُحِىَ المالُ والغنى، ولم يكن ذلك عندنا إلا سعادة؛ ومن رحمة الله أن كل مَن هُدِىَ سبيلهَ بالدين أو الحكمة، استطاع أن يصنَع بنفسه لنفسه سعادتَها فى الدنيا، ولو لم يكن له إلا لُقَيْمات؛ فإن السَّعة سَعَةَ الخُلُقِ لا المال، وإن الفقرَ فقرُ الخلُق لا العيش.

* * *

قال الراوى: ثم إن الإمام العظيم التفت إلى الناس وقال: أما إنى - عَلِمَ الله - ما زوّجتُ ابنتى رجلًا أعرفه فقيرًا أو غنيًّا، بل رجلاً أعرفه بطلاً من أبطال الحياة، يملك أقوى أسلحته من الدين والفضيلة. وقد أيقنتُ حين زوّجتُها منه أنها ستعرف بفضيلة نفسِها فضيلةَ نفسه، فيتجانسُ الطبعُ والطبع؛ ولا مَنْهَنأ لرجل وامرأة إلا أن يُجانِسَ طبعهُ طبعَها، وقد علمتُ وعلم الناس أن ليس فى مال الدنيا ما يشتَرى هذه المجانسة، وأنها لا تكون إلا هديةَ قلبٍ لقلب يأتلفان ويتحَابَّان.

ثم قال الإمام: وأنا فقد دخلتُ على أزواج رسول الله ﷺ [١].

ورأيتُهــنّ فى دُورهنّ يقُاسـينَ الحياة، ويُعانينَ من الرزق ما شَـح دَرّه فلا يجىء إلا كالقطـرة بعد القطرة، وهنّ علــى ذلك،ما واحدة منهنّ إلا هــى ملكة من ملِكات الآدميَّة كلهًا، وما فَقْرهُنّ إلا كبرياء الجنة نظرتْ إلى الأرض فقالت: لا ....![٢]

يجاهــدْنَ مجاهَدَةُ كل شــريف عظيم النفس، همه أن يكونَ الشــرفُ أو لا يكونَ شــىء، ويرى الغافلُ أن مثْلهن هالكاتٌ فى تعب الجهاد، ويعلَمْنَ من أنفســهن غيرَ ما يرى ذلك المسكين، يعلَمْن أن ذلك التعب هو لذةُ النصر بعينها.

كانت أنوثتُهن أبدًا صاعدةً متُسـاميةُ فــوق موضعها بهذه القناعة وبهذه التقوى، ولا تزال متساميةً صاعدة، على حين تنزل المطامعُ بأنوثة المرأة دون موضعها،ولاتزال أنوثتُهــا تنحدر ما بقيتْ المرأةُ تطمع، ورُب ملكــة جعلتْها مطامعُ الحياة فى الدَّرك الأسفل، وهى باسمها فىالوهْم الأعلى...!

وقد روينا عن النبى ﷺ أنه قال: « اطَّلَعْتُ فى الجنةِ فإذا أَقَلُّ أهلِها النساء، فقلت أين النســاء؟ قال: شــغَلَهُنَّ الأحمران: الذَهب والزعفــران»[٣]، أى الطمعُ فى الغنى والعملُ له، والميلُ إلى التبرج والحرصُ عليه.

ونفسُ الأنثى ليست أنثى، ولكن شَغْلها بذلك التبرج وذلك الحرصِ وذلك الطمع، هو يُخصَصَّها بخصائص الجســد، ويُعطيها مــن حكمه، ويُنزلها على إرادته، وهذه

---

(١) توفى سعيد بن المسيب سنة إحدى وتسعين للهجرة أو حولها، وكان قد لقى جماعة من الصحابة وســمع منهم، ودخل على أزواج النبى ﷺ وأخذ عنهن، وكان متزوجًا ابنة أبى هريرة الصحابى الجليل، وعنه أكثر روايته.

(٢) انظر مقالة: (درس من النبوة) فى الجزء الثانى من هذا الكتاب.

(٣) هذان هما فتنة النساء فى كل دهر، وهذا الحديث من المعجزات، فالذهب كناية عن المال والحلى ومــا كان مــن بابهما، أما الزعفران ففيهــا المعجزة، لأنها كناية مطلقة فهمها العــرب دلالة على الثياب المصبغة، ونفهم منها نحن كل أنواع زينة النســاء، من المســاحيق والعطور، إلى (المودة) التى هى أصباغ معنوية لأشــكال الثياب. وقد كان العرب يقولون: غمرت المرأة وجهها إذا طلته بالزعفران ليصفو لونها. ويقولــون من ذلك: امــرأة مغمرة، وتغمرت، أى فعلت ذلــك. (فالزعفران) كما تــرى، كناية تدخل فيها (البودرة) والأدهان المختلفة، وكل ما أفسد وجه المرأة ليفسد حياتها الاجتماعية ..

هى المزَلَّة، فتهبط المرأة أكثر مَما تعلو، وتضعفُ أكثر مما تقوىَ، وتَفسدُ أكثرَ مما تصْلحُ. إن نفسَ الأنثى لرجل واحد،لزوجها وحده.

رأيتُ أزواجَ النبى ﷺ فقيرات مقتُورًا عليهن الرزّق، غير أن كلاً منهن تعيش بمعانى قلبها المؤمنِ القوى، فى دار صغيرة فَرشَتها الأرض ولكنها من معانى ذلك القلب كأنها سماء صغيرة مختبئةٌ بين أربعة جدران.إنهن لم يبتعدن عن الغنى إلا ليبعَدنْ عن حماقة الدنيا التى لا تكون إلا فى الغنى .

أفٍّ أفّ! أتريدون أن أزوج ابنتى من ابن أمير المؤمنين فيُخزيها الله على يدىّ، وأدفعُها إلى القصر وهو ذلك المكان الذى جمع كلَّ أقذار النفس ودَنَس الأيام الليالى، أأزوّجها رجلًا تعرفُ من فضيلة نفسها سقوطَ نفسه، فتكون زَوجَةَ جسمه ومطلَّقة روُحِه فى وقت معًا؟

ألا كم من قصَر هو فى معناه مقَبرةٌ، ليس فيها من هؤلاء الأغنياء رجالهِم ونسائهم إلا جيفٌ يُبلى بعضُها بعضًا!

* * *

قال الرواى: وضج الناس لحمامةٍ صغيرة قد جنَحَتْ من الهواء، فوقعت فى حِجر الشيخ لائذةً به من مَخافة، وجعلتْ تدُفُّ بجناَحيها وتضطرب من الفزَع، ومرّ الصقرُ على أثرها وقد أهوى لها، غير أنه تمطرَّ ومَرَق فى الهواء إذ رأى الناس...

وتناولها الإمام فى يده وهى فى رَجفَتها من زلزلة الهواء، وكانت كالعَروس مُسَرْوَلَةً قد غابت ساقاها فى الريش، وعلى جسمها من الألوان نَمنْمةٌ وتحبير،ولها رُوحُ العَروس الشابة يُهدوُنها إلى مَن تكْره ويزفّونها على قاتِلها الذى يُسمى زوجَها.

وأدناها الشيخُ من قلبه، ومَسَحَ عليها بيده، ونظر فى الهواء نظرة... وهو يقول: نَجوْتِ نَجوْتِ يا مسكينة!

■■■

زوجة إمام

جلس جماعةُ أصحاب الحديث فى مسـجد الكوفة، يتَنَظَّرون قُدوم شيخِهم الإمام «أبى محمد سـليمان الأعمش»[1] ليسـمعوا منع الحديث، فأبطـأ عليهم، فقال منهم قائل: هلمُّوا نتحدثْ عن الشـيخ فنكونَ معه وليس معنا، فقال أبو معاويةَ الضّرير: إلى أن يكونَ معنا ولسـنا معه! فخطرت ابتسـامةٌ ضعيفة تهتزُّ على أفواه الجماعة، لم تبلغ الضحك، ومرت لم تُسـمعَ، وكأنها لم تُرَ،وانطلقـتْ من المباح المعْفوّ عنه. ولكنْ أكبرَها أبو عَتَّاب منصورُ بن المُعْتَمر.فقال: ويلكَ يا أبا معاوية! أتَتَنَدَّرُ بالشيخ وهو منذُ السـتين سـنةً لم تفُتْه التكبيرةُ الأولى فى هذا المسـجد، وعلى أنه مُحدّث الكوفة وعالمُهـاَ، وأقرأ الناس لكتاب الله، وأعلمُهم بالفرائـض، وما عَرفتِ الكوفةُ أعبدَ منه ولا أفقهَ فى العباد؟

فقـال محمد بنُ جُحَـادة[2]: أنت يا أبا عتَّاب، رجل وحـدَك، تُواصِلُ الصومَ منذ أربعين سنة، فقد يَبِسْتَ على الدهر، وأصبح الدهرُ جائعا منك،وما برَحتَ تبكى من خشية الله، كأنما اطلعت على سواء الجحيم، ورأيتَ الناسَ يتَوَاقعُون فيها وهى لَهَبٌ أحمرُ يلتفُّ على لهَبٍ أحمرَ، تحت دُخَانٍ أسـودَ يتضرّبُ فى دخان أسود، يتَغامسَ الإنسـان فيها وهى مِلْءُ السـموات،فما يكون إلا كالذُّبابة أوقدُوا لها جبلا ممتدًّا من النار، ينْطادُ بين الأرض والسـماء، وقد ملأ ما بينهما جمرًا وشُـعَلًا ودُخانًا، حتى لتتهاربُ السُّـحبُ فى أعلى السـماء من حَرّه، وهو على هَوْله وجَسامته لِحرْق ذبابة لاغيرها،بَيْدَ أنها ذبابةٌ تُحْرَق أبدًا ولا تموتُ أبدًا، فلا تزالُ ولا يزالُ الجبل!

فصاح أبو معاوية الضَّرير: ويحك يامحمد! دَع الرجلَ وشأنهَ، إن لله عبادًا متاعُهم ممـا لا نعرف، كأنهم يأكلون ويشـربون فـى النَوم، فحياتُهم، مـن وارء حياتنا،

(١) ولد هذا الإمام العظيم سنة ٦١ للهجرة، وتوفى سنة ١٤٨هـ.

(٢) الجحادة هى الغرارة الممتلئة، فكانت أمه تشبه بها لضخامتها.

وأبو عتَّاب فى دنيانا هذه ليس هو الرجلَ الذى اسـمهُ «منصور»، ولكنه العملُ الذى يعمله «منصور». هل أتاكم خَبرُ قارئ المدينة « أبى جعفر الزاهد»؟

قال الجماعة: ما خبره يا أبا معاوية ؟ قالَ: لقد تُوفُىّ من قريب،فرُئِى بعد موته على ظهر الكعبة، وستَرون أبا عتاب – إذا مات – على منارة هذا المسجد!

فصـاح أبو عتـاب: تَخَلَّلْ يا أبا معاوية، أما حفظتَ خبر ابن مسـعود: « كنا عند النبـى ﷺ فقام رجل، فوقَع فيه رجلٌ من بعده،فقال النبى ﷺ : «تخلّلْ» قال: «ممَّ أتخلَّلُ؟ ما أكلتُ لحمًا؟» قال: «إنك أكلتَ لحم أخيك!»

فَتقلْقل الضرير فى مجلســه، وتنَحْنحَ، وهَمْهمَ أصواتًا بينه وبين نفســه، وأحسّ الجماعةُ شـأنَه، وقد عرفوا أن له شـرًّا مبُصْرًا، كالذى كان فيه من المزْح والدُّعابة، وشرًّا أعمى هذه بوادرُه، فاستْلَبَ ابنُ جُحادةَ الحديثَ مما بينهما وقال: يا أبا معاوية أنت شيخُنا وبركتنا وحافظُنا، وأقربُنا إلى الإمام،وأمسُّنا به، فحدَّثنا حديث الشيخ كيف صنع فى رَدةّ على هشـام بن عبد الملك[1]، وما كان بينك وبين الشيخ فى ذلك، فـإن هذا ممـا انفردتَ أنت به دون النـاس جميعًا، إذ لم يسـمعه غيرُ أذنيك، فلم يحفظه غيرُك وغير الملائكة.

فأسْفرَ وجه أبى معاوية، وسُرّىَ عنه، واهتزَّ عِطْفاه، وأقبل عليهم بعفْو القادر... وأنشأ يحدّثهم. قال؟:

إن هِشامًا – قاتله الله – بعث إلى الشيخ: أن اكتبْ لى مناقبَ عثمانَ ومسَاوئَ علىّ. فلما قرأ كتابه كانت داجِنَةٌ إلى جانبه، فأخذ القرطاس وألْقمه الشـاةَ، فلاكَتْه حتى ذهب فى جوفها، ثم قال لرسـول الخليفة: قل له: هذا جوابُك! فخشـى الرسولُ أن يرجعَ خائبًا فيقتلَه هشام، فما زال يتحمَّلُ بنا، فقلنا: يا أبا محمد، نجةّ من القتل. فلما ألحنْا عليه كتب: «بسـم الله الرحمن الرحيم. أمـا بُعد يا أمير المؤمنين، فلو

(1) بويع هشام سنة ١٠٥ للهجرة، وتوفى سنة ١٢٥هـ.

كانت لعثمانَ ﷺ مناقبُ أهل الأرض ما نفعتْك، ولو كانت لعلىّ ﷺ مساوئ أهل الأرض ما ضرتّكْ فعليك بخُوَيصةَّ نفسك، والسلام».

فلما فَصَلَ الرسولُ قال لى الشيخ: إنه كان فى خُرَاسَانَ مُحدِّثٌ اسمه «الضحَّاكُ ابن مزُاحم الهلالى» وكان فقيهَ مكتب عظيم فيه ثلاثة آلاف صبى يتعلمون، فكان هذا الرجلُ إذا تعب ركب حمارًا ودارَ به فى المكتب عليهم، فيكونُ إقبال الحمار على الصبى همًّا وإدبارُه عنه سرورًا .وما أرى الشيطانَ إلا قد تعب فى مكتبه وأعيا، فركب أمير المؤمنين... ليدورَ علينا نحن يسألنا: ماذا حفظنا من مساوئ علىّ؟

قلت: فلماذا ألقمتَ كتابةَ الشاةَ؟ ولو غسلتهَ أو أحرقته كان أفهمَ له وكان هذا أشبهَ بك. فقال: ويحك يا أبله! لقد شابت البلاهة فى عارضيَك، إن هشامًا سيَتقَطع منها غيظًا، فما يخفى عنه رسولهُ أنى أطعمتُ كتابه الشاة، وما يُخفى عنه دَهَاؤه أن الشاة ستبَعْرَهُ من بَعْدُ...!

قلت: ألا تخشى أميرَ المؤمنين؟

قال: ويحك! هذا الأحولُ عندك أميرُ المؤمنين؟ أبِماَ ولدته أمهُّ من عبد الملك؟ فَهبْها ولدته من حائك أوحجاَّم! إن إمارةَ المؤمنين يا أبا معاوية، هى ارتفاعُ نفس من النفوس العظيمة إلى أثر النبوةّ، كأنَّ القرآن عَرَضَ المؤمنين جميعًا ثم رضى منهم رجلاً للزمن الذى هو فيه، ومتى أصيبَ هذا الرجلُ القرآنىُّ، فذاك وارثُ النبىّ فى أمته وخليفته عليها، وهو يومئذ أميرُ المؤمنين، لامن إمارة المُلكْ والترفَ، بل من إمارة الشرع والتدبير والعمل والسياسة.

هذا الأحولُ الذى التفّ كدودة الحرير فى الحرير، وأقبل على الخيل لا للجهاد والحرب، ولكن للهو والحَلْبَة، حتى اجتمع له من جياد الخيل أربعةُ آلاف فرس لم يجتمع مثلُها لأحد فى جاهلية ولا إسلام، وعَمِلَ الخزَّ وقُطُفَ الخزّ، واستَجادَ الفرش والكُسوة، وبالغَ فى ذلك وأنفقَ فيه النفقات الواسعة، وأفسد الرجولة بالنعيم والترفِ، حتى سلك الناسُ فى ذلك سنُتَّهَ، فأقبلوا بأنفسهم على لهو أنفسهم، وصنعوا

الخيرَ صنعةً جديدةً بصرفه إلى حظوظهم، وتركوا الشرَّ على ما هو فى الناس، فزادوا الشرَّ وأفسدوا الخير، ولم يَعُد الفقراءُ والمساكينُ عندهم هم الفقراء والمساكين من الناس، بل بطونَهم وشهواتِهم ...! ولقد كان الرجلُ من أغنياء المسلمين يقتصدُ فى حظ نفسه ليسَعَ ببره مائة أو مائتين أو أكثر من أخوانه وذوى حاجته، فعاد هذا الغنيُّ يتسَّعُ لنفسه ثم يتسع، حتى لا يكفيه أن يأكل رزقه مائة أو مائتين أو أكثر!

إن هذا الإسلامَ يجعل أحسنَ المسرّات أحسنَها فى بذلها للمحتاجين، لا فى أخذِها والاستئثارِ بها، فهى لا تضيع على صاحبها إلا لتكونَ له عند الله، وكأن الفقر والحاجةَ والمسكنةَ والإنفاق فى سبيل الله - كأن هذه أرَضُون يُغْرس فيها الذهبُ والفضة غرسًا لا يؤتى ثمره إلا فى اليوم الذى ينقلبُ فيه أغنى الأغنياء على الأرض، وإنه لأفقر الناس إلى درهم من رحمة الله وإلى ما دون الدرهم، فيقالُ له حينئذ: خُذْ من ثمار عملك، وخُذْ مِلء يديك!

والسلطانُ فى الإسلام هو الشرع مرَئْيًّا يُتابعه، متكلما يفهمهُ الناسُ، آمرًا ناهيًا يُطعيه الناس. ولقد رأى المسلمون هذا الأحولَ، وتابعوه وسمعوا له وأطاعوا، فمنعوا ما فى أيديهم، فانقطع الرِّفدْ، وقل الخير، وشحَّت الأنفس، وأصبح خيرُهم خيرُهم لبطنه وشهواته، وصار الزمانُ أشبهَ بناسِهَ، والناس أشبه بملِكُهم وشهواته «فقيرُ المؤمنين» لا أميرُ المؤمنين!

إن هذه الإمارةَ يا أبا معاوية، إنما تكون فى قرب الشبه بين النبى ومن يختاره المؤمنون للبيْعة. وللنبىّ جهتان: إحدهما إلى ربه، وهذه لا يطمع أحدٌ أن يبلغ مبَلغه، والأخرى إلى الناس، وهذه هى التى يقاس عليها «وهى كلُّها رِفْقٌ ورحمةٌ وعملٌ، وتدبير وحِياطة وقوه، إلى غيرها مما يقوَم به أمر الناس، وهى حقوقٌ وتَبعَاتٌ ثقيلةٌ تنصرف بصاحبها عن حظ نفسه، وبهذا الانصراف تجذبُ الناس إلى صاحبها. فإمارةُ المؤمنين هى بقاء مادةَ النور النبوىّ فى المصباح الذى يضيء للإسلام، بإمداده بالقدْرِ بعد القدرْ من هذه النفوس المضيئة. فإن صلُحَ التراب أو الماء مكان الزيت فى الاستضاءة، صَلحَ هشامٌ وأمثاله لإمارة المؤمنين!

ويلٌ للمسلمين حين ينظرون فيجدون السلطانَ عليهم بينه وبين النبى مثل ما بين دينين مختلفين. ويلٌ يومئذ للمسلمين!

* * *

فلما أتمّ الضريرُ حديثَه قال ابن جُحادة: إن شيخنا على هذا الجدّ ليمزح، وسأحدثكم غيرَ حديث أبى معاوية، فقد رأيتُ الدنيا كأنما عرَفت الشيخ ووقفت على حقيقته السماوية فقالت له: اضحكْ منّى ومن أهلى. ولكنَّ وقارَه ودينَه ارتفعا به أن يضحكَ بفمه ضَحِكَ الجهلاء والفارغين فضَحِك بالكلمة بعد الكلمة من نوادره.

لقد كنتُ عنده فى مَرْضتِه، فعاده «أبو حنيفة» صاحبُ الرأى، وهو جبَلُ عِلْمْ شامخ، فطَولَّ القعودَ مما يُحبُّه ويأنسُ به، إذ كانت الأرواحُ لا تعَرف مع أحبابها زمنًا يطول أو يقصر. فلما أراد القيامَ قال له: ما كأنى إلا ثَقُلْتُ عليك. فقال الشيخ: إنك لثقيلٌ عَلىّ وأنت فى بيتك...! وضحك أبو حنيفة كأنه طفل يُلاغيه أبوه بكلمة ليس فيها معناها، أو أبٌ دَاعبه طفله بكلمة فيها غيرُ معناها.

وجاء فى الغداة قومٌ يعودونه، فلما أطالوا الجلوسَ عنده أخذ الشيخ وسادتهَ وقام منصرفًا وقال لهم: قد شفى الله مريضَكم...!

فقال الضرير: تلك روْحَةٌ من هواء دُنْباونَدْ[1]، فإن أبا الشيخ كان من تلك الجبال، وقدم إلى الكوفة وأمُّه حاملٌ، فوُلِدَ هنا، فكأن فى دمه ذلك النسيمَ تهبُّ منه النفحة بعد النفحة فى مثل هذه الكلمات المتُنَسِّمة، ثم هى روُحُه الظريفةُ الطيِّبةُ تلمس بعض كلامه أحيانا، كما تلمس روح الشاعر بعضَ كلام الشاعر، وما رأيت أدقَّ النوادر الساخرة وأبلغها وأعجبَها يجىء إلا من ذوى الأرواح الشاعرة الكبيرة البعيدةِ الغَوْر، كأنما النادرةُ من رؤية النفس حقيقتين فى الشىء الواحد. والإمام فى ذلك لا يسخرَ من أحد، إلا إذا كانت الأرضُ حين تخرج الثمرةَ الحلوة تسخر بها من الثمرة المرة.

---

(١) ناحية من رستاق الرى فى الجبال الثلجية وهى بلاد العجم.

والعجيبُ أن النادرة البارعةَ التى لا تتفق إلا لأقوى الأرواح، يتفق مثلها لأضعف الأرواح، كأنها تسْخرَ من الناس كما يسخرون بها؛ فهذا «أبو حسَنَ» مُعلِّم الكُتاب، جاءه غلامان من صبيْتهِ قد تعلق أحدهما بالآخر، فقال: يا مُعلم، هذا عضَ أذنى. فقال الآخر: ما عضضتها، وإنما عضَّ أُذنَ نفسه...فقال المعلم: وتمكُرُ بى يا بن الخبيثة؟ أهو جملٌ طويل العُنق حتى ينالَ أذنَ نفسه فيعضَّها...!

* * *

وطلع الشيخُ عليهم وكأنما قرأ نفسَ أبى معاوية فى وجهه المتفتِّح. ومن عجائب الحكمة أن الذى يُلْمَحُ فى عينى المبصر من خوالج نفسه، يُلمحُ على وجه الضرير مُكبَرًا مجسّما. وكان الشيخ لا يأنس بأحد أُنْسَهَ بأبى معاوية، لذكائه وحِفظه وضبْطِه، ولمشُاكلة الظرف الروحىَّ بينهما، فقال له:

– «فِيم كان أبو معاوية؟»

– «كان أبو معاوية فى الذى كان فيه!»

– «وما الذى كان فيه؟»

– «هو ما تسأل عنه!»

– «فأجبنْى عما أسال عنه»

– «قد أجبتُك!»

– « بماذا أجبتَ؟»

– «بما سمعتّ!»

فقبَّض وجه الشيخ وقال: «أههنا وهناك معًا؟ لو أن هذا من امرأة غضبى على زوجها لكان له معنى، بل لا معنى له ولا من امرأة غضبى على زوجها.أحْسَب لولا أن فى منزلى من هو أبغضُ إلىَّ منكم ما خرجت؟» فقال الضرير: «يا أبا محمد، كأننا زوجاتُ العلم، فأيتنا التى حظِيتْ وبظيت...»

فغطىَّ الجَماعةُ أفواههَم يضحكون، وتبسمَّ الشيخ، ثم شرع يحدّث فأفضى من خبر إلى خبر، وتسرحَّ فى الرواية حتى مرّ به هذا الحديث:

عن رسول الله ﷺ قال: «إن هلاكَ الرجالِ طاعتُهم لنسائهم».

قال الشيخ : كان الحديث بهذا اللفظ، ولم يقل النبى ﷺ : «هلاكُ الرجل طاعته لامرأته»، فإن هذا لا يستقيم؛ إذا يكون بعض النساء أحيانًا أكمل من بعض الرجال، أوفرَ عقلا وأسدَّ رأيًا، وقد تكون المرأة هى الرجلَ فى الحقيقة عزمًا وتدبيرًا وقوة نفس، ويتَليَّنُ الرجلُ معها كأنه امرأة. وكثيرٌ من النساء يكُنَّ نساءً بالحليْة والشكل دون ما وراءهما، كأنما هُيِّئْنَ رجالاً فى الأصل ثم خُلِقْنَ نساء بعدُ، لإحداث ما يريد الله أن يُحدْثَ بهنّ، مما يكون فى مثل هذه العجيبة عملاً ذا حقيقتين فى الخير أو الشر.

وإنما عَمّ الحديثُ ليدلّ على أن الأصلَ فى هذه الدنيا أن تستقيم أمورُ التدبير بالرجال، فإن البأس والعقل يكونان فيهم خِلقةً وطبيعةً أكثر مما يكونان فى النساء: كما أن الرقة والرحمة فى خلقة النساء وطبيعتهن أكثرُ مما هما فى الرجال، فإذا غلبتْ طاعةُ النساء فى أمة من الأمم، فتلك حياة معناها هلاكُ الرجال، وليس المرادُ هلاكَ أنفسهم، بل هلاكَ ما هم رجالٌ به، والحديدُ حديدٌ بقوته وصلابته، والحجرُ حجر بشدّته واجتماعه، فإن ذاب الأولُ أو تفَلَّل، وتَناثر الآخرأو تفتت، فذاك هلاكهما فى الحقيقة، وهما بعدُ لا يزالان من الحجر والحديد.

والمرأة ضعيفة بفطرتها وتركيبها، وهى على ذلك تأبى أن تكونَ ضعيفةً أو تُقرَّ بالضعف، إلا إذا وجدت رجُلهَا الكامل، رجُلَها الذى يكون معها بقوتّه وعقله وفتْنتِه لها وحبِّها إياه، كما يكون مِثالٌ مع مثال. ضَعْ مائةَ دينار بجانب عشرة دنانير، ثم اترك للعشرة أن تتكلم وتدَعّى وتستطيل، قد تقول: إنها أكثرُ إشراقًا، أو أظرفُ شكلا، أو أحسنُ وضعًا وتصفيفًا، ولكن الكلمةَ المحرمَّة هنا أن تزعم أنها أكبرُ قيمةً فى السوق...!

قال الشيخ: ومَن مِنَ النساء تُصيبُ رجلَها الكامل أو القريبَ من كماله عندها، أى طبيعته بالقياس إلى طبيعتها، كمالِ جسِم مفُصَّلِ لجسم، تفصيلَ الثوب الذى يلَبسُه ويختالُ فيه؟ أما إن هذا من عمل الله وحده، كما يَبسُطُ الرزقَ لمن يشاء من عباده ويَقدْرِ، يبسُط مثل ذلك للنساء فى رجالهن ويَقدْرِ.

فإذا لم تُصب المرأة رجلَها القوىّ – وهو الأعمُّ الأغلب – لم تستطع أن تكون معه فــى حقيقة ضعفها الجميل، وعَملِتَ علــى أن يكون الرجلُ هو الضعيف، لتكونَ معه فى تزوير القوّة عليه وعلى حياته، وبهذا تَخرجُ من حيزِّها، وما أولُ خروج النســاء إلى الطرقات إلا هذا المعنى، فإن كثُر خروجُهن فى الطريق،وتَسَكَّعْنَ ههنا وههنا. فإنما تلك صورة من فساد الطبيعة فيهن ومن إملاقها أيضًا..

قال الشيخ: وكأن فى الحديث الشريف إيماء إلى أن من بعض الحق على النساء أن ينزلنْ عن بعض الحق الذى لهن إبقاء على نظام الأمة، وتيسيرًا للحياة فى مَجراها، كمــا ينزل الرجل عن حقه فــى حياته كلها إذا حارب فى ســبيل أمته،إبقاءً عليها وتيســيراً لحياتها فى مَجراها. فصبرُ المرأة على مثل هذه الحالة هو نفسهُ جهادُها وحربُهــا فى ســبيل الأمة، ولها عليه من ثــواب الله مثلُ ما للرجــل يقُتَلُ أو يجرحُ فى جهاده.

ألا وإن حيــاةَ بعض النســاء مع بعــض الرجال تكونُ أحيانًا مثــلَ القتل، أو مثلَ الجرَحْ، وقد تكون مثل الموت صبرًا على العذاب! ولهذا قال رسول الله ﷺ لمُزَوجِّة يســألها عــن حالها وطاعتهــا وصبرها مــع رجلها: «فأين أنت منه؟» قالــت ما آلُوه إلا ما عَجَزْتُ عنه! قال: «فكيف أنتِ له؟ فإنه جَنَّتُكِ ونارُك».

آه! آه! حتــى زواجُ المرأة بالرجل هو فى معناه مُرورُ المرأةِ المســكينة فى دنيا أخرى إلى موت آخر، ستُحاسَب عنده بالجنة والنار، فحسابُها عند الله نوعان: ماذا صنعت بدنياكِ ونعيمها وبؤسها عليكِ، ثم ماذا صنعت بزوجك ونعيمِه وبؤسه فيك؟

وقــد روينا أن امرأةً جاءت النبى ﷺ، فقالت: يارســول الله، إنى وافدةُ النســاء إليك، ثم ذكرتْ ما للرجال فى الجهاد من الأجر والغَنيمة، ثم قالت فما لنا من ذلك؟

فقال ﷺ: «أبلغى من لقيت من النســاء أن طاعــةً للزوج،واعترافًا بحقَّه – يعدلِ ذلك، وقليلٌ منكنّ من يفعلُه!»

وقال الشــيخ: تأملوا اعجبوا من حكمة النبوةّ ودقّتها وبلاغتها، أيقالُ فى المرأة المُحِبة لزوجِها المفتتنة به المعجَبة بكماله: إنها أطاعتْه واعترفت بحقه؟ أو ليس

ذلك طبيعةَ الحب إذا كان حبًّا؟ فلم يبق إذن إلا المعنى الآخر، حين لا تصيب المرأة رجُلها المفصلَّ لها، بل رجلاً يُسمىَّ زوجًا، وهنا يظهر كرمُ المرأة الكريمة، وههنا جهادُ المرأة وصبرُها، وههنا بَذْلها لا أخذُها،ومن كل ذلك ههنا عملها لجنتها أو نارها.

فـإذا لم يكن الرجل كامـلا بما فيه للمرأة، فلتُبقِه هى رجـلاً بنزولها عن بعض حقها له، وترِكها الحياةَ تجرى فى مجراها، وإيثارِها الآخرة على الدنيا، وقيامها بفريضـة كمالها ورحمتهـا، فيبقى الرجلُ رجلاً فى عمله للدنيا، ولا يُمْسَـخُ طبعُه ولا ينتكِس بها ولا يَذِلّ، فإن هى بَذأّتْ وتسـلَّطت وغلبت وصرَّفت الرجلَ فى يدها، فأكثـرُ ما يظهر حينئذ فـى أعمال الرجال من طاعتهم لنسـائهم إنما هو طيشُ ذلك العقـلِ الصغير وجُرْأتُه، وأحيانًا وقَاحتُه، وفى كل ذلك هلاكُ معانى الرجولة، وفى هلاك معانى الرجولة هلاكُ الأمة؟!

قَال الشـيخ: والقلوبُ فى الرجال ليست حقيقةً أبدًا، بطبيعة أعمالهم فى الحياة وأمكنتِهم منها، ولكن القلبَ الحقيقى هو فى المرأة، ولذا ينبغى أن يكون فيه السُموُّ فوق كل شـىء إلا واجبَ الرحمة، ذلك الواجـبُ الذى يتَّجه إلى القوىِّ فيكون حبًّا، ويتجـه إلى الضعيف فيكون حَنانًا ورقـة، ذلك الواجبُ هو اللطف، ذلك اللطفُ هو الذى يُثبت أنها امرأة.

* * *

قَال أبـو معاوية: وانفضَّ المجلس، ومنعنى الشـيخُ أن أقوم مع الناس، وصَرَفَ قائدى، فلما خلا وجهُه قال يا أبا معاوية، قُم معى إلى الدار . قلتُ: ما شأنٌ فى الدار يا أبا محمد؟ قال: إن (تلك) غاضبةٌ علىّ، وقد ضاقت الحالُ بينى وبينها، وأخشـى أن تتباعدَ، فأريدُ أن تُصْلح بيننا صُلحًا.

قلت: فممّ غضبُها؟ قال: لا تُسـأَلُ المرأة ممّ تغضب، فكثيرا ما يكون هذا الغضبُ حركةً فى طباعها، كما تكون جالسةً وتريد أن تَقوم فتقوم، وتريدُ أن تمشى فتمشى!

قلت: يا أبا محمد، هذا آخرُ أربع مرات[1] تغضبُ عليك غَضبَ الطلاق، فما يَحبسُك عليها والنساء غيرها كثير.

قال: ويحكَ يارجل! أبائعُ نساءٍ أنا، أما علمتَ أن الذى يطلق امرأةً لغير ضرورة مُلجئة، هو كالذى يبيعها لمن لا يدرى كيف يكون معها وكيف تكون معه؟ إن عمْرَ الزوجة لو كان رقبةً وضُربت بسيف قاطع لكان هذا السيف هو الطلاق!

وهل تعيشُ المطلَّقةُ إلا فى أيام ميتة؟ وهل قاتِلُ أيامها إلا مطلقُها؟

قال أبو معاوية: وقمنا إلى الدار، واستأذنت ودخلت على (تلك)...

■■■

(١) هذا هو التعبير الصحيح لمثل قول الناس «هذه رابع مرة».

زوجة إمام
بقية الخير

قال أبو مُعاوية الضرير: وكنتُ فى الطريق إلى دار الشيخ، أرَوِّئ فى الأمر، وأمتَحنُ مذاهبَ الرأى، وأقلبّها على وجوهها، وأنظرُ كيف أحتالُ فى تأليف ما تَنَافَرَ من الشيخ وزوجته؛ فإن الذى يَسفُرُ بين رجلٍ وامرأته إنما يمشى بفكرة بين قلبين، فهو مُطْفئُ نائِرَةٍ[1] أو مُسْعِرهُا، إذ لا يضعُ بين القلبين إلا حُمقَه أو كياسته، وهو لن يرد المرأةَ إلى الرأى إلا إذا طافَ على وجهها بالضحِك، وعلى قلبها بالخَجَل، وعلى نفسها بالرقَّة، وكان حكيمًا فى كل ذلك، فإن عقلَ المرأة مع الرجل عقل بعيدٌ، يجيء من وراء نفسها، من وراء قلبها.

وجعلتُ أنظرُ ما الذى يُفسدُ منَحلِ الشيخ من زوجته، ومثَّلتُ بينه وبينها، فما أخرجَ لى التفكيرُ، إلا أن حُسن خلُقِه معها دائما هو الذى يستدعى منها سوء الخلُقِ أحيانًا، فإن الشيخ كما ورد فى وصف المؤمن: «هيِّن لِيِّنٌ كالجمل الأنُف[2]، إن قِيدَ انقادَ، وإن أنيخ على صخرة استَنَاخ»، والمرأةُ لا تكون امرأةً حتى تطلبَ فى الرجل أشياء: منها أن تحبَّه بأسباب كثيرة من أسباب الحب، ومنها أن تخافه بأسباب يسيرة من أسباب الخوف. فإذا هى أحبته الحبَّ كلَّه ولم تخَفْ منه شيئًا، وطال سكونُه وسكونُها، نفرت طبيعتها نفرةً كأنها تُنخِّيه وتُذَمِّرُه ليكونَ معها رجلاً فيُخيفَها الخوفَ الذى تستكملُ به لذةَ حبها، إذا كان ضعفُها يحب فيما يحبه من الرجل، أن يقْسُوَ عليه الرجلُ فى الوقت بعد الوقت، لا ليؤذِيهُ ولكن ليُخْضِعَه، والآمرُ الذى لا يُخاف إذا عُصِىَ أمرُه، هو الذى لا يعبأ به إذا أُطيع أمرُه.

---

(١) النائرة: الغضب.

(٢) أى المأنوف، ويسميه العامة (المخزوم) وهو الذى عقر أنفسه بالخشاش فيقاد منه فيكون ذلولا سمحًا.

وكأن المرأة تحتاج طبيعتُها أحيانًا إلى مصائبَ خفيفةٍ تؤذى برقَّةٍ أو تمرُّ بالأذى من غير أن تلمسهاَ به، لتحرك فى طبيعتها معانى دَموعها من غير دموعها، فإن طال ركودُ هذه الطبيعة، أوجدتْ هى لنفسها مصائبها الخفيفةَ، فكان الزوجُ إحداها...

وهــذا كله غير الجُـرْأة و البذَاء فيمــن يُبغضن أزواجَهن، فإن المــرأة إذا فرَكَتْ زوجهــا لمنافَرة الطبيعــة بينها وبينه، مات ضعفها الأنثــوىُّ الذى يتم به جمالها واســتمتاعها والاســتمتاعُ بها، وتعقد بذلك لينُها أو تصلَّب أو استحْجَر، فتكونُ مع الرجل بخلاف طبيعتها، فينقلبُ سُـكرْها النسائى بأنوثتها الجميلة عربدةً وخلافًا وشــرًا وصَخبًا، ويخرج كلامها للرجل وهو من البغض كأنه فى صوتين لا فى صوت واحد. ولعل هذا هو الذى أحســَّ الشــاعر العربىُّ بفطرته من تلــك المرأة الصَخَّابة الشديدة الصوت الباديةِ الغيظ، فضاعف لها فى تركيب اللفظ حين وصفها بقوله:

صُلُبِّــةُ الصَّيْحَـــةِ صَهْصَلِيقُهــا[1]

قال أبو معاوية: واستأذنت على (تلك)، ودخلتُ بعد أن استوثقتُ أن عندها بعضَ مَحارِمِها، فقلت: أنعم الله مساءَكِ يا أم محمد. قالت: وأنتَ فأنعم الله مساءك.

فأصغيتُ للصوت، فإذا هو كالنائم قد انتبهَ يتَمَطَّى فى اســترخاءِ، وكأنها تقَبْلنى به وتردُّنى معًا، لا هو خالصٌ للغضبَ ولا هو خالص للرضى.

فقلت: يا أم محمد، إنى جائع لم ألِمَّ اليومَ بمنزلى. فقامت فقربَّت ماحضَر، وقالت مَعْــذِرةً يا أبا معاوية، فإنما هو جهْد المُقِلّ، وليس يعدُو إمســاكَ الرَّمَق. فقلت: إن الجَوْعان غيرُ الشَّــهوان، والمؤمنُ يأكل فى مِعــىً واحد[2] ولم يخلق الله قمحًا للملوك وقمحًا غيره للفقراء.

---

(١) هذا من عجائب اللغة العربية، إذا زاد المعنى زادوا له فى اللفظ. ورواية لسان العرب: «(شديدة الصيحة» وليست بشىء، فليصحـحها من يقتنى اللسان من القراء.

(٢) فــى بعض الأثر: المؤمــن يأكل فى معى واحد، والكافر يأكل فى ســبعة أمعاء. هذا الحديث رمز عجيب لبهيمية من لا يرى الدنيا إلا الدنيا فقط.

ثم سـمَّيْتُ ومددتُ يدى أتحسَّسُ ما على الطبقَ، فإذا كِسْرٌ من الخبز، معها شىء من الجزَر المسلوق، فيه قليلٌ من الخل والزيت، فقلت فى نفسى: هذا بعضُ أسباب الشر، وما كان بى الجوعُ ولا سَـدُّه، غير أنى أردتُ أن أعرفَ حاضِرَ الرزقِ فى دار الشـيخ، فإن مثلَ هـذه القلة فى طعام الرجل هى عند المرأة قِلَّةٌ من الرجل نفسـه، وكلُّ ما تَفْقِدُه من حاجاتها وشـهواَت نفسـها،فهو عندها فَقرٌ بمعنيين: أحدُهما من الأشياء، والآخر من الرجل: كلما أكثر الرجلُ من إتحافها كثُر عندها، وإن أقلَّ قلَّ. وإنما خُلقت المرأةُ بطنًا يلدُ، فبطنُها هو أكبرُ حقيقتها، وهذه غايتُها وغايةُ الحكمة فيهـا، لاجَرَمَ كان لها فى عقلها مَعِدَةٌ معنوية، وليس حبُّها للحلِى والثياب والزينة والمال، وطماحُها إليها، واستهلاكُها فى الحرص والاستشراف لها - إلا مظهرًا من حكم البطنِ وسُـلطانِه، فذلك كلُّه إذا حقَّقتهَ فى الرجل لم تجده عنده إلا من أسـباب القوة والسـلطة، وكان فقدهُ من ذرائع الضعف والقِلةَّ، فـإذا حققتَه فى المرأة ألفيتهَ عندها من معانى الشبعَ والبطر، وكان فقدهُ عندها كأنه فنٌ من الجوع، وكانت شهوتُها لـه كالقَـرم إلى اللحم عند من حُرِمَ اللحم، وهذا بعضُ الفرق بين الرجال والنسـاء، فلـن يكون عَقلُ المرأة كعقـل الرجل لمكان الزيادة فى معانيها «البطنَّية» فحُسِـبَتْ لهـا الزيادُة ههنًا بالنقص هناك، فهن ناقصاتُ عقل ودين كما ورد فى الحديث: أما نقصُ العقل فهذه علته، وأما الدين فُلغلبَة تلك المعانى على طبيعتها كما تَغلب على عقلها، فليس نقصُ الدين فى المرأة نقصًا فى اليقين أو الإيمان، فإنها فى هذين أقوى من الرجل، وإنما ذلك هو النقصُ فى المعانى الشـديدة التى لا يكمل الدينُ إلا بها، معانى الجوع من نعيم الدنيا وزينتها، وامتدادِ العين إليها، واستشرافِ النفس لها، فإن المرأة فى هذا أقلُّ من الرجل،وهى لهذه العلة ما برحتْ تُؤْثِرُ دائما جمالَ الظاهر وزينته فى الرجال والأشياء، دون النظر إلى ما وراء ذلك من حقيقة المنفعة.

* * *

قال أبو معاوية: وأريتُها أنى جائع، فَنهشْـت نهـشَ الأعرابى، كيلا تفطن إلى ما أردتُ من زعْم الجوع، ثم أحببت أن أسْتَدعِى كلامَها وأسْتَمِيلَها لأن تضحكَ وتُسر،

فأغيِّرَ بذلك ما فى نفسـها، فيجدَ كلامى إلى نفسـها مذهبًا، فقلت: يا أم محمد، قد تحرَّمتُ بطعامكِ ووَجَب حقى عليك، فأشيرى على برأيك فيما أستصْلح به زوجتى، فإنها غاضبة علىّ، وهى تقول لى: والله ما يقيم الفأر فى بيتك إلا لحبّ الوطن... وإلا فهو يَسترزق من بيوت الجيران.

قالـت: وقد أعْدَمَـتْ حتى من كِسـرَ الخبز والجـزَر المسـلوق؟ اللهَ منك! لقد اسـتأصَلتْهَا من جذورها، إن فى أمراض النساء الحُمَّى التى اسمها الحميّ، والحميّ التى اسمُها الزَّوج...

فقلت: اللهَ اللهَ يا أم محمد؛ لقد أيسَرْتِ بعدنا، حتى كأن، الخبز والجزرَالمسلوقَ شـىءٌ قليل عندك من فَرْطْ ما يتَيسَـرَّ، أو مـا علمـتِ أن رزق الصالحين كالصالحين أنفسـهم، يصوم عن أصحابه اليومَ واليومين... وكأنكِ سمعتِ شيئًا من أخبار أمهات المؤمنين، أزواج رسـول الله ﷺ ونساء أصحابه (رضوان الله عليهم)، فما خيرُ امرأة مسلمةٍ لا تكون بأدبها وخُلُقها الإسلامىّ كأنها بنت إحدى أمهات المؤمنين؟

أفرأيتِ لو كنتِ فاطمةَ بنتَ محمد ﷺ، أفكان ينقلك هذا إلى أحسنَ مما أنتِ فيه من العيش، وهل كانت فاطمةُ بنتَ ملكٍ تعيشُ فى أحلام نفسها، أو بنتَ نبى تعيش فى حقائق نفسِها العظيمة؟

تقولين: إننى اسـتأصلت أمَّ معاوية مـن جُذورها، فما أمُّ معاويةَ وما جذورها؟ أهـى خيرٌ من أسـماء بنت أبى بكر صاحبِ رسـول الله ﷺ، وقـد قالت عن زوجها البطل العظيم: تزوجنى وماله فى الأرض من مال ولا مملوك، ولا شـىء غير فرَسِـه وناضحه[1]، فكنت أعْلف فرَسَه وأكفيه مؤنتَه وأسُوسُه، وأدقُّ النَّوى لناضحِه وأعلُفه، واستقى الماء وأخْرزُ غرَبَه[2] وأعجن، وكنت أنقلُ النوى على رأسى من ثلثى فرسخ، حتى أرسل إلىَّ أبو بكر بجارية، فكفتنى سياسة الفرس، فكأنما أعتقنى.

---

(١) النواضح: الإبل يستقى عليها، واحدها ناضح وسائقها النضاح.

(٢) الغرب: الدلو العظيمة تتخذ من جلد الثور.

هكذا ينبغى لنساء المسلمين فى الصبر والإباء والقوة، والكبرياء بالنفس على الحياة كائنةً ما كانت، والرضا والقناعة ومؤازرةِ الزوج وطاعته، واعتبار مالَهن عند الله لا مالَهنَّ عند الرجل، وبذلك يرتفعْنَ على نساء الملوك فى أنفسهن، تكون المرأة منهن وما فى دارها شىء، وعندها أن فى دارها الجنة. وهل الإسلامُ إلا هذه الروحُ السماوية لتى لا تهزمُها الأرضُ أبدًا، ولا تُذلها أبدًا، ما دام يأسُها وطمعُها معلَّقين بأعمال النفس فى الدنيا، لا بشهوات الجسم من الدنيا؟

هل الرجلُ المسلم الصحيحُ الإسلام، إلا مثلُ الحرب يثور حولَها غبارُها، ويكون معها الشظَف والبأسُ والقوة والاحتمالُ والصبر؛ إذ كان مفروضا على المسلم أن يكون القوةَ الإنسانية لا الضعف، وأن يكون اليقينَ الإنسانىَّ لا الشك، وأن يكون الحقَّ فى هذه الحياة لا الباطل؟

وهل امرأة المسلم إلا تلك المفروض عليها أن تُمدَّ هذه الحربَ بأبطالها، وعَتَادِ أبطالها وأخلاق أبطالها، ثم ألا تكونَ دائمًا إلا من وراء أبطالها؟ وكيف تلد البطلَ إذا كانَ فى أخلاقها الضعةُ والمطامعُ الذليلةُ، والضجرُ والكسلُ والبلادة؟ ألا إن المرأة كالدار المبنيَّة، لا يَسْهل تغيير حدودها إلا إذا كانت خَرابا.

فاعترضَتْهُ امرأةُ الشيخ وقالت: وهل بأس بالدار إذا وسُعِّتْ حدودُها من ضيِق؟ أتكون الدار فى هذا إلى نقصها أو تمامِها؟

قال أبو معاوية: فكدتُ أنقطعُ فى يدها، وأحببت أن أمْضِىَ فى استمالتها، فتركتُها هُنَيْهَةً ظافرةً بى، وأريتُها أنَّها شدَّتنى وثَاقًا، وأطرقت كالمفكِّر، ثم قلت لها إنما أحدثك عن أم معاوية لأبى معاوية، وتلك دارٌ لاتملك أحجارها وأرضها فبأى شىء تتسع؟

زعموا أنه كان رجلٌ عامل يملك دوُيَرةً قد التصقتْ بها مساكنُ جيرانه، وكانت لـه زوجةٌ حمقاءُ، ما تزال ضيقّةَ النفس بالدار وصغَرِها، كأن فى البناء بناءً حول قلبها، وكانا فقيرين، كأم معاوية وأبى معاوية، فقالت لـه يوما: أيها الرجلُ، ألا توسعِّ دارَك هذه، ليعلم الناس أنك أيسرتَ وذهب عنك الضرُّ والفقر؟ قال:

فبماذا أوسعِّها وما أملك شيئًا، أأُمسك بيمينى حائطًا وبشمالى حائطًا فأمدُّهما أباعِد بينهما...؟ وهبينى ملكت التَّوسِعةَ ونفقتهَا، فكيف لى بدور الجيران وهى ملاصقةٌ لنا بَيْتَ بيت؟

قالت الحمقاء: فإننا لا نريد إلا أن يتَعَالَم الناس أننا أيسرنا، فاهدم أنت الدار، فإنهم سيقولون: لو أنهم وجدوا واتسعوا وأصبح المالُ فى يدهم لما هدموا...!

قال أبو معاوية: وغاظتنى زوجةُ الشيخ فلم أسمع لها هَمْسةً من الضحك لِمثلَ الحمقاء، . وما اخترعتهُ إلا من أجلها تريد أن يذهبَ عملى باطلاً، فقلت: وهل تتسع أمُّ معاوية من فقرها إلا كما اتسع ذلك الأعرابى فى صلاحه؟

قالت : وما خبرُ الأعرابى؟

قلت: دخل علينا المسجدَ يومًا أعرابى جاء من البادية، وقام يصلى فأطال القيامَ والناس يرمقونه، ثم جعلوا يتعجبون منه، ثم رفعوا أصواتهم يمدحونه ويصفونه بالصلاح، فقطع الأعرابى صلاته وقال لهم: مع هذا إنى صائم...

قال أبو معاوية: فما تمالكت أن ضحكت، وسمعت صوت نفسها، وميزتُ فيه الرضى مقبلاً على الصلح الذى أتَسَببُ له. ثم قلت:

وإذا ضاقت الدار فلمَ لا تتسع النفسُ التى فيها؟ المرأةُ وحدها هى الجوَ الإنسانىُّ لدَار زوجها، فواحدة تدخل الدَّار فتجعل فيها الروضةَ ناضرةً متُرَوَحِّة باسمةً، وإن كانت الدارَّ قحطَةً مسَحْوتةً ليس فيها كبيرُ شىء، وامرأة تدخل الدَّار فتجعل فيها مثلَ الصحراء برمالها وقَيَظِها وعواصفِها، وإن كانت الدَّار فى رياشها ومتَاَعها كالجنة السُندسيِّة، وواحدة تجعل الدار هى القبر. والمرأةُ حقُّ المرأة هى التى تترك قلبها فى جميع أحواله على طبيعته الإنسانية، فلا تجعلُ هذا القلبَ لزوجها من جنس ما هى فيه من عيشة: مرة ذهبًا، ومرة فضة، ومرة نحاسًا أو خشبًا أو ترابًا، فإنما تكون المرأة مع رجلها من أجْله ومن أجل الأمة معًا، فعليها حقان لا حق واحدٌ، أصغرهما كبير؛ ومن ثم فقد وجب عليها إذا تزوجتْ أن تستشعرَ الذات الكبيرة مع ذاتها، فإن أغضبها الرجل بهفوة منه، تجافَتْ له عنها، وصَفحتْ

مـن أجل نظـام الجماعة الكبرى، وعليها أن تحكم حينئـذ بطبيعة الأمة لا بطبيعة نفســها، وهى طبيعة تأبى التفـرقَ والانفراد، وتقومُ علـى الواجب، وتضاعف هذا الواجب على المرأة بخاصة.

والإسلام يضع الأمة ممثلة فى النسل بين كل رجل وامرأته، ويوجب هذا المعنى إيجابًا، ليكونَ فى الرجل وامرأته شـيء غيرُ الذكـورة والأنوثة، ويجمعهما ويقيدّ أحدَهما بالآخر، ويضعُ فى بهيميتّهما التى من طبيعتها أن تتفق وتختلف، إنسـانيةً من طبيعتها أن تتفق ولا تختلف.

ومتى كانت الدينُ بين كل زوج وزوجته، فمهما اختلفا وتدَابَرا وتعقدَّت نفساهما، فإن كلَّ عقدة لا تجيء إلا ومعها طريقةُ حلِّها، ولن يُشـادّ الدينَ أحد إلا غَلبه، وهو اليُسْـرُ والمسُاهلَةُ، والرحمةُ والمغفرةُ، ولينُ القلب وخشيةُ الله، وهو العهدُ والوفاء، والكـرمُ والمؤاخاةُ والإنسـانية، وهو اتسـاع الذات وارتفاعُها فـوق كل ما تكون به منحطةً أو ضيقة.

قال أبو معاوية: فحقُّ الرجلِ المسلم على امرأته المسلمة، هو حقٌّ من الله، ثم من الأمة، ثم من الرجل نفســه، ثم من لطف المرأة وكرمها، ثم مما بينهما معًا. وليس عجيبًا بعد هذا ما روينا عن النبى ﷺ: «لو كنت آمرًا أحدًا أن يسـجدَ لأحدٍ، لأمرت النساء أن يَسْجُدنَ لأزواجهن، لِما جعل الله لهم عليهن من الحق».

وهذه عائشة أم المؤمنين قالت: يا معشرَ النساء، لو تَعلمنَ بحق أزواجكن عليكن، لجعلت المرأة منكن تمسح الغبار عن قَدمَى زوجهِا بِحُرِّ وجههِا.

***

قـال أبو معاوية: وكان الشـيخ قد اسـتبطأنى وقد تركته فى فنِـاء الدار، وكنت زوّرت فى نفسى كلامًا طويلًا عن فروته الحقيرة التى يلبسها، فيكون فيها من بَذاذة الهيئة كالأجير الذى لم يجد من يستأجره، فظهرَ الجوع حتى على ثيابه... وقد مرّ

بالشـيخ رجل من المسُـوَدِّة[1] وكان الشيخ فى فروته هذه جالسًا فى موضع فيه خليجٌ من المطر، فجاءه المسودّ فقال: قم فاعبُربى هذا الخليج. وجذبه بيده فأقامه وركبه والشيخ يضحك.

وكنت أريد أن أقول لأم محمد: إن الصحوَ فى السـماء لا يكون فقرًا فى السـماء، وإن فروةَ الشيخ تعرف الشيخَ أكثر من زوجته، وإن المؤمنَ فى لذات الدنيا، كالرجل الذى يضع قدميه فىالطين ليمشى، أكبرُ همه ألا يجاوزَ الطين قدميه.

ولكن صوت الشيخ ارتفع: هل عليكم إذنْ؟

قال معاوية: فبَدرْتُ وقلت: بسم الله ادخل، كأنى أنا الزوجة...

وسـمعتُ همسًـا من الضحك، ودخل أبو محمد فجلس إلى جانبى، وغمزنى فى ظهـرى غمزة، فقلت: يا أم محمد إن شـيخك فى ورَعه وزهده ليَشُـبعه ما يُشـبع الهُدهـدُ، ويرُويه ما يروى العُصفور، ولئن كان متهدّمًا فإنه جَبَل علم، «ولا تنظرى إلى عَمَش عينيه وحُموشةِ ساقيه، فإنه إمام وله قَدْرٌ»[2].

فصاح الشيخ: قم أخزاك الله، ما أردتَ إلا أن تعرفها عيوبى!

قال أبو معاوية: ولكنى لم أقم، بل قامت زوجة الشيخ فقبلت يده..

■■■

(١) اللذين يلبسون السواد، وهم شيعة العباسيين.

(٢) ما بين القوسين هو الوارد فىالتاريخ، وعليه بنينا هذه القصة.

قبح جميل

دخــل أحمدُ بن أيمن (كاتــبُ ابن طولون) البصرة، فصنعُ له مســلم بن عمران التاجرُ المتأدبُ صنيعًا دعا إليه جماعةً من وجوه التجار وأعيان الأدباء،فجاء ابنا صاحب الدعوة، وهمــا غلامان، فوقفا بين يَدى أبيهما وجعل ابنُ أيمن يُطيــل النظرَ إليهما، ويُعْجَب من حسنهما، وبَزَّتهما ورُوائهما، حتى كأنما أفْرِغا فى الجمال وزينته إفراغا، أو كأنما جاءا من شمس وقمر لا من أبوين من الناس،أو هما نبتا فى مثل تهاويلِ الزهر من زينته التى تُبدِعُها الشــمس، ويَصْقِلُها الفجر، ويتندىَّ بها رُوحُ الماء العذب، وكان لا يصرف نظرَه عنهما إلا رجع به النظر، كأنه جمالَهما لا ينتهى فما ينتهى الإعجاب به.

وجعل أبوهما يُســارِقُه النظر مسُارَقةً، ويبدو كالمتشاغل عنه، ليدَعَ له أن يتوَسَّمَ ويتأمل ما شــاء، وأن يملأ عينيه مما أعجبه من لؤلؤَتَيهْ ومخَايلهما،بَيْد أن الحُســنَ الفاتنَ يأبى دائما إلا أن يســمعَ من ناظره كلمةَ الإعجاب به،حتى لينطق المرء بهذه الكلمة أحيانًا، وكأنها مأخوذة من لســان أخــدًا، وحتى ليُحس أن غريزةً فى داخله كلَّمهَا الحسن من كلامهِ فردّت عليه من كلامها.

قال ابن أيمن، ســبحان الله، ما رأيت كاليوم قَطّ دمْيتَيْن لاتفتَح الأعين على أجملَ منهما، ولو نزلا من السماء وألبستهما الملائكة ثيابًا من الجنة،ما حسبت أن تصنع الملائكة أظرفَ ولا أحسنَ مما صنعت أمهما.

فالتفت إليه مسلم وقال : أحب أن تعوِّذهما. فمد الرجل يدهَ ومَسَحَ عليهما،وعوّذهما بالحديث المأثور، ودعالهما، ثم قال: ما أراك إلا استْجَدْت الأمّ فحَسُنَ نسلك، وجاء كاللؤلؤ يشــبه بعضُــه بعضًا، صغِاره من كباره، وما عليــك ألا تكونَ قد تزوجت ابنة قيَصرَ فأولدتَها هذين، وأخرَجتْهما هى لك فى صِيغتها الملوكية[1] من الحسن والأدب

---

(١) تجــىء هذه الكلمة فى كتب الأدب والتاريخ على غير قاعدة النســب، وهو الأفصح فى رأينا، ومن ذلك تسمية الإمام ابن جنى كتابه: «التصريف الملوكى».

والرَّونق، وما أرى مثلَهما يكونان فى موضع إلا كان حولهما جلالُ الملُك ووقاُره، مما يكون حولهما من نور تلك الأم.

فقال مسلم: وأنت على ذلك غير مصدقٌ إذا قلت لك إنى لا أحب المرأة الجميلةَ التى تصف، وليس بى هوى إلا فى امرأة دميمة هى بدمامتها أحبُّ النساء إلىَّ، وأخفهن على قلبى، وأصلحُهن لى ، ما أعدِلُ بها ابنة قيصر وَلا ابنة كِسرَى.

فبقى ابنُ أيمن كالمشدوه من غرابة ما يسمع، ثم ذكر أن من الناس مَن يأكل الطينَ ويستطيبه لفساد فى طبعه، فلا يحلو السُكرَّ فى فمه وإن كان مكرَّرًا خالص الحلاوة، وَرَثَى أشدّ الرثاء لأمّ الغلامين أن يكونَ هذا الرجل الجلِفْ قد ضارَّها[1] بتلك الدميمة أو تَسرىَّ بها عليها ، فقال وما يملك نفسه: أمَا والله لقد كفرَت النعمة، وغدرْت وجحدْتَ وبالغتَ فى الضرُّ ، وإن أمَّ هذين الغلامين لامرأةٌ فوقَ النساء، إذ لم يَتَبيَّنْ فى ولديها أثرٌ من تغيرٌ طبعها وكدُورِ نفسها، وقد كان يسَعُها العذر لو جعلتْها سَخْنةَ عين لك وأخرجتْهما للناس فى مِساوئك لا فى محاسنك، وما أدرى كيف لا تَندُّ عليك، ولا كيف صَلُحَتْ بمقدار ما فسدْتَ أنت، واستقامتْ بمقدار ما التويتَ، وعجيبٌ والله شأنُكما! إنها لتغلو فى كرم الأصل والعقل والمروءة والخلق، كما تغلو أنت فى البهيمية والنزَق والغدر وسوء المكافأة.

قال مسلم: فهو والله ما قلتُ لك، وما أحب إلا امرأة دميمةً قد ذهبت بى كل مذهب، وأنستنى كل جميلة فى النساء، ولئن أخذتُ أصفها لما جاءت الألفاظ إلا من القبُح والشَّوْهَةِ والدَّمامة، غير أنها مع ذلك لا تجىء إلا دالَّةً على أجمل معانى المرأة عند رجلُها فى الحظْوة والرضى وجمال الطبع، وانظر كيف يلتئم أن تكونَ الزيادة فى القبح هى زيادة فى الحسن وزيادةً فى الحب،وكيف يكون اللفظ الشائهِ، وما فيه لنفسى إلا المعنى الجميل، وإلا الحسُّ الصادق بهذا المعنى، وإلا الاهتزاز والطرب لهذا الحسّ؟

---

(١) المضارة: اتخاذ الضرة على الزوجة.

قال ابنُ أيمن : والله إنْ أراك إلا شيطانًا من الشياطين، وقد عجلَّ الله لك من هذه الدميمة زوجتَك التى كانت لك فى الجحيم، لتجتمعا معًا على تعذيب تلك الحوراء الملائكية أُمِّ هذين الصغيرين، وما أدرى كيف يتصلُ ما بينكما بعد هذا الذى أدخلتَ من القبح والدَّمامة فى معاشرتها ومُعَايشتها، وبعد أن جعلتَها لا تنظر إليك إلا بنظرتها إلى تلك. أفَبَهيمَةٌ هى لا تعقل، أم أنت رجل ساحر، أم فيك ما ليس فى الناس، أم أن لا أفقه شيئًا؟

فضحك مسلم وقال: إن لى خبرا عجيبًا: كنت أنزل «الأُبُلَّة» وأنا مُتَعَيِّش[1] فحملت منها تجارةً إلى البصرة فربحت، ولم أزل أحمل من هذه إلى هذه فأربح ولا أخسر، حتى كثر مالى، ثم بدا لى أن أتَّسع فى الآفاق البعيدة لأجمع التجارة من أطرافها، وأبسطَ يدى للمال حيث يكثر وحيث يقلّ، وكنت فى مَيْعة الشباب وغُلَوَائِه، وأول هَجْمه الفتوّة على الدنيا، وقلت: إن فى ذلك خلالا؛ فأرى الأممَ فى بلادها ومَعَايشها، وأتقلَّب فى التجارة، وأجمع المال والطرائف، وأُفيدُ عِظةً وعبرة، وأعلم عِلمًا جديدًا، ولعلنى أصيبُ الزوجة التى أشتهيها وأصوِّر لها فى نفسى التصاوير، فإن أمرى من أوله كان إلى عُلُوٍّ فلا أريد إلا الغاية، ولا أرمى إلا للسَّبق، ولا أرضى أن أتخلفَ فى جماعة الناس. وكأنى لم أر فى الأبلَّة ولا فى البصرة امرأةً بتلك التصاوير التى فى نفسى، فتأخذَها عينى، فتعجبَنى، فتصلُح لى، فأتزوجَ بها، وطمعتُ أن أستنزل نجمًا من تلك الآفاق أُحْرِزُه فى دارى؛ فما زلتُ أرمى من بلد إلى بلد حتى دخلت «بلخ»[2] من أجلِّ مدن خُراسان وأوسعِها غَلَّة؛ تُحْمَل غَلَّتُها إلى جميع خراسان وإلى خُوارزْم؛ وفيها يومئذ – كان – عالمُها وإمامُها «أبو عبد الله البَلْخى» وكنا نعرف اسمَه فى البصرة؛ إذ كان قد نزلها فى رحلته وأكثر الكتابةَ بها عن الرُّواة والعلماء؛ فاسْتَخَفَّتْنى إليه نَزيَّةٌ من شوقى إلى الوطن، كأن فيه بلدى وأهلى؛ فذهبت

(١) أى متكسب ليعيش لا ليغتنى؛ وهذا يسميه العامة (المتسبب).

(٢) موقعها اليوم فى بلاد الأفغان.

إلى حلْقته، وسمعتُه يفسر قولَ النبى ﷺ: «سوداءُ ولودٌ خيرٌ من حسناء لا تلد». فما كان الشيخ إلا فى سحابة، وما كان كلامه إلا وحيًا يوحى إليه. سمعت والله كلامًا لا عهدَ لى بمثله، وأنا من أول نشأتى أجلس إلى العلماء والأدباء، وأداخِلُهم فى فُنون من المذاكرة، فما سمعت ولا قرأت مثل كلام البلخىّ، ولقد حفظته حتى ما تفوتُنى لفظة منه، وبقى هذا الكلام يعمل فى نفسى عمله، ويدفعنى إلى معانيه دفعًا، حتى أتى عَلَىَّ ما سأحدّثك به، إن الكلمةَ فى الذهن لتوجد الحادثة فى الدنيا.

قال ابن أيمن: اطْوِ خبرك إن شئت، ولكن اذكر لى كلام البلخى، فقد تعلَّقتْ نفسى به.

قال: سمعت أبا عبد الله يقول فى تأويل ذلك الحديث: أمَّا فى لفظ الحديث فهو من معجزات بلاغة نبينا ﷺ، وهو من أعجب الأدب وأبرعِه، ما علمت أحدًا تَنَبَّهَ إليه؛ فإنه ﷺ لا يريد السوداء بخصوصها، ولكنه كَنَى بها عما تحت السواد، وما فوقَ السواد، وما هو إلى السواد، من الصفات التى يتَقَبَّحُها الرجال فى خِلقة النساء وصُوَرِهِنَّ؛ فألْطَفَ التعبيرَ ورَقّ به، رفعًا لِان النساء أن يصفَ امرأة منهم بالقُبح والدّمامة، وتنزيهًا لهذا الجنس الكريم، وتنزيهًا للسانه النبوىّ؛ كأنه ﷺ يقول: إن ذِكْرَ قُبْح المرأة هو فى نفسه قبيحٌ فى الأدب، فإن المرأة أمّ أو فى سبيل الأمومة؛ والجنةُ تحت أقدام الأمهات؛ فكيف تكون الجنة التى هى أحسن ما يُتَخَيَّل فى الحسن تحت قدمى امرأة، ثم يجوز أدبًا أو عقلاً أن توصف هذه المرأة بالقبح.

أمَا إن الحديث كالنَّصّ على أن من كمال أدب الرجل إذا كان رجلاً ألاّ يصفَ امرأةً بقبح الصورة ألبتَّه، وألاّ يجرىَ فى لسانه لفظ القبح وما فى معناه، موصوفًا به هذا الجنس الذى منه أمه: أيَوَدُّ أحدكم أن يمزّق وجهَ أُمه بهذه الكلمة الجارحة؟

وقد كان العرب يُفَصِّلون لمعانى الدمامة فى النساء ألفاظًا كثيرة؛ إذ كانوا لا يرفعون المرأة عن السائمة والماشية؛ أما أكمل الخلْق ﷺ، فما زال يوصىّ بالنساء ويرفع شأنَهن حتى كان آخر ما وصى به ثلاثَ كلمات، كان يتكلم بهن إلى أن تَلَجْلَجَ

لسانُه وخَفىَ كلامه؛ جعل يقول: «الصلاة.... الصلاة. وما ملكتْ أيْمانُكم لا تكلّفوهم ما لا يطيقون؛ الله الله فى النساء».

قال الشيخ: كأن المرأة من حيث هى إنما هى صلاةٌ تتَعبَّد بها الفضائل، فوجبتْ رعايتها وتَلقِّيها بحقها؛ وقد ذَكَرَها بعد الرقيق، لأن الزواج بطبيعته نوعُ رِقّ؛ ولكنه خَتَمَ بها وقد بدأ بالصلاة، لأن الزواج فى حقيقته نوعُ عبادة.

قال الشيخ: ولو أن أمًّا كانت دميمةً شَوهاء فى أعين الناس، لكانت مع ذلك فى عين أطفالها أجملَ من ملكة على عرشها؛ ففى الدنيا من يصفُها بالجمال صادقًا فى حسِّه ولفظه، لم يكذبْ فى أحدهما؛ فقد انتفى القبحُ إذن، وصار وصفُها به فى رأى العين تكذيبًا لوصفها فى رأى النفس، ولا أقلَّ من أن يكون الوصفان قد تعارَضَا فلا جمال ولا دمامة.

قال الشيخ: وأما فى معنى الحديث، فهو ﷺ يقرّر للناس أن كرمَ المرأة بأمومتها، فإذا قيل: إن فى صورتها قبحًا، فالحسناء التى لا تلد أقبح منها فى المعنى. وانظر أنت كيف يكون القبحُ الذى يقال إن الحسن أقبح منه...!

فمن أين تناولتَ الحديثَ رأيته دائرًا على تقدير أنْ لا قبحَ فى صورة المرأة، وأنها منزَّهة فى لسان المؤمن أن توصفَ بهذا الوصف، فإن كلمات القبح والحسن لغةٌ بهيمية تجعل حبّ المرأة حبًّا على طريقة البهائم، من حيث تَفْضُلها طريقة البهائم بأن الحيوان على احتباسه فى غرائزه وشهواته، لا يتَكَذَّب فى الغريزة ولا فى الشهوة بتلوينهما ألوانًا من خيَاله، ووضعهما مرّة فوق الحدّ، ومرّة دون الحد[1].

فأكبر الشأن هو للمرأة التى تجعل الإنسانَ كبيرًا فى إنسانيته، لا التى تجعله كبيرًا فى حيوانيته، فلو كانت هذه الثانية هى التى يصطلح الناس على وصفها بالجمال فهى القبيحةُ لا الجميلة؛ إذ يجب على المؤمن الصحيح الإيمان أن يعيشَ فيما يصلُح به الناس، لا فيما يصطلح عليه الناس؛ فإن الخروج من الحدود الضيِّقة

(١) بسطنا هذا المعنى فى كتابنا (السحاب الأحمر).

للألفاظ، إلى الحقائق الشاملة، هو الاستقامةُ بالحياة على طريقها المؤدى إلى نعيم الآخرة وثوابها.

وهناك ذاتان لكل مؤمن: إحداهما غائبة عنه، والأخرى حاضرةٌ فيه، وهو إنما يصل من هذه إلى تلك، فلا ينبغى أن يَحْصُرَ السماويةَ الواسعة فى هذه الترابيَّة الضيِّقة؛ والقبح إنما هو لفظ ترابىّ يشار به إلى صورةٍ وقع فيها من التشويه مثل معانى التراب، والصورة فانية زائلة، ولكنَّ عملَها باق؛ فالنظر يجب أن يكون إلى العمل؛ فالعملُ هو لا غيره الذى تَتَعَاوَرَهُ ألفاظ الحسن والقبح.

وبهذا الكمالِ فى النفس، وهذا الأدب، قد ينظر الرجلُ الفاضلُ من وجه زوجته الشوهاء الفاضلة، لا إلى الشوهاء، ولكن إلى الحُور العين. إنهما فى رأى العين رجلٌ وامرأة فى صورتين متنافِرَتين جمالا وقبحًا؛ أما فى الحقيقة والعمل وكمال الإيمان الروحىّ، فهما إرادتان متّحدتان تجذب إحداهما الأخرى جاذبيةَ عشق، وتلتقيان معًا فى النفسين الواسعتين، المراج بهما الفضيلةُ وثوابُ الله والإنسانية؛ ولذلك اختار الإمامُ أحمدُ بن حنبل عوراء على أختها، وكانت أختُها جميلة، فسأل: مَن أعقلُهْما؟ فقيل: العوراء: زوّجونى إياها. فكانت العوراء فى رأى الإمام وإرادتِه هى ذاتَ العينين الكحيلتين، لوفور عقله وكمال إيمانه.

قال أبو عبد الله: والحديثُ الشريفُ بعد كلّ هذا الذى حكيناه يدلّ على أن الحبَّ متى كان إنسانيًّا جاريًا على قواعد الإنسانية العامَّة، متَّسِعًا لها غيرَ محصورٍ فى الخصوص منها، كان بذلك علاجًا من أمراض الخَيال فى النفس،واستطاع الإنسان أن يجعل حبَّه يتناول الأشياء المختلفة، ويردُّ على نفسه من لذّاتها، فإن لم يُسعدْه شىءٌ بخصوصه، وجدَ أشياء كثيرةً تُسْعِده بين السماء والأرض، وإن وقع فى صورة امرأته ما لا يُعَدُّ جمالاً، رأى الجمالَ فى أشياء منها غير الصورة، وتَعَرَّف إلى ما لا يَخْفَى، فظهر له ما يَخْفَى.

وليست العين وحدَها هى التى تُؤامَر فى أىّ الشيئين أجمل، بل هناك العقلُ والقلب، فجوابُ العينِ وحدها إنما هو ثلثُ الحق. ومتى قيل: «ثلثُ الحق» فضياعُ الثُلْثين يجعله فى الأقل حقًّا غير كامل.

فما نكرهه من وجه، قد يكون هو الذى نحّبه من وجه آخر، إذا نحن تركنا الإرادة السليمة تعمل عملَها الإنسانىّ بالعقل والقلب، وبأوسع النظرين دون أن أضيقهما ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩ ﴾ سورة النساء الآية ١٩.

* * *

فوثب ابن أيمن، وأقبل يدور فى المجلس مما دخله من طَرَبِ الحديث ويقول: ما هذا إلا كلام الملائكة سمعناه منك يا بْن عمران. قال مسلم: فكيف بك لو سمعتَه من أبى عبد الله؛ إنه والله قد حبَّب إلىّ السوداء والقبيحةَ والدميمة، ونظرتُ لنفسي بخير النظَرين، وقلتُ: إن تزوَّجْتُ يومًا فما أبالى جمالاً ولا قبحًا، إنما أريد إنسانيَّةً كاملة منى ومنها ومن أولادنا، والمرأةُ فى كل امرأة، ولكن ليس العقل فى كل امرأة.

قال: ثم إنى رجعتُ إلى البصرة، وآثَرْتُ السكْنى بها، وتَعَالَمَ الناسُ إقبالى، وعلمتُ أنه لا يَحْسُنُ بى المقَامُ بغير زوجة، ولم يكن بها أجلُّ قدرًا من جدّ هذين الغلامين، وكانت له بنت قد عَضَلَهَا وتَعَرَّض بذلك لعداوة خُطَّابها؛ فقلت: ما لهذه البنت بدٌّ من شأن، ولو لم تكن أكملَ النساء وأجملَهن، ما ضنَّ بها أبوها رَجاوَةَ أن يأتيَه من هو أعلى. فحدثتْنى نفسى بلقائه فيها، فجئْتُه على خَلوة..

فقطع عليه ابن أيمن وقال: قد علمنا خبرَها من منظر هذين الغلامين، وإنما نريدُ من خبر تلك الدميمة التى تَعَشَّقْتَها.

قال: مهلاً فستنتهى القصةُ إليها. ثم إنى قلت: يا عمّ، أنا فلانٌ ابن فلان التاجر. قال ما خَفِىَ عنى محلك ومحلُّ أبيك. فقلت: جئتُك خاطبًا لابنتك. قال: والله ما بى عنك رغبة، ولقد خطبها إلىّ جماعة من وجوه البصرة وما أجبتهم، وإنى لكارهٌ إخراجَها عن حِضْنى إلى من يُقَوِّمُها تقويمَ العبيد فقلت: قد رفعها الله عن هذا الموضع، وانا أسألك أن تدخِلَنى فى عَدَدِكَ، وتَخْلِطَنى بِشَمْلك.

فقال: ولابدّ من هذا؟ قلت: لابدّ. قال: اغْدُ عَلَيَّ برجالك.

فانصرفتُ عنه إلى مَلأ من التجار ذوى أخطار، فسألتهم الحضور فى غد؛ فقالوا: هذا رجل قد ردّ من هو أثرى منك، وإنك لتُحَرّكُنا إلى سَعْيٍ ضائع.

قلت: لابدّ من ركوبكم معى. فركبوا على ثِقة من أنه سيردُّهم.

فصاح ابن أيمن وقد كادت روحهُ تخرج: فذهبتَ، فزَوَّجَك بالجميلة الرائعة أمّ هذين؛ فما خبرُ تلك الدميمة؟

قال مسلم: يا سيدى قد صبرتَ إلى الآن، أفلا تصبر على كلمات تُنَبِّئُكَ من أين يبدأ خبرُ الدميمة، فإنى ما عرفتها إلا فى العُرْسِ...!

قال: وغَدَوْنَا عليه فأحْسَنَ الإجابة وزوَّجنى، وأطعم القومَ ونحر لهم، ثم قال: إن شئتَ أن تبيتَ بأهلكَ فافعل، فليس لها ما يُحْتاجُ إلى التَّلوُّم عليه وانتظارِه.

فقلت: هذا يا سيدى ما أحبه. فلم يزل يُحَدِّثنى بكل حَسَن حتى كانت المغرب، فصلاّها بى، ثم سبَّح وسبَّحتُ، ودعا ودعوت، وبقى مقبلاً على دعائه وتسبيحه ما يلتفتُ لغير ذلك، فأمضَّنى - علم الله - كأنه يرى أن ابنتَه مُقْبِلة منى على مصيبة، فهو يتضرَّع ويدعو...!

ثم كانت العَتَمَةُ فصلاّها بى، وأخذ بيدى فأدخلنى إلى دار قد فُرِشَتْ بأحسن فَرْشٍ، وبها خَدم وجوارٍ فى نهاية من النظافة؛ فما استقرَّ بى الجلوس حتى نهض وقال: أسْتَوْدعك الله، وقَدَّم الله لكما الخير وأحْرَزَ التوفيق.

واكتنفنى عجائزُ من شمله، ليس فيهنّ شابَّة إلا من كانت فى الستين.. فنظرت فإذا وجوهٌ كوجوه الموتى، وإذا أجسامٌ بالية يتضام بعضها إلى بعض، كأنها أطلال زمن قد انقضَّ بين يدى.

فصاح ابن أيمن: وإن دَميمتك لعجوزٌ أيضًا...؟ ما أراك يا بن عمران إلا قتلتَ أُمّ الغلامين...!

قال مسلم: ثم جَلَوْن ابنَته عَلَيَّ وقد ملأن عينىَّ هرمًا وموتًا وأخْيِلَة شياطين وظلالَ قُرود؛ فما كدت أستفيق لأرى زوجتى، حتى أسرعْن فأرخَيْن الستورَ علينا؛ فحمدتُ الله لذهابهن، ونظرت...

وصاح ابن أيمن وقد أكله الغيظ: لقد أطلْتَ علينا، فَستَحْكى لنا قصتَك إلى الصباح، قد علمناها ويلك، فما خبرُ الدميمة الشوهاء؟

قال مسلم: لم تكن الدميمةُ الشوهاء إلا العروس....

* * *

فزاغت أعيُن الجماعة، وأطرق ابنُ أيمن إطراقَةَ مَن وَرَد عليه ما حيَّرَه؛ ولكن الرجل مَضى يقول:

ولما نظرتُها لم أرَ إلا ما كنتُ حفظتُه عن أبى عبد الله البلخىّ، وقلتُ: هى نفسى جاءت بى إليها، وكأن كلام الشيخ إنما كان عملاً يعمل فىّ ويُديرنى ويُصَرّفنى؛ وما أسرع ما قامت المسكنةُ فأكبَّتْ على يدى وقالت:

«يا سيدى إنى سرٌّ من أسرار والدى، كتمه عن الناس وأفضى به إليك، إذ رآك أهلاً لستره عليه، فلا تخْفِرْ ظنَّه فيك، ولو كان الذى يُطلَب من الزوجة حسنَ صورتها دون حُسْنِ تدبيرها وعفافِها لعظُمتْ مِحنتى، وأرجو أن يكون معى منهما أكثرُ مما قصَّر بى فى حُسْن الصورة؛ وسأبلغ محبتَك فى كل ما تأمرنى؛ ولو أنك آذيتَنى لعَدَدْتُ الأذى منك نعمةً، فكيف إن وَسِعَنى كرمُك وسَتْرُك؟ إنك لا تعامل الله بأفضلَ من أن تكون سببًا فى سعادة بائسة مثلى. أفلا تحرصُ يا سيدى، على أن تكون هذا السببَ الشريف....».

ثم إنها وثبتْ فجاءت بمالٍ فى كيس، وقالت: يا سيدى، قد أحلّ الله لك معى ثلاثَ حرائر، وما آثرْتَه من الإماء؛ وقد سَوَّغتُك تزويجَ الثلاثِ وابتياعَ الجوارى من مال هذا الكيس، فقد وقفْتُه على شهواتك، ولستُ أطلب منك إلا سترى فقط!

* * *

قال أحمد بن أيمن: فحلَفَ لى التاجر: أنها ملكتْ قلبى مِلْكا لا تصلُ إليه حسناءُ بحسنها؛ فقلت لها: إن جزاء ما قدَّمتِ ما تسمعينه منى: «والله لأجعلنَّك حظِّى فى دنيايَ فيما يُؤْثِره الرجلُ من المرأة، وَلأَضْرِبَنَّ على نفسى الحجابَ، ما تنظر نفسى إلى أنثى غيرك أبدًا». ثم أتممتُ سرورَها، فحدثتها بما حفظته عن أبى عبد الله

البلخىّ. فأيقنتْ – والله يا أحمد – أنها نزلتْ منى فى أرفع منازلها وجعلتْ تَحْسُن وتحسُن، كالغصن الذى كان مَجرودًا، ثم وَخَزتْه الخُضْرَةُ من هنا ومن هنا.

وعاشرتُها، فإذا هى أضبطُ النساء، وأحسنهن تدبيرًا، وأشفقُهن علىّ،وأحبُّهنّ لى؛ وإذا راحتى وطاعتى أوّلُ أمرها وآخرُه؛ وإذا عقلُها وذكاؤها يُظهران لى من جمال معانيها مالا يزال يكثُر ويكثر، فجعل القبح يقلّ ويقل، وزال القبح باعتيادى رؤيتَه، وبقيت المعانى على جمالها؛ وصارت لى هذه الزوجة هى المرأةَ وفوق المرأة.

ولما ولدتْ لى، جاء ابنها رائعَ الصورة؛ فحدثتْنى أنها كانت لا تزال تتمنى على كرم الله وقدرتِه أن تتزوّجَ وتلد أجملَ الأولادَ، ولم تدعْ ذلك من فكرها قط، وألَّف لها عقلُها صورة غلامٍ تتمثَّلُه وما برحتْ تتمثله؛ فإذا هى أيضًا كان لها شأنٌ كشأنى، وكان فكرُها عملاً يعملُ فى نفسها، ويُديرها ويصرِّفها.

ورزقنى الله منها هذين الابْنَيْن الرائعين لك، فانظر؛ أىُّ معجزتين من معجزات الإيمان...!

■■■

الطائشة

(١)

قال صاحبُها وهو يُحدّثنى من حديثها:

كانت فتاةً متعلّمةً، حُلوةَ المنظر، حُلوةَ الكلام، رقيقة العاطفة، مُرْهَفَةَ الحسّ، فى لسانها بيانٌ ولوجهها بيانٌ غيرُ الذى فى لسانِها، تَعْرِفُ فيه الكلامَ الذى لا تتكلم به...

ولها طبعٌ شديدُ الطَّرَب للحياة، مُسْتَرْسِلٌ فى مَرَحِهِ، خفيفٌ طَيَّاشٌ، لو أثقلْتَه بجبَل لخفَّ بالجبل؛ تحسبُها دائمًا سَكْرَى تتَمايلُ من طربها، كأن أفكارَها المرِحَةَ هى فى رأسها أفكارٌ وفى دَمِها خَمرٌ...

وكان هذا الطبعُ السكرانُ بالشباب والجمالِ والطرب يعملُ عملين متناقضين؛ فهو دلالٌ مُتراجعٌ منهزم، وهو أيضًا جُرْأةٌ مُندفعةٌ متهجِّمة.

وهزيمةُ الدلال فى المرأة إنْ هى إلا عَمَلٌ حَرْبىٌّ، مُضْمَرَةٌ فيه الكَرَّةُ والهجوم؛ وكثيرًا ما ترى فيها النظرةَ ذاتَ المعنيَيْن: نظرةٌ واحدةٌ؛ بها تُؤنِّبك المرأةُ على جَراءتك معها، وبها أيضًا تَعْذلك على أنك لستَ معها أجرأ مما أنت...!

***

قلت: ويحكَ يا هذا! أتعرفُ ما تقول؟

قال: فمنْ يعرفُ ما يقول إذا أنا لم أعرف؟ لقد أحببتُ خمْسَ عشرةَ فتاة؛ بل هُنَّ أحببْنَنى وفرَّغْنَ قلوبَهن لى، ما اعتزَّتْ علىَّ منهن واحدة، وقد ذهبن بى مذهبًا، ولكنى ذهبتُ بهن خمسةَ عَشَر!

قلت: فلا ريبَ أنك تحملُ الوسامَ الإبليسىّ الأوّل من رُتبة الجَمْرة... فكيف اسْتَهامَ بك خمسَ عشرةَ فتاة؛ أجاهلاتٌ هنّ، أعَمْياواتٌ هن....؟

قــال: بل متعلّمات مُبصِراتٌ يَرَيْــنَ ويُدْركن، ولا تُخْطئ واحدةٌ منهن فى فهم أن رجلاً وامرأةً قصةُ حُبّ.... وما خمسَ عشرةَ فتاة؟ وما عشرون وثلاثون من فَتَيات هذا الزمن الحائرِ البائر، الذى كَسَد فيه الزواجُ، ورقَّ فيه الدين، وسقط الحياء، والتهبت العاطفة، وانتشــر اللَّهو، وكثُرَتْ فنونُ الإغــراء، واصطلح فيه إبليسُ والعلمُ يعملان معًا..؛ وأُطلِقتِ الحرّيةُ للمرأة، وتوسعتِ المدارسُ فيما تقدّم للفتيَات، وأظهرتْ من الحفاوة بهن أمرًا مُفْرِطًا حتى أخذْن منها رُبعَ العلم..؟

قلت: وثلاثةُ أرباعِ العلم الباقية.

قال: يأخذنها من الروايات والسيما.

علْمُ المدارس، ما عِلْمُ المدارس؟ إنهن لا يصنعْن به شيئًا إلا شهاداتٍ هى مكافأةُ الحفظ وإجازةُ النسيان من بَعد؛ أما علمُ السيما والروايات فيصنعن به تاريخَهن... ورُبَّ منظر يشــهدُه فى الســيما ألفُ فتاة بمــرَّة واحدة، فإذا اســتقرّ فى وَعْيهنّ، وطافت به الخواطرُ والأحلام ســلبهُنَّ القرارَ والوقارَ فمثَّلْنه ألف مرّة بألفِ طريقةٍ فى ألف حادثة!

يظنون أننا فى زمن إزاحةِ العقَباتِ واحدةً بعد واحدة، من حرية المرأة وعلمها؛ أما أنا فأرى حريةَ المرأة وعلمَها لا يُوجِدان إلا العقَباتِ النســائيةَ عَقَبَةً بعد عقبة. وقــد كان عيبُ الجاهلةِ المقصــورةِ فى دارها أن الرجل يحتــالُ عليها، فصار عيبُ المتعلِّمةِ المفتوحِ لها البابُ أنها هى تحتالُ على الرجل؛ فمرةً بإبداع الحيلةِ عليه، ومرةً بتلقينه الحِيلةَ عليها. والغريب فى أمر هذا العلم أنه هو الذى جعل الفتاةَ تبدأ الطريقَ المجهولَ بجهْل...!

قلت: وما الطريق المجهول؟

قال: الطريــقُ المجهولُ هو الرجل، إطلاقُ الحرية للفتــاة أطلق ثلاثَ حريَّات: حريةُ الفتاة، وحرية الحبّ؛ والأخرى حرّيةُ الزواج، ولما انطلق ثلاثتُهن معًا تَغَيَّرَ ثلاثتُهن جميعًا إلى فسادٍ واختلال.

أمـا الفتاة فكانت فـى الأكثر للزواج، فعادت للزواج فى الأقـلّ وفى الأكثرِ للَّهو والغَـزَل؛ وكان لهـا فى النفوس وَقَـارُ الأمّ وحُرمةُ الزوجة، فاجترأ عليها الشـبَّانُ اجتراءهم على الخليعة والسـاقطة، وكانت مقصورةً لا تُنالُ بعيب ولا يتَوَجَّهُ عليها ذمّ، فمشـتْ إلـى عُيوبها بقدمَيها، ومشـت إليها العيوبُ بأقـدام كثيرة... وكانت بجملتها امرأةً واحدةً، فعادت مما تَرى وتَعرفُ وتكابدُ كأنّ جسَـمها امرأة، وقلبها امرأةٌ أخرى، وأعصابَها امرأةٌ ثالثة...

وأمـا الحبُّ، فكان حبًّـا تتعرَّف به الرجولة إلى الأنوثة فى قُيود وشـروط، فلما صار حرًا بين الرجولة والأنوثة، انقلبَ حيلةً تَغتَرُّ بها إحدهما الأخرى؛ ومتى صار الأمرُ إلى قانون الحيلة، فقد خرج من قانون الشـرف، ويرجعُ هذا الشرفُ نفسهُ كما نراه، ليس إلا كلمةً يُحتال بها.

وأما الزواجُ، فلما صار حرًّا جاء الفتاةَ بشِبْه الزوج لا بالزوج... وضعُفَتْ منزلتُه، وقـلَّ اتفاقُه، وطال ارتقابُ الفتيات له، فضعـف أثرهُ فى النفس المؤنَّثة؛ وكانت من قبلُ لفَظْتَا (الشابَّ، والزوج) شيئًا واحدًا عند الفتاة وبمعنى واحد، فأصبَحتَا كلمتين متميزتَـين: فى إحداهمـا القوة والكثرة والسـهولة، وفى الأخرى الضعـفُ والقلَّةُ والتعذُّر؛ فالكلُّ شبَّانٌ وقليلٌ منهم الأزواج؛ وبهذا أصبح تأثير الشاب فى الفتاة أقوى من تأثير الشـرف، وعاد يُقْنِعهُا منه أخسُّ بُرهاناتِه، لا بأنه هو مُقْنع، ولكنْ بأنـها هى مهيَّأةٌ للاقتناع...

وفـى تلك الأحوال لايكونُ الرجلُ إلا مغفَّـلا فى رأى المرأة إذا هو أحبَّها ولم يكن محتالاً حيلةَ مثلهِ على مثِلها، ويظلُّ فى رأيها مغفَّلا حتى يخدَعها ويستزَلها؛ فإذا فعـل كان عندها نَـذلاً لأنه فعل... وهذه حريةٌ رابعة فى لغة المـرأةِ الحُرةِ والزواج الحَرّ والحب الحُر!

وانظر - بعيشكَ - ما فعلت الحريةُ بكلمة (التقاليد)، وكيف أصبحتْ هذه الكلمةُ السـاميةُ من مَبْذُوء الكلام ومكروهه حتى صارت غيرَ طبيعيَّة فى هذه الحضارة، ثم كيف أحالتها فجعلتها فى هذا العصر أشهرَ كلمةٍ فى الألسنة، يُتَهَكَّمُ بها على الدين

والشـرفِ وقانون العُرْفِ الاجتماعىّ فى خوف المعَرَّة والدنيئة والتَّصاوُن من الرذائل والمبالاة بالفضائل؛ فكلُّ ذلك (تقاليد)...

وقد أخذت الفَتياتُ المتعلَّماتُ هذه الكلمةَ بمعانيها تلك، وأجرَيْنَها فى اعتبارهن مكروهةً وحْشـيَّةً، وأضَفْن إليها من المعانى حَواشـىَ أخرى، حتى ليكاد الأبُ والأمُّ يكونان عند أكثر المتعلمات مـن «التقاليد»... أهى كلمةٌ أبدعتها الحرية، أم أبدعَها جهلُ العصر وحماقتُه، وفجورُه وإلحادُه؟

أهـى كلمـةٌ تَعَلَّقَها الفَتيـاتُ المتعلماتُ لأنها لغـةٌ من اللغـة، أم لأنها من لغة ما يُحْببن...؟

«تقاليد»...؟ فما هى المرأةُ بدون تقاليد...؟ إنها البلادُ الجميلةُ بغير جَيش، إنها الكنزُ المخبوء مُعَرَّضًا لأعين اللصوص، تَحوطُه الغفلةُ لا المراقبة. هَبِ الناسَ جميعًا شُـرفاء متُعففِّينُ متصاونين؛ فإن معنى كلمة «كنزٍ» متى تُركتْ له الحريةُ وأغْفِلَ من تقاليد الحِراسة، أوجدتْ حريتُه هذه بنفسها معنى كلمة «لصّ».

* * *

قال صاحبنا: أما الفتاةُ المحرَّرَةُ من (التقاليد).. كما عرفتُها فهى هذه التى أقصّ عليك قصتَها، وهى التى جعلتنى أعتقد أن لكل فتاة رُشـدَين: يثَبتُ أحدُهما بالسِّن، ويثَبت الآخرُ بالزواج. ولو أن عانسـاً ماتت فى سـن الخمسـين أو الستين لوَجبَ أن يقال: إنها ماتت نصفَ قاصر! ولعل هذا من حكمة الشريعة فى اعتبار المرأةِ نصفَ الرجل، إذا تمامُ شرفِها الاجتماعى أن يكون الرجلُ مضمومًا إليها فى نظام الاجتماع وقوانينه؛ فالزوجُ على هذا هو تمامُ رُشْد الفتاة بالغةً مابلغتْ.

وأساسُ المرأة فى الطبيعة أساسٌ بدنى لا عقلىّ، ومن هذا كانت هى المصنعَ الذى تصنَعُ فيه الحياة، وكانت دائما ناقصةً لاتتمّ إلا بالآخر الذى أساسُه فى الطبيعة شأنُ عقله وشأنُ قُوته...

واعتبرْ ذلك بالمرأة تَـدْرُسُ وتتعلمَّ وتَنْبُغ، فلو أنك ذهبت تمدحُها بوُفور عقلها وذكائِهـا، وتُقَرّظها بنبوغها وعبقريتها، ثم رأتك لم تُلقِ كلمةً ولا إشـارةً ولا نظرةً

على جسمها ومحاسنها لتحوَّل عندها كلُّ مدحك ذمًّا، وكلُّ ثنائك سُخرية؛ فإن النبوغَ هاهنا فى أعصاب امرأة تريد أن تعرفَ مع أسرار الكون كونها هى، هذا الكونِ البدنىّ الفاتن، أو الذى تزعمه هى فاتنًا، أو الذى لاترضاه ولا ترضى أن تكونَ صاحبته إلا إذا وجدت من يزعُم لها أنه كونٌ فاتن بديعٌ، مزيَّنٌ بشمسه وقمرِه وطبيعتهِ المتنَضِّرةِ التى تجعلُ مسَّه مسَّ ورَق الزَّهر.

مِثلُ هذه إنما يكونُ الثناء عندها حينما يكونُ أقلهُ باللسان العلمىّ ولغتهِ، وأكثرُه بالنظر الفنى ولغته. وهذا على أنها عالمةُ الجنسِ ونابغتهُ، ودليلُ شذوذه العقلىّ، والواحدة التى تجىء كالفَلْتة المفْردة بين الملايين من النساء؛ فَكيف بمن دونها، وكيف بالنساء فيما هُنَّ نساء به؟

دعْ جماعةً من العلماء يمتحنون هذا الذى بينَّتُ لك، فيأتون بامرأةٍ جميلة نابغةٍ، فيضعونها بين رجال لا تسمعُ من جميعهم إلا: ما أعقلَها، ما أعقلها، ما أعقلها! ولاترى فى عينى كلّ منهم من أنواع النظر وفنونه إلا نظرَ التلميذ لمعلمةٍ في سنّ جَدَّته... فهذه لن تكونَ بعد قريب إلا فى حالة من اثنتين: إما أن يخرجَ عقلُها من رأسها، أو... أو تخرجَ فى وجهها لحية...!

(ما أعقلَها!) كلمةٌ حسنةٌ عند النساء لا يأبَيْنها ولا يذمُمْنَها، غير أن الكلمة البليغةَ العبقرية الساحرةَ، هى عندهن كلمةٌ أخرى، هى: (ما أجملَها!)؛ إن تلك تُشبه الخبزَ القَفار لاشىء معه على الخِوَان، أما هذه فهى المائدة مزُيَّنةً كاملةً بطعامها وشرابها وأزهارها وفكاهتها وضحكها أيضًا.

وكأن العقلَ الإنسانى قد غضِب لمَهانَة كلمته وما عرَّها به النساء، فأراد أن يثُبتَ أنه عقلُ، فاستطاع بحيلته العجيبة أن يجعل لكلمة: (ما أعقلها) كلَّ الشأن والخطر، وكلَّ البلاغة والسحر، عند... عند الطفلة... تفرحُ الطفلة أشدَّ الفرح، إذا قيل: ما أعقلَها...!

* * *

فقلت لمحدِّثى: كأنك صادقٌ يافتى! لقد جلستُ أنا ذاتَ يوم إلى امرأة أديبة لها ظَرفٌ وجمال، وجاءت كبريائى فجلست معنا... وكانت (التقاليدُ) كالحاَشية لى؛

فعلمتُ بعدُ أنها قالت لصاحبةٍ لها: «لا أدرى كيف استطاع أن ينسى جسمى وأنا إلى جانبه، أذكِّرُه أنى إلى جانبه! لكأنما كانت لقلبه أبوابٌ يفتَحُ ماشاء منها ويغلق».

قال محدِّثى: فهذا هذا؛ إن إحساسَ المرأة بالعالَم وما فيه من حقائق الجمال والسرور، إنما هو فى إحساسها بالرجل الذى اختارته لقلبها، أو تَهُمُّ أن تختاره، أو تودُّ أن تختاره؛ ثم إحساسها بعد ذلك بالصُّوَر الأخرى من رجُلِها فى أولادها. وحياةُ المرأة لا أسرارَ فيها ألبتَّه، حتى إذا دخلها الرجلُ عرفت بذلك أن فيها أسرارًا، وتبّينتْ أن هذا الجسم الآخر هو فلسفةٌ لجسمها وعقلها.

قال: وقد جلستُ مرةً مع صاحبة القصة، وأنا مُغْضَبٌ أو كالمغضب... ثم تَلاَحَيْنا وطال بيننا التَّلاحى؛ فقالت لى: أنت بجانبى وأنا أسألُ: أين أنت؟ فإنك لست كلك الذى بجانبى!

قال: ومذهبى فى الحب، الكبرياءُ، كما قلت أنتَ، غيرَ أنها الكبرياءُ التى تدرك المرأةُ منها أنى قوىّ لا أنى متُكبرِّ؛ كبرياء الرجل إمَّا مَهيبٌ مَرِح يملكُ أفراح قلبها، وإما حزينٌ مهَيبٌ يملك أحزانَ هذا القلب.

إن المرأة لا تحب إلا رجلا يكون أولُ الحسن فيه حُسْنَ فهمها له، وأولُ القوّة فيه قوّةَ إعجابها به، وأولُ الكبرياء فيه كبرياءها هى بحبِّه وكبرياءها بأنه رجل. هذا هو الذى يجتمعُ فيه للمرأة أثنان: إنسانُها الظريف، ووَحْشُها الظريف!

***

قلت: لقد بعُدنْا عن القصة فما كان خَبَرُ صاحبتك تلك؟

قال: كانت صاحبتى تلك تعلم أنى متزوج، ولكن إحدى صديقاتها أنبأتها بكبريائى فى الحب، ووصفتْنى بها صفةَ الإحساس لا وصف الكلام؛ فكأنما تنبَّهتْ فيها طبيعةُ زَهْوِ الفتاة بأنها فتاة، وغريزةُ افتتانِ الأنثى بأن تكون فاتنة؛ فرأتْ فى إخضاعى لجمالها عملاً تعملُه بجمالها.

ومتى كانت الفتاة مستخفَّةً «بالتقاليد» كهذه الأديبة المتعلِّمة - رأت كلمةَ (الزوج) لفظًا على رجُل كلفظ الحب عليه، فهما سواءٌ عندها فى المعنى. ولا يختلفان إلا فى (التقاليد)...

وعَرَضتْ لى كما يَعْرض المصارعُ للمصارع؛ إذ كانت من الفتيات المغرورات، اللواتي يحسبْن أن فى قوتهن العلميَّة تيَّارًا زاخرًا لنهرنا الاجتماعى الراكد؛ فتاة تخرجتْ فى مدرسة أو كلية، أو جاءت من أوربا بالعالمية... أفتدرى أية معجزة مصرية فى هذا تُباهى بها مصر؟

إن المعجزة أن هذه الفتاة صارت مدرسة، أو مفتشة، أو ناظرةً فى وزارة المعارف؛ أو مؤلفة كتُب وروايات، أو محررة فى صحيفة من الصحف.

ولايَصْغُرَنَّ عندك شأن هذه المعجزة، فهى والله معجزةٌ مادام يتحققُ بها خروج الفتاة من حكم الطبيعة عليها، وبقاؤها فى الاجتماع المصرىّ امرأةً بلا تأنيث، أو انقلابها فيه رجلاً بلا تذكير!

وكيف لا يكون من المعجزات أنَّ تأليفَ رواية قد أغنى عن تأليف أسْرَة؛ وأن فتاة تعيش وتموت وما ولدت للأمَّة إلا مقالات....؟

فقلت: ياصاحبى، دع هؤلاء وخذ الآنَ فى حديث الطائشة الخارجة على التقاليد، وقد قلتَ إنها عرَضتْ لك كما يعرض المصارع للمصارع.

قال: عَرَضتْ لى تريد أن تُصَرفنى كيف شاءت، فَنَبوْت فى يدها؛ فزادت إلى رغبتها إصرارَها على هذه الرغبة، فالتويتُ عليها؛ فزادت إليهما خشيةَ اليأس والخيبة، فتعسَّرْتُ معها؛ فزادت إلى هذه كلِّها ثورةَ كبريائها، فلم أتسَهلَّ؛ فانتهت من كل ذلك بعد الرغبة الخيالية التى هى أول العبثَ والدلال، إلى الرغبة الحقيقية التى هى أولُ الحب والهوى: رغبةِ تعذيبى بها لأنها مُتعذِّبةٌ بى.

ثم ردَّتها الطبيعةُ صاغرةً إلى حقائقها السَّلبيَّة، فإذا الكبرياء فيها إنما كان خضوعًا يتَراءى بالعِصْيان، وإذا الرغبةُ فى تعذيب الرجل إنما كانت التماسًا لأن تَنْعمَ به، وإذا الإصرار على إخضاع الرجل وإذلاله إنما كان إصرارًا على تجرِبته ودفعه أن يستبد ويملك؛ وردتها الطبيعة إلى هذه الحقيقة النِّسوية الصريحة، التى بُنيت المرأة عليها شاءتْ أم أبتْ، وهى أن تُعانى وتصبرَ على ما تُعانى!

أما أنا فأحببتُها حبًّا عقليًا، وكان هذا يشتدُّ عليها، لأنه إشفاقٌ لا حُب؛ وكانت إذا سألتْنى عن أمر ترتاب فيه، قالت: أجبْنى بلسان الصدق لا بلسان الشفقة. وكانت تقول: إن فى عينيها بكاءً لا تستطيع أن تُذَيله مع الدمع، وسيقتُلُها هذا البكاء الذى لا يُبكى، وقد اتخذت لها فى دراها خَلْوةً سمتها: (محرابَ الدَّمع!)، قالت: لأنها تبكى فيها بكاء صلاةٍ وحبّ، لا بكاء حب فقط!

ثم طاشتِ الطيْشةَ الكبرى....!

* * *

قلت: وما الطيشة الكبرى؟

قال: إنها كتبتْ إلىّ هذه الرسالة:

«عزيزى برَغْمَ أنفى...

«لقد أذللتنى بشيئين: أحدُهما أنك لم تَذلَّ لى، وجعلتنى – على تعليمى – أشدَّ جهلاً من الجهالة، وقد نسيتَ أن المرأةَ المتعلِّمةَ تعرفُ ثم تعرفُ مرتين: تعرف كيف تُخطئ إذا وجب أن تخطئ، وهذه هى المعرفة الأولى؛ أما المعرفة الثانية فَتوَهَّمْها أنتَ، فكأنى قلتُها لك...

«اعلْم – يا عزيزى برغم أنفى – أنى لم أكن عزيزتك برغم أنفك، فسآتى ما يجعلك سَلفا ومَثَلاً، وستكتب الصحفُ عنك أوَّلَ حادث يقع فى مصر عن أوّل رجل اختطفتْه فتاة...!»

«وبعدُ، فقد أرسلتُ روحى تُعانق روحك، فهل تشعر بها؟»

قال: فوجَمْتُ ساعةً وتَبَّينتْ لى خفتُها، وظهر لى سَفَاهُها وطيشُها، فأسرعت إليها فجئتها فأجدها كالقاضى فى محكمته، لاعقل له إلا عقل الحكم القانونىّ الذى لا يتغير، ولا إنسانَ فيه إلا الإنسانُ المقيَّد بمادة كذا إذا حَدثَ كذا، والمادة كذا حين يكون وصف المجرم كذا...!

فقلت لها: أهذا هو العلمُ الذى تَعلمته؟ ألا يكون علمُ المرأةِ خليقًا أن يجعل صاحبته ذات عقلين إذا كانت الجاهلة بعقل واحد؟

قالت: العلم؟

قلت: نعم، العلم.

قالـت: يـا حبيبى، إن هذا العلمَ هو الذى وضَعَ المسـدَّس فى يد المرأة الأوربيَّة لعاشقها، أو معشوقها! ثم أطرقتْ قليلاً وتنهدتْ وقالت: العلم هو الذى جعل الفتاة هناك تتزوج بإرشاد الرواية التى تقرؤها ولو انقلب الزواج رواية... والعلم هو الذى كشـف حجابَ الفتاة عن وجهها، ثم عاد فكشـف حياء وجهها، وأوجب عليها أن تُواجـه حقائق الجنس الآخر وتعرفَها معرفةً علميَّـة... والعلمُ هو الذى جعل خطأ المرأة الجنسـيَّ مَعْفُوًّا عنه مادام فى سـبيل مواجهة الحقائق لا فى سـبيل الهَرَب منها... والعلم هو الذى جعل المرأةَ مُساويةً للرجل، وأكد لها أن واحدًا وواحدًا هُما واحدٌ وكلاهما أوَّل...

والعلم هو الذى عَرى أجسـامَ الرجال والنسـاء ببرهان أشـعة الشمس... والعلم يا عزيـزى هـو العلم الذى مَحَا من العالَـم لفظةَ (أمسِ) لا يعرفُهـا وإن كانت فيها الأديان والتقاليد...

***

قال صاحُبها: فقلتُ لها: كأن العلم إفسادٌ للمرأة! وكأنه تعليم مَعَرَّاتها ونقائصها، لاتعليمُ فضائلها ومحاسنها....

قالت: لا، ولكن عقل المرأة هو عقل أنثى دائمًا، ودائمًا عقلُ أنثى؛ وفى رأسـها دائمًا جو قلبها، وجوُّ قلبها دائماً فى رأسـها؛ فإذا لم تكن مدرسـتها متممة لدارها وما فى دارها، تمَّمَتْ فيها الشارعَ وما فى الشارع.

العلم للمرأة؛ ولكن بشـرط أن يكون الأبُ وهيبةُ الأب أمرًا مقرَّرًا فى العلم، والأخُ وطاعـة الأخ حقيقةً من حقائق العلم؛ والزوج وسـيادةُ الزوج شـيئًا ثابتا فى العلم، والاجتماع وزواجره الدينية والاجتماعية قضايا لا يَنْسـُخها العلم. بهذا وحده يكونُ النسـاء فى كل أمة مَصانع علميَّة للفضيلة والكمال والإنسـانية، ويبدأ تاريخُ الطفل بأسباب الرجولة التامَّة، لأنه يبدأ من المرأة التامَّة.

أما بغير هذا الشـرط، فالمرأة الفلاحةُ فى حجْرها طفلٌ قذر، هى خير للأمة من أكبر أديبة تُخرج ذُرية من الكتب...

انظـر يـا عزيزى برغـم أنفى، هذه رسـالة جاءتنـى اليوم مـن صديقتى فلانة الأديبة!!... فاسمع قولها:

«... وأنا أعيشُ اليوم فى الجمال، لأنى أعيشُ فى بعض خفايا الحبيب..

«وفى الحياة موتٌ حُلوٌ لذيذ؛ عرفت ذلك حينما نسـيتُ نفسى على صدره القوىّ، وحينما نسيتُ على صدره القوىّ صدرى...»).

أسمعتَ يا عزيزى؟ إن كنت لما تَعْلَمَ أن هذا هو علمُ أكثر الفتيات المتعلمات حين يكسـد الزواج، فاعلَمْهُ. ومتى عَمِىَ الشـعب والحكومة هذا العمى، فإن حرية المرأة لا تكون أبدًا إلا حريةَ الفكرة المحرمة!

* * *

قلت لصاحبنا: ثم ماذا؟

قال: ثم هذا... ودسَّ يدَه فى جيبه فأخرج أوراقًا كَتَب فيها رواية صغيرة أسماها: (الطائشة).

■■■

الطائشة

(٢)

وهــذا مُحصَّلُ رواية «الطائشــة»، نقلناه من خط الكاتب على مَسَــاقِ ما دَوَّنه فى أوراقه، وعلى سَــرْدِهِ الذى قَصَّ به الخبر، وقد أعطانا من البرهان ما نطمئن إليه أن هذه «الطائشــة» هــى من تأليف الحياة لا من تأليفه، وأنه لــم يخترع منها حادثةً، ولم يَأتفكْ حديثًا، ولم يزدها بفضيلة، ولم يتنقُصْها بمعَرَّة، ثم أشهَدَ على قوله كُتُبَ صاحبتــه الأديبة المســتهترة التى لا تبالى ما قالت ولا مــا قيل فيها؛ وهذه الكتب رســائل: منها الموجز ومنها المســتفيض، وهى بجملتها تنــزلُ من الرواية منزلة الشــروح المفننة، وتنزل الرواية منها منزلة اللمع المقتضبة وكل ذلك يشــبه بعضه بعضًا، فكل ذلك بعضه شاهد على بعض.

قال كاتب (الطائشة):

كنت رجلاً غَزِلا ولم أكن فاسـقًا، ولســت كهؤلاء الشــبان أصيبوا فى إيمانهم بالله فأصيبوا فى إيمانهم بكل فضلية، وذهبوا يُحقِّقون المدنيَّة فحققوا كل شىء إلا المدنية.

ترى أحدهم شريفًا يأنف أن يكون لصًا وأن يسمى لصًا، ثم لا يعملُ إلا عمل اللص فى استلاب العفاف وسرقة الفَتَياتِ من تاريخهنَّ الاجتماعى؛ وتراه نجدًا يستنكفُ أن يكــون فى أوصاف قاطع الطريق، ثم يأبى إلا أن يقطــع الطريق فى حياة العَذارى وشرف النساء.

أكثر أولئك الشبان المتعلمين يعرضون للفتيات المتعلمات بوجوه مصقولة تحتمل شيئين: الحب والصفع... ولكن أكثر هؤلاء المتعلمات يضعن القبلة فى مكان الصفعة؛ إذ كان العلم قد حلَّلَ الغريزةَ التى فيهن فعادت بقايا لا تستمســك، وبصَّرهنَّ بأشياء تزيد قوةَ الحياة فيهن خطرًا، وتُوحى إليهنّ وحيها من حيث يَشــعُرْنَ ولا يشعرن،

وصوَّر في أوهامهن صورًا محت الصور التى كانت فى عقائدهن، وأخرجهنّ من السلب الطبيعىّ الذى حماهن الله به، فلهن العفة والحياء؛ ولكن ليس لهن ذلك العقل الغَريزى الذى يجيء من الحياء والعفة؛ وكثيرات منهن يَخْشَيْنَ العار وسمته الاجتماعية ولكن خشيةَ فقهاء الحيل الشرعية، قد أرْصدُوا لكل وجه من التحريم وجها من التحليل، فأصبح امتناعُ الإثم هو ألا تكونَ إليه حاجة...

والعقل الذى به التفكير يكون أحيانًا غير العقل الذى به العمل؛ ففى بعض الجاهلات يكون عقل الحياء والعفة والشرف والدين غريزةً كغرائز الوحشْ، هى الفكرة وهى العملُ جميعًا، وهى أبدًا الفكرة والعمل جميعًا لا تتغير ولا تتبدل، ولايقع فيها التنقيح الشعرى ولا الفلسفى... وما غريزة الوحش إلا إيمانه بمن خلقه وحشًا؛ وكذلك غريزة الشرف فى الأنثى هى عندى حقيقة إيمانها بمن خلقها أنثى.

وشرف المرأة رأس مال للمرأة، ومن ذلك كان له فى أوهام العلم اشتراكية بحسَبهِ تنظر فيه نظرَها وتزيغُ زيغتها وتقضى حكمها، وأكثر من عرفتُ من المتعلمين والمتعلمات قد انتهوا بطبيعتهم العلمية إلى الرضى بهذا الاشتراكية، وإلى التسامح فى كثير، وإلى وضع الاعتذار فيما لايقبل عذرًا، ومن ههنا كانت بعض الجاهلات كالحصن المغلق فى قمَّة الجبَلِ الوَعْر، وكانت بعضُ المتعلمات دونَ الحَصن، ودون القِمَّة، ودون الجبل، حتى تنزل إلى السهل فتراهنَّ ثمَّة.

لقد غَفلت الحكومات عن معنى الدين وحقيقته، فلو عرفتْ لعرفتْ أن الإنسانيةَ لاتقوم إلا بالدين والعلم كليهما؛ فإن فى الرجل إنسانًا عامًا ونوعًا خاصًا مذكرًا، وفى المرأة إنسانٌ عامٌ كذلك، ونوعٌ خاصّ مؤنث. والدينُ وحده هو الذى يُصْلح النوعَ بتحقيق الفضيلة وتقرير الغاية الأخلاقية، وهو الذى يُحاجزٌ بين الغريزتين، وهو الذى يضع القوةَ الروحيةَ فى طبيعة المتعلم؛ فإن كانت طبيعة التعليم قويةً، كانت الروحيةُ زيادة فى القوة؛ وإن كانت ضعيفة كما هى الحالُ فى هذه المدنية، لم تجمع الروحية على المتعلم ضعَفين يبتلى كلاهما الآخر ويزيده.

***

فلانٌ وفلانٌ تَعلَّقـا فتاتين جاهلة ومتعلمة؛ وكلتاهما قد صدَّت صاحبها وامتنعت منه؛ فأما الجاهلةُ فيقول (فلانُها) إنها كالوحش، وإن صُدودَها ليس صدودًا حَسْبُ، بل هو ثورة من فضيلتها وإيمانها، فيها المعنى الحربى مجاهدًا متحفزًا للقتل...

وأمـا المتعلمةُ فيقول (فلانُهـا) أنها ككل امرأة، وإن صدودَهـا ثورة، ولكن من دلالهـا تُرضى بـه أولَ ماترضى وآخرَ ما تُرضـى، كبرياء الجمال فيهـا لا الإيمانَ ولا الفضيلة، فكأنها إيحاء للطامع أن يزيد طمعًا أو يزيد احتيالًا...

وفـلانٌ هذا يقول لى: إن ضعفاء الإيمان من الشـبان المتعلمين – وأكثرُهم ضعفاءُ الإيمان – لو حقَّقتَ أمرهم وبَلَوْتَ سرائرَهم، لتبينت أنهم جميعًا لا يرون قلب الفتاة المتعلمة إلا كالدار الخالية كتب عليها: (للإيجار)..!

* * *

يقول كاتب «الطائشة»:

أما أنا فقد صحّ عندى أن سياســة أكثر المتعلمات هى سياسةُ فتحِ العينِ حَذرًا من الشبان جميعًا؛ وإغماض العين لواحد فقط...

وهـذا الواحـدُ هو البلاء كله على الفتـاة، فإنها بطبيعتها تتقيَّـدُ ولا تنفصل إلا مُكرَهَــة، وهو بطبيعته قَيدُه لذتُه، فيتصل وينفصل؛ غير أنها لابد لها من الواحد، ففكرها المتعلم يُوحى إليها بالحياة لايجعلُ فى ذلك موضعًا للنَّكير عندها، والحياةُ نصفُ معانيها النفسـية فى الصديق؛ فالأنوثـة بغيرْه مُظلمةٌ فى حياتها، راكدةٌ فى طباعها، ثقيلةٌ على نفسها، مادام «الشعاعُ» لا يلمسُها...

والديـنُ يأبى أن يكون ذلـك الصديق إلا الزوجَ فى شـروطه وعهوده، كيلا تتقيد المـرأة إلا بمن يتقيـدُ بها، والعلم لا يأبى أن يكون الصديق هو الحب، والفن يوجب أن يكونَ هو الحب، وليس فى الحب شـروطٌ ولاعهود، إلا وسـائلّ تُختَلَقُ لوقتها، وأكثرها من الكذب والنفاق والخديعة، ولفظُ الحب نفســهُ لصّ لُغوىّ خبيثٌ، يسرقُ المعانى التى ليست له ويُنْفقُ مما يسرق. وليس من امرأة يختدعها عاشقٌ إلا انكشف لها حبُّه كما ينكشف اللص حين يُمسَك.

يقول كاتب «الطائشة»:

تلك فلسفةٌ لابد منها فى التوطئة للكتابة عن (عزيزتى برغم أنفى).

ومــنَ كانت مثلها فى أفكارها واسـتدلالها وحُججها وطريقتهــا كان خليقًا بمن يكتب قصتها أن يجعل القصة من أولها مُسلَّحة...

لقــد تكارَهْت على بعض مــا أرادت منى مادام الحبُ (برغـم أنفى)، وما دامت السياســة أن أدارِيَها وأتبعَ محبتها؛ غير أنى صارحتها بكلمة شمسـية تلمعُ تحت الشـمس، أنها الصداقة لا الحبُ، وإنما هو اللهوُ البرىء لا غيره، وأن ذلك جهد ما أنا قوى عليه وفىٌّ به.

قالت: فليكنْ، ولكن صداقةٌ أعلى قليلاً من الصداقة... ولو من هذا الحب المتكبر الــذى لايَصدق كيلا يكــذب... إن هذا النوعَ من الحب يطيشُ بعقل المرأة، ولكنه هو أولُ ما يَستهيمُها ويعجبها ويُورِثها التْياعَ الحنين والشوق.

***

كتبتْ لى: «أنا لا أتألم فى هواك بالألم، ولكن بأشياء منكَ أقلُها الألم، ولا أحزنُ بالحزن، ولكن بهموم بعضها الحزن.

«إنــك صنعتَ لى بــكاء ودموعًا وتنهــدات، وجعلتَ لى ظلامًا منــك ونورًا منك يانهارى وليلى. تُرى ما اسمُ هذا النوعِ من الصداقة؟

«اسمهُ الحبُّ؟ لا.

«اسمهُ الكبرياء؟ لا.

«اسمهُ الحنان؟ لا.

«اســمه حُبك أنتَ، أنتَ أيها الغامض المتقلب. ألا ترى ألفاظى تبكى، ألا تسمعُ قلبــى يصرخ، بأى عَدلك أو بأىّ عدلِ الناسِ تريد أن أحيا فى عالم شمسُــه باردة... هذا قتْلُ، هذا قتل».

فكتبتُ إليها: «إن لم يكن هذا جنونًا فإنه لقريبٌ منه».

فردت على هذ الرسالة:

«أتكاتُبنى بأسلوب التلغراف...؟ لو أهديتَ إلىّ عقدًا من الزمرد حباته بعدد هذه الكلمات لكنتَ بخيلاً، فكيف وهى ألفاظ؟ إنى لأبكى فى غَمْضة، واحدة بدموع أكثرَ عددًا من كلماتك، وهى دموعٌ من آلامى وأحزانى، وتلك ألفاظٌ من لهوك وعَبَثك!

«ما كان ضرَّك لو كتبت لى بضعة أسطر تنسخها من تلغرافات رُوتر.. ما دمتَ تَسْخَر منى؟ أأنت الشبابُ وأنا الكُهولة، فليس لك بالطبيعة إلا الانصرافُ عنى؛ وليس لى بالطبيعة إلا الحنينُ إليك؟»

* * *

لا أدرى كيف أحببتها، ولا كيف دَعَتْنى إليها نفسى، ولكن الذى أعلمه أنى تَخَادَعْتُ لها وقلتُ: إن المستحيل هو منع الشر، والممكنَ هو تخفيفه، ثم أقبلت أرثى لها، وأخففُ عنها، وأقبلتْ هى تُضاعف لى مكرها وخديعتها وكأن الأمر بيننا كما قالت: «فى الحب والحرب لايكونُ الهجوم هجومًا وفيه رفق أو تراجُع».

إن المرأة وحدها هى التى تعرف كيف تقاتل بالصبر والأناة؛ ولا يشبهها فى ذلك إلا دُهاةُ المستبدين.

* * *

سألتنى أن أهدى إليها رسمى، فاعتللتُ عليها بأن قلت لها: إن هذا الرسمَ سيكون تحت عينيك أنت رسم حبيب، ولكنه تحت الأعين الأخرى سيكون رسم مُتَّهم.

وظننتنى أبْلَغْتُ فى الحجة وَقَطَعْتُها عنى؛ فجاءتنى من الغد بالرد المفحم، جاءتنى بإحدى صديقاتها لتظهر فى الرسم إلى جانبى كأننى من ذوى قرابتها... فيكون الرسم رسم صديقتها، ويكون مهدى منها لا منى، وكأننى فيه حاشية جاءت من عمة أو خالة..

وأصررتُ على الإباء، ونافَرَتْنى القولَ فى ذلك، تردُّ علىَّ وأردُّ عليها، وتَغَاضبنا وانكسرت حزنًا وذهبتْ باكية؛ ثم تسببت إلى رضاى فرضيت.

* * *

حدثتْنى أن صديقتها فلانة الأديبة استطاعت أن تَسْتَزِيرَ صاحبها فلانًا فى مخدعها، فى دارها، بين أهلها، مُنْتَصف الليل. قلت: وكيف كان ذلك؟

قالت: إنها تحمل شهادة... وهى تلتمس عملاً وقد طال عليها، فزعمتْ لذويها أنها عثرتْ فى كتاب كذا على رُقيْةٍ من رقى السحر، فتريد أن تتعاطى تجربتها بعد نصف الليل إذا مُحق القمر، وأنها ستُطْلِق البخور وتبقى تحت ضبابته إلى الفجر تهمهم بالأسماء والكلمات...

ثم أنها اتعدَتْ وصاحبها ليوم، وأجافتْ بابَ دارها ولم تُغلقه، وأطلقت البخور فى مجمر كبير أثار عاصفة من الدخان المعطَّرِ، وجعل مخدعها كمخدع عروس من ملكات التاريخ القديم؛ وبقى صاحبها تحت الضبابة يُهَمْهم وتُهمْهِم... ثم خرجَ فى أغْباش السَّحرَ.

هكذا قالت، وما أدرى أهو خَبرٌ عن تلك الصديقة وفلانها، أم هو اقتراحٌ عَلَىَّ أنا من «فلانتى» لأكونَ لها عفريتَ الضبابة...؟

* * *

لم يخْفَ عليها أن لَذْعَةَ حبها وقعت فى قلبى، وأن صبرها قد غَلبَ كبريائى، وأن كثرة التلاقى بين رجل وامرأة يطمع أحدهما فى الآخر، لابد أن ينقل روايتهما إلى فصلها الثانى، ويجعل فى التأليف شيئًا منتظرا بطبيعة السياق.. وإلحاح امرأة على رجل قد خلبها وجفا عن صلتها، إنما هو تَعرضها للتعقيد الذى فى طبيعته الإنسانية؛ فإن هى صابرته وأمعنت، فقلمّا يدعُها هذا التعقيدُ من حلًّ لمعضلتها. وبمثل هذه العجيبة كان تعقيدًا وكان غير مفهوم ولا واضح، وقد ينقلب فيه أشد البغض إلى أشد الحب، وقد تعملُ فيه حالة من حالات النفس ما لا يعمل السحر، وكذلك يقعُ للرجل إذا أحب المرأة فَنَبَتْ عن مودته فعرض للتعقيد الذى فى طبيعتها وأمعَنَ وثَبَتَ وصَابَر.

رأت الجمرةَ الأولى فى قلبى فأضرمتْ فيه الثانيةَ، حين جاءتنى اليومَ بكتاب زعمت أن فلانًا أرسله إليها يطارحُها الهوى ويَبُثُّها ولَهَ الحنين والتياعَ الحب.

ويقـول لها فى هذا الكتاب: «أنا لم أشـربْ خمرًا قـط، ولكنى لا أرانى أنظر إلى مَفَاتِنِكَ ومحاسنك إلا وفى عينى الخمر، وفى عقلى السُّكْر، وفى قلبى العَرْبدة جعلتِ لى ويحك نظرة سكير فيها نسيانُ الدنيا وما فى الدنيا ما عدا الزجاجة...»

ويختمه بهذه العبارة:

«آه لو اسـتطعتُ أن أجعل كلامى فى نفسـك ناعمًا، سـاحرًا، مُسكرًا، مثل كلام الشَّفة للشَّفة حين تُقبلها...!»

عند هذا وقع الشىء المنتظر فى الفصل الثانى من الرواية، وخُتِم هذا الفصلُ بأول قُبلة على شفتى (الممثلة).

* * *

قالت: هـذه القبلةُ كانت (غلطةٌ مطبعية)، ومضت تسـمِّيها كذلك، واسـتمرت المطبعـة تغلط.. وماعلمتُ إلا من بَعْدُ أن ذلك الكتاب الذى اسْـتوقدتْ به غيرتى، إنما كان من عملها ومكْرِها.

* * *

وجاءتنى اليوم بآبِدةَ من أوابدها، قالت:

أنـت رَجْعىٌّ محافظٌ علـى التقاليد. قلتُ: لأنى أرى هـذه التقاليد كالصباح الذى يتكررَّ فى كل يوم، وهو فى كل يوم ضياءٌ ونور.

قالت: أو كالمساء الذى يتكرر وهو فى كل يوم ظلام وسواد!

قلت: ليس هذا إلىَّ ولا إليك، بل الحكم فيه للنفع أو الضرر.

قالـت: بل هو الحياة، والحياةُ اليوم علميـة أوربية، والزمنُ حَثيثٌ فى تقدمه، وأصحـابُ «التقاليـد» جامـدون فى موضعهـم قد فاتهـم الزمَن، ولذلك يسـمونهم (متأخريـن)، أمـا علمت أن الفضيلة قد أصبحت فى أوربا زيًـا قديمًا، فأخذ المقَص يعملُ فى تهذيبها، يقطعُ من هنا ويشُقُّ من هنا...!؟

اسمع أيها «المتأخر»، وتأمل هذا البرهانَ الأوربىَّ العصرىّ:

أخبرتنى صديقتى فلانة حاملة شهادة... أنها كانت فى القطار بين الإسكندرية والقاهرة، وكانت معها فتاة من جيرتها تحمل الشهادة الابتدائية؛ فجمعهما السفَرُ بشاب وسيم ظريف يُشاركُ فى الأدب، غير أنه رَجْعىٌ (متأخر)، وصديقتى تعرفُ من كل شىء شيئًا، وتأخذ من كل فن بطرف؛ فجرى الحديثُ بينهما مَجراه، وتركت الصديقة نفسها لدواعيها، وانطلقت على سجيتها الظريفة، ووضعت فنَّ لسانها فى الكلام فجعلتْ فيه روح التقبيل...!

ولم تبلغ إلى القاهرة حتى كانت قد سحرت ذلك (المتأخر) ووقعتْ من نفسه، ودفعته إلى الزمن الذى هو فيه. فلما همَّت بوداعه سألهما: أين تذهبان؟ فأغضتْ صاحبةُ الشهادة الابتدائية، وأطرقتْ حياءً، ورأت فى السؤال تهمةً وريبةً، فأنبَّتْها الصديقة وأيقظتها من حيائها، وقالت لها: ألا تزالين شرقية متأخرة؟ إن لم يسعدنا الحظ أن تكون لنا حريةُ المرأة الأوربية فى المجتمع وفى أنفسنا؛ أفلا يسعنا أن تكون لنا هذه الحرية ولو فى أنفسنا؟

ثم ردَّت على الشاب فأنبأته بمكانها وعنوانها، فأطمعه ردُّها، فسألها أن تتنزه معه فى بعض الحدائق، فأبت صاحبةُ الابتدائية ولجَّتْ عَمايتُها الشرقيةُ المتأخرة، ورأت فى ذلك مَسْقَطةً لها، فَلوَت إلى دارها وتركتهما إنسانًا وإنسانًا لا فتى وفتاة، وتنزها معًا، وعرف الشاب الرجعى الحبَّ، والخمر التى هى تحية الحب!

ولم تستطع الفتاةُ الماكرة أن ترجعَ إلى دارها وهى سَكرى كما زعمت للشا، فأوت إلى فندق، وختمت روايتهما بإعراض من الشاب أجابت هى عليه بقولها: ألازلت (متأخرا)......؟

قالت «الطائشة»:

نعم يا عزيزى (المتأخر)، إن مذهب المرأة الحرة.... فى الفرق بين الزوج وغير الزوج، أن الأول رجلٌ ثابتٌ، والآخر رجل طارئ. والثابتُ ثابت معها بحقه هو؛ والطارئ طارئ عليها بحقها هى... فإن كانت حرةً فلها حقُّها...

قال كاتب الطائشة: وهنا، هنا، هنا، كاد الشيطانُ يرفع الستار عن فصل ثالث في هذه الرواية، رواية «الطائشة»...

* * *

نقول نحن: وإلى هنا ينتهى نصف الرواية؛ أما النصف الآخر فيكاد يكون قصة أخرى اسمها: (الطائش والطائشة)...

■■■

دموع
من رسائل الطائشة[1]

ورسائلُ هذه الطائشـــة إلى صاحبها، تُقرأ فى ظاهرها على أنها رسائل حب، قد كُتِبتْ فى الفنون التى يَتْرسَّلُ بها العشاق؛ ولكنَّ وراء كلامها كلامًا آخر، تُقْرَأ به على أنها تاريخُ نفس مُلْتاعة لاتزال شُعلةُ النار فيها تَتَنَمَّى وترتفع؛ وقد فَدحتها بظلمها الحيــاة إذ حصرتها فــى فن واحد لايتغير، وأوقعتها تحت شـرط واحد لا يتحقَّق، وصَرَّفتْها بفكرة واحدة لا تزال تخيب.

وأشدُّ سُـجُون الحياةِ فكرةٌ خائبةٌ يُسجَنُ الحيُّ فيها، لا هو مُستطيعٌ أن يدعها، ولا هــو قادر أن يحققها؛ فهذا يمتدُّ شـقاؤه ما يمتدّ ولايزال كأنه على أوله لايتقدم إلى نهاية؛ ويتألم ما يتألم ولاتزال تشعره الحياة أن كلَّ ما فات من العذاب إنما هو بدء العذاب.

والسـعادة فى جملتهـا وتفصيلها أن يكونَ لك فكرٌ غيرُ مقيَّـد بمعنى تتألم منه، ولابمعنى تخافُ منه، ولابمعنى تَحْذر منه؛ والشـقاء فى تفصيله وجملته انحباس الفكر فى معانىالألم والخوف والاضطراب.

وقد اخترنا من رسائل (الطائشة) هذه الرسالة المصّورة التى يَبْرُقُ شعاعُها وتكاد تقوم بإزاء نفسها كالمرآة بإزاء الوجه؛ وهى فيها عَذْبَةُ الكلام من أنها مُرّةُ الشعور، متسـقة الفكر من أنها مختلَّةُ القلب، مُسـددةُ المنطق من أنها طائشـةُ النفس؛ تلك إحــدى عجائب الحب، كلما كان قَفرًا مُمْحلًا اخضَرَّتْ فيه البلاغةُ وتفنَّنَتْ والتفَّتْ؛

(١) نحــن لم نخترع الطائشــة، فهى فتاة متعلمة أديبة، وقد أحبت رجــلا متزوجًا فطاش بها الحب طيــش الطفل إذا منــع مايطمع فيه، وتركها الحب عليلة لما بها ثم قضــت. وكان بعض صواحبها يعذلنها ويرمينها بالتهمة، فكانت تقول: إنها منهن كالغائب المحكوم عليه، لاهو يملك دفاع الذنب، ولا الحاكم عليه يملك إثبات الذنب.

وعلى قلة المُتعة من لذاته تزيد فيه المتعةُ من أوصافه؛ وَلَكأنَّ هذا الحبَّ طبيعةٌ غريبةٌ تُروى بالنار فُتخْصبُ عليها وتَتَفَتَّق بمعانيها، كما تُرْوَى الأرضُ بالماء فُتخْصِبُ وتتغطّى بنباتها؛ فإنْ رَوىَ الحبُّ من لذَّاته وبَرَدَ عليها، لم يُنبت من البلاغة إلا أخفَّها وزنًا وأقلها معانىَ، كأول ما يبدو النبات حين يتفطر الثرى عنه، تراه فتحسبه على الأرض مسحةَ لون أخضر، أو لم يُنبتْ إلا القليل القليل كالتعاشيب[1] فى الأرض السَّبِخَة...

إن قصةَ الحب كالروايةِ التمثيلية، أبلغُ ما فيها وأحسنه وأعجبهُ ما كان قبل «العُقدة»، فإذا انحلتْ هذه العقدةُ فأنت فى بقايا مفُسَّرة مشروحة تُريد أن تنتهى، ولا تحتملُ من الفنّ إلا ذلك القليل الذى بينها وبين النهاية.

***

وهذه هى رسالة الطائشة إلى صاحبها:

«....

«ماذا أكتبُ لك غيرّ ألفاظ حقيقتى وحقيقتك؟

«يُخيَّل إلى أن ألفاظ خضوعى وتضرعى متى انتهت إليكَ انقلبت إلى ألفاظ شجار ونزاع!

«أىُّ عَدْل أن تلمسَكَ حياتى لَمْسَةَ الزَّهرة الناعمة بأطراف البنان، وتقْذِفَنى أنت قذفَ الحجَر بملْء اليد الصُّلْبة مُتَمَطِّية فيها قوةُ الجسم؟

«جعلْتَنى فى الحب كآلة خاضعة تدار فتدور، ثم عَبثْتَ بها فصارت متمردة تُوَقَّف ولاتقف؛ والنهايةُ - لاريب فيها - اختلالٌ أو تحطيم!

«وجعلتَ لى عالمًا؛ أما لَيلُهُ فأنت والظلام والبكاء، وأما نهاره فأنت والضياء والأمل الخائب. هذا هو عالَمى: أنتَ أنت...!

«سمائى كأنها رُقْعةٌ أطبقتْ عليها كلُّ غيوم السماء، وأرضى كأنها بُقْعة اجتمعت فيها كلُّ زلازل الأرض! لأنك غَيْمةٌ فى حياتى، وزلزلة فى أيامى.

(١) أعشاب قليلة متفرقة هنا وهناك.

«يا بُعد ما بين الدنيا التى حولى وبين الدنيا التى فى قلبى!

* * *

«ما يَجمل منك أن تُلزمنى لوم خطأ أنت المخطئ فيه. سلنى عن حبى أجِبْكَ عن نكبتى، وسلنى عن نكبتى أجبك عن حبى!

«كان ينبغى أن تكونَ لىَ الكبرياءُ فى الحب، ولكن ماذا أصنعُ وأنت منصرفٌ عنى؟ وَيلاهُ من هذا الانصرافِ الذى يجعل كبريائى رضى منى بأن تنسى! فتنسى...

«ليس لى من وسيلة تَعْطفكَ إلا هذا الحبُّ الشديدُ الذى هو يَصدُّك، فكأن الأسبابَ مقلوبةٌ معى منذ انقلبت أنت.

«ويُخيل إلىَّ من طُغيان آلامى أن كلَّ ذى حُزْنٍ فعندى أنا تمامُ حُزنه!

«ويخيل إلى أنى أفصَحُ من نَطقَ بآه!

«عذابى عذابُ الصادق الذى لايَعرفُ الكذب أبدًا أبدًا، بالكاذبِ الذى لايعرف الصدق أبدًا أبدًا!

«كم يقولُ الرجالُ فى النساء، وكم يَصفُونهن بالكَيد والغدر والمكر؛ فهل جئتَ أنتَ لتُعاقب الجنس كله فى أنا وحدى...؟

«ما لكلامى يتقطع كأنما هو أيضًا مُخْتنق؟

* * *

«لشدَّ ما أتمنَّى أن أشترى انتصارى، ولكنَّ انتصارى عليكَ هو عندى أن تنتصر أنت.

«إن المرأة تطلبُ الحرّيةَ وتلجُّ فى طلبها، ولكنَّ الحياةَ تنتهى بها إلى يقين لاشكَّ فيه هو أن ألطف أنواع حريتها فى ألطف أنواع استعبادها!

«حتى فى خيالى أرى لكَ هيئةَ الآمر النَّاهى أيها القاسى. لا أحبُّ منك هذا، ولكن لا يُعجِبُنى منك إلا هذا...!

«ويزيدك رِفْعةً فى عينى أنك لا تحاول قطُّ أن تزيدَ رِفْعةً فى عينى.

«فالمرأة لا تُحبّ الرجلَ الذى يعملُ على أن يَلفِتَها دائما ليرفعَ من شأنه عندها.

«إن الطبيعةَ قد جعلت الأنوثةَ (فى الإنســان) هى التى تَلْفتُ إلى نفسها بالتصنُّع والتَّزَيُّدِ، وعَرْضِ ما فيها وتكلُّف ما ليس فيها؛ فإن يَصْنَع الرجلُ صنيعها فما هو فى شىء إلا تزيينَ احتقاره!

«التَّزَيُّدُ فى الأنوثة زيادةٌ فى الأنثى عند الرجل، ولكن التَّزَيُّدَ فى الرجولة نقصٌ فى الرجل عند الأنثى!

* * *

«ارْفع صوتَك بكلماتى تَسمعْ فيها اثنين: صوتَك وقلبى.

«ليست هى كلماتى لَدَيك أكثر مما هى أعمالُك لَدَىَّ.

«وليس هو حبى لك أكبرَ مما هو ظلمكَ لى!

«ما أشدَّ تعْسى إذا كنتُ أخاطبُ منك نائما يسمعُ أحلامَه ولا يسمعُنى!

«ما أتعسَ مَن تُبكيه الحياة بكاءها المفاجئ على ميت لا يَرجع، أوبكاءها المألوفَ على حبيب لا ينال!

* * *

«ولكــن فَلأصبرْ ولأصبــر على الأيام التــى لا طعم لها، لأن فيهــا الحبيبَ الذى لا وفاء له!

«إن المصــابِ بالعمَى اللوَّنىّ يــرى الأحمرَ أخضر، والمصــابَ بعَمَى الحب يرى الشخص القفْرَ كلُّه أزهار.

«عَمى مركَّبٌ أن تكون أزهارًا من الأوهام ولها مع ذلك رائحة تعبق.

«وعَمًى فى الزمن أيضًا أن ينظرَ إلى الساعَة الأولى من ساعات الحب، فيرى الأيامَ كلَّها فى حكم هذه الساعة.

«وعَمًى فى الدم، أن يشعر بالحبيب يوما فلا يزالُ من بعدها يحيى خياله ويغذيه أكثر مما يُحيى جسم صاحبِه.

«وعَمًــى فى العقل، أن يَجعلَ وجهَ إنســان واحد كوجه النهارِ على الدنيا، تَظهرُ الأشياءُ فى لونه، وبغير لونه تنطفئ الأشياء.

«وعَمًى فى قلبى أنا، هذا الحبُّ الذى فى قلبى!

* * *

«ليس الظلام إلا فقدانَ النور، وليس الظلمُ فى الناس إلا فقدانَ المساواة بينهم.

«وظلمُ الرجال للنساء عملُ فقدان المساواة لا عملُ الرجال.

«كيف تَسخرُ الدنيا من متعلِّمةٍ مثلى، فتضعها موضعًا من الهَوان والضعفِ بحيث لو سُئلتْ أن تكتب (وظيفتَها) على بطاقة، لما كتبت تحت اسمها إلا هذا الكلمة: (عاشقة فلان)..؟

«وحتى فى ضعف المرأة لا مساواة بين النساء فى الاجتماع، فكل متزوجة وظيفتها الاجتماعية أنها زوجة؛ ولكن ليس لعاشقة أن تقول إن عِشقها وظيفتُها...

«وحتى فى الكلام عن الحب لا مساواة، فهذه فتاةٌ تُحب فتتكلم عن حبها فيقال: فاجرةٌ وطائشة. ولا ذنبَ لها غير أنها تكلمتْ، وأخرى تحبُّ وتكتمُ، فيقال: طاهرةٌ عفيفة. ولا فضيلةَ فيها أنها سكتتْ.

«أول المساواة بين الرجال والنساء أن يتَساوَى الكل فى حرّية الكلمة المخبوءة..

«لا لا، قد رجعتُ عن هذا الرأى...

* * *

«إن القلَقَ إذا استمر على النفس انتهى بها آخر الأمر إلى الأخذ بالشَّاذ من قوانين الحياة.

«والنساء يُقْلِقْنَ الكون الآن مما استقرَّ فى نفوسهن من الاضطراب، وسيُخَرّبنَه أشنع تخريب.

«ويلٌ للاجتماع من المرأة العصرية التى أنشأها ضعفُ الرجل! إن الشيطانَ لو خُيِّرَ فى غير شكله لما اختار إلا أن يكونَ امرأة حرَّة متعلمةً خياليَّةً كاسدةً لا تجد الزوج...!

«ويلٌ للاجتماع من عذراء بائرة خيالية، تريد أن تفرَّ من أنها عذراء! لقد امتلأت الأرض من هذه القنابل... ولكن ما من امرأةٍ تفرط فى فضيلتها إلا وهى ذنبُ رجل قد أهمل فى واجبِه.

«هل تَملكُ الفتاةُ عِرضَها أوْ لا تملك؟ هذه هى المسألة....

«إن كانت تملك، فلها أن تتصرّفَ وتُعطى؛ أوْ لاَ، فلماذا لا يتقدَّمُ المالك...؟

«هذه المدنيةُ ستنقلبُ إلى الحيوانية بعينها؛ فالحيوانُ الذى لا يعرفُ النسَبَ لا تعرفُ أنثاه العِرْض...!

«وهل كان عَبَثًا أن يفرض الدينُ فى الزواج شروطًا وحقوقًا للرجل والمرأة والنسل؟

«ولكن أين الدين؟ وا أسفاه! لقد مَدَّنوه هو أيضًا...!

* * *

«طالت رسالتى إليك يا عزيزى، بل طاشت، فإنى حين أجدُكَ أفقدُ اللغة، وحين أفقدُك أجدُها.

«ولقد تكلمتُ عن الدِّين لأنى أراكَ أنتَ بنصف دين...!

«فلو كنتَ ذا دين كامل لتزوجتَ اثنتين....!

«لا لا، قد رجعتُ عن الرأى...»

(طبق الأصل)

■■■

فلسفة الطائشة

.... وهذا مجلسٌ من مجالس (الطائشــة) مع صاحبها، مما تَسَقَّطَهُ من حديثها؛ فقــد كان يكتبُ عنها ماتُصيبُ فيه وما تخطئ، كما يكتب أهلُ السياســة بعضُهم عن بعض إذا فاوض الحليفُ حليفه، أو ناكرَ الخصمُ خصمه؛ فإن كلامَ الحبيب والسياسى الداهية ليس كلامَ المتكلم وحده، بل فيه نطق الدولة... وفيه الزمنُ يُقْبل أو يُدْبر.

وصاحبُ الطائشــة كان يراها امرأة سياســية كهذه الدُّوَل التــى تُرْغم صديقًا على الصداقــة، لأنه فــى طريقها أو طريق حوادثها، وكان يســميها «جيــشَ احتلال»؛ إذ حطَّت فى أيامه واحتلتها فتَبوَّأتْ منها ماشاءت على رغمه، واستباحتْ ما أرادت ممــا كان يحميه أو يمنعُه. وقد كان فى مدافعته حبَّها واستمســاكه بصداقتها كالذى رأى ظلَّ شىء على الأرض فيحاولُ غسله أو كنسه أو تغطيته.. فهذا ليس مما يُغسل بالماء، ولايكنَس بالمكنســة، ولايغطَّى بالأغطية؛ إنما إزالتُه فى إزالة الشَّبَح الذى هو يُلقيه، أو إطفاء النور الذى هو يُثْبتُه.

فى كل شىء على هذه الأرض سُخرية، والسخرية من الحسن الفاتن الذى يقدّسه، تأتى من اشتهاء هذا الحسن؛ فذاك إسقاطُه سقوطًا مقدّسًا...

أو ذاك تقديسُــه إلى أن يسقُط، أو هو جَعلُ تقديسه بابًا من الحيلة فى إسقاطه. لا بد من سُــفل مع العلو يكون أحدهُما كالســخرية من الآخر؛ فإذا قال رجلٌ لامرأة قد فتنته أو وَقَعتْ من نفسه: «أحبُّك». أو قالتها المرأة لرجل وقع من نفسها أو استهامها ففى هذه الكلمة الناعمة اللطيفة كلُّ معانى الوقاحة الجنســية، وكلُّ السُّخرية بالمحبوب سخرية بإجلالٍ عظيم.. وهى كلمةُ شاعر فى تقديس الجمال والإعجاب به، غير أنها هى بعينها كلمةُ الجزار الذى يَرى الخروفَ فى جماله اللحمىّ الدُّهنى، فيقول: «سَمين....!»

لهذا يمنع الدين خَلوةَ الرجل بالمرأة، ويحرّم إظهارَ الفتنة من الجنس للجنس، ويفْصل بمعانى الحجاب بين السالبِ والمُوجِب، ثم يضعُ لأعينِ المؤمنين والمؤمنات

حجابًا آخر من الأمر بغَضّ البصر، إذ لا يكفى حجاب واحد، فإن الطبيعةَ الجنسيةَ تنظر بالداخل والخارج معًا؛ ثم يطردُ عن المرأة كلمةَ الحب إلا أن تكون من زوجها، وعن الرجل إلا أن تكونَ من زوجته؛ إذ هى كلمة حيلة فى الطبيعة أكثرُ مما هى كلمة صدق فى الاجتماع، ولايؤكِّد فى الدين صدقَها الاجتماعى إلا العَقْدُ والشهودُ لربطِ الحقوق بها، وجعلها فى حياطة القوة الاجتماعية التشريعية، وإقرارها فى موضعها من النظام الإنسانى؛ فليس ما يمنع أن يكون العاشقُ من معانى الزَّوج، أما أن يكونَ من معنى آخر أو يكون بلا معنى فلا؛ وكل ذلك لصيانة المرأة، ما دامت هى وحدها التى تَلِد، وما دامت لا تَلِد للبيع...

وفلسفةُ هذه الطائشة فلسفةُ امرأة ذكية مطَّلعة مُحيطة مفكرة، تُبصرُ لكتب العقل والحوادث جميعًا، وقد أصبحت بعد سقطة حبها ترى الصواب فى شكلين لا شكل واحد: فتراه كما هو فى نفسه، وكما هو فى أغلاطها.

وقد أسقطنا فى رواية مجلسها ما كان من مُطارحات العاشقة، واقتصرنا على ما هو كالإملاء من الأستاذة..

* * *

قال صاحبُ الطائشة: ذكرتُ لها «قاسم أمين» وقلت: إنها خير تلاميذه وتلميذاته... حتى لكأنها تجربةُ ثلاثين سنة لآرائه فى تحرير المرأة. فقالت: إنما كان قاسم تلميذَ المرأة الأوربية، وهذه المرأة بأعيُننا فما حاجتنا نحن إلى تلميذها القديم؟

قالت: وأبلَغُ من يَردُّ على قاسم اليومَ هى أستاذتهُ التى شَبَّتْ بها أطوارُ الحياة بعد، فقد أثبت قاسم - غفر الله له - أنه انحصر فى عهد بعينه ولم يُتبع الأيامَ نظرَه، ولم يستقرئ أطوار المدينة؛ فلم يُقدّر أن هذا الزمن المتمدّن سيتقدم فى رذائله بحكم الطبيعة أسرعَ وأقوى مما يتقدم فى فضائله، وأن العلم لا يستطيع إلا أن يخدم الجهتين بقوة واحدة، فأقواهما بالطبيعة أقواهما بالعلم، وكأن الرجلَ كان يظن أنه ليس تحت الأرض زَلازِلُ ولا تحت الحياة مثلُها.

مزَّق البرقع وقال: «إنه مما يزيدُ فى الفتنة، وإن المرأة لو كانت مكشوفةَ الوجه لكان فى مجموع خَلْقها - على الغالب - ما يردُّ البصر عنها». فقد زال البرقع، ولكن هل قدَّر قاسم أن طبيعة المرأة منتصرة دائما فى الميدان الجنسىّ بالبرقع وبغير البرقع، وأنها تخترع لكل معركة أسلحتها، وأنها إن كشفت برقُعَ الخزِّ فستضع فى مكانه برقع الأبيض والأحمر....؟

وزعم أن «النقاب والبرقع من أشد أعوان المرأة على إظهار ماتُظهر وعملِ ما تعمل لتحريك الرغبة، لأنهما يخفيان شخصيتها فلا تخاف أن يعرفها قريب أو بعيد فيقول: فلانة، أو بنتُ فلان، أو زوجُ فلان كانت تفعل كذا؛ فهى تأتى كلَّ ما تشتهيه من ذلك تحت حماية البرقع والنقاب». فقد زال البرقع والنقاب، ولكن هل قدَّر قاسم أن المرأة السافرةَ ستلجأ إلى حماية أخرى، فتجعلُ ثيابها تعبيرًا دقيقًا عن أعضائها، وبدلاً من أن تُلبِسَ جسمها ثوبًا يكسوه، تُلبسُه الثوبَ الذى يكسوه ويزيّنه ويظهره ويحرّكه فى وقت معًا، حتى ليكاد الثوب يقول للناظر: هذا الموضع اسمهُ.. وهذا الموضع اسمه... وانظر هنا وانظر هاهنا... ما زادت المدنية على أن فكَّكَت المرأة الطيّبة ثم ركَّبتها فى هذه الهندسة الفاحشة!

وأراد قاسم أن يعلِّمنا الحبَّ لنربطَ به الزوجَ معنا، فلم يزد على أن جرَّأنا على الحب الذى فرَّ به الزوجُ منا، وقد نسى أن المرأة التى تخالط الرجلَ ليُعجبها وتُعجبَه فيصيرا زوجين - إنما تخالط فى هذا الرجل غرائزَه قبل إنسانيته، فتكون طبيعتُه وطبيعتها هى محلَّ المخالطة قبل شخصَيْهما، أو تحت ستارِ شخصيهما؛ وهو رجلٌ وهى امرأة، وبينهما مصارَعَةُ الدم.. وكثيرًا ما تكون المسكينة هى المذبوحة. وقد انتهينا إلى دهر يُصْنَعُ حُبُّه ومجالسُ أحبابِهِ فى «هوليود» وغيرها من مُدُن السينما، فإن رأى الشاب على الفتاة مظهرَ العفَّةِ والوقار قال: بلادةٌ فى الدم، وبلاهَة فى العقل، وثِقَل أىّ ثقل؛ وإن رأى غيرَ ذلك قال: فُجورٌ وطيش، واستهتارٌ أىّ استهار. فأين تستقرُّ المرأة ولا مكانَ لها بين الضدين؟

أخطأ قاسم في إغفال عامل الزمن من حسابه، وهاجمَ الدينَ بالعُرف؛ وكان من أفحش غلطه ظنُهُ العرفَ مقصورًا على زمنه، وكأنه لم يدر أن الفرقَ بين الدين وبين العُرف، هو أن هذا الأخيرَ دائمُ الاضطراب، فهو دائمُ التغيّر، فهو لا يصلح أبدًا قاعدةً للفضيلة؛ وهانحن أولاء قد انتهينا إلى زمن العُرْي، وأصبحنا نجد لفيفًا من الأوربيين المتعلمين، رجالهم ونسائهم، إذا رأوا في جزيرتهم أو محلّتهم أو ناديهم رجلاً يلبس في حقْوَيه تُبَّانًا قصيرًا كأنه ورقُ الشجر على موضعه ذاك من آدمَ وحواء، إذا رأوا هذا المتعففَ بخِرقَة.. أنكروا عليه وتساءلوا بينهم. مَن ما مَن هذا الراهب...؟

ونسي قاسم - غفر الله له - أن للثياب أخلاقًا تتغير بتغُّيرها، فالتي تفْرغُ الثوبَ على أعضائِها إفراغَ الهندسة، وتُلبس وجهها ألوانَ التصوير، لاتفعلُ ذلك إلا وهي قد تغيَّر فهمُها للفضائل، فتغيرت بذلك فضائلها، وتحولتْ من آيات دينية إلى آيات شعرية. ورُوح المسجد غير روح الحانة، وهذه غيرُ روح المرقص، وهذه غير روح المخدع، ولكلّ حالة تلبس المرأة لبِسًا فتُخفي منها وتُبدي. وتحريكُ البيئة لتتقلبَ، هو بعينه تحريكُ النفسِ لتتغيرَ صفاتُها.

وأين أخلاقُ الثياب العصريةِ في امرأة اليوم، من تلك الأخلاق التي كانت لها من الحجاب؟ تبدَّلتْ بمشاعر الطاعة، والصبر، والاستقرار، والعناية بالنسل، والتفرَّغ لإسعاد أهلها وذويها - مشاعرَ أخرى، أوَّلها كراهية الدارِ والطاعةِ والنسل؛ وحَسبُك من شر هذا أوَّله وأخفه!

كان قاسم كالمخدوع المغترّ بآرائه، وكان مُصلحًا فيه روحُ القاضي، والقاضي بحكم عمله مقلِّدٌ مُتَّبع، أليس عليه أن يُسندَ رأيهَ دائما إلى نصٍّ لم يكن له فيه شأن ولاعمل؟ من ثم كثرت أغلاطُ الرجل حتى جعل الفرقَ بين فساد الجاهلة وفساد المتعلمة، أن الأولى «لا تكلّف نفسها عناء البحث عن صفات الرجل الذي تريد أن تقدم له أفضل شيء لديها، هو نفسها، وعلى خلاف ذلك يكون النساء المتعلماتُ، إذا جرى القدَرُ عليهن بأمر مما لايحلّ لهن، لم يكن ذلك إلا بعد محبة شديدة يسبقها علمٌ تامٌّ بأحوال المحبوب (...) وشمائله وصفاته، فتختاره من بين مئات وألوف ممن تراهم

فى كل وقت (!!!!) وهى تحاذر أن تضَع ثِقتها فى شـخص لا يكون أهلاً لها، ولا تُسلم نفسها إلا بعد مناضلة يختلفُ زمنُها وقوةُ الدفاع فيها حسب الأمزجة (؟؟؟؟) وهى فى كل حال تستتر بظاهر من التعفّف (؟؟؟؟)...»[1].

أليس هذا كلامَ قاض من القضاة المدَنيين المتفلسفين على مذهب (لمبروزو) يقول لإحدى الفاجرَتين: أيتها الجاهلةُ الحمقاء، كيف لم تتَحَاشَىْ ولم تَتَستَّرى فلا يكونَ للقانون عليك سبيل؟

وحتى فى هذا قد أثبت قاسـم أنه لايعـرفُ الأرنبَ وأذنيها[2] وإلا فمتى كان فى الحـب اختيـار، ومتى كان الاختيارُ يقـعُ «فيما يجرى به القَـدَرُ»، ومتى كان نظر العاشقة إلى الرجال نظرًا سيكولوجيًا كنظر المعلمة إلى صبيانها... فتدرس الصفات والشـمائل فى مئات وألوف ممن تراهم فى كل وقت لتُصَفيها كلها فى واحد تختاره من بينهم؟ هذا مضحك! هذا مضحك!

إليـك خبرًا واحدًا مما تنشـره الصحفُ فـى هذه الأيام: كفرار بنت فلان باشـا خرّيجة مدرسـة كذا مع سائق سيارتها؛ ففسـرّ لى أنت كلام قاسم، وأفْهِمنى كيف يكون اثنان واثنان خمسةً وعشرين؟ وكيف يكون فرارُ متعلّمة أصيلة مع سائق سيارة هو محاذرة وضع الثقة فيمن لا يكون أهلاً لها؟

لقد أغفل قاسـم حسابَ الزمن فى هذا أيضًا، فكثير من المنكَرات والآثام قد انحلَّ منها المعنـى الدينىُّ، وثبت فى مكانه معنى اجتماعى مقـررٌ، فأصبحت المتعلمة لا تتخوَّف من ذلك على نفسـها شـيئًا، بل هى تُقَارِفُهُ وتسـتأثر به دون الجاهلة، وتلبس له (السواريه)، وتقدّم فيه للرجال المهذَّبين مرةً ذراعها، ومرة خَصرها..

أقرأتَ (شهرزاد)؟ إن فيها سطرًا يجعل كتابَ قاسم كله ورقًا أبيض مغسولاً ليس فيه شىء يُقرأ:

---

(١) ص ٥١ مـن كتاب «تحرير المرأة»، وهو كلام قاسـم بنصـه، وأكثر ما فى هذا الكتاب هو فى رأينا خلط وخبط.

(٢) يقول العرب: «فلان يعرف الأرنب وأذنيها» أى يعرف الشىء بالعلامة التى تثبته ولا تتخلف.

قالت شهرزاد المتعلّمةُ، المتفلسفةُ، البيضاء، البضَّةُ، الرشيقةُ، الجميلة؛ للعبد الأسود الفظيع الدميم الذى تهواه: «ينبغى أن تكونَ أسودَ اللون، وضيعَ الأصل، قبيحَ الصورة، تلك وصفاتك الخالدةُ التى أحبّها...»[1].

فهذا كلام الطبيعة لا كلامُ التأليفِ والتلفيقِ والتزوير على الطبيعة.

قال صاحبُ الطائشة:

فقلتُ لها: فإذا كان قاسم لا يُرضيك، وكان الرجلُ مصلحًا دخَلتْه روح القاضى، فخلَطَ رأيًا صالحًا وآخر سيئًا، فلعل «مصطفى كمال» هَمَّكِ من رجل فى تحرير المرأة تحريرًا مزَّق الحجاب والـ....؟

قالت: إن مصطفى كمال هذا رجل ثائرٌ، يسوقُ بين يديه الخطأ والصوابَ بعَصًا واحدة، ولا يمكن فى طبيعة الثورة إلا هذا، ولا يبرحُ ثائرًا حتى يَتِمَّ انسلاخُ أمتهِ. وله عقل عسكرى كان يمكرُ به مكر الألمان، حين أكرهَهم الحلفاء على تحويل مصانع (كروب)، فحولوها تحويلاً يردُّها بأيسر التغيير إلى صنع المدافع والمهلكات. وليس الرجل مُصلحًا ألبتَّه، بل هو قائدٌ زهَاه النصرُ الذى اتفق له، فخرج من تلك الحرب الصغيرة وعلى شفتيه كلمةُ: «أريد..» وجعل بعد ذلك إذا غَلطَ غلطة أرادها منتصرة فيفرضها قانونًا على المساكين الذين يستطيع أن يفرض عليهم، فيقهرهم عليها ولا يناظرهم فيها، ويأخذهم كيف شاء، ويدَعهم كيف أحب؛ وبكلمة واحدة: هو مؤلف الرواية، والقانون نفسهُ أحدُ الممثلين...

وحقدُه على الدين وأهل الدين هو الدليل على أنه ثائر لا مصلح؛ فإن أخصَّ أخلاق الثورة حقدُ الثائرين، وهذا الحقد فى قوة حربٍ وحدَها، فلا يكون إلا مادةً للأفعال الكثيرة المذمومة، والرجل يحتذى أوربا ويعمل على أعمال الأوربيين فى خيرها وشرها، ويجعل رذائلهم من فضائلهم على رغم أنفهم، يتبرّءون منها ويُلحقها هو

(1) ص ١٠٦ من «شهر زاد» للكاتب الدقيق صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم، وقد كتبنا نحن فى هذا المعنى وكشفنا عن سره فى كتاب «أوراق الورد» ص ٥١ – ٥٢ وفى غيره من كتبنا.

بقومه، فكأنه يعتنف الآراء ويأخذها أخذًا عسكريا، ليس فى الأمر إلا قولةُ «أريد» فيكون ما يريد. هو لم يحكم على شبر من أوربا يجعله تركيًّا ولكنه جَعل رذائل أوربا تتجنس بالجنسية التركية...

وتالله إنه لأيسر عليه أن يجىء بملائكة أو شياطين من المردة، ينفخون أرض تركيا فيمطُّونها مطًا فيجعلونها قارّة، من أن يُكرِه أوربا على اعتبار قومه أوربيين بلبس قبعة وهَدْم مسجد. إنه لايزال فى أول التاريخ، وهذا الشعب الذى انتصر به لم تلده مبادئه، ولا أنشأه هدم العلماء؛ بل هو الذى ولدته تلك الأمهات، وأخرجه أولئك الآباء، وما كان يُعْوِزُهُ إلا القائدُ الحازم المصمم، فلما ظفر بقائده جاء بالمعجزة؛ فإذا فتن القائد بنفسه وأبى إلا أن يتحول نبيًا، فهذا شىء آخر له اسم آخر.

ولنفرض «الأثير» كما يقول العلماء، لنستطيع أن نجعل مسألتنا هذه علمية، وأن نبحثها بحثًا علميًا، فليكن مصطفى كمال هو اللورد كتشنر فى إنجلترا؛ فيكسب اللورد كتشنر تلك الحرب العظمى لا حرب الدُّويلة الصغيرة، وينتصر على البراكين من الجيوش لا على مثل براميل النبيذ.... ثم يستعزُّ الرجلُ بدالَّتِهِ على قومه، ويدخله الغرور، فيتصنّع لهم مرة، ويتزين لهم مرة، ثم يأتيهم بالآبدة فيُسَفِّه دينهم، ويريدهم على تعطيل شعائرهم وهدم كنائسهم، لأن هذا هو الإصلاحُ فى رأيه. أفتُرَى الإنجليز حينئذ يَضْوون إليه ويلتفُّون حوله ويقولون: قائدنا فى الحرب، ومُصلحنا فى السلم، وقد انتصرنا به على الناس فسننتصر به على الله، وظفرنا معه بيوم من التاريخ فسنظفر معه بالتاريخ كله..؟ أم تحسب كتشنر كان يجسر على هذا وهو كتشنر لم يتغير عقله؟

إنه والله ما يتدافع اثنان أن هدم كنيسة واحدة يومئذ لا يكون إلا هدم كتشنر وتاريخ كتشنر، ولكن العجز ممهدٌ من تلقاء نفسه، والأرض المنخسفةُ هى التى

يستنقع فيها الماء، فله فيها اسم ورسم؛ أما الجبلُ الصخريّ الأشمّ، فإذا صُب هذا الماء عليه أرسله من كل جوانبه، وأفاضه إلى أسفل...![1]

* * *

قال صاحب الطائشة: فأقول لها: إذا كان هذا رأيَكِ للنساء، فكيف لا ترين مثل هذا لنفسك؟

فَتَضعْضَعَت لهذه الكلمة ولجَلْجَت قليلاً ثم قالت: أنت سلبتنى الرأى لنفسى، ووضعتنى فى الحقيقة التى لا تتقيد بقانون الخير والشر.

قلت: فإذا كانت كل امرأة تغلطُ لنفسها فى الرأى، وتنصح بالرأى الصائب غيرها، فيوشكُ ألا يبقى فى نساء الأرض فضيلة ولايعودُ فى المدرسة كلها عاقل إلا الكاتب....

فتضاحكت وقالت: لهذا يشتد ديننا الإسلامى مع المرأة، فهو يخلق طبائع المقاومة فى المرأة، ويخلقها فيما حولها، حتى ليخيل إليها أن السماء عيون تراها، وأن الأرض عقول تُحصى عليها؛ وهل أعجبُ من أن هذا الدين يقضى قضاء مبرمًا أن تكون ثياب المرأة أسلوبَ دفاع لا أسلوب إغراء، وأن يضعها من النفوس موضعا يكون فيه حديثها بينها وبين نفسها كالحديث فى (الراديو) له دوى فى الدنيا، فيقيم عليها الحجاب، وغيرة الرجل، وشرف الأصل؛ ويؤاخذها بروح طبيعتها، فيجعل الهفوة منها كأنها جنين يكبرُ ولايزال يكبرُ حتى يكون عار ماضيها وخزى مستقبلها.

هذه كلها حُجُب مضروبة لا حجابٌ واحد، هى كلها لخلق طبائع المقاومة، لتيسير المقاومة؛ ومتى جاء العلم مع هذه لم يكن أبدا إطلاقا، ولم يكن أبدًا إلا الحجاب الأخير كالسور حول القلعة؛ ولكن قبحَ الله المدنية وفنها؛ إنها أطلقت

---

(١) أفردنا مقالا خاصًا لهذا الإلحاد التركى الذبابى.... فقد عثرنا فى النسخة الخطية التى عندنا من (كليلة ودمنة) على فصل بديع عنوانه: «كفر الذبابة» تقرؤه، فى الجزء الثانى من هذا الكتاب.

المـرأة حرة، ثم حاطتها بمـا يجعل حريتها هى الحرية فـى اختيار أثقل قيودها لا غير. أنت مُحمل بالذهب، وأنت حرٌّ ولكن بين اللصوص؛ كأنك فى هذا لستَ حرًا إلا فى اختيار من يجنى عليك...!

لـم تعد المرأة العصرية انتصار الأمومة، ولا انتصـار الخُلقِ الفاضل، ولا انتصارَ التعزية فى هموم الحياة؛ ولكن انتصار الفن، وانتصار اللهو، وانتصار الخلاعة.

قال صاحب الطائشة: فضحكتُ وقلتُ: وانتصارى...!

(طبق الأصل)

«**تنبيه**»

ليسـت الطائشـة كل النسـاء ولا كل المتعلمات، ونحن إنما نروى قصة هى فى الدنيـا، ليس فيها كلمة من المريخ ولا من زحـل؛ فأما الصالح فيرى ويفهم، ولعله يصون بها نفسـه؛ وأما الفاسـد فيرى ويعتبر ولعله يرد بها نفسـه. ومذهبنا دائمًا وجوب كشف الحقيقة، وإذا أردت أن تأخذ الصواب فخذه عمن أخطأ.

■■■

تربية لؤلؤية

كتبتْ إلىّ سيدة فاضلة بما هذه ترجمتهُ منقولاً إلى أسلوبى وطريقتى: .... أما بعدُ فهذا الذى كنا ظننا وظننتْ، فاقرأ الفصل الذى انتزعتُه لك من مجلة(*)... وستعرفُ منه وتنكر، وترى فيه النهار مبصرًا والليل أعمى.... وتجدُ فتاة اليوم على ما وقع بها من الظِنَّة، وكثر فيها من أقوال السوء - لا تَشْمسُ على الرّيبة ولا تريد أن تنتفى منها، بل هى تعملُ لتحقيقها، وتبغى مع تحقيقها أن يَتَعالَم الناسُ ذلك منها، وتريد مع هذين أن يطلقوا لها ما شاءت، ويُسَوّغها مُقَارفة الإثم، ويُقرُّوها على منكرَاتها.

أمَا إنه إذا كانت أمهاتنا الجاهلاتُ هنّ أمسَنا الذاهب بلا فائدة، فإن فتياتنا المتعلماتِ هن يومُنا الضائع بلا فائدة، غير أن الجاهلة لم تكن تَكْسَدُ ومعها الفضيلة، فأصبحت المتعلمةُ لم تكد تَنْفُقُ ومعها الرذيلة، ولتَاجرٌ أمىٌ طاهرُ الاسم تتحرك سُوقُه وتحيا، خيرٌ من تاجر متعلم نَجِس الاسم قد قامت سوقه وخَمَدتْ، فما تتنفس من درهم ولا دينار.

لقد احتذيْنا على مثال المرأة الأوربية، فلما أحكمتْه المتعلماتُ منا، كنّ بين الشرق والغرب كالسَّبخةِ النشَّاشة من الأرض، طَرفٌ لها بالفلاة وطرفٌ بالبحر؛ فهى رملٌ فى ماء فى مِلَح، لاتَخْلُصُ لفساد ولاصحة، فاعتبر هذه وهذه نستجدهما بحكاية واحدة أصلا وطبق الأصل.

***

وقرأت الفصل الذى أومأت إليه السيدة، وكان فى كتابها، فإذا هو لكاتبة تزعم (أنها ممن رفعن علَم الجهاد لحرية المرأة)، وإذا فى أوله:

(*) مجلة الأسبوع المصرية ١٩٣٤م.

«كتبت آنسة أديبة فى عدد سابق من... الأغر تقول: (أجلْ، لنفتشْ عن هذا الرجل كما يفتشون هم عن المرأة، فإن أخطأناهم أزواجًا فلن نخطئهم أصدقاء! ! ! !) وكتب بعد هذا أديب فاضل، كما كتبت آنسة فاضلة ينحيان (كذا) هذا المنحى، ويطرقان نفس السبيل (كذا) التى اختطتها الآنسة الجريئة فى غير حق، الثائرة فى نزق. ثم قالت بعد ذلك: «قرأت مقال الآنسة الثائرة فى حَيوية صارخة! ! ! ! فجزعت، لأن (قاسم أمين) عندما رفع علَم الجهاد من أجل حرية المرأة، و(ولى الدين يكن) عندما جاهر بعده فى سبيل السفور، و(هدى شعراوى) عندما رفعت صوتها عاليًا تطالب بحرية المرأة – ما ظنت وما ظن واحد من هذين الرجلين أن ثورة المرأة ستتطور إلى حد أن تقف آنسة مهذبة، تكشف عن رأسها تبكى وتستبكى سواها معها، من أجل الزواج....».

* * *

وأنا فلست أدرى والله ممَّ تعجب هذه الكاتبة، وإنى لأعجبُ من عجبها، وأراها كالتى تكتب عبثًا وهزلًا وهُوينا، مُظهرةً الجدَّ والقصد والغضب. أئِنْ أطلق للنساء أن يَثُرن كما تقول الكاتبة، وجاهد فلان وفلان فى هذه الثورة فأخذت مأخذها، فانطلقتْ لشأنها، فأوغلتْ فى حريتها، فامتدَّ بها أمدُها شوطًا بعد شوط – ثم جاء خُلُقُ المرأة يُسفر سفوره ويرفع الحجاب عن طبيعته ثائرًا هو أيضًا فى غير مُداراة ولا حذق ولا كياسة، يريد أن يقتحم طريقه ويسلك سبيله، ثم وقف على رغمه فى الطريق منكسرًا مما به من اللفة والوثْبة يتوجع، يتنهد، يتلذَّع بهذه المعانى وهذه الكلمات – أئن وقع ذلك جاءت كاتبة من كاتبات السفور تقول للمرأة: جَرى عليك وكنت حرة، وتَزعْزعْت وكنت ثابتة، وأفحشت وكنت عفيفة، وتَعهَّرْت وكنت طاهرة؟

أفلا تقول لها: سَفَرتْ أخلاقك إذ كنت سافرة بارزة، وضاع حياؤكِ إذ كنت مُخلاَّةً مهملة، وغَلَوْتِ إذ كنت فى المبالغة من البدء؟

أفلا تقول لها: لقد تَلَطفْتِ فجئت بالمعنى المجازى لكملة (العُرْى)، ولقد أبدعت فكنت امرأة ظريفةً اجتماعية مَخِيلَةً للشعر والفن، وحققتِ أن واجب الظريفة الجميلة إعطاء الفن غذاء من....، ومن ....؛ ومن لحمها...؟

نعم إن قاسم أمين (رحمه الله) لم يكن يظن... ولكن أما كان ينبغى أن يظن أن بعض الصواب فى الخطأ لا يجعل الخطأ صوابًا؟ بل هو أحرى أن يُلبسه على الناس فيشبِّهَه عليهم بالحق وما هو به، ويجعلهم يسكنون إليه ويأمنون جانبه فينتهى بهم يومًا إلى أن ينتسف خطؤه صوابَه، ويغطِّىَ باطله على حقه ثم تَستطرقُ إليه عواملُ لم تكن فيه من قبل، ولا كانت تجد إليه السبيل وهو خطأ محض، فتمدُّ له فى الغيّ مدًّا. ثم تنتهى هى أيضًا إلى نهايتها، وتَئول إلى حقائقها؛ فإذا كل ذلك قد داخل بعضُه، وإذا الشر لا يقفُ عندما كان عليه، وإذا البلاء ليس فى نوع واحد بل أنواع.

ما يرتاب أحد فى نية قاسم أمين، ولانزعم أن له خَفيَّة سوء أو مُضمَر شر فيما دعا إليه من تلك الدعوة، ولكن أنا أرتاب فى كفايته لما كان أخذ نفسَه به وأراه قد تكلَّف ما لا يُحسن، وذهب يقول فى تأويل القرآن وهو لا ينفُذُ إلى حقائقه، ولا يستبْطن أسرار عربيته، وكان مناظروه فى عصره قومًا ضعفاء، فاستعلاهم بضعفهم لا بقوته، وكانت كلمةُ الحجاب قد انتفختْ فى ذهنه بعد أن أفرغت معانيها الدقيقة، فأخذها ممتلئةً وجاء بها فارغة، وقال للنساء: غَيِّرن وبدِّلْن. فلما أطعنه وبدلن وغيرن، وجاء الزمنُ بما يفسر الكلمة من حقائقه وتصاريفه لا من خيالات المتخيل أو المتشيع – إذا معنى التغيير والتبديل هو ما رأيت، وإذا الحجابُ الأول على ضلاله كان نصف الشر، وإذا المرأة التى ربحت الشارع هى التى خسرت الزوج! وإذا تلك الدعوة لم تكن نفيًا للحجاب عن المرأة، ولكن نفيًا للمرأة ذاتها وراء حدود الأسرة، كأنها مجرمة عُوقبتْ على فساد سياستها؛ وهى قارَّة فى بيتها ولكنها مع ذلك منفيةٌ من مستقبلها.

كانوا يحتجُّون لنفى الحجاب بالفلاَّحات فى سفورهن؛ وغفلوا أقبح الغفلة عن السبب الطبيعى فى ذلك، وهو أن السفور إنما عَمَّهُنَّ من كونهن لسن فى المنزلة

الاجتماعية أكثر من بهائم إنسانية مؤنثة؛ ومثل هذا السفور لا يكون على طبيعته تلك إلا فى اجتماع طبيعىّ فطرى أساسُه الخلطُ فى الأعمال لا التمييز بينها، والاشتراكُ فى شىء واحد هو كَسْبُ القُوتِ[١] لا الانفرادُ بما فوق ذلك من أشياء النفس.

ولست أرى هذه اللجاجة، أو «الحيوية الصارخة» التى ثارت بفتياتنا – إلا تمردًا من طبيعتهن على الأحوال الظالمةِ المتصرفةِ بها؛ ويَحسبْنَه توسعا من الطبيعة فى الحرية، وطلبًا للعلم كله بعد الشارع، وللحقوق كلّها بعد نبذ الحجاب، وهو فى الحقيقة ليس إلا ثورة الطبيعة النسوية على خيبتها مما أصابت من الحرية والشارع والعالَم والحقوق، ورغبةً منها فى أن تُحَدَّ بحدودها ويُؤخذ منها العالم كلُّه بما فيه، وتُعْطَى البيت وحده بما فيه.

إذا أنت كشفت جذور الشجرة لتُطلقَها بزعمك من حجابها، وتُخرجَها إلى النور والحرية، فإنما أعطيتَها النور، ولكن معه الضعف؛ والحرية، ومعها الانتقاض؛ وتكون قد أخرجتَها من حجابها ومن طبيعتها معًا؛ فخذها بعد ذلك خَشبًا لا ثمرًا، ومنظر شجَرة لاشجرة، لقد أعطيتَها من علمك لا من حياتها، وجهلت أنها من أطباق الثرى فى قانون حياتها، لا فى قانون حجابها. أفليست كذلك جذور الشجرة الإنسانية؟

كلُّ ما يتغير يسهُل تغييرُه على من شاء، ولكنَّ النتائج الآتية من التغيير لا تكون إلا حتمًا مقضيًّا كما يُقضى، فلن يسهل تبديلُها ولا تحويلُها ولا ردُّها أن تقَع. وقد أخطأ جماعة السفور، بل أنا أقول: إنهم جاءونا بالجاهلية الثانية، وإنهم طبُّوا للمرأة المسلمة كذلك الطبّ الذى أساسُه الرائحة الزكية فى البخور...![٢]

* * *

---

(١) ولهذا لا يكاد يغتنى الفلاح ولو أيسر الغنى، حتى يصون امرأته ويحجبها ويرتفع بمعناها فى نفسه.

(٢) أى طب الدجالين.

وما هو الحجابُ إلا حفظُ روحانية المرأة للمرأة، وإغلاءُ سعرها فى الاجتماع، وصونُها من التبذُّل الممقوت، لضبطها فى حدود كحدود الربح من هذا القانون الصارم، قانون العَرْض والطلَب، والارتفاعُ بها أن تكون سلْعةً بائرةً ينادى عليها فى مَدارج الطرق والأسواق: العيونُ الكحيلة، الخدودُ الوردية، الشفاهُ الياقوتية، الثغورُ اللؤلؤية، الأعطافُ المرتجَّة، النهود الـ.. الـ.. أوليس فتياتُنا قد انتهين من الكساد بعد نبذ الحجاب إلى هذه الغاية، وأصبحن إن لم ينادِين على أنفسهن بمثل هذا فإنهن لا يظهَرن فى الطرق إلا لتنادى أجسامُهن بمثل هذا؟

وهذه التى كتبت اليوم تطلبُهم مُخَادِنين إن أخطأتهم أزواجًا، وتفتِّش عليهم تفتيشًا بين الزوجات والأمهات والأخوات! هل تريد إلا أن تثب درجةً أخرى فى مُخزيات هذا التطور، فتمشى فى الطريق مشى الأنثى من البهائم طَمُوحا مَطْرُوفَة، تذهبُ عيناها هنا وههنا تلتمسُ من يخطو إليها الخطوةَ المقابلة..؟

ما هو الحجابُ الشرعىّ إلا أن يكونَ تربيةً عمليةً على طريقة استحكام العادة لأسمى طباع المرأة وأخصُّها الرحمة؟ هذه الصفةُ النادرةُ التى يقوم الاجتماعُ الإنسانىُّ على نزعها والمنازعة فيها ما دامت سنةُ الحياة نزاعَ البقاء، فيكون البيت اجتماعا خاصًا مسالما للفرد تحفظُ المرأةُ به منزلتها، وتؤدى فيه عملَها، وتكون مغْرِسًا للإنسانية وغارسَة لصفاتها معًا.

لقد رأينا مَواليدَ الحيوان تولَد كلّها: إما ساعيةً كاسبةً لوقتها، وإما محتاجةً إلى الحَضانة وقتًا قليلًا لا يلبثُ أن ينقضىَ فتكدَحَ لعيشها؛ إذ كانت غايةُ الحيوان هى الوجودَ فى ذاته لا فى نوعه، وكان بذلك فى الأسفلِ لا فى الأعلى. غير أن طفلَ المرأة يكون فى بطنها جنينًا تسعةَ أشهر، ثم يولد ليكون معها جنينًا فى صفاتها وأخلاقها ورحمتها أضعافَ ذلك، سنةً بكل شهر. فهل الحجابُ إلا قَصرُ هذه المرأة على عملها، لتجويده وإتقانه وإخراجِه كاملًا ما استطاعت؟ وهل قَصرُها فى حجابها إلا تربيةٌ طبيعية لرحمتها وصبرِها، ثم تربية بعد ذلك لمن حولها برحمتها وصبرها؟

أعرف معلمةً ذاتَ ولَد، تترك ابنَها فى أيدى الخدم بعد وَصَاة علمية سيكولوجية... وتمضــى ذاهبةً عن يمين الصباح ويمضى زوجُها عن شــماله... وقد رأيت هذا الطفل مرة، فرأيته شــيئًا جديدًا غيرَ الأطفال، له سِمَةٌ روحانية غيرُ سِمَاتِهم، كأنما يقول لى: إنه ليس لى أبٌ وأم، ولكن أبٌ رقم (١)، وأب رقم (٢)...!

* * *

وقد كنتُ كتبت كلمة عن الحجاب الإسلامى قلت فيها: «ما كان الحجابُ مضروبًا على المرأة نفســها، بل على حدود من الأخلاق أن تُجاوز مقدارَها أو يُخالطَها السوء أو يَتَدَسَّس إليها؛ فكل ما أدى إلى هذه الغاية فهو حجاب، وليس يؤدّى إليها شىء إلا أن تكــونَ المرأة فى دائرة بيتها، ثم إنســانًا فقط فيمــا وراء هذه الدائرة إلى آخر حدود المعانى».

وهــذا هو الرأى الذى لم يتنبه إليه أحد، فليس الحجابُ إلا كالرمز لما وراءه من أخلاقه ومعانيه ورُوحِه المَعْبَدِيَّة، وهو كالصدَفة لا تحجبُ اللؤلؤةَ ولكن تربيها فى الحجاب تربيةً لؤلؤية؛ فوراء الحجاب الشرعى الصحيح معانى التوازنِ والاستقرار والهدوء والإطراد، وأخلاقُ هذه المعانى وروحُها الدينىُّ القوى، الذى ينشئ عجيبةَ الأخلاق الإنســانية كلها؛ أى صبرَ المرأة وإيثارَها. وعلى هذين تقوم قوةُ المدافعة، وهذه القوةُ هى تمام الأخلاق الأدبية كلها، وهى سرُّ المرأة الكاملة؛ فلن تجدَ الأخلاقَ على أتمها وأحســنها وأقواها إلا فى المرأة ذات الدين والصبرِ والمدافعة، إنها فيها تشبه أخلاقَ نبىّ من الأنبياء.

وقد مُحِقَ الديــن والصبر، وتراخت قوةُ المدافَعة فى أكثــر الفتيات المتعلمات، فابْتُلِينَ من ذلك بالضجَر والملل، وتشــويه النفــس، ووقع فيهن معنى كمعنى العَفَن فى الثمرة الناضجة، وجهلن بالعلم حتى طبيعتَهن، فما منهن من عرفتْ أن طبيعتها سلبية فى ذاتها، وأنه لا يشدّها ويقيمُها إلا الصفاتُ السلبية، وملاكُها الصبرُ فروعُه وأصوله، وجمالهــا الحياء والعفة، ورمزها وحارسُــها والمعينُ عليها هو الحجابُ وحده. إنه إن لم يكن فى المرأة هذا فليست المرأة إلا بهذا.

وما تخطئ المرأة فى شىء خطأها فى محاولة تبديل طبيعتها وجعلِها إيجابية، وانتحالها صفاتِ الإيجاب، وتمردها على صفات السلب، كما يقع لعهدنا؛ فإن هذا لن يتم للمرأة، ولن يكونَ منه إلا أن تعتبرَ هذه المرأةُ نقائضَ أخلاقها من أخلاقها، كما نرى فى أوربا، وفى الشرق من أثر أوربا؛ فمن هذا تُلقى الفتاةُ حياءها وتَبْذُؤ وتُفْحِش، إن لم يكن بالألفاظ والمعانى جميعًا فبالمعانى وحدَها، وإن لم يكن بهذه ولا بتلك فبالفكر فى هذه وتلك؛ وكانت الاستجابة لهذا ما فَشا من الروايات الساقطة، والمجلات العارية؛ فإن هذه وهذه ليست شيئًا إلا أن تكون عِلْم الفكرِ الساقط.

وعادت الفتاةُ من ذلك لا تبتغى إلا أن تكونَ امرأةَ رواية: إما فوق الحياة، وإمَّا فى حقائقَ جميلة تختارها اختيارًا وتفرضُها فرضًا على القدَر! تنسَى الحمقاء أنها أحدُ الطرفين، وليست الطرفين جميعًا؛ فتحاول أن تقررَ للحياة الجديدة تأويلاً جديدًا لمعانى الشرف والكرامة والعرض والنسب وما إليها؛ فانسلختْ من كل شىء، ثم لما أعجزها أن تنسلخَ من غريزة الأنوثة طاشت طيشَها الأخير، فانسلختْ من إنسانية الغريزة.

* * *

أما إن غلطةَ الرجل فى المرأة لا تكون إلا من غلطة المرأة فى نفسها. وهى قد أُعطيت فى طبيعتها كل معانى حجابها؛ فإحساسُها محتجِبٌ مختبئ أبدًا كأنه فى إتْبٍ[1] ومُلاءة وبرقع، وأفكارُها طويلةُ الملازمة لها لا تكاد تتركها، كأنها منها فى بيت؛ وطبيعةُ الحذَر لا تَبرحُها كأنها الحارسُ الثابتُ فى موضعه، القائمُ بسلاحه على حفظ هذا الجسم الجميل؛ وطولُ التأمل مُوَكَّل بها كأن عمله مصاحبةُ وَحدتها لتخفيفها على نفسها والترفيه منها؛ والدنيا حولَ المرأة بمذاهب أقدارها، ولكنَّ لها دنيا فى داخلها هى قلبُها تذهبُ الأقدارُ فيه مذاهبَ أخرى؛ وضَغطةُ الحياة طبيعية فيها، حتى لا يُساوِرَها هم من الهموم إلا صار كأنه من عادتها. والتى تمزقها الحياة كلما ولدَت لا تكونُ الحياة إلا رحيمَة بها إذا ضغطتها!

---

(١) الإتب هو بردة تشق فتلبس من غير كمين، وتسميه الريفيات (الملس).

فخروجُ المرأة من حجابها خروجٌ من صفاتها، فهو إضعافٌ لها، وتَضْرِيةٌ للرجال بها. وماذا تُجدى عادةُ الحذَر إذا أفسدتها عادةُ الاسترسال والاندفاع؟ فيكونُ حذرًا ليكون إغفالًا، ثم يكونُ إغفالًا ليعودَ الزَّلةَ والغلطة؛ ومتى رجع غلطةً فهذا أول السقوط، ومبدأ الانقلاب والتحوّل. وليس الفرق بين امرأة نَفُورٍ من الريبة، شَمُوسٍ لا تُطلع الرجالَ ولا تُطمِعُهم؛ وبين امرأة قَرورٍ على الريبة، هَلوكٍ فاجرة – ليس الفرق إلا حجابَ الحذَر أسْدِلَ على واحدة، وانكشف عن أخرى.

وإذا قرَّتْ المرأة فى فضائلها، فإنما هى فى حجابها ودينها، وإنما ذلك الحجاب ضابط حريتها الصحيحة، باعتبارها امرأةً غيرَ الرجل؛ فهو مسمًّى بالحجاب لاتصاله بالحرية وضبطه لها، ولكن الضعفاء الذين يعرفون ظاهرًا من الرأى لا يدركون مذهبَه، ولا يحققون ما ينتهى إليه، وينفذون فى حكمهم على الظاهر لا على البصيرة، هؤلاء لا يعرفون معنى الحجاب إلا فى القماش والكِساء والأبنية، كأن حجابَ الأخلاق النسوية شىء يصنعُه الحائك والبانى والمستَعْبِد، ولاتصنعه الشريعة والأدب والحياة الاجتماعية؛ فهم كما ترى حين يأتون بنصف العلم، يأتون بنصف الجهل.

لم يخلق الله المرأة قوةَ عقل فتكونَ قوة إيجاب، ولكنه أبدعها قوةَ عاطفة لتكون قوةَ سلب؛ فهى بخصائصها والرجل بخصائصه، والسلب بطبيعته متحجِّبٌ صابر هادئ منتظر، ولكنه بذلك قانون طبيعى تتم به الطبيعة.

وينبغى أن يكونَ العلم قوة لصفات المرأة لا ضعفًا، وزيادةً لا نقصًا؛ فما يحتاج العالَم إذا خرج صوتُها فى مشاكله أن يكون كصوت الرجل صيحةً فى معركة، بل تحتاج هذه المشاكل صوتًا رقيقًا مؤثرًا محبوبًا مجمَعًا على طاعته، كصوت الأم فى بيتها.

* * *

أيتها الفتاة، إنَّ صدقَ الحياة تحتَ مظاهرها لا فى مظاهرها التى تكذبُ أكثر مما تَصْدق؛ فساعدى الطبيعة واحجُبى أخلاقَك عن الرجل، لتعملَ هذه الطبيعة فيه

بقوتين دافعتين: منها ومنك، فيُسرع انقلابُه إليك وبحثه عنك؛ وقد يجد الفاسق فاسقات وبَغَايا، ولكنَّ الرجلَ الصحيحَ الرجولة لن يجدَ غيركِ.

وإنما سفورك وسفور أخلاقك إفساد لتدبير الطبيعة، وتمكينٌ للرجل نفسهِ أن يُرْجِفَ بكِ الظنَّ، ويسيء فيك الرأي؛ وعقابك على ذلك ما أنت فيه من الكساد والبَوار؛ عقاب الطبيعةِ لمستقبلك بالحرمان، وعقاب أفكارك لنفسك بالألم!

■■■

س . ا . ع[1]

هــؤلاء ثلاثةٌ من الأدباء تجمعُهم صِفَــة العُزوبة، ويحبّون المرأةَ حبًّا خائفًا يُقدم رجــلاً ويؤخر أخرى؛ فلا يُقْبِل إلا أدبــر، ولا يَعْـزِم إلا انْحَلَّ عزمُه. بلغوا الرجولةَ وكأنْ ليســت فيهــم؛ وتمرُّ بهم الحياة مرورَها بالتماثيــل المنصوبة، لا هذه قد وُلِدَ لها ولا أولئــك؛ وما برحوا يجاهدون ليحتملوا معانىَ وجودِهم، لا ليطلبوا ســعادةَ وجودهم، ويُمخْرِقون فى شَــعْوَذة الحياة بالنهار علــى الليل، وبالليل على النهار؛ يحاولون أن يَجدوا كالناس أيامًا وليالىَ، إذ لا يعرفون لأنفسهم من العُزوبة إلا نهارًا واحدًا، نصفُه أسود مُقْفِرٌ مظلِم...!

فأما «س» فرجلٌ «كشــيخ المســجد» يكاد يرى حَصِيرَ المسجد حيث وَطِئتْ قدماه مــن الأرض... ذو دينٍ وتَقوى، ما يزال ينقبــضُ وينكَمِشُ ويَتَزَايَل حتى يَرجعَ طفلاً فى ثلاثين من عمره... وهو حائرٌ بائر لا يتَّجِهُ لشــيء من أمر المرأة، وقد فَقدَ منها مما يَحِلُّ وما يحْرُم، ولا جُرْأة لنفسه عليه، فلا جرأةَ له على المُوبِقات، ولا يزيِّن له الشــيطان وَرطةً منها إلا أمَّلَسَ منه، فإن له ثلاثةَ أبواب مفتوحة للهرب: إذ يخشى الله، ويَتَوقَّى على نفسه، ويستحْيِى من ضميره.

وأما «ا» فرجلٌ مِعْزابةٌ، ولكنه كالإسفِنْجة، امتلأت حتى ليسَ فيها خَلاَءٌ لقطرة، ثم عُصَرتْ حتى ليس فيها بَلاَلٌ من قطرة؛ وقد بلغَ ما فى نفســه وقضى نَهْمتَه حتى مما أراد؛ ثم قَلَبَ الثوب... فإذا له داخِلةٌ ناعمةٌ من الخزِّ والديباج، وإذا هو «الرجل الصالــح» العفيفُ الدَّخْلَة، مــا تنطلقُ له نفسٌ إلى مأثم، ولا يعرف الشــيطانُ كيف يَتَسبَّبُ لصُلْحهِ ومُراجَعتهِ الودّ...

---

(١) هم الأصدقاء سعيد... وأمين حافظ شرف وعبد الله عمار.

وأما «ع» فهو كالأعرج؛ إذا مشى إلى الخير أو الشر مشى بطيئًا برجل واحدة، ولكنه يمشي... وهو «مَلِكُ الشوارع» لا يزال فيها مقبلاً مُدبِرًا طرَفًا من النهار وزُلَفًا من الليل؛ فإذا لم يكن فى الشارع نساء ظَنَّ الشارعَ قد هَرَبَ من المدينة وخرج من طاعته.. ولهذه الشوارع أسماء عنده غيرُ أسمائها التى يَتَعارَفُها الناسُ ويستدِلُّون بها؛ فقد يكونُ اسمُ الشارع مثلاً: «شارع طه(*) الحكيم» ويسمّيه هو «شارع مارى»... ويكون اسمُ الآخر: «شارع كتشنر» فيسميه «شارع الطُّويلة»... ودرْبٌ اسمهُ «درب الملاَّح» واسمه عنده «دربُ الْمَلِيحة»... وهلمَّ جرّا ومَسْخًا.

وإذا أراد صاحبُنا هذا أن يسخَرَ من الشيطان دخل المسجدَ فصلَّى، وإذا أراد الشيطانُ أن يسخرَ منه دَحْرَجَه فى الشوارع...!

* * *

وافيتُ هؤلاء الثلاثةَ مجتمعين يَتَدارَسُون مقالةَ «تربية لؤلؤية»، يناقِشُونها بثلاثة عقول، ويفتِّشونها بستّ عيون؛ فأجمعوا على أن المرأةَ السافرةَ التى نبذَت «حجابَ طبيعتها» على ما بيَّنته فى تلك المقالة، إن هى إلا امرأةٌ مجهولةٌ عند طالبى الزواج، بقدر ما بالغَتْ أن تكونَ معروفة، وأنها ابتعدت من حقيقتها الصحيحة، قدرَ ما اقتربتْ من خَيالها الفاسد؛ وأتقنتْ الغَلَطَ ليصدّقَها فيه الرجلُ، فلم يكذّبْها فيه إلا الرجل؛ وجعلت أحسنَ معانيها ما ظهرت به فارغةً من أحسن معانيها...!

وأردتُ أن أعرفَ كيف تَنْتَصِفُ من الرجل العَزَب للمرأة التى أهملها أو تركها مُهْمَلة... وأين تبلغ ضَرَباتُها فى عيشه، وكيف يكون أثرُها فى نفسه، وكيف تكون المرأةُ فى خائنةِ الأعين؛ فتسرَّحْتُ مع أصحابنا فى الكلام فنًّا بعد فن، وأزلْت حِذارَهم الذى يحذرون، حتى أفضَوْا إلىّ بفلسفة عقولهم وصدورِهم فى هذه المعانى.

قال «س»: حسْبى والله من الآلام وآلام معها - شعورى بحرمانى المرأةَ؛ فهو بلاء منَعنى القرار، وسلبنى السَّكِينة؛ وكأنه شعورٌ بمثل الوَحْدة التى يُعاقَب السجينُ

(*) ما يأتى هنا من أسماء الشوارع هو من شوارع طنطا، وفى شارع طه الحكيم كانت دار الرافعى.

لهـا مصرفًا عن الحياة مصروفةً عنـه الحياة؛ تجعلُه جُدرانُ سـجنه يتمنَّى لو كان حَجَرًا فيها فينجوَ من عذاب إنسانيته الذليلةِ المجرِمة، المخَلَّى بينها وبينه تُوسِعُهُ مما يَكره؛ شـعورٌ بالوحدة والعُزْلة حتى مع الناس وبيـن الأهل فما فيَّ إلا عواطفُ خُرْسٌ لا تستجيب لأحد ولا يجاوبُها أحدٌ فى «ذلك المعنى».

وتمـامُ الذلَّـة أن يجدَ العَزَبَ نفسـهَ أبدًا مُكْرَهًا على الحديـث عن آلامه لكل من يُخالِطـه أو يجلسُ إليه، كأنه يحمل مصيبةً لا يُنَفَّس مُنها إلا كلامُه عنها. وهذا هو السرُّ فى أنك لا تجد عَزَبًا إلا عرفتَه ثرثارًا لا تزالُ فى لسانه مَقَالةٌ عن معنى أو رجل أو امرأة، وأصبْتَه كالذباب لا يطيرُ عن موضع إلا ليقعَ على موضع.

ومع جَهْد الحرمان جَهْدٌ شـر منه فى المقاومة وكـفّ النفس؛ فذلك تَعبٌ يَهلِكُ بـه الآدمَيُّ، إذ لا يدعُـه يَتَقَارُّ على حالة من الضجر فيما تُنازِعُه الطبيعةُ إليه، وهو كالمَزْعِ فى أعصابه، يُحِسُّها تُشَدُّ لتُقْطَع، ودائمًا تُشَدّ لتقطع.

وقد رَهِقنى من ذلك الضّنَى النَّسـوىّ ما عِيلَ بـه صبرى وضَعُفَ له احتمالى؛ فما أرانى يومًا على جِمَام من النفس، ولا ارتياح من الطبع؛ وكيف وفى القلب مادةُ همه، وفى النّفس عِلَّة انقباضِها، وفى الفكر أسـبابُ مَشْـغَلَته؟ وقد أوقدتْ سَـوْرةُ الشباب نارَها على الدم، تَلْتَعِجُ فى الأحشاء؛ وتطيرُ فى الرأس، وتصبُغُ الدنيا بلون دُخانِها، وفى كل يوم يتخلَّف منها رَمادٌ هو هذا السوادُ الذى رَانَ على قلبى.

وما حالَ رجل عذابُه أنه رجل، وذُلُّه أنه رجل؟ يلبس ثيابه الإنسـانية على مثل الوحش فى سلاسِـله وأغلالِه، ويحملُ عقلًا تَسُبُّه الغريزةُ كلَّ يوم، وتراه من العقول الزُّيُـوف لا أثر للفضيلة فيه؛ إذ هو مجنون بالمرأة جنون الفكرَة الثابتة، فما يخلو إلى نفسه ساعة أو بعض ساعة إلا أخذتْه الغريزة مُجْتَرِحًا جريمة فكر...

وفـى دُون هذا ينكرُ المرء عقلَه؛ وأىُّ عقل تُراه فى رجلٍ عَزبٍ يقع فى خياله أنه متـزوج، وأنه يـأوى إلى «فلانة»، وأنها قائمة على إصلاح شـأنه ونظام بيته، وأنه من أجلها كان عَزُوفًا عن الفَحْشاء بعيدًا من المنكَر؛ وفاء لها وحفظًا لعهد الله فيها، وقـد دلَّهَتْه بفُنونها التى يبتدعُها فكرُه؛ وهى سـاعةً تؤاكِلهُ على الخِوان، وسـاعة

تُضاحِكـه، ومرةً تُعابثـه، وتارة تُجافيه، وفى كل ذلك هو ناعـمٌ بها، يحدّثها فى نفسـه، ويَسْـمَرُ معها، ويتصنَّع لها؛ ويُعاتبها أحيانًا فى رقـة، وأحيانًا فى جَفاء وغلِظة: وقد ضربَها ذات مرة..

ألا إن فكرة المرأة عندى هى هذا الجنونُ الذى يرجع بى إلى عشرة آلاف سنة من تاريخ الدنيا، فَيرمى بى فى كَهف أو غابة، فأرانى من وراء الدهور كأنى أبدأ الحياة منفردًا وأجدُنى رجلاً عاريًا متوحشًـا متأبدًا ليس من الحيوانِ ولا من الإنْس، دنياه أحجارٌ وأشجار، وهو حجَرٌ له نموُّ الشجَر.

لقد توزَّعَتْ المرأة عقلى فهو متفرّقٌ عليها، وهى متفرقة فيه، لا أستطيعُ والله أن أتصوَّرها كاملة، بل هى فى خيالى أجزاء لا يجمعُها كلٌّ؛ هى ابتسـامةٌ، هى نظرةٌ، هى ضحكةٌ، هى أغنية، هى جسم، هى شىء، هى هى هى.

أكلُّ تلك المعانى هى المرأة التى يعرفُها الناس، أم أنا لى امرأةٌ وحدى؟

وإنى على ذلك لأتَخوَّف الزواج وأتحاماه؛ إذ أرى الشارع قد فَضح النساء وكَشَفَهنّ، فمـا يُرينى منهنّ إلا امرأةً تزْهَـى بثيابها وصنْعة جمالها، أو امـرأةً كالهارِبة من فضائلهـا، والبيتُ إنما يطلب الزوجة الفاضلَة الصَّنـاعَ، تَخِيطُ ثوبَها بيدها فُتباهِى بصنعتـه قبل أن تُباهى بلبسـه، وتُزْهَـى بأثر وجهها فىَّ، لا بأثر المسـاحيقِ فى وجهها. وإنَّ مكابدة العفَّة، ومصارعة الشيطان، وتوهُّج القلب بناره الحامية، وإلمام الطَّيْرةِ الجنُونية بالعقل – كلُّ ذلك ومثلُه أهون من مكايَدَة زوجة فاسدةِ العلمِ أو فاسدةِ الجهل، أبْتَلَىَ منها فى صديق العُمر بعدوّ العُمر.

إن أثَر الشـارع فى المرأة هو سـوء الظنّ بها. فهى تحسِـبُ نفسَـها معلنةً فيه أنوثتَهـا، وجمالهـا، وزينتهَا؛ ونحن نراها معلنةً فيه سُـوء أدب، وفسـاد خُلُق، وانحطاطَ غريزة. ومن كان فاسـقًا أسـاء الظنَّ بكل الفتيات، ووجد السبيل من واحدة إلى قول يقوله فى كل واحدة، ومن كان عفيفًا سَـمَع من الفاسق فوجد من ذلك مُتَعلَّقًا يتعلَّق به، وقياسًا يقيسُ عليه؛ والفتنةُ لا تُصيب الذين ظلموا خاصَّة، بل تعُمّ.

آه لو استطعت أن أوقِظ امرأةً من نساء أحلامى...!

***

وقال «ا» : لقد كانت معانى المرأة فى ذهنى صُورًا بديعَة من الشعر تستخفُّنى إليها العاطفــة، ولايزال منها فــى قلبى لكل يوم نَازِيةٌ تَنْزو. وكانــت المرأةُ بذلك حديث أحلامى ونَجِىَّ وساوِسى، وكنتُ عفيف البنطلون[1]؛ ولكنَّ النساء أيقظْنَنى من الحُلُم، وفجعْنَنى فيه بالحقيقة، ووضعْن يدى على ما تحت مَلمَس الحيَّة، ولو حدثْتُك بجملة أخبارهن، وما مارستُ منهن لتكَرَّهْت وتَسخَّطْت، ولأيقنْت أن كلمة (تحرير المرأة) إنما كانــت خطأ مطبعيًّا، وصوابهــا: (تجرير المرأة).. فهؤلاء النســاء أو كثرتُهن لم يُذِلْن الحجاب إلا لتَخرج واحدةٌ مما تجهلَ إلى ما تريد أن تعرف، وتخرج الأخرى مما تعرفُ إلى أكثر مما تعرفه، وتخرج بعضهن من إنسانة إلى بهيمة...

ولقد عرفت فيمن عرفتُ منهن الخفيفة الطيَّاشة، والحمقاء المتساقِطَة، والفاحشة ذات الرّيبة، وكلُّ أولئــك كان تحريرُهن أى - تجريرُهن - تقليدًا للمرأة الأوربية؛ تهالكْــن علــى رذائلهــا دون فضائلها، واشــتدَّ حرصُهن على خيالهــا الروائى دون حقيقتها العلمية، ومن مصائبنا نحن الشــرقيين أننــا لا نأخذ الرذائل كما هى، بل نزيد عليها ضعْفَنا فإذا هى رذائل مضاعَفة.

كان الحُلُم الجميل فى الحجاب وحده، وهو كان يُســعِّر أنفاســى ويَستطير قلبى، ويُرغمنى مع ذلك على الاعتقاد أن ها هنا علامة التكرُّم، ورمز الأدب، وشَارة العفة، وأن هذه المحصَّنة المخدَّرة - عذراء أو امرأةً - لم تُلق الحجاب عليها إلا إيذانًا بأنها فى قانون عاطفة الأمومة لاغيرها؛ فهى تحت الحجاب لأنه رمز الأمانة لمستقبلها، ورمز الفصل بين ما يَحسن ومالا يَحســن، ولأن وراءه صفاء روحها الذى تخشى أن يكدَّر، وثبات كيانها الذى تخشى أن يُزعْزع.

قال حكيم لأولئك الذين يســتميلون النساء بأنواع الحلى وصنوف الزينة والكُسوة الحســنة: «يا هؤلاء، إنكم إنما تعلمونهن محبَّة الأغنياء لا محبة الأزواج»، وأحكم من هذا القول الرجل الإلهىّ الصارم عمر بن الخطاب: «اضربُوهنَّ بالعُرى» فقد عُرف

(١) يقول العرب فى الكناية عن العفة: وهو عفيف الإزار، وترجمتها فى عصرنا ما رأيت.

من ألف وثلثمائة سنة أن تحرير المرأة هو تجريرها، وأنها لا تخرج لمصلحة أكثر مما تخرج لإظهار زينتها. فلو مُنِعت الثياب الجميلة حبَستْها طبيعتُها فى بيتها. فماذا تقول الشوارع لو نطقت؟ إنها تقول: يا هؤلاء، إنما تعلمونهن معرفة الكثير لا معرفة الواحد...!

لقد والله أنكرت أكثر ما قرأت وسمعت من محاسنهن وفضائِلهن وحيائهن، ولقد كان الحجاب معنى لصعوبة المرأة واعتزازها، فصار الشارع معنى لسُهولتها ورخْصها؛ وكان مع تحقّق الصعوبة أو تَوهمها أخلاقٌ وطباعٌ فى الرجل، فصار مع توهم السهولة أو تَحقّقِها أخلاقٌ وطباع أخرى على العكس من تلك؛ مازالت تَنْمِى وتتحول حتى ألجأت القانون أخيرًا أن يترقَّى بمن لمس المرأة فى الطريق من «الجُنحة» إلى «الجناية».

وتَخَنَّث الشّبانَ والرجال، ضُروبًا من التخنث بهذا الاختلاطِ وهذا الابتذال، وتحلَّلتْ طباع الغَيْرة، فكان هذا سريعًا فى تغيير نظرتهم إلى النساء، وسريعًا فى إفساد اعتقادهم، وفى نَقْضِ احترامهم، فأقبلوا بالجسم على المرأة، وأعرضوا عنها بالقلب؛ وأخذوها بمعنى الأنوثة، وتركوها بمعنى الأمومة؛ ومن هذا قل طلاَّب الزواج، وكثر روَّاد الخَنَا.

ولقد جاءت إلى مصر كاتبة إنجليزية، وأقامت أشهرًا تخالط النساء المتحجبات وتدرس معانى الحجاب، فلما رجعت إلى بلادها كتبت مقالًا عنوانه: «سؤال أحمله من الشرق إلى المرأة الغربية» قالت فى آخره: «إذا كانت هذه الحرية التى كسبناها أخيرًا، وهذا التنافس الجنسى، وتجريد الجنسين من الحجُب المشَوّقة الباعثة التى أقامتها الطبيعة بينهما – إذا كان هذا سيُصبحُ كلُّ أثره أن يتولَّى الرجالُ عن النساء، وأن يزول من القلوب كلُّ ما يحرّك فيها أوتار الحب الزوجى، فما الذى نكون قد ربحناه؟ لقد والله تضطرنا هذه الحال إلى تغيير خِطَطنا، بل قد نستقرّ طوعًا وراء الحجاب الشرقى، لنتعلم من جديد فنَّ الحب الحقيقى».

* * *

وقال «ع»: لستُ فيلسوفًا، ولكن فى يدى حقائق من علم الحياة لا تأتى الفلسفة بمثلها، وكتابى الذى أقرأ فيه هو الشارع.

لا يجتمع هؤلاء ولا هؤلاء إلا على رذيلة أو جريمة. وحياةُ اللص معناها وجود السرقة، وحياةُ العَزب معناها وجودُ البِغَاء والفسْق.

ومن حُكم الطبيعة على الجنسين أن الفاسق يُباهِى بإظهار فسقه قدر ما تخاف الفاسقةُ من ظهور أمرها: وهذه إشارةٌ من الطبيعة إلى أن المرأة مسكينةٌ مظلومة. فما ابتذالُ الحجاب، ولا استهتاكُ النساء إلا جوابٌ على انتشار العُزُوبة فى الرجال، وكيف يتحول الماء ثلجًا لولا الضغطُ نازلًا فنازلا إلى ما دون الصفر؟ فهذا الثلجُ ماء يعتَذرُ من تحوُّله وانقلابه بعذر طبيعىّ قاهر، له قوةُ الضرورة المُلْجِئة، وكذلك المرأةُ المُذالة أو الطامحةُ أو المتبذّلة أو المتهتكة - ما صفاتهُن إلا توكيدٌ لأعذارهن.

وكان على الحكومة أن تضرب العزوبة ضربة قانون صارم، فالعَزبُ وإن كان رجلاً حرًّا فى نفسه، ولكن رجولته تفرض للأنوثة حقَّها فيه؛ فمتى جحد هذا الحقَّ، واستكبر عليه، رجع حالُه مع المرأة إلى مثل شأن الغريم مع غريمه؛ ليس للفصل فيه إلا الدولةُ أو حكامُها وقوتُها التنفيذية.

وإذا أطلِقت الحرية للرجال فصاروا كلُّهم أو أكثرُهم أعزابًا، فماذا يكونُ إلا أن تمُحى الدولة، وتسقط الأمة، وتتلاشى الفضائل؟ فالعُزوبةُ من هذا جريمة بنفسها، ولاينبغى أن تتربَّص بها الحكومةُ حتى تعمّ، بل يجب اعتبارُها باعتبار الجرائم من حيثُ هى، ويجب تفسيرُ كلمة «العَزب» فى اللغة بمثل هذا المعنى: إنها شخصية مذكَّرة ساخطة متمرِّدة على حقوق مختلفةٍ للمرأة والنسل والأمة والوطن.

وما سَاء رأىُ العزَّاب فى النساء والفَتيات إلا من كونهم بطبيعة حياتهم المضطربة لا يعرفون المرأة إلا فى أسوأ أحوالها وأقبح صفاتها، وهم وحدهم جعلوها كذلك.

إن لهم وجودًا محزنًا يستمتعون فيه، ولكنهم يَهْلِكون ويُهلكون به. هم والله لأساتذةُ الدروس السافلةِ فى كل أمة، وهم والله بُغَاةٌ من الرجال فى حكم البَغَايا من النساء، يَجْرُون جميعًا مَجْرًى واحدًا. ومَنْ هى البَغىّ فى الأكثر إلا امرأة فاجرة

لا زوج لها؟ ومَنْ هو العَزب فى الأكثر إلا رجلٌ فاسق لا زوجة له؟ على أن مع المرأة عذر ضعفِها أو حاجتها، ولكن ما عذرُ الرجل؟

ماذا تُفيد الدولة أو الأمة من هذا العَزب الذى اعتاد فَوْضى الحياة وسَيْرها على نظامها، وتَحقُّقَها على أسخف ما فيها من الخيال والحقيقة؛ وأىُّ عزبٍ يجد الاستقرار، أو تجتمع له أسبابُ الحياة الفاضلة؛ وهو قد فقد تلك الروح التى تتم روحَه، وتُنقِّحها، وتمسِكها فى دائرتها الاجتماعية على واجباتها وحقوقِها، وتجيئه بالأرواح الصغيرة التى تُشعره التَّبِعة والسيادة معًا، وتمتدّ به ويمتدّ بها فى تاريخ الوطن؟

كيف يُعتبَر مثل هذا موجودًا اجتماعيًا صحيحًا وهو حىّ مختل فى وجود مُستعار، يقضى الليل هاربًا من حياة النهار، ويقضى النهار نافرًا من حياة الليل؛ فيقضى عمره كلَّه هاربًا من الحياة، وكأنه لا يعيش بروحه كاملة، بل ببعضها، بل بالممكن من بعضها...!

أيةُ أَسْرة شريفة تَقْبل أن يساكِنهَا رجلٌ عزب، وأيَّةُ خادم عفيفة تطمئن أن تخدم رجلًا عزبًا؟ هذه هى لعنةُ الشرف والعفة لهؤلاء الأعزاب من الرجال!

* * *

قال الراوى: وهنا انتفض «س» و«ا» وحاولا أن يقبضا على هذه اللعنة ويردَّاها إلى حلْق «ع». ثم سألنى ثلاثتُهم أن أسْقِطَها من المقال، بَيْد أنى رأيتُ أنَّ خير من حذفها أن تكون اللعنة لأعزاب الرجال إلا «س» و«ا» و«ع».

■■■

استنوق الجمل...

قال الشاب: لا قِبَل لى بهذا التعَب المُعنِّى الذى يسمّونه «الزواج» فما هو إلا بيتٌ ثقْلُه على شيئين: على الأرض، وعلى نفسى؛ وامرأةٌ همُّها فى موضعين: فى دارها، وفى قلبى؛ وما هو إلا أطفالٌ يُلْزموننى عمل الأيدى الكثيرةِ من حيث لا أملك إلا يدين اثنتين، وأتحمَّلُ فيهم رهَقًا شديدًا كأنما أبنيهم بأيامى، وأجمعُ هموم رؤوسهم كلها فى رأس واحد هو رأسى أنا.

يُولَد كلٌّ منهم بمَعِدة تَهضُم لتوّها وساعتِها، ثم لا شىء معها من يدٍ أو رجلٍ أوعقلٍ إلا هو عاجزٌ لا يستقلّ، مُتَخاذلٌ لايُطيق ولا يقدْر.

قال: وإذا كان أولُ الزواج أىْ عَسَلُهُ وحَلْواه أنه امرأةٌ تُذْهب عُزوبّتى فأنا وأمثالى ما نزالُ فى عَسَلٍ وحَلوى... ولكلّ وقتٍ زواج، ولكل عصرٍ أفكار، وما أسخف الليالى إذا هى ترادفَتْ على ضرْبٍ واحد من أحلامها، فهذا يجعلُ النوم حكمًا بالسجن عشَر ساعات...!

قال: وإذا أردت أن تستكشف القصة فاعلم أننا نحن العُزَّاب قوم كرجال الفن؛ رذيلتُهم فنِّيَّة، وفضيلتُهم فنِّية، فتلك وهذه بسبيل؛ وكلُّ شىء فى الفن هو لموضعه من الفن لا من غيره؛ فإذا قلتَ: هذا خالٍ من الفضيلة، عارٍ من الأدب؛ وعِبْت الفنَّ لذلك، فما هو إلا كعَيبك وجه المرأة الجميلة لأنه خال من لِحْية..! هات الظلام وسواده، فإنه لونٌ كالنور وإشراقِه، لابدّ من كليهما؛ إذ المعنى الفنىِّ إنما يكون فى تناسُب الأشياء لا فى الأشياء ذاتِها؛ ويد الفنىّ كيَد الغنىِّ؛ هذه لايقع فيها الذهبُ إلا ليعددّ ثم يتعدد؛ وتلك لا تقع فيها المرأة وإلا لتتعدَّد ثم تتعدد؛ وفى كل دينار قوةٌ جديدة، وفى كل امرأة فن جديد...

قال: ومذهبُنا فى الحياة أن نستمتع بها ضُروبًا وأفَانين؛ مَن أطاق لم يقتصر على نوعين، ومن قَدر على نوعين لم يرض الواحد، ولو أن زوجة كانت من أشعة الكواكب

أو مــن قَطَـرات الندى، لثَقُل منها على حياتنا ما يثقُــلُ من الحديد والصَّوَّان؛ إذ هى لا تَلِدُ أشعة كواكب، ولا قطرات ندى؛ وحَسْبُ الجسد برأس واحد حِمْلًا.

قال: ومَن الذى تَعرضُ عليه الحياةُ ســلامَها وتحيَّاتِها وأشــواقَها فى مثل رسالة غــرام، ثم يدعُ هذا ويســألها غضَبَها وخِصامَها ولَجَاجتَها فــى مثل قضيةٍ من قضايا المحاكم كلُّ ورقة فيها تلد ورقة..؟

ثم قال الشــاب: لا تحسَبنَّ أن المرأة هى السافرةُ عندنا. ولكنَّ اللذة هى السافرة؛ وما أحكَم الشرع! أقول لك وأنا محام يقرر الحقيقة: ما أحكم الشرع الذى لم يُرخِّصْ فى كشف وجه المرأة إلا لضرورة، فإن الواقع فى الحياة أن هذا الكشف كثير ما يكون كنقْــب اللص على ما وراء النَّقْب، وإذا كُســر ما فوق القُفل من الخزانة المكتَنِز فيها الذهبُ والجوهرُ، فالبابُ الجديدُ كله سخرية وهُزُؤ من بَعْدُ..!

* * *

هذه عقليةُ شابّ محام طُوى عقلُه على الكتب القانونية، وطوى قلْبه على مثلها من غير القانونية... وليس يَمتَرى أحدٌ فى أنها عقليةُ الســواد من شــبابنا المثقَّف الذى لَبِــسَ الجلد الأوربى. ومن البلاء على هذا الشــرق أنه ما بَرح يُناهِضُ المســتعمرين ويُواثبُهم، غافلًا عن معانيهم الاســتعمارية التــى تُناهضُه وتواثبه، جاهلًا أن أوربا تســتعمرُ بالمذاهب العلمية كما تســتعمرُ بالوســائل الحربية؛ وتَســوقُ الأســطول والجيش، والكتاب والأستاذ، واللذة والاستمتاع، والمرأة والحب.

ولو أن عدوًّا رماك بالنار فاستطارتْ فى ثيابك أو متاعِك لما دخلَكَ الشك أن عدوَّك هــو النارُ حتى تفرغ من أمرها. فكيف - لَعمرىَ - غَفَل الشــرقيون عن أخلاق ناريَّة حمراء يأكلهم بها المســتعمرون أكلًا كأنما ينضجونهم عليها ليكونوا أسهل مَساَغًا، وألين أخْذًا، وأسرع فى الهضم...!

لم أفهم أنا من كلام صاحبنا الشــاب ومعانيــه إلا أن أوربا فى أعصابه، وأما مصرُ ونســاؤها ورجالُها فعلى طَرف لســانِه لاتكون إلا صيْحة، وليــس بينه وبينها فى الحياة عمل إلا من ناحية لذته بها، لا من ناحية فائدتها منه.

وتلك المعانى كلُّها مشتقٌّ بعضُها من بعض، ومَرْجِعُها إلى أصلٍ واحدٍ، كالأمراض التى تَبتلى الجسم يُمَهد شىءٌ منها لشىء، ما دامت طبيعةُ هذا الجسم زائغةً أو مختلَّة، أو متراجِعةً إلى الضعف، أو ذاهبةً إلى الموت.

وأولئك شبانٌ وقف بهم الشبابُ موقِف بَلادة، فلا يخطو إلى الرجولة، ولا يكمُلُ بنموّه الاجتماعى كما يكمل الرجلُ الوطنى؛ فمن ثَمّ يكون خَوَّارًا لا يستطيع أن يَحمل أثقالًا مع أثقاله، ويَستوطئ العجز والخُمول؛ فلا يكون إلا قاعد الهمة، رخْو العزيمة، قد استنام إلى أسباب عجزه وتَخاذُله؛ ولايكونُ فى بعض الاعتبار إلا كالمريض يعيش بمرضه حَمِيلةً على ذويه، ضُجعَةً لايمشى، نُومَةً لا ينتَهِض، مستريحًا لا يعمل.

وبهذه المَكْسَلَة الاجتماعية فى الشبان يبدأ الشعبُ يتحول من داخِله فينصرفُ عن فضائله، ويتخذ فى مكانها فضائل استعارة يقلد فيها قومًا غير قومه، ويجلبُها لبيئة غير بيئته، ويَقْسِرُها على أن تَصْلُح له وهى فَساد، ويُكْرِهها على أن تنفعَه وهى ضرر، وتلك حالةٌ يُغَامِر فيها الشعبُ بكيانه فلا تلبثُ أن تَصْدعَه وتفرّقه.

ولو أن فى السحاب مطرًا وغَيثًا لما كان له فى كل ساعة لونٌ مصبوغ، ولو أن فى الشباب دينًا لما صبغته تلك الأخلاقُ الفاسدة، وما ذهابُ الحارس عن مكانٍ إلا دعوةٌ للصوص إليه، وهل كان الدينُ إلا واجبات وتَبِعات وقيودًا يراد من جميعها إعدادُ الإنسان لأمثالها في الاجتماع، حتى يقَرَّ فى إنسانيته الصحيحة على النحو الذى يصلُح له منفردًا ويصلُح له مجتمعًا؟ فليست الزوجة وحدها هى التى خَسِرت الشاب بل خسره معها الوطنُ والدينُ والفضيلةُ جميعًا، وبهذا انعكس وضعُه من الجماعة، فوجب فى رأيه أن تُسَخَّر الجماعةُ له، وأن يستقلَّ هو بنفسه، وبهذا العكس، وهذا السقوطِ، وهذا الاستمتاع الذى يجد سعادتَه فى نفسه؛ أصبح أولئك الشبان كأنما حقهم على المجتمع أن يقدّم لهم بَغَايا لا زوجات... بغَايا حتى من الزوجات...!

قبَّح الله عصرًا يجهلُ الشاب فيه أن الرجل والمرأة فى الوطن كلمتان تفسِّر الإنسانيةُ إحداهما بالأخرى تفسيرًا إنسانيًّا دينيًّا بالواجبات والقيود والأحمال، لا بالأهواء والشهوات والانطلاق كما تفسِّر الحيوانيةُ الذكر والأنثى.

والنفسُ الدنيئة أو المنحطَّةُ فى أخلاقها ومَنازعها من الحياة لاتكون إلا دنيئةً أو منحطةً فى أحلامها وأخْيلتِها الروحية، دنيئةً كذلك فى طاعتها إن قَضت عليها الحياةُ بموضع الخضوع، دنيئةً فى حكمها إن قضت لها الحياةُ بمنزلة من السلطة. ولو تنبهت الحكومةُ لطردت من عملها كلَّ موظف غير متأهِّل، فإنها إنما تستعمل شرًّا لا رجلًا يمنع الشر، وكلُّ شاب تلك حالُه هو حادثة تَرْتدفُ الحوادث وتستلزمها، وما يأتى السوء إلا بمثله أو بأسوأ منه.

***

ليس للزواج معنى إلا إقرار طبيعة الرجل وطبيعة المرأة فى طبيعة ثالثة تقومُ بالاثنتين معًا، وهى طبيعةُ الشعب. فمن سقوط النفس ولؤمِها ودناءتِها أن يفرَّ الشابُّ القوىُّ من تَبِعة الرجولة، فلا يحمل ما حمل أبوه من واجبات الإنسانية؛ ولا يقيم لوطنه جانبًا من بناء الحياة فى نفسه وزوجِه وولده، بل يذهبُ يجعل حظَّ نفسه فوق نفسه، وفوق الإنسانية والفضيلة والوطن جميعًا؛ ولا يعرفُ أن انفلاته من واجبات الزواج هو إضعافٌ فى طبيعته لمعنى الإخلاص الثابت، والصبر الدائب، والعطف الجميل فى أىّ أسبابها عَرضتْ.

ومن فُسُولة الطبع ولؤمِه ودنائته أن يهرب هذا الجندىُّ من مَيدْانه الذى فَرضت عليه الطبيعةُ الفاضلة أن يجاهِد فيه لأداء واجبه متعلِّلا لفِراره المُخزى بمشقة هذا الواجبِ، وما عسى أن يعانى فيه كما يحتج الجبانُ بخوف الهلاك وعنَاء الحرب.

ومن سقوط النفس أن يرضى الشبان كساد الفتيات، وبَوارهُن على الوطن؛ وأن يتواطأوا على نَبْذ هذه الأحمال، وإلقائها فى طرُق الحياة، وتركِها لمقَاديرها المجهولة. كأنهم – أصلَحهم الله – لا يعلمون أن ذلك يضيع بأخَواتهم بين الفتيات، ويضيع بوطنهم فى أمَّهات الجيلِ المقبل، ويضيع بالفضيلة فى تركهم حمايتَها وتخلِّيهم عن حمل واجباتها وهُمومها السامية.

إن الجمل إذا اسْتَنَوق تخنَّث ولان وخضع، ولكنه يحمل؛ وهؤلاء إذا استنوقوا تخنَّثوا ولانوا وخضعوا وأبوا أن يحملوا..

ومن سـقوط النفسِ فى الرجـل النَّكْسِ العاجز المقصر أن يحتـجَّ لعُزوبته بعلمه وجهل الفتيات، أو تمدنه وزعمه أنهن لم يبلغن مبلغ الأوربية، ولايرى هذا المنحطُّ أن الزواج فى معناه الإنسانىّ الاجتماعىّ هو الشكلُ الآخر للاقتراع العسكرى، كلاهما واجبٌ حَتْمٌ لا يُعتذر منه إلا بأعذار معيَّنة، وما عداها فجبنٌ وسقوطٌ وانخذالٌ ولعنةٌ على الرجولة.

ومن سـقوط النفس أن يَغْنى الشـابُّ عن الزواج لفُجوره فيقرَّه، ويُمكِّن له، وكأنه لا يعلم أنه بذلك يَحْطِمُ نفسين، ويُحْدثُ جريمتين، ويجعلُ نفسهَ على الدنيا لعنتين.

ومن سـقوط النفسِ أن يَغْترَّ الشـاب فتاةً حتى إذا وافق غِرَّتهـا مَكر بها وتركَها بعد أن يُلبْسَـها عارها الأبدى؛ فما يحمل هذا الشاب إلا نفس لص خبيثٍ فاتك، هو أبدًا عند من يسرقُهم فى باب الخسائر والنكَبات، لافى باب الربح والمكْسَب؛ وعند المجتمع فى باب الفسـاد والشر، لا فى باب المصلحة والخير؛ وعند نفسه فى باب الجريمة والسرقة، لا فى باب العملِ والشرف.

* * *

فسقوطُ النفس وانحطاطها هو وحده نكبةُ الزواج فى أصلها وفُروعها الكثيرة التى منها المغَالاةُ والشَّـطط فى المُهور، ومنها بحثُ الشاب عن الزوجة الغنية، وإهمالُ ذات الدِّيـن والأصـلِ الكريم لفقرها، ومنهـا ابتغاء الزوجة رجـلًا ذا جاه أو ثراء، وعُزُوفهـا عن الفاضل ذى الكَفَافِ أو اليسـير على غِنى فـى رجولته وفضائله، كأنما هو زواجُ الدينار بالسـبيكة، والسبيكة بالدينار، وكأن الطبيعةَ قد ابتُليت هى أيضا بالسـقوط، فأصبحت تعتبرُ الغِنى والفقر، فتجعلُ فى دم أولاد الأغنياء رُوحَ الذهب واللؤلؤ والماس، وتُلقى فى دم أولاد الفقراء رُوحَ النُّحاسَ والخشَب والحجارة.. على حينِ أن الجميعَ مُسْـتَيْقِنون لايَتَدَافَع اثنان منهم فـى أن الطبيعةَ لاتبالى إلا بوراثة الآداب والطباع.

وأعظم أسـباب هذا السـقوط فى رأيى هو ضعفُ التربية الدينية فى الجنسـين، وخاصة الشـبان، ظنًّا من الناس أن الدينَ شـأن زائد على الحياة، مع أنه هو لا غيرُه

نظامُ هذه الحياة وقِوَامُها فى كل ما يتصل منها بالنفس. وليست المدنيةُ الصحيحة – كما يحسبُ المفتونون – هى نوعَ المعيشة للحياة ومادتها، بل نوعَ العقيدة بالحياة ومعانيها، وإلى هذا ترمى كلُّ مبادئ الإسلام؛ فإن هذا الدين القوىَّ الإنسانىّ لا يعبأ بزخارفَ كهذه التى تتلبَّسُ بها المدنيةُ الأوربية القائمة على الاستمتاع، وفنون اللذات، وانطلاق الحرية بين الجنسين؛ فهذا بعينه هو التحطيمُ الإنسانى ينتهى بتهدُّم تلك المدنية وخَرابها. وإنما يعبأ الإسلامُ بالعقيدة التى تنظِّم الحياةَ تنظيمًا صحيحًا مُتَساوِقًا وافيًا بالمنفعة، قائمًا بالفضيلة بعيدًا من الخلط والفوضى.

ويقابلُ ضعفَ التربية الدينية مظهرٌ آخرُ هو سببٌ من أكبر أسباب السقوط، وهو ضعفُ التربية الاجتماعية فى المدرسة، وإلى هذا الضعف يرجع سببٌ آخر هو تخنث الطباع واسترسالُها إلى الدَّعة والراحة، وفرارُها من حمل التَّبِعة «المسئولية» التى هى دائما أساسُ كل شخصية قائمة فى موضعها الاجتماعى.

وبذلك الضعف وذلك السقوطِ وُضعت المرأةُ البغىُّ العاهرةُ فى الموضع الطبيعى للأم، ونزل الرجلُ السافلُ المنحطُ فى المكان الطبيعى للأب، وتحللَّتْ قُوَى الوطن بانحراف عُنْصريه العظيمين عن طبيعتهما، وجَعَلت فضيلة الفتيات المسكيناتِ تَتآكَّلُ من طول ما أهْمِلَتْ، وأخذَ سُوسُ الدم يتركها فضائلَ نَخِرة، ولا عاصم ولا دافع إلا قوةُ القانون وسطوتُه ما دامت الفضيلةُ فى حكم الناس وتصريفهم قد تركَتْ مكانَها للقوانين، وما دامت قوةُ النفس قد أخْلَتْ موضعَها للقوة التنفيذية.

لقد قُتلتْ رُوحيَّةُ الزواج، وهى على كل حال جريمةُ قتل، فمن القاتلُ يا صاحبنا المحامى؟

قال الشاب: هو كل رجل عَزَب.

قلت: فما عقابُه؟

فسكَتَ ولم يَرْجعْ إلىَّ جوابًا.

قلت: كأنى بك قد تأهَّلْتَ وخَلاكَ ذمٌّ.. فما عقابُه؟

قال: إلى أن تبلغ الحكومة أو أن تعاقب هؤلاء العزّاب، فليعاقبْهم الشعبُ بتسميتهم «أرامل الحكومة»... واحدُهم: رجلٌ أرملة حكومة..

ثم قال: اللهمُ يَسِّرْها ولا تَجعلنى رجلًا بغلطتين: غلطةٍ فى نساءِ الأمة، وغلطةٍ فى ألفاظ اللغة.

■■■

أرملة حكومة...

(أرملة الحكومة) فيما تواضَعْنَا عليه بيننا وبين قرائنا[1] وهو الرجلُ العَزَب، يكون مُطيقًا للزواج، قادرًا عليه، ولا يتزوج؛ بل يركبُ رأسَه فى الحياة، ويذهبُ يُمَوِّهُ على نفسه كذِبًا وتدليسًا، وينتحِلُ لها المعاذيرَ الواهية، ويَمْتَلِقُ العللَ الباطلة، يحاول أن يُلْحِقَ نفسه بمرتبة الرجل المتزوج من حيث يَحُطُّ الرجلَ المتزوجَ إلى مرتبته هو، ويضيف شؤمَه على النساء إلى هؤلاء النساء المسكينات، يزيدهن على نفسه شرَّ نفسه، ويرميهنَّ بالسوء وهو السوء عليهن، ويَتَنَقَّصُهُنّ ومنه جاء النقص، ويَعِيبُهُنّ وهو أكبرُ العيب؛ لا يتذكر إلا الذى له، ولا يتناسَى إلا الذى عليه، كأنما انقلبت أوضاعُ الدنيا، وتبدَّلتْ رُسومُ الحياة، فزالت الرجولة بتَبعاتها عن الرجل إلى المرأة، وانفصلت الأنوثةُ بحقوقها من المرأة إلى الرجل، فوجب أن تحمِلَ تلك ما يحمل هذا، فتُقْدِمَ ويقرَّ وادعًا، وتتعبَ ويستريح، وتُعانىَ الهمومَ الساميةَ فى الحياة الاجتماعية، ويعانىَ المخنَّث ابتساماته ودموعَه، متكئًا فى مجلسه النَّسيمىّ تحت جَناح المِرْوحة.. فأما المرأةُ فتشْرف على هَلَكَتها، وتُخاطِرُ بحاضرها ومستقبلها، وأما هو فيبقى من ثيابه فى مثل الخِدْر المَصُون..!

(أرملة الحكومة) هو ذلك الشاب الزائفُ المُبَهْرَجُ، يُحْسَبُ فى الرجال كذبا وزورًا؛ إذ لا تكملُ الرجولة بتكوينها حتى تكملَ بمعانى تكوينها؛ وأخصُّ هذه المعانى إنشاء الأسرة والقيامُ عليها، أى مغامرةُ الرجل فى زمنه الاجتماعىّ ووجودِه القومىّ، فلا يعيش غريبًا عنه وهو معدودٌ فيه، ولا طُفيْليًّا فيه وهو كالمنفىّ منه، ولا يكون مَظهرًا لقوة الجنس القوىّ هاربةً هروب الجبن من حَمْل ضَعف الجنس

---

(١) انظر مقالة «استنوق الجمل». والتاء فى «أرملة الحكومة» ليست للتأنيث، بل هى تاء جديدة فى العربية، تزاد فى هذه الكلمة خاصة واسمها تاء الهزؤ... وياحبذا لو اصطلح النساء والفتيات والمتزوجون جميعًا على تسمية كل رجل عزب «أرملة الحكومة» فإن هذا الاسم إذا عم وشاع كان فى معناه وفعله المطهر، حامضًا لغويًا كحامض الفنيك...!

الآخــر المحتمِى بها، ولا لمروءة العَشـير مُتَبَرِّئَة تَبَرُّؤ النذالة من مؤازَرة العشـير الآخر المحتاج إليها؛ ولا يرضَى لنفسه أن يكونَ هو والذلُّ يعملان فى نساء أمته عملًا واحدًا، وأن يصبح هو والكســادُ لا يأتى منهما إلا أثرٌ متشابه، وأن يبيتَ هو والفناء فى ظُلمة واحدة كظُلمات القبر، تنقلُ الأجداثَ إلى الدُّور، فتجعلُ البيتَ – الذى كان يقتضيــه الوطنُ أن يكون فيه أبٌ وأمٌّ وأطفــال – بيتا خاويا كأنما ثكِلَ الأمَّ والأطفال، وبقيت فيه البقيةُ من هذا الرجل العَزَبِ الميتِ أكثرُ تاريخه...!

لقد رأيتُ بعينىّ أداةَ العزَب وأثاثَه فى بيته، كأنما يقصُّ عليه كلُّ ذلك قصةَ شؤمِه وَوَحدته، وكأنما يقول له الفَرْشُ والنَّجْدُ والطِّراز: «بِعْنى يا رجل وردَّنى إلى السوق؛ فإنــى هنالك أطمــعُ أن يكون مصيرى إلــى أب وأم وأولاد، أجِدُ بهم فرحةَ وجودى، وأصيب من معاشـرتهم بعضَ ثوابى، وأبلى تحت أيديهم وأرجلهم فأكونُ قد عملتُ عملًا إنســانيًّا. أما عندك، فأنت خشبَةٌ مع الخشَب، وأنت خِرْقةٌ بين الخِرَقِ. واسمع الكرسىَّ إنه يقول: أفّ. وأصغ إلى فراشك إنه يقول: تُفّ..».

شَــهِدَ العَزبُ وربّ الكعبة على نفســه أنه مُبْتلى بالعافية، مســتعبَدٌ بالحرية، مجنونٌ بالعقل، مغلوبٌ بالقوة، شــقى بالسعادة، وشــهدت الحياةُ عليه وربّ البيت أنه فى الرجولة قاطعُ طريق؛ يقطع تاريخَها ولا يؤمِّنُه، ويَســرق لذَّاتِها ولا يكْسَبها ويخرج على شَــرْعِها ولا يدخُل فيه، ويعصى واجباتِها ولا ينقادُ لها. وشَهد الوطن – والله – عليــه أنه مخلوق فــارغ كالواغل على الدنيــا؛ إن كان نعمةً بصلاحه، انتهتْ النعمةُ فى نفســها لا تمتد؛ وإن كان بفساده مصيبةً امتدتْ فى غيرها لا تنقطع. وأنه شحَّاذُ الحياة أحسن به الأجدادُ نسلا باقيا، ولا يُحْسِن هو بنسل يبقى. وأنه فى بلاده كالأجنبــى، مهبطُه على منفعةٍ وعيشٍ لا غيرهمــا، ثم يموتُ وُجود الأجنبى بالنَّقْلَةِ إلى وطنه، ويموتُ وجودُ العَزب بالانتقال إلى ربه؛ فيستويان جميعا فى انقطاع الأثر الوطنىّ، ويتفقان جميعا فى انتهابِ الحياة الوطنية؛ وأن كليهما خرجَ من الوطن أبْتَرَ لا عَقِب له، ويذهبان معا فى لُجج النسيان: أحدُهما على باخرة، والآخر على النعش!

* * *

جاءنى بالأمس «أرملة حكومة» وهو مهندس موظف. ومعنى الهندسة الدقةُ البالغةُ فى الرقْم والخطّ والنقطة وما احتمل التدقيق؛ ثم الحذرُ البالغ أن يختلَّ شيء أو ينحرفَ، أو يتقاصرَ أو يطولَ، أو يزيدَ أو ينقصَ، أو يَدْخلَه السَّهو، أو يقعَ فيه الخطأ، إذا كان الحاضرُ فى العمل الهندسىّ إنما هو للعاقبة، وكان الخيالُ للحقيقة؛ وكان الخُرْقُ هنا لا يقبلُ الرُّقْعة. ومتى فَصَلت الأرقامُ الهندسية من الورق إلى البناء مات الجمع والطرحُ والضربُ والقسمة، ورجع الحسابُ حينئذ وهو حسابُ عقلِ المهندس، فإما عقلٌ دقيق منتظِم، أو عقل مأفونٌ مختلّ.

بَيْد أن المهندس – على ما ظهر لى – قد خَلَتْ حياتُه من الهندسة.. وانتهى فيها من التحريف المضْحِك – حتى فيما لا يخطئ الصغارُ فيه – إلى مثل التحريف الذى قالوا إنه وقع فى الآية الكريمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة الآية ٥، قد رَوَوا أن إمام قرية من القُرى فى الزمن القديم كان يخطب أهلَ قريته ويصلى فى مسجدها فنزل به ضيفٌ من العلماء فقال له الخطيب: إن لى مسائلَ فى الدين لم يتوجَّه لى وجهُ الحق فيها، ولا أزال متحيِّر الرأى، وكنتُ من زمن أتمنى أن ألقى بها الأئمةَ، فأريد أن أسألك عنها. قال العالم: سَلْ ما أحببت.

قال الخطيب: أشْكَلَ علىّ فى القرآن بعضُ مواضع، منها فى سورة الحمد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ﴾... أى شىء بعده. «تِسْعين أو سَبعين»..؟ أشْكلَتْ علىّ هذه فأنا أقرؤها: تِسعين. أخذًا بالاحتياط...!

كذلك مهندسُنا فيما أشكل عليه من حسابه للحياة، فهو عَزَبٌ أخذًا بالاحتياط.

قال وهو يحاورنى:

كيف تُكلِّفنى الزواجَ وتُكرِهنى عليه، وتُعَنِّفنى على العُزوبة وتَعيبنى بها؛ وإنما أنت كالذى يقول: دع الممكنَ وخذ المستحيل؛ إن استحالةَ الزواج هى التى جعلْتنى عَزَبًا، والعزوبةُ هى التى جعلتنى فاسدًا، وفى هذا الجو الفاسد من حياة الشباب، إما أن تكسدَ الفتاة، وإما أن تتصلَ بها العَدْوى. والعزَبُ لا يأبى أن يُقالَ فيه إنه للنساء طاعونٌ أحمر أو هواء أصفر؛ فهو والله مع ذلك موتٌ أسود وبلاء أزرق.

قلت: لقد هوَّلتَ علىّ؛ فما مستحيلك يا هذا، ولمَ استحالَ عليك ما أمكن غيرَك، وكيف بلغت مصر خمسةَ عشر مليونًا؟ أمِنْ غير آباء خُلِقوا، أم زُرِعوا زرعا فى أرض الحكومة؟ اسمع – ويحك – ألاَ يكونُ الرجالُ قد أقبلوا وتراجَعْت، وتجلَّدوا وتوجَّعْت، أو أقْدَموا وخَنَسْت، واستَرجلوا وتأنَّثْت؟

قال: ليس شىء من هذا.

قلت: فإن المسألة هى كيف ترى الفكرة، لا الفكرةُ نفسُها، فما حَمَلك على العزوبة وأنت موظف وظيفتُك كذا وكذا دينارًا، وأنت مهندس يَصْدُق عليك ما قالوه فى الرجل المجدود: لو عَمدَ إلى حَجر لانفلَقَ له عن رزق.

قال: أليس مستحيلًا ثُمّ مستحيلًا أن يجمعَ مثلِى يدَه على مائة جنيه يدفعها مهرًا؛ وما طرقتُ – علم الله – بابًا إلا استقبلونى بما معناه: هل أنت معجزة مالية؟ هل أنت مائة جنيه؟

قلت: فإن عملك فى الحكومة يُغِلُّ عليك فى السنة مائة وثمانين دينارًا فلم لا تعيش سنة واحدة بثمانين فتقع المعجزة؟

قال: «بكل أسف» لا يستطيع الرجلُ العَزب أن يدَّخر أبدًا؛ فهو فى كل شىء مبدَّد ضائع متفرق.

قلت: فهذه شهادتُك على نفسك بالسَّفَه والخُرْق والتبذير؛ تُنفى ما يكفى عددًا وتضيقُ بواحدة، وماذا يَرْتئى مثلُكَ فى الحياة؟ أعند نفسه وفى يقينه أن يتأبَّدَ فيبقى عَزبًا فهو ينُفق ما جمع فى شهوات حياته، ويتوسَّع فيها ضروبًا وألوانًا ليكونَ وهو فرد كأنه وهو فى إنفاقه جماعة، كل منهم فى موضع رذيلة أو مكانِ لهو؛ وكأن منه رجالًا هو كاسِبُهم وعائلهم، يُنفق على هذا فى القهوة، وعلى هذا فى الحانة، وعلى ذلك فى الملاهى، وعلى الرابع فى المواخير، وعلى الخامس فى المستشفى..؟ إن كان هذا هو أصلَ الرأى عند العزَب، فالعزَبُ سفيه مجرم، وهو إنسانٌ خَربٌ من كل جهة إنسانية، وهو فى الحقيقة ليس المتَّسِعَ لنفقات خمسة، بل كأنه قاتلُ من هم أبناء وطنه؛ إذ كان بهذا مُطِيقًا أن يكونَ أبًا ينفق على أبنائه، لا سفيهًا يُنفق على شياطينه.

فـإن كان قد بنى رأيه على أن يتعزَّب مـدةً ثم يتأهل، فهذا أحرى أن يعينَه على حسن التدبير، وهو مَضْراةٌ له على شهوة الجمع والادّخار؛ إذ يكون عند نفسه كأنما يَكْـدَحُ لعيالِهِ وهو في سَـعَة منهم بعـدُ، وهم لا يزالون في صُلْبِـه على الحال التي لا يسـألونه فيها شيئًا إلا أخلاقًا طيبة وهِممًا وعزائم يَرثونها من دمه فتجيء معهم إلى الدنيا متى جاءوا.

إنمـا العَزبُ أحـدُ رجلين: رجلٍ قد خرج على وطنه وقومه وفضائلِ الإنسـانية، قاعدتهُ: جُرَّ الحبلَ ما انجرَّ لك. وهذا داعرٌ فاسقٌ، مبذّر مِتْلافٌ إن كان من المَيَاسِير، أو مُريـبٌ دنـيء حقيرُ النفسِ إن كان من غيرهم... ورجـلٍ غير ذلك، فهو في وثاقِ الضـرورة إلى أن تُطْلِقَه الأسـباب، ومن ثَمَّ فهـو يعمل أبدًا للأسـباب التي تُطْلِقَه، ويعـرف أنه وإن لم يكـن آهِلًا فلا تزال ذمتُه في حق زوجةٍ سَـيَعُولُها، وفي حقوقِ أطفال يأبُوهُم، وواجبات ووطن يخدمه بإنشـاء هذه الناحيـة الصغيرة من وجوده، والقيامِ على سياستها، والنهوضِ بأعبائها. فانظر ويحكَ أيُّ الرجلين أنت؟

قالَ: فتريدني أن أقامرَ بتعب سـنةٍ وأنا بعد ذلك ما يُقْدَرُ لي، قد أشـترى بتعب سنة من العمر تعبَ العمر كله؟

قلت: فهذه هي خِسَّـةُ الفرديَّة، ودناءتُها الوحشـيةُ فـي جِنايتها على أهلها، وسـوء أثرها في طباعهم وعزائمهم؛ فهي فرديَّةٌ تضـرب فيهم العاطفة الاجتماعية ضرْب التَّلَف[1]، وتبتليهم بالخوف من التَّبعات حتى لَيَتوهَّم أحدُهم أنه إن تزوج لم يدخل على امرأة، ولكن على معركة. وهي تُصيبهم بالقسوة والغِلْظة؛ فما دام الواحدُ منهم واحدًا لنفسـه، فهو في تصريف حُكم الأثَرة، وفي قانون الفِتنة بأهواء النفس ونافعِها؛ كأنما يعامله الناس رجلًا كلُّه مَعِدَة، أو هو فيهم قوة هضم ليس غير.

قال: ولكن الزواج عندنا حظٌّ مخبوء «لوتريَّة» والنسـاء كأوراق السـحب، منهن ورقةٌ هي التوفيقُ والغنى بين آلاف هُنَّ الفقر والخيبَة المحقَّقة.

(١) يقال ضربه ضرب التلف، أي الضرب الذي يقتله ويتلفه.

قلت: هل اعتدتَ أن تتكلم وأنت نائم؟ فلعلك الآن فى نَومة عقل، أوْ لاَ فأنت الآن فى غَفلة عقل.

إن هذا المسكينَ الذى يمسح الأحذية ويشترى من تلك الأوراق لا يخلو منها؛ يعلم علمًا أكثرَ من اليقين أن عيشَه هو من مسح الأحذية لا من الأخْيِلة التى فى هذه الأوراق؛ فهو لا يعتدُّ بها فى كبير أمر ولا صغيره، وما يُنْزِلُها فى حساب رغيفِه وثوبه إلا يومَ يُخالَطُ فى عقله فيتنزَّه أن يمسَح أحذيةَ الناس، ويَرى أن عظيمًا مثله لا يمسح إلا أحذيةَ الملائكة...

أنت يا هذا مهندس، ولك بعضُ الشأن وبعضُ المنزلة، فَهَبْكَ ارتأيتَ أنه لا يَحسن بك أو لا يَحْسُنُ لك إلا أن تتزوجَ بنتَ ملك من الملوك، فهذه وحدها هى عندك «النمرة الرابحة»، وسائر النساء فقر وخيبةٌ، ما دام الأمرُ أمر رأيك وهواك؛ غيرَ أنك إذا عَرضْتَ لتلك «النمرة الرابحة» لم تعرفك هى إلا صُعلوكًا فى الصعاليك، وأحمقَ بين الحمقى.

إن تلك الأوراق تُصْنعُ صنعتَها على أن تكونَ جملتُها خاسرةً إلا عددًا قليلًا منها؛ فإذا تعاطيتَ شراءها فأنت على هذا الأصلِ تأخذها، وبهذا الشرط تَبذلُ فيها؛ وما تَمْتَرِى أنت ولا غيرُك أن القاعدة ههنا هى الخيبة، وشُذوذَها هو الربح؛ وليس فى الاحتمال غيرُ ذلك؛ ومن ثَمّ فقد بَرِئَ إليك الحظُّ إن لم يُصبك شيء منه؛ وأين هذا وأين النساء، وما منهن واحدةٌ إلا وفيها منفعة تكثُر أو تقِلّ، بل الرجالُ للنساء هم أوراقُ السَّحب فى اعتبارات كثيرة، ما دامت طبيعة اتصالهما تجعلُ المرأةَ هى فى قوانين الرجل أكثرَ مما تجعل الرجلَ فى قوانينها، وهل ضاعت امرأة إلا من غَفلة رجل أو قسوتِه أو فُسولته أو فُجوره؟

قال المهندس: فإنى أعلم الآن – وكنت أعلم – أن لا صلاحَ لى إلا بالزواج. وأن طريقى إلى الزوجة هو كذلك طريقى إلى فضيلتى وإلى عقلى. وتالله ما شىءٌ أسوأ عند العزَب ولا أكره إليه من بقائه عزَبًا، غير أنه يكابر فى المماراة كلما تحاقَرتْ إليه نفسُه، وكلما رأى أن له حالًا ينفردُ بها فى سخط الله وسخط الإنسانية.

ولا مَكْذِبَةً، فقد والله أنفقتُ فى رذائلى ما يجتمع منه مهرُ زوجة سَرِية تَشْتَطُّ فى المهر وتَغلو فى الطلَب؛ ولكن كيف بى الآن وما جبرنى من قبلُ إصلاحٌ، ولا أعاننى اقتصاد، ومن لى بفتاة من طبقتى بمَهر لا أتحمل منه رَهَقًا، ولا تتقاصَرُ معه أمورى، ولا تختلُّ معيشتى؟

قلت: فإذا لم يحملك الحمارُ من القاهرة إلى الإسكندرية؛ فإنه يحملك إلى قليوب أو طوخ. وفى النساء إسكندرية، وفيهن شبرا، وقليوب، وطوخ؛ وما قَرُب وبَعُد، وما رَخُص وغلا.

قال: ولكنْ بلدى الإسكندرية...

قلت: ولكنك لاتملكُ إلا حمارًا... وللمرأة من كل طبَقةٍ سعْرُها فى هذا الاجتماع الفاسد؛ ولو تَعَاوَنَ الناسُ وصلُحوا وأدركوا الحقيقة كما هى، لَمَا رأينا الزواجَ من فقر المُهور كأنما يَركبُ سُلَحْفاةً يمشى بها... ونحن فى عصر القِطار والطيارة، وقد كان هذا الزواج على عهد أجدادنا فى عصر الحمار والجمل، كأنه وحدَه من السرعة فى طيارة أو قِطار.

* * *

حين يَفْسُدُ الناسُ لا يكون الاعتبارُ فيهم إلا بالمال؛ إذ تنزل قيمتُهم الإنسانية ويبقى المال وحدَه هو الصالح الذى لا تتغير قيمتُه. فإذا صلحُوا كان الاعتبارُ فيهم بأخلاقهم ونفوسهم؛ إذ تنحط قيمةُ المال فى الاعتبار، فلا يغلب على الأخلاق ولا يسخرها. وَإلى هذا أشار النبى ﷺ فى قوله لطالب الزواج: «التمسْ ولو خاتَمًا من حديد»(1). يريد بذلك نفى الماديَّةِ عن الزواج، وإحياء الروحيَّة فيه، وإقرارَه فى معانيه الاجتماعية الدقيقة، وكأنما يقول: إن كفايةَ الرجل فى أشياء إن يكنْ منها المالُ فهو أقلُّها وآخرها. حتى إن الأخسَّ الأقلَّ فيه ليُجْزِئ منه كخاتَم الحديد؛

(1) انظر «قصة زواج، وفلسفة المهر».

إذ الرجــلُ هــو الرجولةُ بعظَمتها وجلالها وقوّتها وطباعهــا، ولن يُجْزِئ منه الأقل ولا الأخــس مع المال، وإن ملء الأرض ذهبًــا لا يُكَمل للمرأة رجلًا ناقصًا، وهل تُتِمَّ الأســنانُ الذهبيةُ اللامعةُ، يَحملُها الهَرِم فى فمه، شــيئًا مما ذهب منه؟ وما عسى أن تصنَع قواطعُ الذهب الخالص وطواحنُه لهذا المســكين بعد أن نطق تحَاتُّ أسنانِه العظْميَّة وتناثُرُها أنه رجلٌ حَلَّ البِلى فى عظامه...؟

■■■

رؤيا فى السماء

قال أبو خالد الأحولُ الزاهد: لما ماتت امرأةُ شيخِنا أبى رَبيعةَ الفقيهِ الصوفىّ، ذهبْتُ مع جماعة من الناس فشَهدنا أمرَها؛ فلما فرغوا من دفنها وسُوّىَ عليها، قام شيخُنا على قبرها وقال: يرحمكِ الله يا فلانة؟! الآن قد شُفيتِ أنت ومَرضتُ أنا، وعُوفيتِ وابتُليتُ، وتركتنِى ذاكرًا وذهبتِ ناسية، وكان للدنيا بكِ معنى، فستكونُ بعدكِ بلا معنى، وكانت حياتُكِ لى نصفَ القوّة، فعاد موتُك لى نصفَ الضَّعف، وكنتُ أرى الهمومَ بمواساتِك همومًا فى صُورها المخفَّفة، فستأتينى بعد اليوم فى صُورها المضاعَفة؟ وكان وجودُكِ معى حجابًا بينى وبين مَشقَّات كثيرة، فستخلُصُ كلُّ هذه المَشَاقّ إلى نفسى، وكانت الأيام تمرُّ أكثرَ ما تمرُّ رقَّتك وحَنانك، فستأتينى أكثرَ ما تأتى مُتَجرّدَةً فى قَسوتها وغِلْظتها. أمَا إنى - والله - لم أرْزَأ منكِ فى امرأة كالنساء، ولكنى رُزِئْتُ فى المخلوقةِ الكريمة التى أحسسْتُ معها أن الخليقةَ كانت تتلطَّف بى من أجْلها!

قال أبو خالد: ثم استَدْمَعَ الشيخُ، فأخذتُ بيده ورجعنا إلى داره، وهو كان أعلمَ بما يعزّى الناسُ بعضُهم بعضًا، وأحفظَ لما وَرَدَ فى ذلك؛ غيرَ أن للكلام ساعات تَبطُلُ فيها معانيه أو تَضْعُف، إذ تكون النفسُ مُسْتَغْرقةَ الهم فى معنى واحدٍ قد انحصرتْ فيه. إما من هَوْل الموت، أو حب وقع فيه من الهَوْل ظلُّ الموت، أو رغبةٍ وقع فيها ظلُّ الحب، أو لَجاجة وقع فيها ظلُّ الرغبة. فكنتُ أحدّثه وأعزّيه، وهو بعيدٌ من حديثى وتعزيتى، حتى انتهينا إلى الدار فدخلْنا وما فيها أحد، فنظرَ يمْنَةً وَيسْرةً، وقَلَّبَ عينيه ههنا وههنا، وحَوْقَلَ واسْترْجَع، ثم قال: الآن ماتت الدارُ أيضًا يا أبا خالد إن البناء كأنما يحيا بروح المرأة التى تتحرّكُ فى داخله، وما دام هو الذى يحفظُها للرجل، فهو فى عين الرجل كالمُطْرَف[1] تلبسُه فوق ثيابها من فَوقِ

---

(١) المطرف رداء من خز فيه نقوش تلبسه المرأة فى دارها، وهو المسمى (الروب).

جسـمِها: وانظرْ كم بين أن تَرى عيناكَ ثوبَ امرأة فى يد الدلال فى السـوق، وبين أن تراه عيناك يَلْبسُـها وتَلبسُه! ولكنك يا أبا خالد لاتفْقهُ من هذا شيئًا، فأنت رجلٌ آليْتَ لا تَقْرَبُ النساء ولا يَقْرَبْنك، ونجوتَ بنفسك منهن وانقطعتَ بها لله؛ وكأن كلَّ نساء الأرض قد شاركْنَ فى ولادتك فحرُمْنَ عليك! وهذا مالا أفهمُه أنا إلا ألفاظًا، كما لا تفهمُ أنت ما أجدُ الساعةَ إلا ألفاظًا؛ وشَتَّانَ بين قائل يتكلم من الطبع، وبين سامع يفهم بالتكلّف.

فقلتُ له: يا أبا ربيعة، وما يمنعك الآن وقد اطَّرحت أثقالكَ وانبتَّتْ أسبابُك من النسـاء – أن تعيشَ خفيفَ الظهر، وتفرُغَ للنُّسْك والعبادة، وتجعل قلبك كالسماء انقشـعَ غَيمُها فسـطَعتْ فيها الشـمس؛ فإنه يقالُ: إن المرأة ولـو كانت صالحةً قانِتَـة – فهى فى منـزل الرجل العابد مَدْخلُ الشـيطان إليه، ولـو أن هذا العابدَ كان يسـكَن فى حَسـنَاته لا فى دارٍ من الطوب والحجارة لكانت امرأتُه كوَّةً يقتحم الشـيطانُ منها. ولقد كان آدمُ فى الجنة، وبينها وبين الأرض سمواتٌ وأفلاك، فما منع ذلك أن تتعلّق رُوحُ الأرض بالشـيطان، فيتعلقَ الشـيطانُ بحوّاء، وتتعلَّقَ هى بآدم، ومكَر الشيطانُ فصوَّرها لهما فى صِيغةِ مسألة علمية، وَمَكَرَتْ حوّاء فوضَعتْ فيها جاذبيَّةَ اللحم والدم، فلم تعد مسـألةَ علم ومعرفة، بل مسألةَ طبع ولَجاجة؛ فأكَلا منها فَبَدَتْ لهما سَوْءاتهمَا.

وهل اجتمع الرجلُ والمرأةُ من بعدها على الأرض إلا كانا من نَصَب الحياة وهمومها، وشهواتها ومطامعها، ومَضارِّها ومعايبها، فى معنىَ «بَدَتْ لهما سَوءاتُهُمَا»...؟

كِلانا يا أبا ربيعةَ ممِنْ لهم سَـيْرٌ بالباطن فى هذا الوجود غيرُ السـيرِ بالظّاهر، وممـن لهم حركـةٌ بالفكر غيرُ الحركة بالجسـم، فقبيحٌ بنا أن نتعلَّـق أدنى مُتَعَلَّق بنواميسِ هذا الكونِ اللّحْميّ الذى يُسمَّى المرأةَ، فهو تَدلٍّ وإسفافٌ منا.

ولعلـك تقول: «النَّسْـل وتكثيرُ الآدميَّة» فهـذا إنما كُتِب على إنسـانِ الجوارح والأعضاء، أما إنسانُ القلبِ فله معناه وحُكمُ معناه؛ إذ يعيشُ بباطنه، فيعيشُ ظاهرُه

فـــى قوانيـــن هذا الباطن، لا فى قوانين ظاهِرِ الناس. وإنه لشـرٌّ كل ما نَقَلكَ إلى طبع أهلِ الجوارح وشَهواتهم، فَزَينَ لك ما يُزَين لهم، وشغَلَك بما يَشْغَلُهم؛ فهذا عندنا – يرحمك الله – بابٌ كأنه من أبواب المجُون الذى ينَقُلُ الرجلَ إلى طَبْعِ الصَّبىّ.

فاطْمِـسْ يا أخى على موضعها من قلبك، وألْقِ النـورَ على ظِلها؛ فالنورُ فى قلب العابد نُورُ التحويل إن شاء، ونورُ الرؤية إن شاء؛ يرى به المادّةَ كما يريد أن تكونَ لا كما تكون. وأنت قد كانت فيك امرأة، فَحَوّلْها صلاةً، واعملْ بنورك عكسَ ما يَعملُ أهلُ الجوارح بظلامهم، فقد تكونُ فى أحدهم الصلاةُ فيُحولُها امرأة...

قـال أبو ربيعة: تالله إنه لرأىٌ؛ والوَحْدةُ بعـد الآن أرْوَحُ لقلبى، وأجْمعُ لهمى؛ وقد خلعَنَىاللهُ مما كنتُ فيه، وأخذ القبرُ امرأتى وشَـهوَاتى معًا، فسـأعيشُ ما بِقىَ لى فيما بقى منى. وزوالُ شىء فى النفس هو وجودُ شىء آخر. ولقد انتهيتُ بالمرأةِ ومعانيها وأيامِها إلى القبر، فالبَدْء الآن من القبر ومعانيه وأيامِه.

* * *

وتَوَاثَقَا على أن يسـيرا معًا فى (باطنِ) الوجود...! وأن يعيشـا فى عُمر هو ساعةٌ معدودةُ اللَّحَظات، وحياة هى فكرةٌ مرسومةٌ مصوَّرة.

قال أبو خالد: ورأيتُ أن أبيتَ عنده وفاء بحقّ خدمته، ودَفعًا للوحشة أن تُعاودَه فتَدخلَ على نفسه بأفكارها ووَساوِسها. وكان قد غَمَرنَا تعبُ يومِنا، وأعْيا أبو ربيعة، وخذلَتْــه القوة؛ فلما صلَّينا العِشـاء قلت: يا أبا ربيعة، أحـبُّ لك أن تَنْعَسَ فتُريحَ نفسك ليذهبَ ما بك، فإذا استَجْمَمْتَ أيقظتُك فقمنا سائرَ الليل.

فما هو إلا أن اضطجع حتى غَلبه النُّعاس. وجلسُـت أفكر فى حاله وما كان عليه ومـا اجتهدتُ لـه من الرأى؛ وقلتُ فى نفســى: لعلَّنى أغريتُه بمـا لا قِبَل له به، وأشـرْتُ عليه بغير ما كان يَحسـنُ بمثله، فأكون قد غششـتُه. وخامرَنى الشكّ فى حالــى أنا أيضًا، وجعلتُ أقابلُ بيـن الرجلِ متزوّجا عابدًا، وبيــن الرجلِ عابدًا لم يتزوج؛ وأنظرُ فى ارتياضِ أحدهما بنفســه وأهلِهِ وعيالِه، وارتياضِ الآخر بنفسِــه وحدهــا؛ وأخـذتُ أذهبُ وأجىء من فكـر إلى فكر، وقد هَدأ كلُّ شـىء حولى كأن

المكانَ قد نام، فلم ألبثْ حتى أخذَتنى عينى فنمتُ وَاسْــتَثْقَلْت كأنما شُــددْتُ شــدًّا بحبال من النوم لم يجىءمن يَقْطَعُها.

ورأيتُ فــى نومى كأنها القيامةُ وقد بُعِثَ الناس، وضاق بهم المحشَــر، وأنا فى جُملة الخلائق، وكأننا مــن الضّغْطَةِ حَبٌّ مَبْثُوثٌ بين حَجَرَىْ الرَّحى. هذا والموقفُ يَغْلِى بنا غَلَيان القِدْر بما فيها، وقد اشــتدَّ الكَربُ وجَهَدَنا العطَش، حتى ما مِنَّا ذو كَبِد إلا وكأن الجحيمَ تتنفَّس على كبده، فما هو العطشُ بل هو السُّعارُ واللهَّبُ يَحْتَدِمُ بهما الجَوفُ ويتَأجَّج.

فنحن كذلك إذا وِلْدَانٌ يتخللُونَ الجمعَ الحاشد، عليهم مَناديلُ من نور، وبأيديهم أباريقُ من فضة وأكوابٌ من ذهب، يملأون هذه من هذه بسَلْســال بَرُود عَذْب، رُؤْيتُه عَطَشٌ مع العطش، حتى ليتلوَّى مَنْ رآه من الألم، وَيَتَلَعْلَعُ كأنما كُوِىَ به على أحشائه.

وجعل الوِلْدَانُ يَســقُون الواحد بعــد الواحد ويتجاوزون مَنْ بينهمــا، وهم كَثْرَةٌ مــن الناس، وكأنما يتخللون الجمعَ فى البحث عــن أناس بأعيانهم، يَنْضَحون غليل أكبادهم بما فى تلك الأباريق من رَوْح الجنة ومائها ونسيمِها.

وَمــرَّ بى أحدهــم، فمددتُ إليه يَدى وقلت: «اسْــقِنى فقد يَبِسْــتُ واحترقتُ من العطش!»

قال: «ومن أنت؟»

قلت: «أبو خالد الأحول الزاهد..».

قال: «ألَكَ فى أطفال المسلمين وَلدٌ افْتَرَطتَهُ صغيرًا فاحتسبتَه عند الله؟»

قلت: «لا....».

قال: «ألكَ ولدٌ كَبر فى طاعة الله؟»

قلت: «لا....».

قال: «ألك ولدٌ نالتْكَ منه دعوةٌ صالحة جزاء حقّك عليه فى إخراجه إلى الدنيا؟»

قلت: «لا....».

قال: «ألك ولدٌ من غير هؤلاء ولكنك تعبتَ فى تقويمه، وقُمْت بحق الله فيه؟»

قلت: «يرحمكَ الله، إنى كلما قلتُ «لا» أحسستُ «لا» هذه تمرُّ على لسانى كالمِكْواةِ الحامية...».

قال: «فنحن لا نسقى إلا آباءنا؛ تَعِبوا لنا فى الدنيا، فاليومَ نتعبُ لهم فى الآخرة، وقدَّموا بين يديهم الطفولة، وإنما قدَّموا ألسنةً طاهرةً للدفاع عنهم فى هذا الموقف الذى قامت فيه محكمةُ الحسَنَةِ والسيئة. وليس هنا بعد ألسنةِ الأنبياء أشَدُّ طلاقةً من ألسنة الأطفال، فما للطفل معنى من معانى آثامِكم يَحْتبِسُ فيه لسانُه أو يُلَجْلِجُ به».

قال أبو خالد: فجُنَّ جنونى، وجعلتُ أبحثُ فى نفسى عن لفظة «ابن» فكأنما مُسِحت الكلمةُ من حِفظى كما مُسِحتْ من وجودى، وذكرتُ صَلاتى وصيامى وعبادتى، فما خطرتْ فى قلبى حتى ضحك الوليدُ ضَحِكًا وجدتُ فى معناه بكَائى ونَدَمى وخَيبتى.

وقال: يا ويلَك! أما سمعتَ: «إن من الذنوب ذنوبًا لا تكَفرها الصلاة ولا الصيامُ، ويُكَفرها الغمُّ بالعِيال». أتعرفُ من أنا يا أبا خالد؟

قلت: من أنت يرحمنا الله بك؟

قال: أنا ابنُ ذاك الرجل الفقير المُعِيل، الذى قال لشيخك إبراهيم بن أدهم العابد الزاهد: «طُوبى لك! فقد تفرّغتَ للعبادة بالعزوبة». فقال له إبراهيم: «لَرَوْعةٌ تنالُكَ بسبب العِيال أفضلُ من جميع ما أنا فيه...»، وقد جاهدَ أبى جِهادَ قلبه وعقلِه وبدنِه، وَحَمَلَ على نفسه من مقاساة الأهلِ والولد حَمْلَهَا الإنسانى العظيم، وفكَّر لغير نفسه، واغتمَّ لغير نفسه، وعمِلَ لغير نفسه، وآمن وصَبر، ووثِقَ بولاية الله حين تزَوَّجَ فقيرًا، وبِضَمان الله حين أعقب فقيرًا؛ فهو مُجاهِد فى سُبُل كثيرة لا فى سبيل واحدة كما يُجاهد الغزاة، هؤلاء يستشهدون مرة واحدة، أما هو فيستشهد كل يوم مرة فى همومه بنا، واليومَ يرحمه الله بفضلِ رحمتِه إيانا فى الدنيا.

أمَا بَلَغَكَ قولُ ابن المبارَك وهو مع إخوانه فى الغَزْو: «أتعلمون عملًا أفضلَ مما نحن فيه؟ قالوا: ما نَعْلَمُ ذلك. قال: أنا أعلم. قالوا فما هو؟ قال: رجل مُتَعَفِّفٌ على

فقره، ذو عائلة قد قام من الليل، فنظر إلى صبيانه نيامًا مُتَكَشِّفِين، فستَرهم وغطَّاهم بثوبه؛ فَعَمَلُهُ أفضلُ مما نحن فيه...».

يخلع الأبُ المسكينُ ثوبَه على صِبْيته لِيُدْفِئَهُم به ويتلقَّى بجلدٍ البردَ فى الليل، إن هذا البرد – يا أبا خالد – تحفظه له الجنة هنا فى حَرّ هذا الموقف كأنها مُؤتَمَنَةٌ عليه إلى أن تُؤدِّيَه. وإن ذلك الدفء الذى شمل أولادَه يا أبا خالد – هو هنا يقاتل جهنم ويدفعُها عن هذا الأب المسكين.

قال أبو خالد: ويَهُمُّ الوليدُ أن يمضىَ ويدَعَنى، فما أملكُ نفسى، فأمدُّ يدى إلى الإبريق فأنْشِطُهُ من يده، فإذا هو يتحوّل إلى عظم ضَخْم قد نَشِب فى كَفى وما يليها من أَسَلَةِ الذراع[1]. فغابتْ فيه أصابعى، فلا أصابعَ لى ولا كَفّ. وأبى الإبريقُ أن يسقيَنى وصار مُثْلَةً بى، وتجسَّدتْ هذه الجريمةُ لتشهَد علىّ، فأخذنى الهولُ والفزَع، وجاء إبريقٌ من الهواء، فوقع فى يد الوليد، فتركنى ومضى.

وقلت لنفسى: ويحكَ يا أبا خالد! ما أراكَ إلا مُحَاسَبًا على حسناتك كما يُحَاسَب المذنبون على سيئاتهم، فلا حولَ ولا قوة إلا بالله!

وبلغْتنى الصَّيحةُ الرهيبة: أين أبو خالد الأحولُ الزاهدُ العابد؟

قلت: هأنذا.

قيل: طَاوُوسٌ من طواويس الجنة قد حُص[2] ذَيْلُه فضاع أحسنُ ما فيه! أين ذَيْلكَ من أولادك، وأين محاسنُك فيهم؟ أخُلِقَتْ لك المرأةُ لتتجنَّبها، وجعِلْتَ نَسْلَ أبويك لتتبرَّأ أنت من النسل؟

جئتَ من الحياة بأشياء ليس فيها حياة؛ فما صنعتَ للحياة نفسِها إلا أن هربتَ منها، وانهزمتَ عن ملاقاتها؛ ثم تأمُلُ جائزةَ النصر على هَزيمة...!

---

(١) الأسلة: ما يلى الكف من الذراع إلى القسم المستغلظ منها. فالأسلة هى العظمة التى تشد عليها ساعة اليد.

(٢) حص ذيله: قطع وجذ.

عَمِلَتْ الفضيلةُ فى نفسك ونشأتِك، ولكنها عَقِمَتْ فلم تعملْ بك. لك ألفُ ألفِ ركعة ومثلُها سَجدَات من النوافل، ولَخَيْرٌ منها كلِّها أن تكون قد خرجتْ من صُلبك أعضاءٌ تركع وتسجد.

قتلتَ رجولتَك، ووَأدْتَ فيها النَّسل، ولبثتَ طِوال عمرك ولدًا كبيرًا لم تبلغ رتبةَ الأب! فلئن أقمتَ الشريعة، لقد عطَّلتَ الحقيقة، ولئنْ...

قال أبو خالد: ووقعتْ غُنَّةُ النونِ الثانية فى مِسْمَعىّ من هول ما خفتُ مما بعدها كالنَّفخ فى الصُّور؛ فطار نومى وقمتُ فَزِعًا مشتَّتَ القلب، كمن فتح عينيه بعد غَشْية، فرأى نفسَه فى كفَن فى قبر سُدَّ عليه...!

ومـا كدْتُ أعى وأنظر حولى وقد بَرَقَ الصبحُ فى الدار حتى رأيتُ أبا ربيعة يتقلَّب كأنما دَحْرجتْهُ يد، ثم نهض مُسْتطارَ القلب من فزَعِـهِ وقال أهلكتنى يا أبا خالد، أهلكتنى والله.

* * *

قلت: ما بالك يرحمك الله!

قال: إنى نمتُ على تلك النية التى عرفتَ أن أجمع قلبى للعبادة، وأخلُصَ من المرأة والولد، ومن المعاناة لهما فى مَرَمَّة المعاش والتَّلفيقِ بين رغيفٍ ورغيف، وأن أُعْفِى نفسى من لأوائهم وضَرَّائهم وَبلائهم، لأفرغَ إلى الله وأقبل عليه وحده. وسألت الله أن يَخيرَ لى فى نومى؛ فرأيتُ كأن أبوابَ السماء قد فتُحتْ، وكأن رجالا ينزلون ويسيرون فى الهواء يتبعُ بعضُهم بعضًا، أجنحةً وراء أجنحة؛ فكلما نزل واحد نظر إلىّ وقال لمن وراءه: هذا هو المشئوم!

فيقول الآخر: نعم هو المشئوم!

وينظر هذا الآخرُ إلىّ ثم يلتفت لمن وراءه ويقول له: هذا هو المشئوم! فيقول الآخر: نعم هو المشئوم!

ومازالت «المشئوم، المشئوم» حتى مرُّوا؛ لا يقولون غيرَها ولا أسمع غيرَها، وأنا فى ذلك أخاف أن أسألهم، هيبة من الشؤم، ورجاء أن يكون المشئوم إنسانًا ورائى

يبصرونه ولا أبصره. ثم مرَّ بى آخرهم، وكان غلامًا. فقلت له: يا هذا، من هو المشئوم الذى تُومِئون إليه؟

قال: أنت!

فقلت: ولم ذاك؟

قال: كنا نرفع عملَك فى أعمال المجاهدين فى سبيل الله، ثم ماتت امرأتك وتحزَّنْتَ على ما فاتك من القيام بحقها، فرفعْنا عملك درجةً أخرى؛ ثم أمِرْنا الليلةَ أن نضع عملَك مع الخالِفين الذين فرّوا وجَبُنوا!

* * *

إن سُموَّ الرجُل بنَفْسِه عن الزّوْجَة وَالولَدِ طَيَرانٌ إلى الأعلَى.. ولكنَّه طَيَرانٌ على أجْنِحَة الشَّياطِين!

طَيَرانٌ بالرجُلِ إلى فُوَّهَة البُركانِ الذِى فى الأعلى..!

بنته الصغيرة

(١)

فــرغ أبو يحيى مالكُ بن دينار، زاهدُ البَصْرة وعالمُها، من كتابة المُصْحَف؛ وكان يكتــبُ المصاحفَ للنــاس، ويعيش مما يأخذه من أجرة كتابتــه؛ تعففًا أن يَطْعَم إلا من كَسْــب يده، ثم خرج من دارِه وَجْهُهُ المســجدُ، فأتاه فصلى بالناس صلاةَ العصر، وجلســوا ينتظرونه، واستوى هو قائما، فركع وسجَد ما شاء اللهُ حتى قضى نافِلَتَه، ثم انْفَتَلَ من صلاته فقام إلى أسْــطُوانته[١] التى يســتند إليها، وتَحلَّق الناسُ حوله جُموعًا خلْف جموع، يذهبُ فيهم البصرُ مرةً هنا ومرة هنا من كثرتهم وامتدادِهم، حتى تغطَّى بهم المســجد على رُحْبِه. ومدَّ الإمامُ عينَه فيهم ثم أطرق إطراقةً طويلة، والناسُ كأن عليهم الطيرَ مما ســكنوا لهيبته، ومما عَجبوا لخشوعه؛ ثم رفع الشيخُ رأسَــه وقد تَندّتْ عيناه، فما نَظَر إليهم حتى كأنمــا اطَّلعَ على أرواحهم فجرٌ رَطْبٌ من سِحْر ذلك الندى.

وبَدَرَ شــاب حَدثٌ فسأله: ما بكاء الشيخ؟ وكان قريبًا يجلس من الإمام فى سَمْت بصره[٢]، فتأمَّله الشــيخُ طويلاً يقلب فيه الطــرْف كالمتعجب، ولَبِثَ لا يجيبه كأنما عَقِدَ لسانهُ أو أخذته من نفسه حالٌ، فما يُثْبِتُ شيئًا مما يرى.

وازداد النــاسُ عجبًا؛ فما جَرَّبوا على الشــيخ من قبلها حَصرًا ولا عيًّا، ولا قَطَعَه ســؤالٌ قَــطّ، ولا تخلّف عن جواب؛ وقالوا إن له لشــأنًا، وما بُــدٌّ أن تكونَ من وراء حُبْسَته شعابٌ فى نفسه تَهْدر بسَيْلها وتعتلج؛ فما أسرعَ ما يلتقى السيلُ، فيجتمع، فيُصَوَّبُ إلى مجراه، فيَتَقَاذَف.

---

(١) كان العلماء والرواة يجلسون إلى أساطين المسجد، وهى أعمدته، كما كان بالأزهر إلى عهد قريب.

(٢) أى أمامه فى الخط الذى يمتد فيه البصر.

وتبسم الإمام وقال: أمَا إنى قد ذكرتُ ذِكرَى فبكيتُ لها، ورأيتُ رؤيا فتبسَّمتُ لها؛ أما الذكرى، فهل تعلمون أن هذا المسجدَ الذى يَفْهَقُ بهذا الحَشْدِ العظيم، وتقع فيه المدينةُ لكل أذَان وتطير - هل تعلمون أنه خلا قَطُّ من الناس وقد وَجَبَت الفَرِيضة؟ قالوا: ما نَعْلمه.

قال: فقد كان ذلك لعشرين سنةً خَلَتْ فى مَوْت الحسن[1]، فقد مات عَشِيَّةَ الخميس، وأصبحنا يومَ الجمعة ففرغنا من أمره، وحملناه بعد صلاة الجمعة، فتبعَ أهلُ البصرة كلُّهم جنازتَه واشتغلوا به، فلم تُقَم صلاة العصر بهذا المسجد، وما تركتْ منذ كان الإسلام إلا يومئذ؛ ومثل الحسَن لا تموت ساعةُ موته من عُمْرِ مَن شَهدَها، فذلك يومٌ عجيب قد لَفَّ نهارُه البصرَةَ كلَّها فى كَفن أبيض، فما بقيتْ فى نفس رجل ولا امرأة شهوةٌ إلى الدنيا، وفرغ كلُّ إنسان من باطله، كما يَفرغ مَن أيقن أن ليس بينه وبين قبره إلا ساعة، وظهر لهم الموتُ فى حقيقة جديدة بالغةِ الرَّوْع لا يراها الأبناء فى موت آبائهم وأمهاتِهم، ولا الآباء والأمهاتُ فى موت مَن ولَدوا، ولا المحبُّ فى موت حبيبه، ولا الحميمُ فى موت حميمه؛ فإن الجميع فقدوا الواحد الذى ليس غيرُه فى الجميع، وكما يموت العزيزُ على أهل بيت فيكونُ الموتُ واحدًا وتتعدّد فيهم معانيه، كذلك كان موتُ الحسن موتًا بعَدَدِ أهل البصرة!

ذاك يومٌ امتدَّ فيه الموتُ وكَبر، وانكمشت فيه الحياةُ وصغُرتْ، وتحاقَرَت الدنيا عند أهلها، حتى رجعت بمقدار هذه الحفرة التى يُلقَى فيها الملوكُ والصعاليك والأخلاطُ بين هؤلاء وأولئك، لا يَصغُر عنها الصغير، ولا يكبرُ عنها الكبير؛ لا بل دون ذلك، حتى رجعت الدنيا على قدر جيفة حيوان بالعَراء، تنكشف للأبصار عن شَوْهَاء نَجِسة قد أرَمَّت[2] لا تُطاق على النظر، ولا على الشمّ، ولا على اللمس؛ وما تتفجَّر إلا عن آفة، وما تتفجر إلا لهوامّ الأرض.

---

(١) هو الحسن البصرى الإمام العظيم، وسيأتى وصفه، ولد سنة ١٥ للهجرة، وتوفى سنة ١١٠هـ، وقد توفى مالك بن دينار شيخ هذه القصة فى سنة ١٣١هـ، فيكون تاريخ القصة فى سنة ١٣٠هـ.

(٢) أرمت: بدأت تتعفن وتبلى.

تلك هى الذكرى، وأما الرؤيا فقد طالعتْنى نفسى من وجه هذا الفتى، فأبصرتُنى حين كنتُ مثلَه يافعًا مُترَعْرِعًا داخلًا فى عصر شبابى، فكأنما انتبهتْ عينى من هذه النفس على فاتكٍ خبيثٍ كان فى جناياته فى أغلاله فى سجنه، ومات طويلاً ثم بُعِثَ!

إنى مُخْبركم عنى بما لم تُحيطوا به، فأرْعُوه أسماعَكم، وأحْضِروه أفهامَكم، واستجمعوا له، فإنه كان غَيْبَ شيخكم، وأنا محَدِّثُكم به كيلا ييأسَ ضعيف، ولا يقنَطُ يائس، فإن رحمةَ الله قريبٌ من المحسنين.

* * *

لقد كنتُ فى صدْر أيامى شُرْطيًّا، وكنت فى آنِفَةِ الحَداثةِ مِن قبلها أتَفَتَّى وأتَشَطَّرُ، وكنت قويًّا معصوبًا فى مثل جِبْلَة الجَبل من غِلَظٍ وشدّة، وكنت قاسيًا كأن فى أضلاعى جَندلةً لا قلبا، فلا أتذممّ ولا أتأثم؛ وكنت مُدمنًا على الخمر، لأنها رُوحانيَّةٌ من عَجَزَ أن تكونَ فيه روحانية، وكأنها إلهيَّةٌ يُزَوِّرها الشيطانُ - لعنه الله - فيَخْلُق بها للنفس ما تحب مما تكره، ويثِيبها ثواب ساعة ليست فى الزمن بل فى خيال شاربها. وكأن جَهْلَ العقل نَفْسَه فى بعض ساعات الحياة، هو - فى عِلْم الشيطان وتعليمه - معرفةُ العقل نَفْسَه فى الحياة!

فبينا أنا ذاتَ يوم أجولُ فى السوق، والناسُ يَفُورون فى بيعهم وشرائهم، وأنا أرقُبُ السارق، وأعدّ للجانى، وأتهيأ للنزاع، إذ رأيتُ اثنين يَتَلاحَيان، وقد لَبَّبَ أحدُهما الآخر؛ فأخذتُ إليهما، فسمعتُ المظلوم يقول للظالم: لقد سَلَبْتَنى فَرَحَ بُنَيَّاتى، فسيدْعونَ الله عليك فلا تصيبُ من بعدها خيرًا، فإنى ما خرجتُ إلا اتباعا لقول رسول الله ﷺ: «من خرج إلى سُوق من أسواق المسلمين، فاشترى شيئًا، فحمله إلى بيته، فخَصَّ به الإناث دون الذكور؛ نَظَرَ الله إليه».

قال الشيخ: وكنت عزبًا لا زوجةَ لى، ولكن الآدميَّةَ انتبهتْ فىَّ، وطمعتُ فى دعوة صالحة من البُنَيَّات المسكينات، إذا أنا فرّحْتُهُنَّ؛ ودخَلتْنى لهن رِقَّةٌ شديدة، فأخذتُ للرجل من غريمه حتى رضى، وأضعفتُ له من ذاتِ يدى لأزيدَ فى فرح

بناته، وقلت له وهو ينصرف: عَهْدٌ يحاسبُك الله عليه، ويَستوفيه لى منك، أن تجعلَ بناتِك يدعون لى إذا رأيت فَرَحهنَّ بما تحمل إليهنَّ، وقل لهن: مالك بن دينار.

وبِتُّ ليلتى أتقلَّب مفكّرًا فى قول رسول الله ﷺ ومعانيه الكثيرة، وحَثِّه على إكرام البنات، وأن مَن أكرمَ بناتِه كَرُمَ على الله، وحِرْصه أن ينشأن كريماتٍ فَرِحات؛ وحدّثنى هذا الحديثُ ليلتى تلك إلى الصبح، وفكَّرتُ حينئذ فى الزواج، وعلمت أن الناس لا يزوّجونى من طَيباتهم مادمتُ من الخَبيثين؛ فلما أصبحتُ غدوت إلى سُوق الجوارى، فاشتريتُ جاريةً نفيسة، ووقعتْ منى أحسنَ موقع، ووَلَدَت لى بنتًا فشُغِفْت بها، وظهرتْ لى فيها الإنسانيّةُ الكبيرة التى ليست فىَّ، فرأيت بُعْدَ ما بينى وبين صورتى الأولى؛ ورأيتها سماويةً لا تملك شيئًا وتملك أباها وأمَّها، وليس لها من الدينا إلا شَبع بطنها وما أيسَره، ثم لها بعد ذلك سرُور نفسها كاملاً تَشُبُّ عليه أكثر مما تَشُبُّ على الرَّضاع؛ فعلمتُ من ذلك أن الذى تكْتَنِفُه رحمة الله يملكُ بها دنيا نفسه، فما عليه بعد ذلك أن تفوتَهُ دنيا غيره، وأن الذى يجد طهارة قلبه يجدُ سرورَ قلبه وتكونُ نفسُه دائمًا جديدةً على الدنيا، وأن الذى يحيا بالثقة تُحْييه الثقة؛ والذى لا يبالى الهمَّ لا يبالى الهمُّ به، وأن زينةَ الدنيا ومتاعَها وغرورَها وما تجلب من الهم - كلُّ ذلك من صِغرِ العقل فى الإيمان حين يكبر العقلُ فى العلم!

كانت البنَية بدء حياة فى بيتى وبدء حياة فى نفسى، فلما دبَّت على الأرض ازددتُ لها حبًّا، وألفتنى وألفْتُها، فرُزِقَتْ روحى منها أطهر صداقة فى صديق، تتجدّد للقلب كلَّ يوم، بل كلَّ ساعة، ولا تكونُ إلا لمحضِ سرورِ القلب دونَ مطامعهِ، فتُمِدُّه بالحياة نفسها لا بأشياء الحياة، فلا تزيد الأشياء فى المحبة ولا تنقص منها، على خِلاف ما يكون فى الأصدقاء بعضِهم من بعض واختلافهم على المَضَرَّة والمنفعة.

* * *

قال الشيخ: وجَهَدْتُ أن أتركَ الخمر فلم يأت لى ولم أستطعه؛ إذ كنت منهمكًا على شربها، ولكن حبّ ابنتى وضع فى الخمر إثمها الذى وضعتْه فيها الشريعة، فكرِهتُها كُرْها شديدًا، وأصبحت كالمكرَهِ عليها، ولم تَعُدْ فيها نَشْوتُها ولا رِيُّها،

وكانت الصغيرةُ فى تمزيق أخيلَتها أبرعَ من الشيطان فى هذه الأخيلة، وكأنما جرّتنى يدُها جرًّا حتى أبعدتْنى عن المنزلةِ الخَمْرية التى كان الشيطانُ وضعنى فيها، فانتقلتُ من الاستهتار والمكابَرة وعدم المبالاة إلى الندم والتَحوُّبِ والتأثُّم، وكنتُ من بَعدها كلما وضعْت المسكَر، وهممتُ بَه دبَّت ابنتى إلى مجلسى؛ فأنظر إليها وتنتَشِرُ عليها نفسى من رقَّة ورحمة، فأرقُبُ ما تصنع، فتجىء فتُجاذبنى الكأسَ حتى تُهرِقَها على ثوبى، وأرانى لا أغضب، إذ كان هذا يسرُّها ويُضحكها، فأسرّ لها وأضحك.

ودام هذا منى ومنها، فأصبحتُ فى المنزلة بين المنزلتين، أشربُ مرةً وأترك مرارًا، وجعلتُ أستقيم على ذلك؛ إذ كانت النَّشْوة بابنتى أكبرَ من النشوة بالزجاجة؛ وإذ كنتُ كلما رجعتُ إلى نفسى وتدبَّرتُ أمرى، أستعيذ بالله أن تَعقِل ابنتى معنى الخمر يومًا فأكون قد نجَّستُ أيامها، ثم أتقدم إلى الله وعلىَّ ذنوبُها فوق ذنوبى، ويترحَّم الناسُ على آبائهم وتلعنُنى؛ إذ لم أكن لها كالآباء، فأكون قد وُجِدتُ فى الدنيا مرةً واحدة وهلكتُ مرتين.

ومضيتُ على ذلك وأنا بها أصلح بها شيئاً فشيئًا وكلما كبرت كبرتْ فضيلتى، فلما تمّ لها سنتان، ماتت!

***

قال الراوى: وسكت الشيخ، فعَلِقَتْ به الأبصار، ووقفت أنفاس الناس على شفاههم، وكأنما ماتت لحظاتٌ من الزمن لِذكرِ موتِ الطفلة، وخامر المجلسَ مثلُ السكْر بهذه الكأس المُذهِلة؛ ولكن الطفلة دبَّت من عالم الغيب كما كانت تصنع، وجذبَت الكأس وأهرقتها، فانتبه الناس وصاحوا: ماتت فكان ماذا؟

قال الشيخ: فأكمدنى الحزنُ عليها، وَوَهَنَ جأشى، ولم يكن لى من قوة الروح والإيمان ما أتأسَّى به، فضاعفَ الجهلُ أحزانى، وجعلَ مصيبتى مصائب. والإيمانُ وحدَه هو أكبرُ علوم الحياة، يُبصِّرُك إن عميتَ فى الحادثة، ويَهديك إن ضَللْت عن السكينة، ويجعلك صَديقَ نفسك تكونُ وإياها على المصيبة، لا عَدُوَّها تكون المصيبةُ وإياها عليك، وإذا أخرجَتِ الليالى من الأحزان والهموم عسكر ظلامها لقتال نفس

أو محاصرتها، فما يدفعُ المالُ ولا ترد القوة ولا يمنع السلطان، ولا يكونُ شيء حينئذ أضعف من قوّة القوىّ، ولا أضيعَ من حيلة المحتال، ولا أفقرَ من غِنَى الغنىّ، ولا أجهلَ من علم العالم، ويبقى الجهدُ والحيلةُ والقوّة والعلمُ والغنِى والسلطانُ للإيمان وحده؛ فهو يكسر الحادث ويقلّل من شأنه، ويؤيد النفسَ ويضاعف من قوّتها، ويَرُدُّ قَدَرَ الله إلى حكمة الله؛ فلا يلبُث ما جاء أن يرجع، وتعودُ النفس من الرضا بالقَدر والإيمانِ به، كأنما تَشهد ما يقع أمامها لا ما يقعُ فيها.

قال الشيخ: ورجعتُ بجهلى إلى شر مما كنتُ فيه، وكانت أحزانى أفراحَ الشيطان؛ وأراد – أخزاه الله – أن يَفْتَنَّ فى أساليب فرحِه، فلما كانت ليلةُ النصف من شعبانَ، وكانت ليلةَ جمعة، وكانت كأوّل نور الفجر من أنوار رمضان، سوَّل لى الشيطانُ أسكر سكْرةً ما مثلُها، فبتُّ كالميت مما ثملت، وقذَفتنى أحلام إلى أحلام، ثم رأيتُ القيامة والحشر، وقد وَلدت القبورُ من فيها، وسِيقَ الناسُ وأنا معهم، وليس وراء ما بى من الكَرب غاية، وسمعتُ خلفى زَفيرًا كفَحيح الأفعى، فالتفتُّ فإذا بتنِّينٍ عظيم ما يكون أعظمُ منه، طويلٌ كالنخلة السَّحوق، أسودُ أزرقُ، يُرسِل الموتَ من عينيه الحمراوين كالدم، وفى فمه مثلُ الرّماح من أنيابه، ولجَوْفِه حرٌّ شَديدٌ لو زفَر به على الأرض ما نبتتْ فى الأرض خضراء، وقد فَتح فاه ونَفخ جوفه وجاء مُسرعًا يريد أن يَلْتقمَنى، فمررتُ بين يديه هاربًا فَزعًا؛ فإذا أنا بشيخ هَرم يكاد يموت ضَعفًا، فَعُذْتُ به وقلت أجرنى وأغثنى. فقال: أنا ضعيف كما ترى، وما أقدر على هذا الجبار، ولكن مُرَّ وأسرعْ، فلعل الله أن يسَّببَ لك أسبابًا للنجاة.فولَّيتُ هاربًا وأشرفتُ على النار وهى الهولُ الأكبر، فرجعتُ أشتدُّ هربًا والتنين على أثرى، ولقيتُ ذلك الشيخ مرة أخرى، فاستَجرتُ به فبكى من الرحمة لى وقال: أنا ضعيف كما ترى، وما أقدر على هذا الجبار، ولكن اهرب إلى هذا الجبل، فلعل الله يُحدث أمرًا.

فنظرتُ فإذا جبلٌ كالدار العظيمة، له كُوىً عليها ستُور، وهو يَبْرُقُ كشعاع الجوهر؛ فأسرعتُ إليه والتنين من ورائى، فلما شارفتُ الجبلَ فُتِحت الكُوى، ورفعت الستور،

وأشـرفتْ علىّ وجوهُ أطفال كالأقمار، وقرب التنينُ منى، وصرتُ فى هواءِ جوْفه وهو يتضَرّم علىّ، ولم يبق إلا أن يأخذنى؛ فتصايَح الأطفالُ جميعًا: يا فاطمة! يا فاطمة!

قال الشـيخ: فإذا ابنتى التى ماتت قد أشـرفتْ علىّ، فلما رأت ما أنا فيه صاحت وبكتْ، ثم وثبتْ كرَمْية السـهم، فجاءت بين يدىّ، ومدّت إلىّ شِمالَها فتعلّقتُ بها، ومـدّت يمينها إلى التنّين فولى هاربًا، وأجلسـتْنى وأنـا كالميت من الخوف والفزع، وقعـدَتْ فى حجرى كما كانت تصنـع فى الحياة، وضربتْ بيدها إلى لحيتى وقالت: يا أبت.. ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾. سورة الحديد الآية ١٦.

فبكيـتُ وقلتُ: يا بُنيَّة، أخبرينى عن هذا التنّين الـذى أراد هلاكى. قالت ذاك عملكَ السـوء الخبيث، أنت قوّيْتـه حتى بلغ هذا الهولَ الهائـل، والأعمال تَرجعُ أجسامًا كما رأيت. قلت فذاك الشيخُ الضعيفُ الذى استجرْتُ به ولم يُجرْنى؟ قالت: يـا أبت ذاك عملُك الصالح، أنـت أضعفْتَه فضَعُفَ حتى لم يكن له طاقة أن يُغيثَك من عملك السيىء؛ ولو لم أكن لك هنا، ولو لم تكن اتبعتَ قولَ رسول الله ﷺ فيمن فَرّح بناته المسكينات الضعيفات، لما كانت لك هنا شِمالٌ تتعلَّق بها، ويمينٌ تَطْرُد عنك.

***

قال الشـيخ: وانتبهتُ من نومى فزعًا ألعن ما أنا فيه، ولا أرانى أسـتقر، كأنى طَريدةُ عملى السَّـيىء، كلما هَرَبتُ منه هربت به، وأين المَهْربُ من الندم الذى كان نائمًا فى القلب واستيقظ للقلب؟

وأمَّلْتُ فى رحمة الله أن أربَح من رأس مال خاسر، وقلت فى نفسى: إن يومًا باقيًا مـن العمر هو للمؤمن عُمْرٌ ما ينبغى أن يسـتهان به، وصحَّحـتُ النّيةَ على التوبة، لأُرجعَ الشـبابَ إلى ذلك الشـيخ الضعيـف، وأسمِّن عظامَه، حتى إذا اسـتجرْتُ به أجارنى ولم يقل: «أنا ضعيف كما ترى!».

وسـألتُ فدُلِلْتُ على أبى سعيد الحسَن بن أبى الحسـن البصرىّ، سيِّد البقيَّة من التابعـين؛ وقيل لى: إنه جَمَـع كلّ علم وفنّ إلى الزهد والورع والعبادة، وإن لسـانه

السِّحر، وإن شخصَه المغناطيس، وإنه ينطق بالحكمة كأن فى صدره إنجيلاً لم يُنزَّل، وإن أمَّـه كانت مولاةً لأم سَـلمَة زوج النبى ﷺ، فكانت ربمـا غابت أمه فى حاجة فيبكى، فترضعه أمّ سـلمة تُعلله بثَديها فيدرُّ علته، فكانت بينه وبين بَركة النبوّة صلَة.

وغدوتُ إلى المسـجد والحسـنُ فى حَلْقته يقصّ ويتكلَّم، فجلست حيث انتهى بى المجلـس، وما كان غيرَ بعيد حتى عَرَتنى نَفْضةٌ كنفضة الحمَّى؛ إذ قرأ الشـيخ هذه الآيــة: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ سـورة الحديد الآية ١٦؛ فلو لفظتنى الأرضُ من بطنها، وانشقَّ عنى القبرُ بعد الموْت ما رأيتُ الدنيا أعجب مما طالعتْنى فى تلك السـاعة، وأخذ الشـيخ يفسـرُ الآية، فصنع بى كلامُه ما لو بُعِث نبىّ من أجْلى خاصةً لما صَنَع أكثرَ منه.

وكلامُ الحسـن غـيرُ كلام الناس، وغـيرُ كلام العلماء؛ فإنه يتكلـم من قلبه ومن روحه، ومن وجهه ولسانه، وناهيكم من رجل خاشع مُتَصَدّع من خشية الله، لم يكن يُرَى مُقْبلاً إلا وكأنه أسـيُر أمروا بضرب عنقه، وإذا ذُكِرَت النارفكأنها لم تخلق إلا له وحده؛ رجلٌ كان فى الحياة لتتكلَّم الحياة بلسانه أصدقَ كلماتِها.

فصاح صائح: يا أبا يحيى، التفسير التفسير! وصاح المؤذّن: الله أكبر. فقطع الشيخ وقال: التفسيرُ إن شاء الله فى المجلس الآتى.

■■■

بنته الصغيرة

(٢)

... وجاء من الغد أبو يحيى مالك بنُ دينار إلى المسجد، فصلى بالناس، ثم تحوَّل إلى مجلس درسه وتَعَكَّفوا حوله؛ وكانوا إلى بقيَّة خَبره فى لهفة كأن لها عُمرا طويلاً فى قلوبهم، لا ظَمَأ ليلة واحدة.

وقال منهم قائل: أيها الشيخ، جُعِلتُ فِداك، ما كان تأويلُ الحَسَن لتلك الآية من كلام الله تعالى، وكيف رجع الكلام فى نفسك مَرْجعَ الفكر تَتَّبعُه، وأصبح الفكرُ عندك عملاً تحذو عليه، وتصل هذا العملُ فكان ما أنت فى وَرَعك و...؟

فقطع الإمامُ عليه وقال: هوّن عليك يا هذا؛ إن شيخك لأهوَنُ من أن تذهبَ فى وصفه يمينًا أو شمالًا، وقد روى لنا الحَسَن يوما ذلك الخبر الواردَ فيمن يُعذَّب فى النار ألف عام من أعوام القيامة، ثم يدركه عفوُ الله فيخرج منها، فبكى الحسن وقال: «يا ليتنى كنت ذلك الرجل!» وهو الحسنُ يا بنىَّ، هو الحسن...

فضج الناسُ وصاح منهم صائحون: يا أبا يحيى، قتلتنا يأسًا. وقال الأول: إذا كان هذا فأوشكْ أن يعمَّنا اليأسُ والقُنوط، فلا ينفعنا عملٌ، ولا نأتى عملاً ينفع.

قال الشيخ: هوِّنوا عليكم، فإن للمؤمن ظنَّين: ظنًّا بنفسه، وظنًّا بربه؛ فأما ظنُّه بالنفس فينبغى أن ينزلَ بها دون جَمَحَاتِها ولا يفتأ ينزل؛ فإذا رأى لنفسه أنها لم تعمل شيئًا أوجب عليها أن تعمل، فلا يزال دائما يدفعها؛ وكلما أكثرتْ من الخير قال لها: أكْثِرى. وكلما أقلَّتْ من الشرّ قال لها: أقلّى. ولا يزال هذا دأبَهُ ما بقى؛ وأما الظنُّ بالله فينبغى أن يعلوَ به فوق الفَتَرات والعِلَل والآثام، ولا يزال يعلو؛ فإن الله عند ظنّ عبده، إنْ خيرًا فله وإن شرًّا فله. ولقد روينا هذا الخبر: «كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قَتَل تسعا وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فُدلَّ على راهب فأتاه،

فقال: إنه قتل تسعًا وتسعين نفسًا، فهل له من توبة؟ قال: لا! فقَتله فكمَّل به مائة! ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلَّ على رجل عالم، فقال له: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ قال: نعم؛ ومَن يَحولُ بينك وبين التوبة؟ انطلِقْ إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسًا يعبدون الله عز وجل، فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرضُ سَوْء.

فانطلَقَ، حتى إذا نصَّف الطريقَ أتاه ملَكُ الموت، فاختصمت فيه ملائكةُ الرحمة وملائكةُ العذاب؛ فقالت ملائكةُ الرحمة: جاء تائبًا مُقْبلاً بقلبه إلى الله. وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قَط. فأتاهم مَلكٌ فى صورة آدمىّ فجعلوه حَكمًا بينهم، فقال: قَيسوا ما بين الأرْضَين، فإلى أيُّهما كان أدنى فهوَ له. فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد، فقبضتْه ملائكةُ الرحمة!

قال الشيخ: فهذا رجُل لَمَّا مشى بقلبه إلى الله حُسبت له الخطوةُ الواحدة، بل الشبرُ الواحد؛ ولو أنه طوَّف الدنيا بقدميه ولم يكن له ذلك القلب، لكان كالعظام المحمولة فى نعش؛ قبرها فى المشرق هو قبرُها فى المغرب، وليس لها من الأرض ولا للأرض منها إلا معنى واحدٌ لا يتغير؛ هو أنه بجملته ميّت، وأنها بجملتها حُفْرة.

والإنسانُ عند الناس بهيئة وجهه وحِلْيتِه التى تبدو عليه، ولكنه عند الله بهيئة قلبه وظنّه بالله الذى يَظنُّ به؛ وما هذا الجسمُ من القلب إلا كقشرة البيضة[1]. مما تحتها. فيالها سخريةً أن تزعم القشرةُ لنفسها أن بها هى الاعتبارَ عند الناس لا بما فيها؛ إذ كان ما تحويه لا يكون إلا فيها هى؛ ومن ثم تُبْعِدُ فى حماقتها فتسأل: لماذا يرمينى الناس ولا يأكلوننى...؟

إن هذه الأخلاقَ الفاضلةَ فى هذا الإنسان لا تجد تمامَ معناها إلا فى حالة بعينها من أحوال القلب، وهى حالة خشوعه على وصفها الذى شرحته الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾؟ سورة الحديد الآية ١٦.

---

(١) قشرة البيضة العليا اليابسة تسمى القيض بفتح القاف وسكون الياء، والقشرة الداخلة الملتزقة بالبياض تسمى الغرقى بكسر الغين والقاف.

فالأخلاقُ الفاضلةُ محدودةٌ بالله والحقّ معًا، وهى كلُّها فى خشوع القلب لهذين؛ فإن من القلب مخارجَ الحياة النفسية كلِّها.

قال الشيخ: وأنا منذ حفظتُ عن الحسن تأويلَ هذه الآية، واسْتَنَنْتُ بها، مضيتُ أعيشُ من الدنيا فى تاريخ قلبى لا فى تاريخ الدنيا، وأدركتُ من يومئذ أن ليس حفظُ القرآن حِفْظَه فى العقل، بل حفظُه فى العمل به؛ فإن أنت أثبتَّ الآيةَ منه، وكنتَ تعمل بغير معناها، وتعيش فى غير فضيلتها، فهذا – ويحك – نسيانُها لا حفظُها. وقد كان قومُنا الأوّلون بمعانيه كالشجرة الخضراء النامية؛ فيها ورَقُها الأخضر وزهرُها، وعلى ظاهرها حياةُ باطنها، فلما ثبتَ الناسُ على الشكل وحده، ولم يبالوا القلبَ وأحوالَه، أصبحوا كالشجرة اليابسة، عليها ورقُها الجافُّ، ليس فى بقائه ولا سقوطه طائل.

ما أصبحتُ ولا أمسيت منذ حفظتُ تفسيرَ الآية إلا فى حياة منها، وهذه الآية هى التى دلَّتنى بمعانيها أن ليست الحياة الأرضيَّةُ شيئًا إلا ثورة الحىّ على ظلم نفسه، يَستكِفُّ عنها أكثرَ مما يَسْتَجِرُّ لها، والناسُ من شقائهم على العكس، يستجرُّون أكثَرَ مما يستكِفُّون، وإنما السعيدُ مَنَ وَجَدَ كلمات روحانيةً إلهيةً يعش قلبُه فيهن، فذاك لا يعمل أعماله كما يأتى ويتفق، بل يحذو على أصل ثابت فى نفسه، ويختار فيما يعمل أحسنَ ما يعمل، ومن ثمَّ لا يكون جهادُه مُراغمةً أو خضوعا فى سبيل الوجود كالحيوان، بل فى سبيل صحَّة وجوده؛ ولا يكون غرضُه أن يُلابِسَ الحياةَ كما تأخذه هى وتَدَعُه، بل أن يحيا فى شرف الحياة على ما يأخذها هو ويَدَعُها.

إن الشقاء فى هذه الدنيا إنما يَجُرُّهُ على الإنسان أن يعملَ فىدفع الأحزان عن نفسه بمقارَفَتهِ الشهوات، وبإحساسهِ غرورَ القلب؛ وبهذا يُبْعِدُ الأحزانَ عن نفسه ليجلبها على نفسه فى صُوَر أخرى!

* * *

قال الشيخ: وكان مما حفظته من تفسير الحَسِنَ قوله:

إن كل كلمــة فى الآية تكاد تكون آية، وليســت الكلمةُ فــى القرآن كما تكون فى غيره، بل السُّــمُوُّ فيها على الكلام، أنها تحمل معنى، وتُومئ إلى معنى، وتَسْــتَتْبِعُ معنى؛ وهذا ما ليس فى الطاقة البشــرية، وهو الدليل على أنه ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾[1] سورة هود الآية ١.

يقــول الله تعــالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ سورة الحديد الآية ١٦.

﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ هــذه الكلمة حثٌّ، وإطماعٌ، وجدالٌ، وحُجــة؛ وهى فى الآية تُصرّح أن خشُــوعَ القلب الذى تلك صفتُه هو كمال للإيمان، وأن وقت هذا الخشــوع هو كمال العمــر، وكيف يعرف المؤمنُ أنه (ســيأنى) له أن يعيشَ ســاعة أو مــا دونها؟ إذنْ فالكلمةُ صارخةٌ تقول: الآنَ الآنَ قبل ألا يكون آن. أىْ: البدَارَ البدَارَ ما دمتَ فى نَفَس من العمر؛ فإن لحظة بعد (الآن) لا يضمنها الحىّ. وإذا فَنى وقتُ الإنسان انتهى زمنُ عملــه فبقى الأبد كله على ما هو؛ ومعنى هذا أن الأبد للمؤمن الذى يدرك الحقيقة، وإنْ هــو إلا اللحظةُ الراهنةُ من عمره التى هــى (الآن). فانظر - ويحك - وقد جُعِلَ الأبد فى يدك؛ انظر كيف تصنع به؟

تلك هى حكمة اختيار اللفظة من معنى (الآن) دون غيره، على كثرة المعانى.

ثم قال: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وهذا كالنَّصّ على أن غير هؤلاء لا تخشــع قلوبُهم لذكر الله ولا للحق، فلا تقومُ بهم الفضيلة، ولا تســتقيم بهم الشــريعة، وعالِمُهم وجاهلُهم سواء، لا يخشعان إلا للمادة، وكأن إنسانَهم إنسانٌ تُرابىّ، لا يزالُ يضطربُ على مَكرْ الليل والنهار بين طرفين من الحيوان: عَيشِــه وموتهِ؛ وما تقسو الحياةُ قسوتَها على الناس إلا بِهم، وما ترقُّ رقَّتَها إلا بالمؤمنين.

---

(١) طريقتنا فى اكتناه إعجاز القرآن، أن الكلمة الواحدة من كلماته لها جهات عدة؛ كما نرى فيما نشرحه من تفسير هذه الآية، وفيما جئنا به من تفسير آيات سبقت فى المقالات الأخرى؛ فالبحث فى فهم القرآن يجب أن يكون فى اللفظة، ووجه اختيارها، وسياق تركيبها، وما تدل عليه فى كل ذلك، وما يدل كل ذلك بها. وقد بسطنا هذا فى كتابنا: إعجاز القرآن.

وجَعل الخشوعَ للقلوب خاصةً؛ إذ كان خشوعُ القلب غيرَ خشوع الجسم، فهذا الأخير لا يكون خشوعًا، بل ذلًا، أوضعَةً، أو رياء أو نفاقًا، أو ما كان، أما خشوعُ القلب فلن يكون إلا خالصًا مُخلَصًا مَحْضَ الإرادة.

واشترطَ «القلبَ» كأنه يقول: إنما القلب أساسُ المؤمن، وإن المؤمنَ ينبع من قلبه لا من غيره، متى كان هذا القلبُ خاشعًا لله وللحق. فإن لم يكن قلبُه على تلك الحال، نَبَعَ منه الفاسقُ والظالم الطاغيةُ وكلُّ ذى شر. ما أشبهَ القلبَ تتفرعُ منه معانى الخُلُق، بالحبَّة تَنسَرحُ منها الشجرة؛ فخُذْ نفسَك من قلبك كما شئت؛ حُلوًا من حُلو، ومُرًّا من مُرّ.

وخشوعُ القلب لله وللحق، معناه السموُّ فوق حب الذات، وفوق الأَثَرة والمطامع الفاسدة؛ وهذا يضع للمؤمن قاعدةَ الحياة الصحيحة، ويجعلُها فى قانونَين لا قانون واحد، ومتى خشع القلبُ لله وللحق، عَظُمتْ فيه الصغائر من قوّة إحساسِه بها، فيراها كبيرةً كبيرة وإن عَمِىَ الناسُ عنها، ويراها وهى بعيدةٌ منه بمثل عين العُقاب: يكون فى لوح الجوّ ولا يغيب عن عينه ما فى الثَّرَى.

وقد تخشع القلوبُ لبعض الأهواء خشوعًا هو شرٌّ من الطغيان والقسوة؛ فتقيُّدُ خشوع القلب «بذكر الله»، هو فى نفسه نَفىٌ لعبادة الهوى، وعبادة الذات الإنسانية فى شهواتها. وما الشهوةُ عند المخلوق الضعيف إلا إلهُ ساعتها. فياما أحكمَ وأعجب قول النبى ﷺ: «لا يزنى الزانى حين يَزنى وهو مؤمن، ولا يَسرقُ السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يَشربُ الخمرَ حين يشربها وهو مؤمن». جَعَلَ نزعَ الإيمان موقوتًا «بالحين» الذى تُقْتَرفُ فيه المعصية؛ إذ لم يكن الله عند هذا الشقىّ هو إله ذلك «الحين».

والخشوعُ لِمَا «نزَلَ من الحقّ» هو فى معناه نَفىُ آخرُ للكبرياء الإنسانية التى تُفسِد على المرء كلَّ حقيقة، وتَخرج به من كل قانون؛ إذ تجعل الحقائق العامة محدودةً بالإنسان وشهواته لا بحدودها من الحقوق والفضائل.

ويَخرج من هذا وذلك تقريرُ الإرادة الإنسانية، وإلزامُها الخيرَ والحقَّ دون غيرهما، وقهرُها للذات وشهواتِها، وجعلُها الكبرياء الإنسانية كبرياء على الدنايا

والخسائس، لا على الحقوق والفضائل؛ وإذا تقرر كل ذلك انتهى بطبيعته إلى إقرار السكينة فى النفس، ومحو الفَوضى منها، وجَعْل نظامها فى إحساس القلب وحده؛ فيحيا القلبُ فى المؤمن حياةَ المعنى السامى، ويكون نبْضُه علامةَ الحياة فى ذاتها، وخشوعُه لله وللحق علامةَ الحياة فى كمالها.

وقال: ﴿ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ كأنه يقول: إن هذا الحق لا يكون بطبيعته ولا بطبيعة الإنسان أرضيًّا، فإذا هو ارتفع من الأرض وقرّره الناسُ بعضُهم على بعض، لم يجاوز فى ارتفاعه رأسَ الإنسان، وأفسدتْه العقول؛ إذ كان الإنسان ظالمًا متمرّدًا بالطبيعة، لا تحكمه من أول تاريخه إلا السماءُ ومعانيها، وما كان شبيهًا بذلك مما يجيئُه من أعلى؛ أىْ بالسلطان والقوة؛ فيكون حقًّا «نازلاً» مُتدفِّعًا كما يَتصَوَّب الثُّقْلُ من عال ليس بينه وبين أن يَنفُذَ شيء.

والخشوعُ لما نزل من الحق ينفى خشوعًا آخر هو الذى أفسد ذاتَ البين من الناس، وهو الخشوعُ لما قام من المنفعة وانصرافُ القلب إليها بإيمان الطمع لا الحق.

وبحمل الآية على ذلك الوجه يتحقق العدلُ والنَّصفةُ بين الناس؛ فيكون العدل فى كل مؤمن شعورًا قلبيًّا، جاريًا فى الطبيعة لا مُتكلَّفًا من العقل؛ وبهذا وحده يكون للإنسان إرادةٌ ثابتة عن الحق فى كل طريق، لا إرادة لكل طريق، وتستمرّ هذه الإرادة مُتَّسقةً فى نظامها مع إرادة الله، لا نافرةً منها ولا متمردة عليها؛ وهذا وذلك يُثبِّت القلبَ مهما اختلفت عليه أحوالُ الدنيا، فلا يكون من إيمانه إلا سُموُّه وقوّتُهُ وثباتهُ، وينزل العمرُ عنده منزلةَ اللحظة الواحدة، وما أيسر الصبرَ على لحظة! ما أهونَ شرّ «الآن» إن كان الخيرُ فيما بعده.

ألمْ يأن؛ ألمْ يأن؛ ألمْ يأن...

* * *

قال الشيخ: وكان الحَسَنُ فى معانيه الفاضلة هو هذه الآيةَ بعينها؛ فما كانت حياتُه إلا إسلاميةً كهذا الكلام الأبيض المُشرق الذى سمعته منه؛ شعارُه أبدًا: «الآنَ قبل ألاّ يكون آن» وإمامُه: «خُذْ نفْسَك من قلبك» وطريقته «شَرفُ الحياة لا الحياةُ نفسُها».

وكان يـرى هذه الحياةَ كوَقْعة الطائر؛ هى جَناحين مسْـتوْفِزَين أبدًا لعمل آخر هو الأقوى والأشـدّ، فلا ينزلان بطائرهما على شىء إلا مَطْويين على قُدرة الارتفاع بـه، ولا يكونان أبدًا إلا هَفْهافَين خَفيفين علـى الطيرَان؛ إذ كانا فى حكم الجوّ لا فى حكم الأرض.

وآلةُ الوقوع والطَّيرَان بالإنسان شهواتُه ورَغبَاتُه؛ فإن حَطَّته شهوةٌ لا ترفعه، فقد أوبَقَته وأهلكتْه وقذفت به ليؤخَذ.

لقـد روينا عن النبى ﷺ : «لا يَبلُغُ العبدُ أن يكونَ من المتَّقين حتى يدَعَ ما لا بأسَ به حذَراً مما به بأس»، وهذا ضَربٌ من خشوع القلب المؤمن فيما يحلّ له: يَدَع أشياء كثيـرةً لا بأس فيها لو أتاها؛ ليَقوَى على أن يدعَ ما فيه بأس، فإن الذى يترك ما هُوَ له يكون أقوى على ترك ما ليس له.

والنفـسُ لابدَّ راجعة يومًا إلى الآخـرة، وتاركةٌ أداتَها؛ فقوام نظامها فى الحياة الصحيحة أن تكون كلَّ يوم كأنها ذهبتْ إلى الآخرة وجاءت. وتلك هى الحكمة فيما فرضته الشـريعةُ الإسـلاَمية من عبادة راتبة تكون جزءًا من عمل الحياة فى يومِها وليلتهـا. فـإذا لم تكن النفسُ فـى حياتها كأنها دائما تذهب إلـى مصيرها وترجع منه، طَمسَـها الجسمُ وحبَسـها فى إحدى الجهتين، فلم يبقَ لها فيه إلا أثر ضئيل لا يتجاوزُ النُّصح، كاعتراض المقتول على قاتله: يحاول أن يَرُدَّ السـيفَ بكلمة...! وبذلك يتضاعف الجسمُ فى قوتُه، ويشتدّ فى صَولته، ويتصرّف فى شهواته، كأن له بطنين يجوعان معًا... فتسْتهلكُ شهواتُ المرء دينه، وتقذف به يمينًا وشمالاً، على قصد وعلى غير قصد، تمضى به كما شاءت فى مَدْرجةٍ من الشرّ.

ومثلُ هذا المسرف على نفسـه لا يكون تمييزُه فى الدين، ولا إحساسُه بالخير، إلا كذلك السّكّير الذى زعموا أنه أراد التوبة، وكانت له جَرَّتان من الخمر، فلما اتَّعظ وبلغ فى النظر إلى نفسـه وحظ إيمانه، وأراد أن يطيعَ الله ويتوب. نظر إلى الجرَّتين ثم قال: أتُوب عن الشرب من هذه حتى تفرغَ هذه...!

* * *

قال الشيخ: ثم إنى تبتُ على يد الحسن، وأخلصتُ فى التوبة وصَحَّحْتُها، وعلمتُ من فعله وقوله أن حقيقة الدَّين هى كبرياء النفس على شرّها وظلمِها وشهوتها، وأن هـذه الكبرياء القاتلة للإثم، هـى فى النفس أُختُ الشـجاعة القاتلةِ للعدو الباغى: يفخر البطلُ الشـجاعُ بمبلغه من هذه، ويفخر الرجـل المؤمن بمبلغه من تلك؛ وأن خشوع القلب هو فى معناه حقيقةُ هذه الكبرياء بعينها.

وحدّثـتُ الحسـنُ يومًا حديثَ رؤياى[1]، وما شُـبّه لى من عملى السـيئ وعملى الصالح، فاستدْمَعَتْ عيناه، وقال:

إن البنتَ الطاهرةَ هى جهادُ أبيها وأمها فى هذه الدنيا، كالجهاد فى سبيل الله، وإنهـا فوزٌ لهما فى معركة من الحياة، يكونان هما والصبرُ والإيمانُ فى ناحية منها قَبِيلاً، ويكون الشيطانُ والهمُّ والحزنُ فى الجهة المُناوِحَةِ قبيلا آخر.

إن البنـتَ هـى أمُّ ودار، وأبَوَاهـا فيما يكابدان من إحسـان تربيتهـا وتأديبها وحياطتهـا والصبر عليها واليَقَظة لها، كأنما يحملان الأحجارَ على ظهرَيْهما حجرًا حجرًا، ليَبْتَنِيا تلك الدارَ فى يوم يومٍ إلى عشرين سنة أو اكثر، ما صَحِبَتْهُ وما بقيتْ فى بيته.

فليـس ينبغى أن ينظـر الأبُ إلى بنته إلا على أنها بنتُه، ثـم أمُّ أولادها، ثم أمُّ أحفـادهِ؛ فهـى بذلك أكبرُ من نفسـها، وحقُّها عليه أكبرُ من الحـق، فيه حُرْمتها وحرمةُ الإنسانية معًا؛ والأبُ فى ذلك يُقرض الله إحسانًا وحنانًا ورحمة، فحقّ على الله أن يُوَفِّيه من مثلها، وأن يُضْعِف له.

والبنت ترى نفسَها فى بيت أهلها ضعيفةً كالمنقطعة وكالعالَة، وليس لها إلا الله ورحمة أبويها؛ فإن رَحِمَاها، وأكرماها فوقَ الرحمة، وسـرَّاها فوقَ الكرامة، وقاما بحـق تأديبها وتعليمها وتفقيهها فى الدين وحَفظا نفسَـها طاهرة كريمةً مسـرورةً مؤدَّبـةً، فقد وضعا بين يَدَىِ الله عمـلًا كاملاً من أعمالهما الصالحة، وكما وضعاه بين

(١) ذكرت الرؤيا فى القسم الأول من هذه المقالة.

يدى الإنسانية. فإذا صارا إلى الله كان حقًّا لهما أن يجدا فى الآخرة يمينًا وشمالاً يذهبان بينهما إلى عفو الله وكرمه، وكما قال رسول الله ﷺ : «من كان له ابنةٌ فأدّبَها فأحسنَ تأديبها، وغَذَاها فأحسن غذاءها، وأسبغَ عليها من النعمة التى أسبغ الله عليه – كانت له مَيْمَنَةً ومَيْسرةً من النار إلى الجنة».

فهذه ثلاثٌ لا بد منها معًا، ولا تُجْزِئ واحدةٌ عن واحدة فى ثواب البنت: تربيةُ عقلها تربيةَ إحسان، وتربيةُ جسمها تربيةَ إحسان وإلطاف، وتربيةُ روحها تربيةَ إكرام وإلطاف وإحسان.

* * *

قال الشيخ: والله أرحمُ أن تضيعَ عنده الرحمة؛ والله أكرمُ أن يضيعَ الإحسان عنده، والله أكبر...

وهنا صاح المؤذِّن: الله أكبر.

فتبسَّم الشيخ وقام إلى الصلاة.

■■■

الأجنبية (*)

أَحَبَّهــا وأحبَّتْه، حتى ذهب بها فى الحب مَذهبًا قالت له فيه: «لو جاءنى قلبى فى صورة بشَـرِيَّة لأراه كما أحِسُّــه، لما اختار غيرَ صورتــك أنت فى رقَّتك وعطفك وحنانك» وحتى ذهبتْ به فى الحب مذهبًا قال لها فيه: «إن الجنة لا تكون أبدعَ فنًّا ولا أحسن جمالا، ولا أكثر إمتاعًا - لو خُلِقتْ امرأةً يهواها رجل - إلا أن تكون هى أنت!» فقالت له: «ويكونَ هو أنتَ... !».

وتَدَلَّهَتْ فيه، حتى كأنما خَلَبها عقلَها ووضع لها عقلاً من هواه؛ فكانت تقول له فيما تَبُثُّه من ذاتِ نفسها: «إن حبَّ المرأة هو ظهورُ إرادتها مُتَبَرئةً من أنها إرادة، مُقِرةً أنها مع الحبيب طاعةٌ مع أمر، مُذْعِنَةً أنها قد سلَّمت كبرياءها لهذا الحبيب، لتراه فى قوته ذا كبريائين».

وافتتَنَ بها حتى أخذتْ منه كلَّ مأخَذ، فملأتْ نفسَــه بأشـياء، وملأت عينَه من أشياء؛ فكان يقول لها فى نجْواه: «إنى أرى الزمَن قد انْتَسَخَ مما بينى وبينك، فإنما نحن بالحب فى زمن من نَفْسَـيْنا العاشــقتين، لا يُسمّى الوقتَ ولكن يسمَّى السرور؛ وإنمــا نعيشُ فى أيامٍ قلبيَّة، لا تدلُّ على أوقاتها الســاعةُ بدقائقها وثوانيها، ولكن السعادة بحقائقها ولذَّاتِها».

وتحابَّــا ذلك الحبّ الفنىّ العجيبَ، الذى يكــون ممتلئًا من الروحين يكاد يفَيضُ وينسكب، وهو مع ذلك لا يَبْرحُ يطلبُ الزيادة، ليتخيل من لذتها ما يتخيلُ السِّكِّيرُ فى نَشْوْته إذا طَفحَتْ الكأس، فيرى بعينيه أنها ستتسع لأكثر ما امتلأتْ به، فيكون له بالكأس وزيادتِها، سُكْرُ الخمر وسكرُ الوهم.

تحابّا ذلك الحبّ الفَوَّار فى الدم، كأن فيه من دوْرته طبيعة الفراقِ والتلاقى بغيرِ تــلاق ولا فــراق؛ فيكونان معًا فى مجلســهما الغَزلىّ، جَنْبُهُ إلــى جنبها وفَاهَا إلى

(*) انظر «الرافعى العاشق» من كتاب «حياة الرافعى».

فيه[1] وكأنما هربَتْ ثم أدْركَها، وكأنما فَرّتْ ثم أمْسَكَها. وبين القُبْلَةِ والقُبلة هِجران وصُلح، وبين اللفْتَةِ واللفتة غَضب ورضى.

وهذا ضـرْب من الحب يكونُ فى بعض الطبائع الشـاذّة المسـرفة، التى أفرطت عليهـا الحياةُ إفراطها فيلفّ الحيوانية بالإنسـانية، ويجعل الرجل والمرأة كبعض الأحماض الكيماوية مع بعضها؛ لا تلتقى إلا لتتمازج، ولا تتمازجُ إلا لتَتحِد ولا تتحدُ إلا ليبتلع وجودُ هذا وجود ذاك.

* * *

وضَرب الدهرُ من ضَرباتهِ فى أحداث وأحداث؛ فأبغضتْه وأبغضَها، وفَسَـدت ذاتُ بينهمـا، وأدبـر منها ما كان مُقْبِـلاً؛ فوثَب كلاهما من وجود الآخـر وثْبة فَزع على وجهه. أما هو فَسَخِطَها لعيوب نفسها، وأما هى... وأما هى فَتَكَرَّهَتْه لمحاسنِ غيره!

وانْسـربتْ أيامُ ذلك الحب فى مَسَـارِيها تحت الزمن العميق الذى طَوى ولا يزالُ يَطْـوى ولا يبرحُ بعد ذلك يطـوى؛ كما يغورُ الماءُ فى طِبـاقِ الأرض. فأصبح الرجل المسـكين وقد نزلتْ تلك الأيامُ من نفسه منزلة أقارب وأصدقاء وأحباءَ ماتوا بعضُهم وراء بعض، وتركوه ولكنهم لم يبرحوا فِكْره، فكانوا له مادَّة حسرة ولَهْفة. أما هى.. أما هى فانشقَّ الزمنُ فى فكرها بِرجَّة زلزلة، وابتلع تلك الأيام ثم التأم...!

* * *

فحدّثنا «الدكتور محمد»[*] رئيسُ جماعة الطلبة المصريين فى مدينة... بفرنسا، قال: «وانتهـى إلىَّ أن صاحبنا هذا جاء إلى المدينة وأنه قادم من مصر، فتَخَالَجنى الشوقُ إليه، ونزَعَتْ إلى لقائه نفسى، وما بيننا إلا معرفتى أنه مصرى قَدِم من مصر؛ وخُيّل إلىَّ فى تلك الساعة مما اهْتَاجَنى من الحنين إلى بلادى العزيزة، أن ليس بينى

---

(١) تأويل هذا فى باب (الحال) عند ظرفاء النحويين: متلاصقين متعانقين.

(*) هو ولده الدكتور محمد الرافعى، وكان يدرس وقتئذ فى جامعة ليون، وقد أنشأ من أجله هذه القصة لتكون رسالة إليه برأيه فى موضوع بخصوصه.

وبين مصر إلا شارعان أقطعهما فى دقائق؛ فخففتُ إليه من أقرب الطرق إلى مَثْواه، كما يصنعُ الطيرُ إذا ترامى إلى عُشهِ فابْتَدرهُ من قُطْرِ الجوّ.

قال: وأصبْتُه واجِمًا يعلوه الحزن، فتعرَّفتُ إليه، فما أسرعَ ما مَلأ من نفسى وما ملأتُ من نفسه. وكما يَمَّحى الزمان بين الحبيبَين إذا التقيا بعد فُرقة - يتلاشى المكانُ بين أهلِ الوطن الواحد إذا تلاقَوا فى الغُربة. فذابت المدينةُ الكبيرةُ التى نحن فيها، كأن لم تكن شيئًا؛ وتجلى سحرُ مصر فى أقوى سَطوتِهِ وأشدها فأخَذَنا كِلَينا، فما استشعرْنا ساعَتَئذ إلا أن أوربا العظيمة كأنما كانت مرسومةً على ورقة، فطويناها وأحللْنا مصر فى محلها.

وطغَى علينا نازعُ الطَرب طُغيانًا شديدًا، فأرسلْتُ من يجمعُ الإخوان المصريين، واخترتُ لذلك صديقًا شاعر الفطرة، فَنزا به الطربُ، فكان يدعوهم وكأنه يُؤذّن فيهم لإقامة الصلاة. وجاءوا يُهَرْوِلُون هَرْولة الحَجيج، فلو نَطَقتِ الأرضُ الفرنسية التى مَشَوا عليها تلك المِشْية لقالت: هذه وطْأةُ أسود تتخيّل خُيَلاءها من بَغْيِ النشاطِ والقوة.

ألا ما أعظمك يا مصر، وما أعظم تعنتك فى هذا السحر الفاتن! أينبغى أن يغترب كلُّ أهلك حتى يدركوا معنى ذلك الحديث النبوىّ العظيم: «مصركِنانةُ الله فى أرضه». فيعرفوا أنك من عَزّتك معلقة فى هذا الكون تعليق الكنانة فى دار البطَل الأرْوع؟

قال «الدكتور محمد»: واجتمعنا فى الدار التى أنزلُ فيها، فراع ذلك صاحبة مَثْواى[1]، فقلت لها إنّ ههنا ليلةً مصريةً ستحتلُّ ليلتكم هذه فى مدينتكم هذه، فلا تجزعوا. ثم دعوتها إلى مجلسنا لتشهَد كيف تَسْتَعْلِنُ الروحُ المصرية الاجتماعية برقّتها وظَرفِها وحماستها، وكيف تُفسر هذه الروحُ المصريةُ كلَّ جميل من الأشياء الجميلة بشوق من أشواقها الحنانة، وكيف تكون هذه الروحُ فى جوِّ موسيقيَّتها

(١) صاحبة المثوى هى ربة البيت الذى ينزل فيه الضيف ومن كان فى حكمه، يقول العربى: من كانت صاحبة مثواك؟ فتطلق على صاحبة البنسيون.

الطبيعية حين تُناجِي أحبابها، فيجيءُ حديثُها بطبيعته كأنه دِيباجةُ شاعر فى صفائها وحلاوتها ورنين ألفاظها؟

وقالت السيدة الظريفة: يا لها سعادة! سأتخِذ زينتى، وأصلح من شأنى، وأكون بعد خمس دقائق فى مصر!

قال الدكتور: وأخذْنا فى شأننا، وكان معنا طالبٌ حسنُ الصوت، فقام إلى البيانة[1] وغَنَّى مقطوعة «طقطوقة» مصرية من هذه المقاطيع التى تُطَقْطِقُ فيها النفس، فجعل يمطُلُ صوتهُ بآه وآه ودار اللحنُ دورةً تأوَّهتْ فيها الكلماتُ كُلُّها. ثم اعْتور البيانة طالبٌ آخر فما شذَّ عن هذه السنة، وكان بعد الأول كالنائحة تُجاوِبُ النائحة! فمالت علىَّ السيدة الفرنسية وأسَرَّتْ إلىَّ: أهاتان امرأتان أم رجلان...؟ فقلت لها: إن هذا لحنٌ تاريخى ذو مقطوعتين، كانت تتطارحُه كيلوباترا وأنطونيو، وأنطونيو وكيلوباترا... فأعْجِبت المرأةُ أشدَّ الإعجاب، وأكبرتْ منا هذا الذوق المصرىّ أن نكْرمها لوجودها فى مجلسنا بألحان الملِكة المصرية الجميلة، وطربت لذلك أشدَّ الطرب،وملكها غرور المرأة، فجعلت تستعيد: «يالوعتى ياشقاى ياضنى حالى...» وتقول: ما كان أرقَّ كيلوباترا! ما كانَ أرقَّ أنطونيو! يالَفِتنةِ الحب المَلكى...!

قال «الدكتور محمد»: ثم خجلتُ والله من هذا الكلام المخنث، ومن تلفيقى الذى لفقتُه للمرأة المخدوعة، فانتفضْت انتفاضةَ من يملؤه الغضب، وقد حَمِىَ دمهُ، وفى يده السيفُ الباتر، وأمامه العدوّ الوقْح؛ وثُرْتُ إلى البيانة فأجريت عليها أصابعى، وكأنّ فى يدىَّ عشرةَ شياطين لا عشر أصابع، ودوَّى فى المكان لحنُ: «اسلمى يا مصر» وجَلْجَلَ كالرعد فى قُبة الدنيا، تحت طِباق الغَيم، بين شَرارِ البرق. فكأنما تَزَلْزَلَ المكان على السيدة الفرنسية وعلينا جميعًا وصَرَخ أجدادُنا يزْأرون من أعماق التاريخ: «اسلمِى يا مصر...»[2]

---

(١) البيانة: كلمة استعملناها فى كتابنا (السحاب الأحمر) للبيانو، وتجمع على بيانات.

(٢) هذا هو النشيد الذى وضعناه على لسان سعد باشا زغلول، وهو اليوم النشيد الوطنى لمصر كلها، يحفظه جميع الطلبة، الكشافة، والأندية الرياضية، وغيرها.

ولمـا قطَعْتُ التفتُّ إليها فى كبرياء تلك الموسـيقى وعظمتها وقلت لها : هذا هو غناؤنا نحن الشبانَ المصريين.

ثم راجَعْنا صاحبَنا الضيفَ، وأحفيناه بالمسـألة، فقال بعد أن دافَعَنا طويلاً: إنه يُحسن شيئًا من الموسيقى وإن له لحنًا سيُطارِحُنا به لنأخذَه عنه. فطرنا بلَحْنه قبل أن نسمعَه، وقلنا له: افعلْ متفضلًا مشكورًا ومازلنا حتى نهض متَثاقلاً، فجلس إلى البيانة وأطرق شيئًا، كأنه يُسَوّى أوتارًا فى قلبه، ثم دَقَّ يتَشَاجَى بهذا الصوت:

أَضَاعَ غَدى مَن كـان فى يَدِهِ غَدِى وحَطمنى من كان يَجْهَدَ فى سَبْكِى!

فإن كنت لا آسَى لنفسى فَمَنْ إذن؟ وإن كنتُ لا أَبكى لنفسى فمن يَبكى[1]

قال «الدكتور محمد»: فكان الغناء يَعْتَلِجُ فى قلبه اعتلاجًا، وكانت نفسُـه تبكى فيه بكاءَها وتَغَضُّ من غُصّتها، وكأن فى الصوت فكرًا حزينًا يستْعلِن فى همّ موسيقى، وخيـل إلينا بيـن ذلك أن البيانة انقلبت امـرأة مغنية تُطارحُ هـذا الرجلَ عواطفَها وَأحزانها، فاجتمع من صوتهما أكملُ صوتٍ إنسانىّ وأجملُه وأشجاه وأرقُّه.

فأطَفْنا به وقلنا له: لقد كتمْتَنا نفسـك حتى نَمَّ عليها ما سـمعنا، وما هذا بغناء، ولكنه همومٌ مُلَحنةٌ تلحينًا، فلن ندعَك أو تُخَبرَنَا ما كان شأنُك وشأنها.

فاعْتَـل علينـا ودافَعَنا جهدَه، فقلنا لـه: هيهات؛ والله لـن نُفْلِتَكَ وقد صرت فى أيدينا، وإنك ما تزيدُ على أن تَعِظَنا بهذه القصة؛ فإن أمسـكت عنها فقد أمسـكتَ عن موعظتنـا، وإن بخلـتَ فما بخلتَ بقصتك بل بعلم من علم الحيـاة نُفيدُهُ منك، وأنت ترانا نعيش هاهنا فى اجتماع فاسد كأنه قِصصٌ قلبيّة، بين نساء لا يَلْبَسْنَ إلا ما يعرِّى جمالَهن، وفى رجالٍ أفرطتْ عليهم الحرية، حتى دخل فيها مَخْدعُ الزوجة...!

قـال الدكتور: ونظرتُ فإذا الرجل كاسِـفٌ قـد تَغير لونَه وَتَبَيَّن الانكسـارُ فى وجهه، فألْمَمْتُ بما فى نفسه، وعلمتُ أنه قد دهى فى زوجة من هؤلاء الأوربيات، اللواتى يتزوَّجن على أن يكونَ مخدعُ المرأة منهن حرًّا أن يأخذَ وَيَدَعَ، ويُغيّرَ ويبدّل، وَيقْسم كلمةَ «زوج» قسمين وثلاثةً وأربعة وما شاء..

---

(١) وضعنا هذين البيتين لبطل القصة، وكم لهذه القصة من أبطال...!

وكأنما مَسسْتُ البارودَ بتلك الشرارة، فانفجرتْ نفسُ الرجل عن قصة ما أفظعَها !

***

قال: يا إخوانى المصريين، قبل أن أنْفُضَ لكم ذلك الخبر أسديكم هذه النصيحةَ التى لم يَضَعها مؤلف تاريخِى لسوء الحظّ، إلا فى الفصل الأخير من رواية شقائى:

إياكم إياكم أن تَغْتروا بمعانى المرأة، تحسبونها معانىَ الزوجة؛ وفَرِّقوا بين الزوجة بخصائصها، وبين المرأة بمعانيها، فإن فى كل زوجةٍ امرأة، ولكن ليس فى كل امرأة زوجة.

واعلموا أن المرأة فى أنوثتها وفنونِها النسائية الفرديّة، كهذا السحاب الملوَّن فى الشفق حين يبدو؛ له وقتٌ محدود ثم يُمسخُ مسخًا، ولكنَّ الزوجة فى نسائيّتها الاجتماعية كالشمس؛ قد يحجبها ذلك السحاب، بَيْدَ أن البقاء لها وحدها، والاعتبار لها وحدها، ولها وحدها الوقتُ كلّه.

لا تتزوجوا يا إخوانى المصريين بأجنبيةً، إن أجنبية يتزوج بها مصرىّ، هى مُسَدسُ جرائمَ فيه سِتُّ قذائف:

الأولى: بَوارُ امرأةٍ مصرية وضيَاعُها بضَياع حقها فى هذا الزواج؛ وتلك جريمةٌ وطنية. فهذه واحدة.

والثانية: إقحام الأخلاقِ الأجنبية عن طباعنا وفضائلنا فى هذا الاجتماع الشرقى، وتوهينُه بها وصَدْعُه؛ وهى جريمةٌ أخلاقية.

والثالثة: دَسُّ العُروقِ الزائغةِ فى دمائنا ونسْلِنا؛ وهى جريمةٌ اجتماعية.

والرابعة: التمكين للأجنبى فى بيت من بيوتنا، يملكهُ ويحكُمُه ويُصرَّفهُ على ماشاء؛ وهى جريمة سياسية.

والخامسة: للمُسْلمْ منا إيثارُه غيرَ أختِه المسلمة، ثم تحكيمُه الهوى فى الدين، ما يعجبُه وما لا يعجبُه، ثم إلقاؤه السمَّ الدينىّ فى نَبْع ذرّيته المقبلة، ثم صَيْرورَتُه خزْيًا لأَجداده الفاتحين الذين كانوا يأخذونهنّ سَبايا، ويجعلونهن فى المنزلة

الثانيــة أو الثالثــة بعد الزوجة؛ فأخذتْــه هى رقيقًا لها، وصــار معها فى المنزلة الثانية أو الثالثة بعد[1]... وهذه جريمةٌ دينية.

والسادسة: بعد ذلك كله، أن هذا المسكين يُؤْثِر أسفلَه على أعلاه... ولا يُبالى فى ذلك خمسَ جرائم فظيعة.

وهذه السادسة جريمة إنسانية!

* * *

ما كنتُ أحسبُ يا إخوانى، وقد رجعتُ بزوجتى الأوربية إلى مصر، أنى أحضرتُ معى من أوربا آلةً تصنع أحزانى ومصائبى! ولم يكن وَعَظَنى أحدٌ بما أعِظُكم به الآن، ولا تنبهتُ بذكائى إلى أن الزوجةَ الأجنبيةَ تثْبِتُ لى غُربتى فى بلادى! وتُثبتُ علىّ أنى غير وطنى أو غير تامّ الوطنية، ثم تكونُ منى حماقةً تثبت للناس أنى أحمق فيما اخترت؛ ثم تعودُ مشكلةً دولية فى بيتى، يزورها أبناء جنسها وَيَسْتَزِيرونها برغم أنفى وفمى ووجهى كله! ويسـتطيلون بالحماية، ويستترون بالامتيازات، ويرفعون ستارًا عن فصل، ويُرْخون ستارًا على فصل... وأنا وحدى أشهدُ الرواية..!

إن الشـيطانَ فى أوربا شـيطانٌ عالم مخترع؛ فقد زين لى مـن تلك الزوجة ثلاثَ نسـاء معًا: زوجةً عقلية، وزوجةً قلبية، وزوجةً نفسية؛ ثم نَفَثَ اللعينُ فى رُوعى أن المــرأة الشـرقيةَ ليس فيها إلا واحدة، وهى مع ذلك ليسـت مـن هؤلاء الثلاث ولا واحدة. قال الخبيث: لأنها زوجةُ الجسم وحده، فلا تسمو إلى العقل، ولا تتصل بالقلــب، ولا تمتزج بالنفـس؛ وأنها بذلك جاهلة، غليظةُ الحسّ، خَشِـنَةُ الطبع، لا تكون مع المصرىّ إلا كما تكون الأرضُ المصريةُ مع فلاَّحها...

لعنــةُ الله على ذلك الشـيطان الرجيم العالـم المخترع! ما علمـتُ إلا من بَعدُ أن هذه الشـرقيةَ الجاهلةَ الخشنةَ الجافيةَ، هى كالمنْجَم الذى تِبْرُهُ فى تُرابه، وماسُه فــى فَحْمِــهِ، وجوهرُه فى معدنــه، وأن صعوبتَها من صعوبة العفــةِ الممتِنعة، وأن

---

(١) يريد: بعد عشيقها.

خشـونتَها من خشونة الحب المعتز بنفسـه، وأن جفاءها من جفاء الدين المتسامى علـى المادة؛ وأنها بمجمـوع ذلك كان لها الصبرُ الـذى لا يَدخُله العجز، وكان لها الوفاء الذى لا تَلحقُه الشبهة، وكان لها الإيثار الذى لا يُفسِده الطمع.

هـى جاهلةٌ، ولها عقل الحياة فى دارها؛ وغليظةُ الحس ولها أرَقُّ ما فى الزوجة لزوجها وحده؛ وخَشِنَةُ الطبع؛ لأنها تتنزّه أن تكون مَلمَسًا ناعمًا لهذا وذاك وهؤلاء وأولئك... لا كامرأة الحب الأوربية، التى تجعلُ نفسها أنثى الفن، وتريد أن تعيشَ دائمًا مع زوجها الشـرقىّ من التفضيل والإيثار والإجلال والإباحة – فى كلمة «أنا» قبل كلمة «أنت».. امرأةٌ أنشـأتها الحربُ العظمى بأخلاق مُخَرّبة مُدَمرة تنفجِرُ بين الوقت والوقت.

عندنا يا إخوانى تعدُّدُ الزوجات، يتهموننا به عمى وجهل وسخافة. انظروا، هل هو إلا إعلانٌ لشـرعية الرجولة والأنوثة، ودينية الحياة الزوجية فى أىّ أشـكالها؛ وهل هـو إلا إعلانُ بطولةِ الرجلِ الشـرقّى الأنُوف الغَيـور، أن الزوجةَ تتعدّد عند الرجل ولكن... ولكَن ليس كما يقع فى أوربا من أنّ الزوجَ يتعدّد عند المرأة...!

يتهموننا بتعدّد المرأة على أن تكون زوجةً لها حقوقُها وواجباتُها – بقوة الشرع والقانـون – نافذةً مؤَدَّاة؛ ثم لا يتهمون أنفسَـهم بتعدّد المـرأة خليلةً مخادنةً ليس لها حقّ على أحد، ولا واجبٌ من أحد، بل هى تَتَقَاذَفُها الحياةُ من رجُل إلى رجل، كالسكير يتقاذفه الشارع من جِدار إلى جدار.

لعنةُ الله على شيطان المدنية العالم المخترع المخنث، الذى يجعلُ للمرأة الأوربية بعد أن يتزوجَها الرجلُ الشـرقى، أصابعَ «أوتوماتيكية»، ما أسرعَ ما تمتد فى نَزْوَةٍ من حماقاتها إلى رجُلِها بالمسدّس، فإذا الرصاصُ والقتل؛ وما أسرعَ ما تمتد فى نزوة من عواطفها إلى عاشقها بمفتاح الدار، فإذا الخيانة والعُهر!!

مـاذا تتوقعون يا إخوانى من تلك الرقيقة الناعمـة، المتأنثة بكل ما فيها أنوثةً تكفى رجالًا لا رجلًا واحدًا، وقد ضعُفَت روحيةُ الأسرة فى رأيها، وابْتُذِلت الروحيةُ فـى مجتمَعِهـا ابتذالا، فأصبح عندها الـزواج للزواج على إطلاقـه، لا لتكون امرأة

واحدة لرجل واحد مقصورة عليه؛ وبذلك عاد الزواجُ حقًّا فى جسم المرأة دون قلبها وروحها؛ فإن كان الزوجُ مشئومًا منكوبًا لم يستطع أن يكون رَجُلَ قلبها فعليه أن يَدَعَ لها الحرية لتختارَ زوجَ قلبها...! ومعنى ذلك أن تكون هذه المرأة مع الزوج الشرعىّ بمنزلة المرأة مع فاسق؛ ومع الفاسق بمنزلة المرأة مع الزوج الشرعىّ...! وإن كان الرجل منحوسًا مُخيَّبًا، وكان قد بَلَغَ إلى قلبها زمنًا ثم مله قلبُها، فعليه أن يَدعَ لها الحرية لتنتقل وتَلذَّ بلذات الهوى، ويقولَ لها: شأنَكِ بمن أحببتِ! فإن هذا المنحوس المخَيّب ليس عندها إنسانًا، ولكنه رواية إنسانيةٌ انتهى الفصلُ الجميل منها بمناظره الجميلة، وبدأ فصلٌ آخَر بحوادثَ غير تلك. فَلِمَن يشهدُ الروايةَ أن يتبرَّمَ ما شاء، ويستثقلَ كما يشاء، ومتى شاء انصرف من الباب...!

امرأةُ هذه المدنية فى امرأةُ العاطفة؛ تتعلق باللفظ حين تُلْبِسُه العاطفةُ من زينتها، وإن ضاع فيه المعنى الكبير من معانى العقل، وإن فاتت به النعمة الكبيرة من نعم الحياة.

تقوى العاطفةُ فتجئ بها إلى رجل، ثم تقوى الثانيةَ فتذهبُ بها مع رجل آخر...! وتُقَيد نفسها إن شاءت، وتُسرّح نفسها إن شاءت، وما بُد من أن تَبْلوَ الحياة كما يبلوها الرجلُ وأن تخوضَ فى مشاكلها، وإذا شاءت جعلت نفسَها إحدى مشاكِلها...! ولا مندوحةَ من أن تتولى شأنَ نفسها بنفسها، فإذا خَاسَتْ أو غدرتْ فكلُّ ذلك عندها من أحكام نفسها، وكلُّ ذلك رأىٌ وحقّ؛ إذ كان مِحْوَرُها الذى تدورُ عليه هو عاطفتَها وحريةَ هذه العاطفة، فَمَن هذا يُقَرّر لها خطتَها، ويُملى عليها واجباتها، ويُزَوّر لها الأسماء على إرادته دون إرادتها، فيسمى لها نَكَدَ قلبها باسم فضيلة المرأة، وحرمانَ عاطفتِها باسم واجب الزوجة الشريفة؟

ومَن ذا خَوّلَه الحقَّ أن يقرر وأن يُملى؟

وهذا الشرقىُّ العتيقُ المأفونُ الذى قَبِلَها سافرةً لا تعرف رُوحُها ولا جسمُها الحجاب؛ ما بالُهُ يريد أن يضربَ الحجابَ على عاطفتها، ويتركَها محبوسةً فى شَرَفِه وحقوقِه وواجباتِه، وإن لم تكن محجوبةً فى الدار؟

ما علمتُ يا إخوانى إلا مِن بَعد، أن الزوجةَ الغربية قد تكونُ مع زوجها الشرقى كالسائحة مع دليلها. هيهات هيهات، إنه لن يُمسكَها عليه، ولن يُكْرِهها على الوفاء له، إلا أن تكونَ حُثَالةً يزهدُ فيها حتى ذُبابُ الناس؛ فيأسُها هو يجعل هذا المسكينَ مطمَعَها، وهى مع ذلك لو خلطَتْه بنفسها لبقيتْ منها ناحيةٌ لا تختلط؛ إذ ترى أمتَه دون أمتها، وجنسَه دون جنسها؛ فما تَسُب أمةَ زوجها وبلاَده بأقبحَ من هذا!

أما والله إن الرجل الشرقى حين يأتى بالأجنبية لتَلوِين حياته بألوان الأنثى.... لا يكون اختار أزهى الألوان إلا لتلوين مصائبِ حياته! وقد يكون هناك ما يَشذُّ، ولكن هذه هى القاعدة.

* * *

أما قصتى يا إخوانى.......

قال الدكتور محمد: قد حكيتَها «يرحمك الله».

■■■

قصيدة مترجمة عن الشيطان

لحوم البحر (*)

لكأنما والله تمدَّد على سِيفِ البحر فى الإسكندارية شيطانٌ ماردٌ من شياطينِ ما بينَ الرجلِ والمرأة، يخدعُ الناسَ عن جهنمَ بتبريد معانيها... وقد امتلأ به الزمانّ والمكان؛ فهو يُرْعِشُ ذلك الرملَ بذلك الهواء رَعشَةَ أعصاب حية؛ ويُرْسل فى الجو نفخَات من جُرأة الخمر فى شاربها ثَارَ فَعَرْبد، ويُطلعُ الشمسَ للأعين فى منظر حَسْناء عُريانة ألقتْ ثيابَها وحياءها معًا؛ ويُرخِى الليلَ ليغطىَ به المَخَازِى التى خجل النهارُ أن تكونَ فيه.

ولَعَمرى إن لم يكن هو هذا الماردَ، ما أحسَبُه إلا الشيطانَ الخبيث الذى ابتدع فكرةَ عرضِ الآثام مَكشوفةً فى أجسامها تحت عين التقىّ والفاجر، لتعملَ عَملَها فى الطباع والأخلاق؛ فَسَوَّلَ للنساء والرجال أن ذلك الشاطئ علاجُ الْمَلَل من الحر والتعب، حتى إذا اجتمعوا، فتقارَبوا، فتَشَابكوا، سَوَّلَ لهم الأخرى أن الشاطئ هو كذلك علاج الملَل من الفضيلة والدين!

وإن لم يكن اللعينان فهو الرجيمُ الثالث، ذلك الذى تَألّى أن يُفْسد الآدابَ الإنسانيةَ كلها بفساد خُلُق واحد، هو حَياء المرأة؛ فبدأ يكشفُها للرجال من وَجهها، ولكنه استمرَّ يكشف... وكانت تظنه نَزْعَ حجابِها فإذا هو أولُ عُرْيها... وزادت المرأةُ، ولكن بما زاد فجورَ الرجال؛ ونقَصتْ، ولكن بما نَقَصَ فضائلَهم؛ وتغيرت الدنيا وفَسَدت الطباع؛ فإذا تلك المرأة ممن يُقرُّونها على تَبذّلها بين رجلين لا ثالثَ لهما: رجلٍ فَجَرَ، ورجل تخنث...

❊ ❊ ❊

(*) كتبها فى مصيفه بالإسكندرية.

هناك فكرةٌ من شريعة الطبيعة هى عقلُ البحر فى هؤلاء الناس، وعقلُ هؤلاء الناس فى البحر؛ إذا أنت اعترضتَها فتبينتها فتعقبتَها، رأيتَها بلاغةً من بلاغة الشيطان فى تزيينه وتَطْويعهِ، وأصبتَ فكرَهُ مستقرًّا فيها استقرارَ المعنى فى عبارته، آخذًا بمداخلها ومَخارجها. وما كان الشيطانُ عَيِيًّا ولا غبيًّا، بل هو أذكى شعراء الكون فى خَياله، وأبلغُهم فى فطنته، وأدقُّهم فى منطقه، وأقدرُهم على الفتنة والسحر؛ فى هذا كلّه كان شيطانًا لم تَسَعْه الجنةُ إذ ليس فيها النار، ولم تُرضِه الرحمةُ إذ ليس معها الغضَب، ولم يُعجبه الخضوعُ الملائكى إذ ليس فيه الكِبرياء، ولم يَخْلص إلى الحقيقة إذ لا تحملُ الحقيقةُ شِعرَ أحلامه.

وما أتى الشيطانُ أحدًا، ولا وسوس فى قلب، ولا سَوَّلَ لنفس، ولا أغوى من يغويه - إلا بأسلوب شعرىّ مُلْتَبِس دقيق، يجعلُ المرء يعتقد أن اطراحَ العقلِ ساعةً هو عقلُ الساعة، ويُفْسِدُ برهانَهُ مهما كان قويًّا؛ إذ يرتدُّ به من النفس إلى أخْيِلة لا تقبلُ البرهانات، ويقَطعُ حجتَه مهما كانت دامغة؛ إذ يعترضها بنزعة من النزعات توجهها كيف دارَ بها الدم لا كيف دار بها المنطق.

فكرةٌ من شريعة الطبيعة، ظاهرُها لِبَعْضِ الأمر من الشمسِ والهواء والبحر وما لا أدرى، وباطنُها لبعض الأمر من فن الشيطان وبلاغتِه وشِعره وما لا أدرى؛ وما كانت الشرائعُ الإلهية والوضعيةُ إلا لإقرار العقل فى شريعة الطبيعة كى تكون إنسانيةً لإنسانها كما هى الحيوانيةُ لحيوانها، وليجد الإنسانُ ما يحفظُ به نفسَه من نفسه التى هى دائمًا فَوضى، ولا غاية لها لولا ذلك العقلُ إلا أن تكون دائمًا فوضى...

وبالشرائع والآدابِ استطاع أن يضع لكلمة الطبيعة النافذةِ عليه جوابًا، وأن يرى فى هذه الطبيعة أثر جَوابه؛ فكلمتُها هى: أيها الإنسان، أنت خاضعٌ لى بالحيوانىِّ فيك. وكلمته هى: أيتها الطبيعة، وأنتِ لى خاضعة بالإلهىّ فىّ.

***

والآن سأقرأ لك القصيدة الفنّية التى نظمَها الشيطانُ على رمل الشاطئ فى الإسكندرية؛ وقد نقلتها أترجمها فصلا بعد فصل عن تلك الأجسام عاريةً وكاسية،

وعن معانيها مكشـوفةً ومغطَّاة، وعن طباعها بريئة ومتهمة، حتى اتَّسَقت الترجمةُ على ما ترى:

قال الشيطان:

«ألا إن البهيمة والعقلية فى هذا الإنسان؛ مجموعُهما شيطانية...

ألا وإنه ما من شيء جميل أو عظيم إلا وفيه معنى السخرية به.

هنا تتعرَّى المرأة من ثوبها، فتتعرى من فضيلتها.

هنا يخلعُ الرجلُ ثوبَه، ثم يعودُ إليه فيلبسُ فيه الأدب الذى خَلَعه...

رؤية الرجلِ لحم المرأة المحرَّمة نظرٌ بالعين والعاطفة.

يَرمى ببصره الجائع كما ينظر الصقرُ إلى لحم الصَّيد.

ونَظَرُ المرأةِ لحم الرجلِ رؤيةُ فكر فقط...

تُحوِّلُ بصرها أو تخفِضُه، وهى من قلبِها تنظر...

يا لحوم البحر! سلخَكِ من ثيابك جزَّار...!

* * *

«يا لحوم البحر! سلخكِ جزارٌ من ثيابك.

جزارٌ لا يذبح بألم ولكن بلذَّة...

ولا يَحِزُّ بالسكين ولكن بالعاطفة...

ولا يُميت الحيَّ إلا موتًا أدبيًّا...

إلى الهيجاء يا أبطال مَعركةِ الرجال والنساء.

فهنا تلتحمُ نواميسُ الطبيعة ونواميسُ الأخلاق.

للطبيعة أسـلحة العُـرْى، والمخالطـة، والنظر، والأنـس، والتّضاحُك، ونزُوعِ المعنى إلى المعنى...

وللأخلاقَ المهزومةِ سلاحٌ من الدين قد صدِئ؛ وسلاحٌ من الحياء مكسور! يا لحوم البحر! سلخكِ من ثيابك جزار...

* * *

«الشاطئ كبيرٌ كبير، يسعُ الآلاف والآلاف.
ولكنه للرجل والمرأة صغيرٌ صغير، حتى لا يكون إلا خَلْوة...
وتقضي الفتاة سنتَها تتعلم، ثم تأتى هنا تتذكر جهلها وتعرفُ ما هو....
وتُمضى المرأة عامَها كريمة، ثم تجيء لتجد هنا مادة اللؤم الطبيعى...
لو كانت حَجَّاجَةً صوَّامَةً، للعنتْها الكعبةُ لوجودها فى «استانلى».
الفتاة ترى فى الرجال العُرْيانين أشباح أحلامِها، وهذا معنى من السقوط.
والمرأة تُسارِقُهم النظَر تنويعًا لرجُلِها الواحد، وهذا معنى من المَواخِير..
أين تكونُ النيةُ الصالحةُ لفتاة أو امرأة بين رجال عريانين؟
يا لحوم البحر! سلخكِ من ثيابك جزار....!

* * *

«هناك التربية، وهنا إعلانُ الإغفال والطَّيش.
وهناك الدين، وهنا أسبابُ الإغراء والزلَل.
هناك تَكلُّفُ الأخلاق، وهنا طبيعةُ الحرية منها.
وهناك العزيمةُ بالقَهر يومًا بعد يوم، وهنا إفسادها بالترخص يومًا بعد يوم.
والبحرُ يعلِّم اللاّئى والذين يسبحون فيه كيف يغرقون فى البر...
لو درى هؤلاء وهؤلاء مَعرَّة اغتسالهِم معًا فى البحر، لاغتسلوا من البحر.
فقطرةُ الماء التى نجَّستْها الشهواتُ قد انسكبتْ فى دمائهم.
وذرَّةُ الرملِ النَّجِسةُ فى الشاطئ، ستكبَرُ حتى تصير بيتًا نَجِسًا لأب وأم...
يا لحوم البحر! سلخكِ من ثيابك جزار...!

* * *

«يجيئون للشمس التى تَقْوى بها صفاتُ الجسم؛
ليجد كل من الجنسين شمسَه التى تضعُفُ بها صفات القلب.
يجيئون للهوء الذى تتجدَّد به عناصرُ الدم؛
ليجدوا الهواء الآخر الذى تَفْسُدُ به معانى الدم.

يجيئون للبحر الذى يأخذون منه القوة والعافية؛
ليأخذوا عنه أيضًا شريعتَه الطبيعية: سمكةٌ تطارِدُ سمكة...
ويقولون ليس على الْمُصيِّفِ حَرج،
أى لأنه أعمى الأدب، وليس على الأعمى حَرج.
يا لحوم البحر! سلخكِ من ثيابك جزار...!

* * *

«المدارس، والمساجد، والبِيَعُ، والكنائس، ووزارة الداخلية؛
هذه كلّها لن تهزم الشاطئ.
فأمواجُ النفسِ البشرية كأمواج البحرِ الصاخب، تنهزمُ أبدًا لترجع أبدًا.
لا يهزِم الشاطئ إلا «الجامعُ الأزهر»، لو لم يكن قد مُسِخ مدرسة!
فصرخةٌ واحدُة من قلب الأزهر القديم، تجعل هدير البحر كأنه تسبيح.
وتردُّ الأمواج نقية بيضاء[1]، كأنها عمائم العلماء.
وتأتى إلى البحر بأعمدة الأزهر للفصلِ بين الرجال والنساء.
ولكنى أرى زمنًا فد نَقل حتى إلى المدارس رُوح «الكازينو»...!
يا لحوم البحر! سلخك من ثيابك جزار....!

* * *

«هنا على رغم الآداب، مملكةٌ للصيف والقَيْظ، سلطانُها الجسمُ المؤنثُ العارى.
أجسامٌ تَعرِضُ مَفَاتِنَها عَرض البضائع؛ فالشاطئ حانوتٌ للزواج!
وأجسامٌ تَعرضُ أوضاعَها كأنها فى غُرفِة نومها فى الشاطئ....
وأجسامٌ جالسةٌ لغيرها، تُحيط بها معانيها ملتمِسةً معانيه؛ فالشاطئ سوقٌ للرقيق...

---

(١) يرى بعضهم أن مثل هذا الوصف خطأ، وأن الصواب أن يقال «بيض»، ولسنا من هذا الرأى، وقد غلط فيه المبرد ومن تابعوه، لغفلتهم عن السير فى بلاغة الاستعمال مرة فى الوصف بالمفرد، ومرة فى الوصف بالجمع.

وأجسام خَفِرةٌ جالسة للشمسِ والهواء؛ فالشاطئ كدار الكُفْرِ لمن أكْرِهَ[1].

وأجسامٌ عليلة تَقْتَحِمُها الأعينُ فتزدريها، لأنها جَعلتِ الشاطئ مستشفى...!

وأجسـامٌ خليعة أضافت من (استانلى) وأخَواتها إلى منارة الإسكندرية ومكتبة الإسكندرية - مَزْبَلَة الإسكندرية...

كان جدالُ المسلمين فى السفور، فأصبح الآن في العُرْى.

فإذا تطوَّر، فماذا بقى من تقليد أوربا إلا الجدالُ فى شرعية جمعِ المرأة بين الزوج وشبه الزوج[2]؟».

* * *

انتهى ما استطعتُ ترجمتـه، بعد الرجوع فـى مواضع من القصيدة إلى بعض القواميس الحية... إلى بعض شبان الشاطئ.

■■■

(١) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ النحل: ١٠٦.

(٢) يسـمى هذا فى اللغة الضمد بفتح الضاد والميم، وهو أن يخال الرجل المرأة ولها زوج، ومنه قول الشاعر:

تـريديـن كيمـا تضمدينـى وخـالـدًا ... وهل يجمع السيفان ويحك فى غمد

ومن هذا يقال فى الرجل: ذاق الضماد (بكسر الضاد) أى ذاق الطعم الذى وصفه أناتول فرانس.........

قصيدة مترجمة عن الملَك

احذرى...!

ترجَمْنا عن الشيطان قصيدة (لحوم البحر). وهذه ترجمةٌ عن أحد الملائكة؛ رآنى جالسًا تحت الليل وقد أجمعْتُ أن أضع كلمةً للمرأة الشرقية فيما تُحَاذِرُهُ أو تَتَوجَّسُ منه الشـرَّ، فَتَخَايَل الملكُ بأضوائه فى الضوء، وسَـنَح لى برُوحه،وبَثَّ فىَّ من سـرّه الإلهـى، فجعلتُ أنظرُ فى قلبى إلى فجر من هذا الشـعر يَنْبُعُ كلمةً كلمة، ويُشْـرِقُ معنى معنى، ويَستطيرُ جملةً جملة، حتى اجتمعت القصيدة وكأنما سافرتُ فى حُلُم من الأحلام فجئت بها.

وانطلق ذلك الملَك وتركها فى يدى لُغَةً من طهارته للمرأة الشرقية فى ملائكيتها:

***

احذرى...!

«احذرى أيتُها الشرقيةُ وبالغِى فى الحذر، واجعلى أخصَّ طباعكِ الحذر وحده.

احذرى تمدُّن أوربا أن يجعل فضيلَتكِ ثوبًا يُوسَّعُ ويُضيَّق؛ فلُبْسُ الفضيلةِ على ذلك هو لُبْسُها وخَلْعُها...

احذرى فنَّهم الاجتماعيَّ الخبيث الذى يَفرِضُ على النساء فى مجالس الرجالِ أن تؤدّى أجسامُهُنَّ ضريبة الفن...

احذرى تلك الأنوثة الاجتماعية الظريفة؛ إنها انتهاء المرأة بغاية الظَّرف والرقة إلى... إلى الفَضيحة.

احذرى تلك النسائية[1] الغَزليَّة؛ إنها فى جملتِها تَرخِيصٌ اجتماعى للحُرَّة أن... أن تُشَارِك البَغِىَّ فى نصفِ عملها.

---

(١) نحن نستعمل: النسائية والنسوة، وكلاهما عندنا صحيح، والاختيار فى كل موضع للأفصح فى موقعه.

أيتها الشرقية! احذرى احذرى!

* * *

«احذرى التمدن الذى اخترع لقتل لَقَبِ الزوجةِ المقدَّس، لقب «المرأة الثانية»...

واخترع لقتل لقبِ العذراء المقدَّس، لقب «نصف عذراء»...

واخترع لقتل دينيةِ معانى المرأة، كلمة «الأدب المكشوف»...

وانتهى إلى اختراع السُّرعة فى الحب... فاكتفى الرجلُ بزوجةِ ساعة...

وإلى اختراع اسـتقلالِ المرأة، فجاء بالذى اسمُهُ (الأبُ) من الشارع، لتلقى بالذى اسمُهُ (الابنُ) إلى الشارع.

أيتها الشرقية، احذرى احذرى!

* * *

«احذرى وأنتِ النَّجْمُ الذى أضاء منذُ النبوَّة، أن تقلِّدى هذه الشـمعة التى أضاءتْ منذُ قليل.

إن المرأة الشرقية هى استمرارٌ متصلٌ لآداب دينِها الإنسانىّ العظيم.

هى دائمًا شـديدةُ الحفاظ حارِسَـةٌ لحَوْزَتها؛ فإن قانـون حياتها دائمًا هو قانون الأمومة المقدَّس.

هى الطُّهر والعفة، هى الوفاء والأنَفة، هى الصبرُ والعزيمة، هى كلُّ فضائِل الأمّ.

فما هو طريقُها الجديدُ فى الحياة الفاضلة، إلا طريقُها القديمُ بعينه؟

أيتها الشرقية! احذرى احذرى!

* * *

«احذرى (ويحكِ) تقليـد الأوربية التى تعيشُ فى دنيا أعصابها محكومةً بقانونِ أحلامها...

لم تَعُدْ أنوثتُها حالةً طبيعيَّةً نفسيَّةً فقط، بل حالةً عقليَّةً أيضًا تَشُك وتُجادلِ...

أنوثةٌ تَفَلْسَفَتْ فرأت الزواج نصف الكلمة فقط... والأمَّ نصف المرأة فقط...

ويا ويل المرأةِ حين تنفجرُ أنوثتُها بالمبالغةِ، فتنفجرُ بالدواهى على الفضيلة...
إنها بذلك حُرَّةٌ مساويةٌ للرجل. ولكنها بذلك ليست الأنثى المحدودة بفضيلتها...
أيتها الشرقية! احذرى احذرى!

***

«احذرى خَجَل الأوربية المترجِّلةِ من الإقرار بأنوثتها.
إن خَجَلِ الأنثى يجعلُ فضيلتَها تخجلُ منها...
إنه يُسقِطُ حياءها ويكسو معانيَها رُجُولةً غيرَ طبيعيَّة،
إن هذه الأنثى المترجلة تنظر إلى الرجل نظرة رجل إلى أنثى...
والمرأةُ تعلو بالزواج درجةً إنسانية، ولكن هذه المكذوبة تنحطُّ درجة إنسانيةً بالزواج.
أيتها الشرقية! احذرى احذرى!

***

«احذرى تَهَوُّس الأوربية فى طلب المساوة بالرجل.
لقد ساوتهُ فى الذهابِ إلى الحلاق، ولكن الحلاَّق لم يجد فى وجهها اللِّحْية...
إنها خُلقت لتَحْبِيبِ الدنيا إلى الرجل، فكانت بمساواتها مادّة تبغيض.
العجيبُ أن سرَّ الحياة يأبَى أبدًا أن تتَساوى المرأة بالرجلِ إلا إذا خَسِرتْه.
والأعجبُ أنها حين تخضع، يرفعُها هذا السرُّ ذاتُه عن المساواة بالرجل إلى السيادة عليه.
أيتها الشرقية! احذرى احذرى!

***

«احذرى أن تَخسرى الطباع التى هى الأليقُ بأمّ أنجبت الأنبياء فى الشرق.
أمٌّ عليها طابَع النفسِ الجميلة، تَنشُرُ فى كل موضع جَوَّ نفسِها العالية.
فلو صارت الحياة غَيمًا ورعدًا وبَرقًا، لكانت هى فيهًا الشمس الطالعة.

ولو صارت الحياةُ قَيْظًا وحَرُورًا واختناقًا، لكانت هى فيها النسيم يَتَخَطَّر.
أمٌّ لا تبالى إلا أخلاق البُطولةِ وعزائمَها، لأن جَدَّاتِها ولَدْن الأبطال.
أيتها الشرقية! احذرى احذرى!

* * *

«احذرى هؤلاء الشبَّان المتمدنين بأكثر من التمدن...
يُبالغُ الخبيثُ فى زينته، وما يدرى أن زينتَه مُعْلِنَةٌ أنه إنسانٌ من الظاهر.. ويبالغُ فى عَرض رجُولتِهِ على الفتيَات، يحاولُ إيقاظ المرأةِ الراقدَة فى العذراء المسكينة!
ليس لامرأة فاضلة إلا رَجُلُها الواحد، فالرجالُ جميعًا مَصائبُها إلا واحدًا.
وإذ هى خالطتِ الرجال، فالطبيعيُّ أنها تُخالط شَهَوات، ويجب أن تحذَرَ وتُبالغ.
أيتها الشرقية! احذرى احذرى!

* * *

«احذرى؛ فإن فى كل امرأة طبائعَ شـريفةً مُتَهوّرة؛ وفى الرجالِ طبائع خسيسة متهوّرة.
وحقيقة الحجاب أنه الفصل بين الشرفِ فيه الميل إلى النزول، وبين الخِسَّةِ فيها الميل إلى الصّعود.
فيكِ طبائعُ الحبّ، والحَنان، والإيثار، والإخلاص، كلما كَبُرْت كَبُرَتْ.
طبائع خَطِرَة، إن عملت فى غير موضعها... جاءت بعكس ما تعملُه فى موضعها.
فيها كلُّ الشرفِ ما لم تنخدعْ، فإذ انخدعت فليس فيها إلا كلُّ العار.
أيتها الشرقية! احذرى احذرى!

* * *

«احذرى كلمةً شيطانيةً تسمعينها: هى فَنِّية الجمال أو فنَّية الأنوثة.
وافهميها أنتِ هكذا: واجبات الأنوثة وواجبات الجمال.
بكلمة يكون الإحساس فاسدًا، وبكلمة يكون شريفًا.

ولا يَتَسَقَّط الرجل امرأةً إلا فى كلمات مُزَيَّنَة مثلِها...
يجب أن تَتَسَلَّحَ المرأة مع نظرتها، بنظرةِ غضَب ونظرةِ احتقار.
أيتها الشرقية! احذرى احذرى!

* * *

«احذرى أن تُخْدَعى عن نفسك؛ إن المرأة أشدُّ افتقارًا إلى الشرف منها إلى الحياة.
إن الكلمة الخادعة إذ تقال لك، هى أخت الكلمةِ التى تقال ساعةِ إنفاذِ الحكم للمحكوم عليه بالشَّنْق...
يَغْتَرُّونَك بكلماتِ الحب والزواج والمال، كما يقال للصاعدِ إلى الشنَّاقة[1] ماذا تشتهى؟ ماذا تريد؟
الحب؟ الزواج؟ المال؟ هذه صَلاَة الثعلب حين يَتظاهر بالتقوى أمام الدَّجاجة...
الحب؟ الزواج؟ المال؟ يا لحمَّ الدَّجاجة! بعض كلماتِ الثعلب هى أنياب الثعلب...
أيتها الشرقية! احذرى احذرى!

* * *

«احذرى السقوط؛ إن سقوطَ المرأة لهوْلِهِ وشدَّتِه ثلاث مَصائبَ فى مصيبة:
سقوطُها هى، وسقوط من أوجدها، وسقوط من تُوجِدهم!
نَوَائبِ الأسرةِ كلها قد يَسْتُرها البيت، إلا عارَ المرأة.
فَيَد العار تَقْلِب الحيطانَ كما تقلب اليد الثوبَ فتجعل ما لا يُرى هو ما يُرى.
والعار حكمٌ يُنفذه المجتمع كلُّه، فهو نَفْيٌ من الاحترام الإنسانى.
أيتها الشرقية! احذرى احذرى!

* * *

(١) كلمة «المشنقة» ليست عربية، ولكن لها وجهًا فى الاشتقاق، غير أن كسرة ميمها تجعلها ثقيلة، وكان اسمها قديمًا «الشناقة»، ذكرها ياقوت فى معجم الأدباء، وهى أفصح وأخف، فلعل الشناقة بعد هذا تشنق المشنقة....

«لو كان العار فى بئر عميقة لقلبها الشيطان مِئْذنةً ووقفَ يُؤذّن عليها.
يفرَح اللعين بفضيحةِ المرأة خاصَّةً، كما يفرح أبٌ غنىٌّ بمولود جديد فى بيته...
واللصُّ، والقاتل، والسكِّير، والفاسق، كلٌّ هؤلاء على ظاهر الإنسانية كالحرّ والبرد:
أما المرأة حين تسقط فهذه من تحت الإنسانية هى الزّلزلة.
ليس أفظعُ من الزلزلة المرتجة تشق الأرض، إلا عارَ المرأة حين يشق الأسرة.
أيتها الشرقية! احذرى احذرى!»

■■■

الجمال البائس(*)

(١)

«وكيف يُشْعَب صَدْع الحبّ في كَبِدى»، كيف يُشعب صدع الحب؟

لَعمْـرى مـا رأيت الجمالَ مرةً إلا كان عندى هو الألمَ فـى أجملِ صوَرِه وأبدعِها؛ أتُرانى مخلوقًا بجُرْح فى القلب؟

ولا تكون المرأة جميلةً فى عينى، إلا إذا أحسسـت حين أنظر إليها أن فى نفسى شيئًا قد عرفها، وأن فى عينيها لَحَظات موجَّهةً، وإن لم تنظر هى إلىَّ.

فإثبات الجمالِ نفسه لعينى، أن يُثْبِتَ صداقتَه لروحى باللَّمْحة التى تدلّ وتتكلم: تدلُّ نفسى وتتكلم فى قلبى.

* * *

كنت أجلس فى (الإسـكندرية) بين الضُّحَى والظهرِ، فى مكان على شاطئ البحر، ومعى صديقى الأسـتاذ (ح)(**) من أفاضل رجال السلك السياسى، وهو كاتبٌ من ذوى الـرأى، له أدبٌ غَض ونوادر وظرائف، وفـى قلبه إيمانٌ لا أعرف مثلَه فى مثله، قد بلغ ما شاء الله قوة وتمكُّنًا، حتى لأحسب أنه رجلٌ من أولياء الله قد عُوقب فحُكم عليه أن يكونَ محاميًا، ثم زيد الحكم فجُعل قاضيًا، ثم ضوعفت العقوبة فجعل سياسيًّا...

وهذا المكانُ ينقلب فى الليل مَسْـرَحًا ومَرقَصًا ومَـا بينهما... فيتَغَاوَى فيه الجمال والحب، ويَعرِضُ الشـيطانُ مصنوعاتِه فى الهزْل والرقـص والغناء[1]، فإذا دخلتَه فى النهار رأيت نورَ النهار كأنه يغسلهُ ويغسلك معه، فتُحسُّ للنور هناك عملاً فى نفسك.

(*) انظر قصة صاحبة الجمال البائس فى «عود على بدء» من كتاب حياة الرافعى.

(**) الأستاذ حافظ عامر (بك).

(١) انظر مقالة (لو ...) فى الجزء الثانى، فقد كتبت عن هذا المسرح بعينه.

ويُرَى المكانُ صَدْرًا من النهار كأنه نائم بعد سهر الليل، فما تجيئه من ساعة بين الصبح والظهر، إلا وجدتَه ساكنًا هادئًا كالجسم المستثْقِل نومًا؛ ولهذا كنتُ كثيرًا ما أكتب فيه، بل لا أذهبُ إليه إلا للكتابة.

فإذا كان الظهرُ أقبل نساء المسرح ومعهن من يُطارِحُهن الأناشيدَ وألحانَها ومن يُثَقفهن فى الرقص، ومن يُرَوِّيهنَّ ما يُمثِّلْنَ إلى غير ذلك مما ابتلتهنَّ به الحياة لتُساقِطَ عليهن الليالى بالموت ليلةً بعد ليلة.

وكنَّ إذا جئنَ رأينَنى على تلك الحال من الكتابة والتفكير، فينصرفْنَ إلى شأنِهن، إلا واحدةً كانت أجملَهن(*)، وأكثرُ هؤلاء المسكيناتِ يَظهَرْنَ لعين المتأمل كأن منهن مثلُ العَنزِ التى كُسِر أحدُ قَرنيها، فهى تحمل على رأسها علامةَ الضعف والذلةِ والنقص، ولو أن امرأةً تتبدَّدُ حينا فلا تكونُ شيئًا، وتجتمعُ حينًا فتكون مرة شيئًا مقلوبًا، وأخرى شكلاً ناقصًا، وتارةً هيئة مُشوَّهة؛ لكانت هى كلَّ امرأة من هؤلاء المسكينات اللواتى يمشينَ فى المسرَّات إلى المخاوف، ويعشْنَ ولكن بمقدَّمات الموت، ويجدْنَ فى المال معنى الفقر، ويتَلقَّينَ الكرامةَ فيها الاستهزاء، ثم لا يعرفن شابًّا ولا رجلاً إلا وقعت عليهنَّ من أجله لعنة أب أو أم أو زوجة.

* * *

وتلك الواحدة التى أومأتُ إليها كانت حزينة مُتسَلِّبةً[1] فكأنما جَذَبها حزنُها إلىّ، وكانت مفكرة فكأنما هداها إلىّ فكرُها، وكانت جميلةً فدلَّهَا علىّ الحب، وما أدرى والله أىُّ نفسَيْنا بدأتْ فقالت للأخرى أهلاً...

ورأيتُها لا تصرفُ نظرَها عنى إلا لتردَّه إلىّ، ولا تردُّه إلا لتصرفَه؛ ثم رأيتُها قد جال بها الغَزَلُ جَوْلَةً فى معركته... فتشاغلتُ عنها لا أُريها أنى أنا الخَصْمُ الآخرُ فى المعركة..

(*) يعنى راقصة هناك اسمها «بنوتشيا».

(١) يقال: تسلبت المرأة. إذا أحدت، أى لبست ثياب الحداد.

بَيْدَ أنى جعلتُ آخذُها فى مَطارِح النظر، وأتأملُها خُلْسَةً بعد خُلسة فى ثوبها الحريرىّ الأسود، فإذ هو يَشُبُّ لونَها[1] فيجعلهُ يتلألأ، ويُظهِرُ وجهَها بلون البدر فى تِمِّه، ويُبديه لعينىّ أرقَّ من الورد تحت نور الفجر.

ورأيتُ لها وجهًا فيه المرأةُ كلّها باختصار، يُشرِقُ على جسم بَضّ ألْيَنَ من خَمْلَ النّعام، تَعْرِضُ فيه الأنوثةُ فنَّها الكامل؛ فلو خُلِق الدلالُ امرأةً لكانَتْها.

وتَلُوحُ للرائى من بعيد كأنها وَضعت فى فمها (زِرَّ وَرْد) أحمرَ مُنْضَمًّا على نفسه: شفتان تكادُ ابتسامتُهما تكون نداء لشفَتىْ مُحبٍّ ظمآن...!

أما عيناها فما رأيتُ مثلَهما عينَى امرأة ولا ظَبيْة؛ سوادهما أشدُّ سوادًا من عيون الظباء؛ وقد خُلِقَتَا فى هيئة تُثبت وجودَ السحرِ وفعْلَه فى النفس؛ فهما القوةُ الواثقةُ أنهـا النافذةُ الأمر، يُمازِجُها حَنانٌ أكثرُ مما فى صدر أم على طفلها؛ وتمامُ الملاحَةِ أنهما هما، بهذا التكحيل، فى هذه الهيئة، فى هذا الوجه القَمَرِىّ.

يا خالقَ هاتينِ العينين! سبْحَانَك سبحانَك!

* * *

قال الراوى:

وأتغافَلُ عنها أيامًا؛ وطال ذلك منى وشَقَّ عليها، وكأنى صَغَّرتُ إليها نفسها، وأرهقتها بمعنى الخضوع، بيد أن كبرياءها التى أبت لها أن تقدم، أبتْ عليها كذلك أن تنهزم.

وأنا على كل أحوالى إنما أنظر إلى الجمال كما أسْتَنْشِى العِطْرَ يكون مُتَضَوّعًا فى الهواء: لا أنا أستطيعُ أن أمَسَّه ولا أحدٌ يستطيع أن يقولَ أخذتَ منى. ثم لا تدفعُنى إليه إلا فِطرة الشعرِ والإحساسِ الرُّوحانىّ، دون فطرةِ الشرِ والحيوانية[2] ومتى

---

(١) يزيده ويظهره ويجعله أحفل بالجمال.

(٢) بسطنا هذا المعنى فى المقدمة الثانية لكتابنا «أوراق الورد» وفى مواضع كثيرة من هذا الكتاب، فلم نتوسع فيه هنا.

أحسستُ جمالَ المرأة أحسستُ فيه بمعنىً أكبرَ من المرأة، أكبرَ منها؛ غيرَ أنه هو منها.

قال الراوى:

فإنى لجالس ذات يوم وقد أقبلت على شأنى من الكتابة، وبإزائى فتى رَيِّق الشبابِ، فى العُمر الذى تَرى فيه الأعينُ بالحماسة والعاطفة، أكثرَ مما ترى بالعقل والبَصيرة، ناعمٌ أمْلَدُ تمّ شبابُه ولم تَتِمَّ قوتُه، كأنما نكَصَتِ الرجولةُ عنه إذ وافتْه فلم تجدْه رجلا... أو تلك هى شيمةُ أهل الظَّرفِ والقَصْفِ من شبان اليوم: ترى الواحدَ منهم فتعرفَ النُّضجَ فى ثيابه أكثرَ مما تعرفه فى جسمه، وتأبَى الطبيعةُ عليه أن يكونَ أنثى فيجاهِدُ ليكونَ ضَرْبًا من الأنثى..! إنى لجالسٌ إذ وافَتِ الحسناء فأومأتْ إلى الفتى بتحيتها، ثم ذهبتْ فاعتَلَتْ المِنَصَّةَ مع الباقيات، ورقصت فأحسنتْ ما شاءت، وكأن فى رقصها تعبيرًا عن أهواء ونزَعات تريدُ إثارَتَها فى رجل ما... فقلتُ لصاحبنا الأستاذ (ح): إن كلمة الرقص إنما هى استعارةٌ على مثل هذا، كما يستَعْرَنَ كلمةَ الحب لجمع المال؛ ولارقصَ ولاحبَّ إلا فُجورٌ وطمع.

ثم إنها فرغت من شأنها فمرَّتْ تَتَهَادَى حتى جاءت فجلست إلى الفتى... فقال الأستاذ (ح) وكان قد ألمَّ بما فى نفسها: أتُراها جعلته ههنا مَحَطَّة...؟

قال الراوى: أما أنا فقلتُ فى نفسى لقد جاء الموضوع... وإنى لفى حاجة أشدّ الحاجةِ إلى مقالة من المكْحُولات، فتفرَّغتُ لها أنظرُ ماذا تصنع، وأنا أعلم أن مثلَ هذه قليلاً ما يكونُ لها فكرٌ أو فلسفة؛ غير أن الفكر والفلسفةَ والمعانىَ كلها تكون فى نظرها وابتساماتِها وعلى جسمها كلِّه.

* * *

وكان فتاها قد وَضَع طربوشه على يده؛ فقد انتهينا إلى عهدٍ رَجعَ حكمُ الطربوشِ فيه على رأس الشاب الجميل، كحكم البرقع على وجه الفتاة الجميلة... فأسفر ذاك من طربوشه، وأسفرتْ هذه من نقابها – قال الراوى: فما جلستْ إلى الفتى حتى أدْنتْ رأسَها من الطربوش، فاستنامَتْ إليه، فألصقت به خدَّها...

ثم التفتتْ إلينا التفاتةَ الخِشْفِ المذعور استَرْوَحَ السَّبُعَ[1] ووجدَ مقدَّماتِه فى الهواء، ثم أرْخت عينيها فى حياء لا يَسْتَحِى....

وأنشأتْ تتكلم وهى فى ذلك تُسارِقُنا النظرَ، كأن فى ناحيتنا بعضَ معانى كلامها...

ثم لا أدرى ما الذى تَضاحَكَتْ له، غير أن ضحكتها انشـقَّتْ نصفين، رأينا نحن أجملَهما فى ثَغرها...

ثم تزَعزَعتْ فى كرسيِّها كأنما تَهُمُّ أن تنقلبَ، لتمتَدَّ إليها يدٌ فتُمسِكها أن تنقلب...

ثم تسانَدَت على نفسِها، كالمريضةِ النائمةِ تَتنَاهَضُ من فِراشها فيكاد يئن بعضها من بعضها، وقامتْ فمشتْ، فحاذَتنا، وتجاوَزَتْنا غير بعيد، ثم رجعت إلى موضعها متَكَسِّرَةً كأن فيها قوةً تُعلِنُ أنها انتهت...

* * *

قال الراوى:

ونظرتُ إليها نظرةَ حزن؛ فتغضَّبَتْ واغتاظت، وشاجَرَتْ هذه النظرةَ من عينيها الدَّعجاوَيْن بنظرات متهكِّمة، لا أدرى أهى توَبخُنا بها، أم تتَّهمنا بأننا أخذنا من حُسنها مَجَّانًا...؟

فقلتُ للأستاذ (ح)، وأنا أجْهَرُ بالكلام ليَبْلُغَها:

أما ترى أن الدنيا قد انتكست فى انتكاسها، وأن الدهر قد فسد فى فساده، وأن البلاء قد ضوعفَ على الناس، وأن بقيةً من الخير كانت فى الشرّ القديم فانتُزِعت؟

قال: وهل كان فى الشر القديم بقيةُ خير وليس مثلُها فى الشر الحديث؟

قلت: ههنا فى هذا المسرح قِيَانٌ لو كانت إحدهن... فى الزمن القديم، لتَنَافَسَ فى شرائها الملوكُ والأمراء وسَرَاةُ الناسِ وأعيانُهم، فكان لها فى عَهارة الزمن صَوْنٌ وكرامة، وتتقلَّبُ فى القصور فتجعلُ لها القصورُ حرمةً تمنعها ابتذالَ فنِّها لكل

---

(١) الخشف: ولد الغزال، يطلق على الذكر والأنثى. واستروح السبع: أى وجد ريحه فى الهواء قبل أن يراه، وكذلك طبيعة الحيوان.

من يدفع خمسةَ قروش، حتى لِرُذّال الناس وغَوْغائِهم وسَفِلَتِهم؛ ثم هى حين يُدْبِرُ شبابُها تكون فى دار مولاها حَمِيلةً على كرَم يحمِلُها، وعلى مُروءة تعيش بها.

وقديمًا أخذتْ سَلاّمةُ الزرقاء فى قُبلتها لؤلؤتين بأربعين ألف درهم، تبلغ ألفى جنيه، فهل تأخذُ القَيْنَةُ من هؤلاء إلا دَخِينةً[1] بمليمين....؟

قال الأستاذ (ح): ما أبعدَكَ يا أخى عن (بورصة) القُبْلة وأسعارِها.. ولكن ما خبرُ اللؤلؤتين؟

قال الراوى:

كانت سَلاّمةُ هذه جاريةً لابن رَامين[2]، وكانت من الجمال بحيث قيل فى وصفها: كأن الشمس طالعةٌ من بين رأسِها وكتفَيْها؛ فاستأذن عليها فى مجلس غِنائها الصَّيرفىّ الملقَّب بالماجن، فلما أذنتْ له، دخل فأقْعَى بين يديها، ثم أدخل يدَه فى ثوبه فأخرجَ لؤلؤتين، وقال: انظرى يا زرقاء جُعِلتُ فِدَاك. ثم حَلفَ أنه نقدَ فيهما بالأمسِ أربعين ألف درهم. قالت: فما أصنعُ بذاك؟ قال: أردتُ أن تعلمى...

ثم غنَّت صوتًا وقالت: يا ماجِنُ هبْهما لى ويحك.. قال: إن شئتِ والله فعلتُ. قالت: قد شئتُ. قال: واليمينُ التى حلفَتُ بها لازمةٌ لى إنْ أخذتِهما إلابشفتيكِ من شفتىَّ.....

* * *

قال الراوى:

ورأيتُها قد أذنَتْ لى، وأنصتتْ لكلامى، وكأنما كانت تَسمعُنى أعتذِر إليها، واستيقنَتْ أنْ ليس بى إلا الحزنُ عليها والرثاء لها، فبدَتْ أشدَّ حَياء من العذراء فى أيام الخِدْر.....

---

(١) الدخينة وضعناها للسيجارة، وجمعها الدخائن.

(٢) سلامة هذه اشتراها جعفر بن سليمان بثمانين ألف درهم (٤٠٠٠ جنيه)، كما اشترى جارية أخرى يقال لها ربيحة، بمائة ألف درهم.

ثم قلتُ: نعم كان ذلك الزمنُ سفيهًا، ولكنها سفاهةُ فنّ...
لاسفاهةُ عَرْبدَة وتَصَعْلكٍ كما هى اليوم.

فنظرتْ إلىَّ نظرةً لن أنساها؛ نظرةً كأنها تَدْمَع، نظرةً تقول بها: ألستُ إنسانة؟ فلم أملك أن قلتُ لها: تَعالى تعالى.

وجاءت أحلى من الأمل المعترِضِ سَنَحَتْ به الفُرصة، ولكن ماذا قلتُ لها وماذا قالت؟...

■■■

الجمال البائس

(٢)

جاءتْ أحلى من الأمل المعترِض سَنَحَتْ به فُرصة؛ وعلى أنها لم تَخْطُ إلينا إلا خَطْوةً وتَمَامَها، فقد كانت تجدُ فى نفسها ما تجدُه لو أنها سافرتْ من أرضٍ إلى أرضٍ، ونقلها البُعْدُ النازِحُ من أُمَّة إلى أُمة.

يا عجبًا! إن جلوسَ إنسان إلى إنسانٍ بإزائِه، قد يكونُ أحيانًا سفَرًا طويلاً فىعالَم النفس؛ فهذه الحسناءُ تعيشُ فى دنيَا فارغةٍ من خِلال كثيرة: كالتقوى، والحياءِ، والكَرامة، وسموِّ الروح، وغيرها؛ فإذا عَرَضَ لها من يُشْعِرُها بعضَ هذه الخلال، ويَنْتَزِعُها من دنيَا اضطرارِها وأخلاقِ عيشها ولو ساعةً، فما تكونُ قد وَجدتْ شخصًا، بل كشَفَتْ عالَمًا تَدْخُلُه بنفس غير النفسِ التى تُدَبِّرُها فى عالَم رزقها....

ولا أعجبَ من سحر الحبِ فى هذا المعنى؛ فإن العاشقَ ليَكونُ حبيبُه إلى جانبه، ثم لا يُحسُّ إلا إنه طَوَى الأرضَ والسمواتِ ودخلَ جنةَ الخُلدِ فى قُبْلَة...

* * *

جلستْ إلينا كما تَجْلِسُ المرأةُ الكريمةُ الخَفِرَة: تُعطيك وجهَهَا وتبتعدُ عنكَ بسائِرها، وتُريك الغُصْنَ وتَخبأُ عنك أزهارَه. فرأيناها لم تستقبل الرجلَ منا بالأُنثى منها كما اعتادت؛ بل استقبلتْ واجبًا برِعاية، وتلطُّفًا بحَنَان، وأدباً من فنٍّ بأدب من فن آخر؛ وكان هذا عجيبًا منها؛ فكلَّمها فى ذلك الأستاذ (ح) فقالت: أمَّا واحدٌ فإننا نتَّبعُ دائمًا مَحبَّةَ من نجالِسُهم، وهذه هى القاعدة. وأما الثانية، فإننا لا نجدُ الرجلَ إلا فى النَّدْرة؛ وإنما نحن مع هؤلاء الذين يَتَسوَّمونَ بسَيما الرجال، كحِيلة المحتالِ على غَفْلة المغفَّل؛ وهم معنا كالقُدرةِ بالثمَنِ ما يشتريه الثمن؛ ليسوا علينا

إلا قَهْرًا من القَهر؛ ولسنا عليهم إلا سَلْبا من السَّلب، مادةٌ مع مادة، وشرٌّ على شر؛ أما الإنسانيةُ منا ومنهم فقد ذهَبَتْ أو هى ذاهبة.

قال (ح): ولكن:

فلم تدعه يَسْتَدْرِك بل قالت: إنّ «لكن» هذه غائبةٌ الآن... فلا تجىء فى كلامنا. أتريد دليلاً على هذا الانقلاب؟ إن كل إنسانٍ يعلم أن الخطّ المستقيمَ هو أقربُ مَسَافةٍ بين نُقطتين؛ ولكنَّ كلَّ امرأةٍ منا تعلم أن الخطّ المعْوَجَّ هو أقرب مسافة بينها وبين الرجل....

قالت: فإذا وجَدَتْ إحدانا رجلا بأخلاقهِ لا بأخلاقها.. ردَّتْها أخلاقُه إلى المرأةِ التى كانت فيها من قبل، وزادتها طبيعتُها الزَّهْوَ بهذا الرجل النادر، فتكونُ معه فى حالةٍ كحالةِ أكملِ امرأة، بَيْدَ أنه كمالُ الحُلم الذى يستيقظُ وَشِيكًا؛ فإن الرجلَ الكاملَ يكملُ بأشياءَ، منها وا أسفاه...! منها ابتعادُه عنا.

ثم قالت: وصاحبُك هذا منذُ رأيتُه، رأيتهُ كالكتاب يشغَلُ قارئه عن معانى نفسِه بمعانيه هو....

***

وضحكتُ أنا لهذا التشبيه، فمتى كان الكتابُ عند هذه كتابًا يشغلُ بمعانيه؟ غيرَ أنى رأيتها قد تكلمتْ واحتفَلتْ، وأحسنَت وأصابت؛ فتركتها تتحدث مع الأستاذ (ح)، وغِبتُ عنها غيْبةَ فكر؛ وأنا إذا فكَّرْتُ انطبق علىَّ قولهم: خَلِّ رَجُلاً وشأنَه. فلا يتصلُ بى شىءٌ مما حولى. وكان كلامُها يسطعُ لى كالمصباح الكهربائِّى المتوقِّد، فقدَّمها فكرُها إلىَّ غيرَ ما قدَّمتها إلىَّ نفسُها، ورأيتُ لها صورتين فى وقتٍ معًا، إحداهما تعتذِرُ من الأخرى....

وكنتُ قبل ذلك بساعة قد كتبتُ فى تَذْكِرة خواطرى هذه الكلمةَ التى استوحيتُها منها؛ لأضعها فى مقالة عنها وعن أمثالها، وهى:

«إذا خرجت المرأةُ من حُدود الأسرة وشَريعتها؛ فهل بقى منها إلا الأنثى مجرَّدةً تجريدَها الحيوانىّ المتكَشِّفَ، المتعرِّض للقوة التى تناله أو ترغب فيه؟

وهل تعملُ هذه المرأةُ عند ذلك إلا أعمالَ هذه الأنثى؟

«وما الذى استَرْعاها الاجتماعُ حينئذ فتَرعاه منه وتحفظُه له، إلا ما استرعَى أهلُ المالِ أهلَ السرقة؟ إن الليلَ ينطوى على آفتين: أولئك اللصوص، وهؤلاء النساء.

«وكيف ترى هذه المرأة نفسها إلا مشوهة ما دامت رذائلها دائمًا وراء عينيها، وما دام بإزاء عينيها دائما الأُمَّهاتُ والمُحْصَنَاتُ من النســاء، وليس شأنُها من شأنهمن؟ إن خيالَها يَحْرزُ فى وَعْيِه صورتَها الماضيةَ من قبل أن تزِلَّ، فإذا خَلَتْ إلى نفســها كانت فيها اثنتان، إحداهما تلعنُ الأخرى، فترى نفسَها من ذلك على ما ترى.

«وهى حين تُطالعُ مرآتَها لِتتبرَّجَ وتحتفِلَ فى زينتها، تنظرُ إلى خيَالها فى المرآة بأهواء الرجال لا بعينىْ نفســها، ولهذا تُبالغُ أشـدَّ المبالغة؛ فـلا تُعْنَى بأن تظهرَ جميلــةً كالمرأة، بل مُثْمِرةً كالتاجر... وتَكَسُّــبُها بجمالها يكونُ أولَ ما تفكّر فيه؛ ومن ذلك لا يكونُ ســرورُها بهذا الجمال إلا على قدر ما تكْسبُ منه؛ بخلاف الطبع الذى فى المرأة، فإن سرورَها بمَسْحَةِ الجمالِ عليها هو أولُ فكرها وآخرُه.

«إن الساقطةَ لا تنظر فى المرآة - أكثرَ ما تنظر - إلا ابتغاء أن تتعهَّدَ من جمالها ومن جســمها مواقعَ نظرَات الفُجور وأســبابَ الفتنة، وما يَسْتَهْوى الرجلَ وما يُفسِدُ العفَّة عليه؛ فكأن الساقطةَ وخيالهَا فى المرآة، رجلٌ فاسقٌ ينظرُ إلى امرأة، لا امرأةٌ تنظر إلى نفسها...».

* * *

ذهبتُ أفكر فى هذه الكلمةِ التي كتبتُها قبل ســاعة، ولم أســتطع أن ألبسَ فى هذه القضية وجهَ القاضى؛ فدخَلَتْنى رِقةٌ شديدةٌ لهذا الجمالِ الفاتنِ، الذى أراه يبتسم وحولَه الأقدارُ العابســة؛ ويلهو وبين يديه أيامُ الدموع؛ ويجتهدُ فى اجتذابِ الرجال والشبَّان إلى نفسه، والوقتُ آتٍ بالرجال والشبَّان الذين سيجتهدون فى طَردِه عن أنفسهم.

وتَغَشَّــانى الحزنُ، ورأتْ هى ذلك وعرفْته؛ فأخرجتْ منديلَها المعطَّرَ ومسحتْ وجهَها به، ثم هزَّته فى الهواء، فإذا الهواء منديلٌ معطَّرٌ آخر مَسَحت به وجهى...

وقال الأستاذ (ح): آه من العِطر! إنّ منه نوعا لا أسْتَنشِيه مرةً إلا ردَّنى إلى حيث كنتُ من عشرين سنةً خَلَتْ، كأنما هو مُسَجَّلٌ بزمانه ومكانهِ فى دماغى...

فضحكـتْ هى وقالت إن عِطرنا نحن النســاء ليس عِطرًا بل هو شُـعورٌ نُثبتُه فى شعور آخر...

فقلت أنا: لاريبَ أن لهذه الحقيقة الجميلة وجهًا غيرَ هذا. قالت: وما هو؟ قلت: إن المرأةَ المعَطَّرة المتزينةَ، هى امرأةٌ مُسَلَّحَةٌ بأسلحتِها. أفى ذلك ريب؟ قالت: لا.

قلت: فلماذا لا يُسمَّى هذا العِطرُ بالغازاتِ الخانقةِ الغَرامية...؟

فضحكتْ فُنونًا؛ ثم قالت: وتسـمَّى (البـودرة) بالديناميت الغرامى.ونقلنى ذلك إلى نفسـى مرة أخرى، فأطرقـتُ إطراقةً؛ فقالت: ما بك؟ قلت: بى كلمةُ الأسـتاذ (ح)، إنها ألهبَتْ فى قلبى جَمرةً كانت خامدة.

قالت: أوْ حَرَّكَتْ نقطةَ عِطْر كانت ساكنة...!

فقلـت: إن الحب يضـعُ روحانيته فى كل أشـيائه، وهو يغير الحالة النفسـية للإنسان، فتتغيرُ بذلك الحالةُ للأشياء فى وَهْم المحب. (فعطرُ كذا) مثلاً... هو نوعٌ شَذىٌّ من العِطر، طيِّبُ الشَّميم، عاصِفُ النَّشوة، حادُّ الرائحة؛ لكأنه يَنْشُرُ فى الجو رَوضةً قد مُلئتْ بأزهاره تُشَـمُّ ولا تُرى؟ وأنه ليجعلُ الزمنَ نفسَه عَبِقًا بريحه، وإنه ليُفْعِمُ كلَّ ما حوله طِيبًا، وإنه ليسحَرُ النفسَ فيتحوَّل فيها...

وهنا ضحكتْ وقطعتْ علىّ الكلام قائلة: يظهرُ لى أن (عِطر كذا) هاجِرٌ أو مخاصِم...

قلت: كلا، بل خرج من الدنيا وما انتَشَقْتُ أَرَجَهُ مرةً إلا حسبتُه يَنفَحُ من الجنة.

فما أسـرعَ ما تلاشَى من وجههـا الضحِكُ وهيئتُه، وجاءت دمعةٌ وهيئتُها ولمحت فى وجهها معنًى بكيتُ له بكاءَ قلبى.

جمالُها، فتنتها، سـحرُها، حديثُهــا، لهوُها؛ آه حين لا يبقَـى لهذا كلِّه عَينٌ ولا أثر، آه حين لا يبقَى من هذا كله إلا ذُنوبٌ، وذنوبٌ، وذُنوب!

***

وأردنــا أنا و(ح) بكلامنا عن الحب وما إليه، ألا نوحِشَــها من إنسـانيتنا، وأن نَبُلَّ شوقَها إلى ما حُرمتْه من قَدرها قدرَ إنسانةٍ فيما نَتَعاطاه بيننا. والمرأة من هذا النوع إذا طَمِعَــتْ فيما هو أغلى عندها من الذهب والجوهرِ والمتاع، طمعَتْ فى الاحترام من رجلٍ

شـريف متعفِّف، ولو احترمَ نظرةٍ، أو كلمة. تقنعُ بأقلِّ ذلك وترضَى به؛ فالقليلُ مما لا يدرَكُ قليله، هو عند النفس أكثرُ من الكثير الذى يُنالُ كثيره.

ومثـل هذه المرأةِ، لا تَدرى أنت: أطافَتْ بالذَّنب أم طافَ الذنبُ بها؟ فاحترامُها عندنـا ليس احترامًا بمعناه، وإنما هـو كالوُجُوم أمام المصيبةِ فى لحظةٍ من لحظَات رَهْبَةِ القدَر وخُشوعِ الإيمان.

وليسـت امرأةٌ من هؤلاء إلا وفى نفسـها التندُّمُ والحسـرةُ واللهفةُ مما هى فيه، وهذا هو جانبهن الإنسانىُّ الذى يُنظَر إليه من النفس الرقيقة بلهفةٍ أخرى،وحسرةٍ أخرى، وندمٍ آخر. كم يَرحمُ الإنسـانُ تلك الزوجةَ الكارهةَ المرغَمَةَ على أنَّ تعاشِـرَ مـن تكرههٍ، فلا يزالُ يَغلى دمُها بوَسـاوِس وآلام مـن البغض لا تنقطع! وكم يَرثى الإنسـان للزوجةُ الغيور، يغلِى دمُها أيضًا ولكن بوساوِس وآلامٍ من الحب! ألا فاعلم أن كلَّ مـن مثل هذه الحسـناء تحمل على قلبها مثلَ هم مائة زَوجـةٍ كارهةٍ مرغَمةٍ مستعبَدَة، يُخالِطُه مثلُ هم مائةِ زوجة غيور مكابِدةٍ منافسةً؛ ولقد تكون المرأةُ منهن فى العشرين من سنها وهى مما يكابدُ قلبُها فى السبعين من عُمر قلبها أو أكثر. وهذه التى جاءتنا إنما جاءتنا فى ساعة منا نحن لا منها هى، ولم تكن معنا لا فى زمانِها ولا فـى مكانِها ولا فى أسـبابِها، وقد فتحت البابَ الـذى كان مغلقًا فى قلبها على الخفَرِ والحياء، وحوَّلت جمالَها مـن جمالٍ طابَعُهُ الرذيلةُ، إلى جمالٍ طابعُه الفنّ، وأشعرتْ أفراحَها التى اعتادتها رُوحَ الحزن منَ أجلنا، فأدخلت بذلك على أحزانها التى اعتادتها رُوحَ الفرَح بنا.

من ذا الذى يعرفُ أن أدبه يكون إحسانًا على نفس مثل هذه ثم لا يُحسِن به[1]؟

* * *

(١) فـى كتابنا (السـحاب الأحمر) فصل طويل عنانـه (الربيطة)، كتبناه فى مثـل موضوع (الجمال البائـس)، غير أنه بمنحى آخـر ومعان أخرى. والربيطة هى الكلمة العربية التى تقابل كلمة Maitresse يريد بها الأوربيون المرأة البغى ترتبط بأجر فى دار الرجل لتحل محل الزوجة..

تتجدَّدُ الحياةُ متى وَجَد المرء حالةً نفسيةً تكونُ جديدةً فى سرورها. وهذه المرأةُ المسكينةُ لا يَعنيها مِن الرجلِ من هو؟ ولكن كَم هو... لم ترَ فينا نحن الرجل الذى هو «كم»، بل الذى هو «مَن». وقد كانت من نفسِها الأولى على بُعد قصىّ كالذى يمد يده فى بئر عميقة ليتناول شيئًا قد سقط منه؛ فلما جلستْ إلينا، اتصلتْ بتلك النفسِ من قُرْب؛ إذ وجدتْ فى زمنها الساعةَ التى تصلحُ جِسْرًا على الزمن.

قال الراوى:

كذلك رأيتها جديدةً بعد قليل، فقلت للأستاذ (ح): أما ترى ما أراه؟

قال: وماذا ترى؟ فأومأتُ إليها وقلت: هذه التى جاءت من هذه. إن قلبَها يَنشُرُ الآن حولَها نورًا كالمصباح إذا أُضىء، وأراها كالزهرة التى تفتَّحتْ؛ هى هى التى كانت، ولكنها بغير ما كانت.

فقالت هى: إنى أَحسبُكَ تحبُّنى؛ بل أراك تحبنى؛ بل أنت تحبنى...لم يخْفَ علىّ منذُ رأيتك ورأيتَنى.

قلتُ: هَبيه صحيحًا، فكيف عرفْتهِ ولم أُصانِعْكِ، ولم أتملَّق لك، ولم أزدْ على أن أَجَىء إلى هنا لأكتب؟

قالت: عرفته من أنك لم تصانعنى، ولم تتملقُ لى، ولم تزْد على أن تجىء إلى هنا لتكتب....

قلتُ: ويحكِ، لو كُحِلَتْ عينْ (المكرسكوب) لكانت عينَك. وضحكنا جميعًا؛ ثم أقبلتُ على الأستاذ (ح) فقلت له: إن القضايا إذا كَثُر ورودُها على القاضى جَعلتْ له عينًا باحثة.

* * *

قال الراوى:

وأنظرُ إليها، فإذا وجهُها القمرىُّ الأزهرُ قد شَرِقَ لونَه، وظهر فيه من الحياء ما يظهرُ مثلُه على وجهِ العذراء المخدَّرةِ إذا أنتَ مسستَها برِيبة[1]؛ فما شككتُ أنها

(١) أى لأنها ظنت أنه يقول إنها اعتادت الرجال.

الساعةَ امرأةٌ جديدة قد اصطلحَ وجهُها وحَياؤُها، وهما أبدًا متعادِيان فى كل امرأة مكشوفَة العفَّة...

وذهبت أستَدْرك وأتأوَّل، فقلتُ لها: ما ذلك أردتُ، ولا حَدَسْتُ على هذا الظن، وإنما أنا مُشفق عليك متألم بك، وهل يعرْضُ لك إلا الطبقة النظيفة... من المُجْرمين والخُبَثَاء وأهل الشرّ؛ أولئك الذين أعالِيهم فى دُورالخلاعة والمسارح، وأسافِلُهم فى دُور القضاء والسجون؟

فقالت: أعتَرِفْ بأنك لم تُحسِنْ قَلْبَ الثوب، فظهر لكل عينٍ أنه مقلوب؛ لكنك تحبنى... وهذا كاف أن ينهَضَ منه عُذْر!

قال الأستاذ (ح): إنه يحبكِ، ولكن أتعرفين كيف حبُّه؟ هذا بابٌ يضعُ عليه دائمًا عِدَّةً من الأقفال.

قالت: فما أيسَرَ أن تجدَ المرأة عِدةً من المفاتيح...

قال: ولكنه عاشقٌ يُنيرُ العشقُ بين يديه؛ فكأنه هو وحبيبته تحت أعينِ الناس، ما تطمُع إلا أن تراه، وما يطمعُ إلا أن يراها، ولا شىء غير ذلك؛ ثم لا يزال حسنُها عليه ولا يزالُ هواه إليها، وليس إلا هذا.

قالت: إن هذا لعجيب.

قال: والذى هو أعجب أن ليس فى حبه شىءٌ نهائى، فلا هَجْرٌ ولا وصلٌ؛ ينساكِ بعد ساعة، ولكنك أبدًا باقيةٌ بكل جمالك فى نفسه. والصغائرُ التى تُبكى الناسَ وتَتَلذّع فى قلوبهم كالنار ليجعلوها كبيرةً فى همهم ويطفئوها وينتهوا منها ككل شهواتِ الحب، تبكيه هو أيضًا وتَعْتَلجُ فى قلبه، ولكنها تظلُّ عنده صغائرَه ولا يَعرفُها إلا صغائر؛ وهذا هو تَجَبُّرُه على جَبَّار الحب.

* * *

قال الراوى:

ونظرتُ إليها ونظرتْ، وعاتبتْ نفسٌ نفسًا فى أعيُنِهما، وسألت السائلةُ وأجابت المُجيبة، ولكن ماذا قلتُ لها وماذا قالت؟...

الجمال البائس

(٣)

قال الراوى:

نظـرتُ إليها ونظرتْ: أما هى، فَرَنتْ إلىّ فى سـكون، وكانــت نظرتُها مُعَاتَبةً طويلةً التملُّقُ والتوجُّع، وفيها الانكِسارُ والفُتور، وفيها الاسترخاءُ والدلال.

وبَينما كان طَرْفُها سـاجِيًا فاترًا كأنه ينظرُ أحلامَه، إذْ حدَّدته إلىَّ فجأةً ونظرت نظرةَ مَدْهوش، فبَدَتْ عيناها فَزِعَتين ولكن فى وجهٍ مطمئنّ.

ثم لم تكـدْ تفعلُ حتى ضيَّقَتْ أجفانَهــا وحدَّقت النظرَ مُتَلألئًــا بمعانيه، فبدَتْ عيناها ضاحكتين ولكن فى وجهٍ متألم.

ثم ابتسـمتْ بوجهها وعينيها معًا، وأتمَّتْ بذلك أجملَ أسـاليبِ المرأة الجميلةِ المحبوبــةِ فــى اعتراضها على مــن تحبه، وجدالِها مــع فكره، وكَسْــرِ حُجَّته فى كِبريائه، وانتزاع الفكرةِ المستقلّة من نفسه.

وأما أنا؛ فكانَ نظرى إليها ساكنًا متألمًا يُقِرُّ أنه عَجَزَ عن جوابِ عينيها وسيبقَى عاجزًا عن جواب عينيها...

إن وجهَها هو الابتســامُ ورُوح الابتســام، وجســمَها هو الإغراء وروحُ الإغراء، وفنَّهــا هو الفتنــةُ ورُوح الفتنة؛ وهى بهذا كلِّه، هى الحــبُّ وروحُ الحب؛ غير أن فهمها على حقيقتها فى الناس يجعلُ ابتسامَها عَداوةً من وجهها، وإغراءها جريمةً لجسمها، وفنها رذيلةً فى جمالها؛ وهى بهذا كله، هى الشقاء ورُوحُ الشقاء.

* * *

أمَّــا أنى أُحــبُّ فَنعمْ ونِعِمَّا، بل أراه حبًّا فالقًا كَبــدى، وليس يخلو فؤادى أبدًا من سَوالِف حُب مضى، وأما أنى أسترْذلُ فى الحب وأمتهنُ فضيلتى وأنزلُ بها، فلا وأبدًا.

إن ذلك الحبَّ هو عندى عملٌ فنى من أعمال النفس، ولكن الفضيلةَ هى النفسُ ذاتُها؛ الحبُّ أيامٌ جميلةٌ عابرةٌ فى زمنى، أما الفضيلةُ فهى زمنى كله، وذلك الجمالُ هو قوةٌ من جاذبية الأرضِ فى مدَّتها القصيرة، ولكنّ الفضيلةَ جاذبيةُ السماء فى خُلودها الأبدى.

على أنه لا مُنَافَرَة بين الحب والفضيلة فى رأيى، فإن أقوى الحب وأملأه بفلسفة الفَرَحِ والحزنِ، لا يكون إلا فى النفس الفاضلة المتورِّعة عن مُقَارَفَةِ الإثم. وههنا يتحولُ الحبُّ إلى ملَكةٍ سامية فى إدراكِ معانى الجمال، فيكونُ الوجهُ المعشوقُ مصدرَ وحى للنفسِ العاشقة؛ وبهذا الوحى والاستمداد منه ينزل المحبُّ من المحبوب منزلةَ من يرتفعُ بالآدميَّة إلى الملائكية[1]، ليتلقى النورَ منها فنًّا بعد فن، والفرحَ معنى بعد معنًى،والحزنَ السماوىَّ فضيلةً بعد فضيلة.

فهذا الحبُّ هو طريقةٌ نفسيَّةٌ لاتِّساع بعض العقولِ المهّيأة للإلهام، كى تحيطَ بأفراح الحياة وأحزانِها، فتُبْدِعَ للدنيا صورةً من صُوَر التعبير الجميلةِ التى تُثير أشواقَ النفس؛ كأن كلَّ محب وحبيبتَه من هؤلاء الملهَمين، هما صورةٌ جديدةٌ من آدمَ وحواء، فى حالةٍ جديدة من معنى ترك الجنة، لإيجاد الصورة الجديدة من الفَرح الأرضى والحزن السماوى.

والخطَرُ فى الحب ألا يكونَ فيه خَطَر... فهو حينئذ نداءُ الجنس، لا يكون إلا دنيئًا ساقِطا مبذولاً، فلا قيمةَ له ولا وحىَ فيه؛ إذ يكونُ احتيالا من عملِ الغريزة جاءت فيه لابسةً ثوبَها النُّورانىَّ من شوق الروح لتخدعَ النفسَ الأخرى فيتصلَ بينهما، حتى إذا اتَّصل بينهما خلعت الغريزةُ هذا الثوبَ واستعلَنَتْ أنها الغريزةُ، فانحصرَ الحبُّ فى حيوانيته، وبطلتْ أشواقه الخياليةُ أجمع.

* * *

---

(١) نحن لا ننسب للملائكة إلا على خلاف القاعدة المقررة فى علم الصرف، ونرى أن مخالفة القاعدة هى القاعدة فى هذه اللفظة وفى ألفاظ أخرى.

قال الراوى:

وعرفت الحسـناء هذا كلّه من عَرْضها نظرةً وتلقّيها نظرةً غيرَها، فقالت للأستاذ (ح): أمَّا أن يكونَ مع أثر الشـعر والفكر فى الجمـال ودعوى الحب، أثرُ الزهد فى الجسم الجميل وادّعاءُ الفضيلة، فإنّ بعيدًا أن يجتمعا.

قال (ح): وأين تُبعدينَه ويحك عن هذه المنزلة؟ إنى لأعرف مَن هو أعجبُ من هذا!

قالت: وماذا بقى من العجب فتعرفَه؟

قال: أعرفُ متزوّجا، أحبّ أشـدَّ الحب وأمَضَّه، حتى اسـتهامَ وتدَلَّه، فكان مع هذا لا يكتبُ رسـالةً إلى حبيبته حتى يستأذِنَ فيها زوجتَه، كيلا يعتدىَ على شىء مـن حقها. وزوجتُه كانـت أعرفَ بقلبه وبحبّ هذا القلب، وهى كانت أعلمَ أن حبَّه وسُـلوانَه إنما هما طريقتان فى الأخذِ والتركِ بين قلبه وبين المعانى، تارةً من سبيل المرأة وجمالها، وتارة من سـبيل الطبيعة ومحاسـنها. فتنهَّدَت وقالت: يا عجبًا! وفى الدنيا مثلُ هذا الزوجِ الطاهر، وفى الدنيا مثلُ هذه الزوجة الكريمة؟

ثم إنها وَجَمَتْ هُنَيْهَةً تجتمعُ فى نفسـها اجتماعَ السـحابة، ثم اسـتَدْمَعَتْ، ثم أرسـلتْ عينيها تبكى؛ فبدَرْتُ أنا أُرَفِّهُ عنها حتى كفكَفَتْ من دمعها، وكأن (ح) قد وخَزَهـا فى قلبها وخزةً أليمةً بذكـره لها الزوجة، ثم الزوجةَ الطاهرة، ثم الطاهرةَ حتى فى وسوسة شـيطان الغَيْرة. ارتفع ثلاثَ مرات بالزوجة، لترى هذه المسكينةُ أنها سـافلةٌ ثلاثَ مرات؛ وكأنه بهذا لم يكلمها، بل رَسَـمَ لها صورتَها فى عيشـها المُخزى وقال لها: انظرى......

* * *

ويامـا كان أجملهَا يَتَرَقرَقُ الدمعُ فـى عينيها الفاتنتين الكَحيلتين، فيبُثُّ منهما حزنًا يخيل لمن رآه، أنه من أجلها سيُحزنُ الوجودَ كلَّه!

ليس البكاءُ من هاتين العينين بكاء عند من يراه إذا كان من العاشقين، بل هو فنُّ الحـزن يضع جمالا جديدًا فى فن الحُسـن. وأكاد أعجَبُ كيف وجَدَ الدمعُ مكانًا بين

المعانى الضاحكة فى وجهها، لو لم يكن هذا الدمعُ قد جاء ليظهِرَ على وجهها الفنَّ الآخرَ من جمال المعانى الباكية.

* * *

وسألتُها: ما الذى خامَرَ قلبَك من كلام الأستاذ (ح) فأبكاك، وأنت كما أرى يتألَّقُ النورُ على جدرانِ المكَان الذى تَحُلين به، فيظهرُ المكانُ وكأنه يضحك لك؟

فَتَشَكَّكَتْ لحظةً ثم قالت: أبكَ ما تقول أم أنت تتهكَّم بى؟

قلت: كيف يخطرُ لك هذا وأنا أحترمُ فيك ثلاثَ حقائق: الجمال، والحب، والألم الإنسانى؟

قالت: لا تَثْريبَ عليك[1] ولكن صَوَّرْ إلى ببلاغتك كيف أحببْتُك وأنت غير مُتَحبِّب إلىَّ، وكيف جادلتُ نفسى فيك وداوَرْتُها، وكلما عزمتُ انحلَّ عزمى؟ فهذا مالا أكاد أعرفُ كيف وقع، ولكنه وقع.

هذه قطرةٌ من الماء الصافى العذْبِ، فَضع عليها (المكرسكوب) يا سيدى، وقل لى ماذا ترى؟

قلت: إنك تُخرجين من السؤال سؤالاً. فما الذى خامَرَ قلبَكِ من كلام (ح) فبكيتِ له؟

قالت: إذن فليست هى قطرةً من الماء، بل تلك دمعةٌ من دموعى، فضع عليها المكرسكوب يا سيدى.

قال الراوى:

وكانت حزينةً كأنها لم تسكتْ عن البكاء إلا بوجهها، وبقيتْ روحُها تبكى فى داخلها. فأراد الأستاذ (ح) أن يستدركَ لغلطتهِ الأولى فقال: إنكَ الآن تسألينه حقًّا من حقوقكَ عليه، فكل امرأةٍ يحبها هى عَروسُ قلمهِ ولها على هذا القلم حقُّ النفَقَة...

فضحكتْ نوعًا من الضحك الفاتر، كأنما ابتكره ثغرُها الجميل لساعة حزنها؛ ونظرتْ إلى فقلت: إن كان الأمرُ من نفقة العروس على القلم فما أشبه هذا (بلا شىء) جُحا.

(١) أى لا عتب عليك.

فضحكت أظرفَ من قبل، وخُيِّل إلىَّ أن ثغّرها انطبقَ بعد افترارِه على قُبلةٍ أفلتتْ منه فأمسكها من آخرها....

ثم قالت: ما هو (لا شىء) جُحا؟

قلـت: زعموا أن جُحا ذهب يحتَطِبُ، وحمـلَ فوقَ ما يُطيق، فبهَظَه الحِمْلُ وبلغَ به المشَقَّة، ثم رأى فى طريقه رجلاً أبلهَ فاستعانَ به، فقال الرجل: كم تُعطينى إذا أنا حملتُ عنك؟ قال: أعطيك (لا شىء). قال: رضيت.

ثم حمـل الأبلهُ وانطلق معه حتى بلغا الدار، فقـال: أعطينى أجرى.قال جحا: لقد أخذتَه. واختلفا: هذا يقـول أعطنى، وهذا يقول أخذتَ؛ فلبَّبَهُ الرجل[1] ومضى يرفعـه إلى القاضى، وَكانت بالقاضى لُوثَةٌ، وعلى وجهه رَوْءَةُ الحُمق[2] تُخبِرك عنه قبل أن يخبرك عن نفســه، فلما سـمع الدعوى قال لجحا: أنت فى الحبس أو تُعطِيَهُ (اللاشىء)...

قال جُحا فى نفسه: لقد احتجْتُ لعقلى بين هذين الأبلهين؛ ثم إنه أدخل يده فى جيبه وأخرجها مطبَقــة، وقال للرجل: تقدَّمْ وافتح يدى فتقدم وفتحَها. قال جُحا: ماذا فيها؟ قال الرجل: (لا شىء).

فقال له جُحا: خذ (لا شيئَك) وامضِ فقد بَرِئت ذمتى.

قالوا: فذهب الرجل يحتجُّ، فقال له القاضى: مَهْ! أنت أقررتَ أنك رأيت فى يده (لا شىء)، وهو أجرُك فخذه ولا تطمعْ فى أزيدَ من حقك...!

* * *

وضحكــتْ وضحكنا، ثم قالت: أنا راضيةٌ أن أكونَ عَروسَ القلم، فليُجْرِ علىّ القلم نفقَتى، وليصوِّرْ لى كيف أحببتُ، وكيف آمَرتُ نفسى وجادلتُها؟

(١) أخذ بتلابيبه.

(٢) اللوثــة (بضم اللام): مس من الجنون، وتكون أيضًا بمعنى الحمق، وروءة الحمق: علاماته، وهى معروفة فى علم الفراسة.

قلت: لا أتكلم عنكِ أنتِ ولا أستطيعُه. بَيْدَ أننى لو صنَّفتُ روايةً يكونُ فيها هذا الموقفُ، لوضعْتُ على لسان العاشقة هذا الكلامَ تُحدِّثُ به نفسَها.

تقول: كيف كنتُ وكيف صرت؟ لقد رأيتُنى أعاشرُ مائةَ رجل فأخالطُهم فى شتَّى أحوالهم، وأُصرفهم فى هواىَ، وكلُّهم يَجهدُ جُهدَه فى استمالتى، وكلُّهم أهلُ مودة وبَذْل، وما منهم إلا جميلٌ مخلصٌ، قد أنِقَ وتجمَّل وراع حسنُه؛ كأنما هَرَبَ إلىَّ فى ثياب عُرسه ليلةَ زفافِه، وتركَ من أجلى عروسًا تبكى وتَصيح بوَيلها. ثم أنا مع ذلك مُغْلَقةُ القلب دونهم جميعًا، أصْدُقهُم المودةَ والصحبةَ، وأكْذبُهم الحبَّ والهوى؛ فلستُ أُحبهم إلا بما أنالُ منهم ولستُ أتحبَّبُ إليهم إلا ما أُنوّلهم منى، وهم بين عقلى وحيلتى رجالٌ لا عقولَ لهم، وأنا بين أهوائهم وحَماقَاتهم امرأةٌ لا ذات لها.

ثم أرى بغتةً رجلاً فَردًا أكاد أنظر إليه وينظرُ إلىَّ حتى يَضَعَ فى قلبى مسألةً تحتاجُ إلى الحلّ...

وأرتاع لذلك فأحاولُ تناسِيَه والإغضاءَ عنه، فتَلِجُّ المسألةُ فى طلبِ حلّها، وتشغَلُ خاطرى، وتتمدَّد فى قلبى؛ وهو هو المسألة...

فأفزعُ لذلك وأهتمُّ له، وأجهَدُ جهدى أن أكون مرةً حازمةً بصيرةً، كرجالِ المال فى حق الثروة عليهم؛ ومرةً قاسيةً عنيدةً، كرجال الحرب فى واجبِها عندهم؛ ومرة خبيثةً مُنكَرة، كرجال السياسةِ فى عملها بهم؛ ولكنى أرى المسألة تلينُ لى وتتشكَّل معى وتحتملُ هذه الوجوهَ كلها، لتبقى حيثُ هى فى قلبى؛ فإنه هو هو المسألة...

وأغتمُّ لذلك غمًّا شديدًا، وأرانى سأسقُط بعد سقوطى الأول وأقبحّ منه؛ إذ الحياةُ عندنا قائمةٌ بالخِداع، وهذا يُفْسِدُه الإخلاص؛ وبالمكْر، وهذا يعطِّلهُ الوَفاء؛ وبالنسيان، وهذا يُبطله الحب؛ وإذ عواطِفُنا كلُّها متجرّدةٌ لغرض واحدٍ، هو كَسْبُ المال وجمعُه وادِّخارُه؛ وفضيلتُنا عمليةٌ لا تتَخَّيل، حِسَابيَّةٌ لا تختلُّ؛ فيستوى عندنا الرجلُ بلغ جمالُه القمرَ فى سمائه، والرجلُ بلغتْ دَمامتُه الذبابَ فى أقذاره؛ والحبُّ معنا هو: كم فى كم ويبقَى ماذا.... أو كما يقول أهلُ السياسة: هو «النقطة العملية فى المسألة». ولكن المسألة التى فى قلبى لاترى هذا حلاًّ لها؛ لأنه هو هو المسألة...

فيزيدُ بى الكَرْبُ، ويشــتدُّ على البلاء، وأحتــالُ لقلبى وأدبِّر فى خنَقه، وأذهب أُقْنِعه أن الرجلَ إذا كان شريفًا لم يحبَّ المرأةَ الساقطةَ؛ إذ يُعابُ بصُحبتها والاختلافِ إليها، فإذا كان ساقطًا لم تحبَّه هى، فإنما هو صَيدُها وفَريستها، وموضعُ نقمتِها من هذا الجِنس؛ وأُسْرِفُ على قلبى فى الملاَمَةِ والتعذيل فأقولُ له: ويحك يا قلبى! إن المرأة منا إذا تفتَّحَ قلبُها لحبيبٍ، تفتَّح كالجُرح لِينزِفَ دِماءَه لا غير. فيقتنعُ القلبُ ويُجمِــعُ على أن ينسَــى، وأن يَرجعَ عن طلبه الحب؛ وأرى المســألةَ قد بطلتْ وكان بُطلانُها أحسن حَلٍّ لها، وأنامُ وادعة مطمئنة، فيأتى هو فى نومى ويَدخل فى قلبى، ويُعيدُ المسألةَ إلى وضعها الأول، فما أستيقظُ إلا رأيته هو هو المسألة...

فأتنَاهَى فى الخوف على نفســى من هذا الحب، وأراه سجنها وعقابَها، وقهرَها وإذلالهَا، فأقول لها: ويلكِ يا نفســى! إنما همُّكِ فى الحياة وَســائلُ الفَوز والغلَب، فأنتِ بهذا عَدوَّةٌ مسماةٌ فى غَفْلة الرجال صديقة، وقد وُضعْتِ فى موضع تعيشين فيه بإهاناتٍ من الرجال، يســمونها فى نَذَالتهم بالحب؛ فأنتِ عدوَّةُ الرجال بمعنى من الدهــاء والخُبث، وعدوَّةُ الزوجاتِ بمعنًى مــن الحقدِ والضغينة، وعدوَّة البَغَايا أيضًا بمعنى من المغالبة والمنافســة، وكلُّ ما يســتطيعُ الدَّهاء أن يعملَه فهو الذى علىَّ أنا أن أعملَه، فماذا أصنع وأنا أحب؟ وكيف أنجحُ وأنا أحب؟ ولكنَّ النفسَ تجيبنى على كل هذا بأن هذا كلَّه بعيدٌ عن المسألة ما دام هو هو المسألة...

* * *

قال الراوى:

وكانت كالذاهلة مما ســمعتْ، ثم قالت: ألك شيطانٌ فى قلبى؟ فهذا كلُّه هو الذى حدث فى سبعة أيام.

قال (ح): ولكن كيف يقَعُ هــذا الحب؟ وهَبْكَ صنَّفتَ تلك الرواية، ووضعتَ على لسان العاشقة ذلك الكلام، فبماذا كنتَ تَنطقُها فى وصفِ حبها وما اجتذبها من رجل فــاز بقلبها ولم يُداورْها، بعد مائة رجل كلُّهم دَاوَرَها ولم يَفُزْ منهم أحد؟ أتكون فى وجه هذا الرجلِ أنوارٌ كتَبَاشِيرِ الصبح تدلُّ على النهارالكامِنِ فيه؟

قالت هى: نعم نعم. بماذا كنتَ تُنطقها؟

قلتُ: كنت أضع فى لسانها هذا الكلامَ تُجيبُ به عاذلةً تَعْذُلُها:

تقول: لا أدرى كيف أحببتُه، ولكنَّ هذه الشخصيةَ البارزةَ منه جذبتْنى إليه، وجعلت الهواء فيما بينى وبينه مُفْعَمًا بالمغناطيس مَصْدَرُه، ومعناها هو، ولا شىء فيه إلا هو.

عرَضَتْه لى شخصيتُه ظاهرًا لأن جوابَ شخصيتهِ فىَّ، وأصبحَ فى عينىَّ كبيرًا لأن جوابَ شخصيتى فيه، ومن ذلك صارت أفكارى نفسُها تزيده كلَّ يوم ظهورًا، وتزيدُنى كل يوم بَصَرًا، وأعطاه حقه فى الكمال عندى حقَّه فى الحب منى؛ وبتلك الشخصية التى جوابها فى نفس، أصبح ضرورة من ضرورات نفسى.

* * *

قال الراوى:

ولما رأيتها فى جوى كنسيمة وعاصفته، أرادتها على قصتها وشأنها، فماذا قلتُ لها وماذا قالت؟...

■■■

الجمال البائس

(٤)

قلتُ لها: إن قلبى وقلبَكَ يَتَجالَيَانِ[1] فى هذه الساعة ويتباكَيَانِ، أتدرين ماذا يقول لكِ قلبى؟

إنه ليقولُ عنى: أعْزِزْ علىَّ بأن تكونى ههنا، وأن تتألفَ منك هذه القصةُ التى تَبدَأُ بالوَصْمَة وتنتهى بالاستخذاء، فتنطلِقُ المرأةُ فى مَتَالفها ومهاويها ليبلغُ بها القدرُ ما هو بالغ؛ وليس إلا الضرورة وسطوتها بها، والإذلالُ وَمَهانُته لها، والاجتماعُ وتهكَّمُه عليها، والابتذالُ واستعبادُه إياها؛ ومهما يأت فى القصة من معنى فليس فيها معنى الشرف؛ ومهما يكنْ من موقف فليس فيها موقفُ الحياء؛ ومهما يَجْرِ من كلام فليس فيها كلمةُ الزوجة، وأعْزِزْ علىَّ بأن أرى المصباحَ الجميلَ المشْبُوبَ الذى وُضع ليُضىء ما حوله، قد انقلب فجعلَ يُحرقُ ما حوله؛ وكان يتلألأ ويتوقَّد، فارتدَّ يتسعَّر ويتضَرّم ويَجْنى ما يتصلُ به، وسقطَ بذلك سَقْطَةً حمراء...

أفتدرين ماذا يقول لى قلبُك؟

إنه يقول عنك: يا بُؤْسَنا من نساء! لقد وُضعْنا وَضعًا مقلوبًا، فلا تَستقِيمُ الإنسانيةُ معنا أبدًا، وكلُّ شىء منقلبٌ لنا متنكِّر؛ والشفقةُ علينا تنقلِبُ من تلقاء نفسها تهكمًا بنا؛ فنبكى من شفقةِ بعض الناس، كما نبكى من ازدراء بعضِ الناس. يا بؤسَنا من نساء!

* * *

قالت: صدقتَ، وكذلك تنقلبُ أسبابُ الحياة معنا أسبابًا للمرض والموت؛ فاليَقَظةُ ليس لها عندنا النهارُ بل الليل، والصَّحْو لا يكون فينا بالوعْىِ بل بالسُّكْر، والراحةُ

---

(١) أى يتكاشفان ويجلو كلاهما للآخر ويوضح.

لا تكون لنا فى السكون والانفراد، بل فى الاجتماع والتبذُّل؛ وماذا يَردُّ على امرأةٍ من واجباتها السهرُ والسكْرُ والعَربدةُ، والتبذّلُ،وتَدريبُ الطباع بالوَقاحة، وتَضْرِيَةُ النفسِ على الاستغواءِ، والتَصَدّى بالجمال للكَسْب من رذائل الفُسَّاق وأمراضِهم، والتعرُّضُ لمعروفهم بأساليب آخرُها الهَوانُ والمذَلَّة، واستماحَتُهم بأساليبَ أولها الخداعُ والمكْر؟

إن حياةً هذه هى واجباتُها، لا يكونُ البكاء والهمُّ إلا من طبيعة من يحياها، وكثيرًا ما نُعالج الضحِكَ لنفتَح لأنفسنا طُرُقًا تَتَهارَبُ فيها معانى البكاء؛ فإذا أثقلَنا الهمُّ وجَلَّ عن الضحك وعجزنا عن تكلُّفِ السرور، خَتَلْنَا العقلَ نفسَه بالخمر؛ فما تسكَرُ المرأةُ منا للسكْر أو النَّشوة، بل للنسيان، وللقُدرة على المَرَح والضحِك، ولإمداد محاسِنها بالأخلاقِ الفاجرة، من الطَّيش والخلاعةِ والسَّفَهِ وهذَيانِ الجمال الذى هو شعرهُ البليغ... عند بُلَغاء الفُسَّاق.

قال الأستاذ (ح) : أهذا وحاضِرُ الغادةِ منكن هو الشبابُ والصِّبى والجمالُ وإقبالُ العيش، فكيف بها فيما تَسْتَقْبِل؟

قالت: إن المستقبلَ هو أخوفُ ما نخافُه على أنفسنا، وليس من امرأة فى هذه الصناعة إلا وهى مُعِدَّةٌ لمستقبلها: إما نوعًا من الانتحار، وإما ضَرْبًا من ضُروب الاحتمالِ للذل والخَسْف؛ وليس مستقبلُنا هذا كمستقبل الثمار النَّضِرة إذا بقيتْ بعد أوانِها، فهو الأيام العَفِنَةُ بطبيعةِ ما مضى... بَلى إن مستقبل المرأة البغيِّ هو عقابُ الشر.

* * *

قال (ح) : هذا كلامٌ ينبغى أن تعلمه الزوجات؛ فالمرأةُ منهنَّ قد تتَبَرَّم بزوجها وتضْجَر وتغتمُّ، وتزعُم أنها مُعَذَّبة ؛ فتَتَسخَّطُ الحياةَ، وتندُبُ نفسَها؛ ثم لا تعلم أنه عذابٌ واحدٌ برجل واحدٍ، تألفُهُ، فتعتادُه، فتُرزَقُ من اعتياده الصبرَ عليه، فيسكنُ بهذا نِفَارُها؛ وتلك نعمةٌ واجبُها أن تحمد الله عليها، مادام فى النساء مثلُ

الشَّهيدات، تتعذبُ الواحدةُ منهن فُنُونًا من العذاب بمائة رجل، وبألفِ رجل، وهم مع ذلك يَبْتَلُونَ روحَها بعددِهم من الذنوب والآثام.

وقد تستثقلُ الزوجةُ واجباتِها بين الزوج والنَّسل والدار، فتغتاظُ وتشكو من هذه الرَّجْرَجة اليومية فى الحياة؛ ثم لا تعلم أن نساءً غيرَها قد انقلبتْ بهن الحياةُ فى مثل الخَسْف بالأرض.

وقد تجزعُ للمستقبل وتَنسى أنها فى أمان شَرفِها، ثم لا تعلم أن نساءً يَترقَّبْنَ هذا الآتىَ كما يترقبُ المجرمُ غَدَ الجريمة، من يومٍ فيه الشُّرطةُ والنيابةُ والمحكمةُ وما وراء هذا كلِّه.

فقلتُ: وهناك حقيقةٌ أخرى فيها العَزاء كلُّ العزاء للزوجات، وهى أن الزوجةَ امرأةٌ شاعرةٌ بوجود ذاتها، والأخرى لا تشعر إلا بضياع ذاتها.

والزوجة امرأة تجدُ الأشياء التى تتوزعُ لحبها وحنان قلبها، فلا يزال قلبها إنسانيًّا على طبيعته، يفيضُ بالحب، ويستمدُّ من الحب؛ والأخرى لا تجد من هذا شيئًا، فتنقلب وحشيَّةَ القلب، يفيضُ قلبُها برذائلَ، ويستمدُّ من رذائل؛ إذ كان لا يجد شيئًا مما هيأته الطبيعة ليتعلق به من الزوج والدار والنَّسل.

والزوجةُ امرأة هى امرأة خالِصة الإنسانية، أما الأخرى فمن امرأةٍ ومن حيوانٍ ومن مادة مُهْلكةٍ.

وتَمامُ السعادةِ أن النسلَ لا يكونُ طبيعيًّا مستَقِرًّا فى قانونه إلا للزوجات وحدَهن؛ فهو نِعمتُهنَّ الكبرى، وثوابُ مستقبَلهن وماضيهن، وبَركتُهن على الدنيا؛ ومهما تكن الزوجةُ شقيَّةً بزوجها، فإن زوجَها قد أولدَها سعادتَها، وهذه وحدها مزية ونعمة؛ أما أولئك فليس لهنّ عاقبة[1]؛ إذ النسلُ قلب لحالتهن كلها؛ وهو غِنًى إنسانىٌّ، ولكنه عندهن لا يكون إلا فقرًا؛ وهو رحمة، ولكنها لا تكوُن إلا لعنة عليهن وعلى ماضيهن. وقد وضعت الطبيعة فى موضع حبِّ الولَد الجديدِ من قلوبهن، حبَّ الرجلِ الجديد، فكانت هذه نقمةً أُخرى.

(١) يقال ليس له عاقبة، أى ليس له نسل وعقب.

قال (ح) : أتريد من الرجل الجديد من يكون عندهنّ الثانىَ بعد الأول، أو الثالثَ بعد الثانى، أو الرابعَ بعد الثالث؟

قلت: ليس الجديدُ عليهن هو الواحدَ بعد الواحد إلى آخر العدد، ولكنه الرجلُ الذى يكون وحدَه بالعدد جميعًا؛ إذ هو عندهن يُشبه الزوجَ فى الاختصاص وفى شَرف الحب، فهو الحبيبُ الشريف الذى تتعلَّقُه إحداهن وتريد أن تكونَ معه شريفة: ولكن من نقمة الطبيعة أن ممن وجدتْه منهن لا تجدُه إلا لتعانِىَ ألَمَ فقده.

يا عجباً! كلُّ شىء فى الحياة يُلقِى شيئًا من الهم أو النكَدِ أو البؤسِ على هؤلاء المسكينات، كأن الطبيعة كلها ترجمهن بالحجارة..

قالت هى: وليست الحجارةُ هى الحجارة فقط، بل منها ألفاظ تُرجَمُ بها المسكينةُ كألفاظك هذه... وكتسميةِ الناسِ لها «بالساقطة»؛ فهذه الكلمة وحدها صخرة لا حجر.

***

ثم تنهدتْ وقالت: مَن عَسى يعرفُ خَطَرَ الأُسْرة والنسلِ والفضيلةِ كما تعرفُها المرأة التى فقدتها؟ إننا نُحِسُّها بطبيعة المرأة، ثم بالحنين إليها، ثم بالحسْرةِ على فقدها، ثم برؤيتها فى غيرنا؛ نعرفها أربعةَ أنواع من المعرفة إذا عرفتْها الزوجةُ نوعًا واحدًا. ولكن هل يُنصفِنا الرجالُ وهم يَتَدَافَعُوننا؟ هل يرضَوْن أن يتزوَّجوا منا؟

قلت: ولكنَّ الأسرةَ لا تقومُ على سواد عينى المرأة وحُمرةِ خدَّيها، بل على أخلاقها وطباعها؛ فهذا هو السببُ فى بقاء المرأة الساقطةِ حيثُ ارتطمتْ، وهى متى سقطتْ كان أولُ أعدائها قانونَ النسل.

ومن ثَم كانت الزَّلةُ الأولى ممتدةً مُتَسَحِّبةً إلى الآخر؛ إذ الفتاةُ ليست شخصًا إلا فى اعتبارها هى، أما فى اعتبار غيرها فهى تاريخٌ للنسل، إن وقعتْ فيه غلطة فسد كلُّه وكذَبَ كلُّه فلا يُوثَقُ به.

وهذه الزَّلة الأولى هى بدءُ الانهيار فى طباع رقيقة مُتَداخِلةٍ متَسانِدَةٍ، لا يُقيمُها إلا تَماسُكُها جُملةً؛ وما لم يتماسكْ إلا بجملتهً فأولُ السقوطِ فيه هو استمرارُ السقوطِ

فيه؛ ولهذا لا يعرفُ الناسُ جريمةً واحدةً تُعدُّ سِلسلةَ جرائمَ لا تنتهى، إلا سقطةَ المرأة؛ فهى جريمة مجنونة كالإعصارِ الثائرَ يلفها لفًّا؛ إذ تتناول المرأة فى ذاتها، وترجع على أهلها وذويها، وترعى إلى مستقبلها ونَسلها؛ فَيَهْتكُها الناسُ هى وسائرَ أهلِها مَن جاءت منهم ومن جاءوا منها.

والمرأةُ التى لا يَحميها الشرفُ لا يحميها شىء، وكلُّ شريفةٍ تعرفُ أن لها حياتين إحداهما العفَّة، وكما تُدافعُ عن حياتها الهلاكَ، تُدافعُ السقوطَ عن عفتها؛ إذ هو هلاكُ حقيقتِها الاجتماعية؛ وكلُّ عاقلة تعرفُ أن لها عقلين تحتمِى بأحدِهما من نَزَواتِ الآخر، وما عقلُها الثانى إلا شَرَفُ عِرْضها.

قال الأستاذ (ح): إن هذه هى الحقيقة، فما تَسَامَحَ الرجالُ فى شرف العِرض إلا جعلوا المرأة كأنها بنصفِ عقلٍ فاندفعتْ إلى الطيش والفُجور والخَلاعة، أرادوا ذلك أم لم يريدوه.

قلت: وهذا هو معنى الحديث: «عِفُّوا تَعِفَّ نساؤكم». فإن عَفافَ المرأة لا تحفظه المرأةُ بنفسها، ما لم تتهيَّأ لها الوسائلُ والأحوالُ التى تُعينُ نفسها على ذلك؛ وأهمُّ وسائلها وأقواها وأعظمُها، تَشدُّدُ الرجالِ فى قانون العِرض والشرف.

فإذا تَراخَى الرجالُ ضَعُفَت الوسائل، ومن بين هذا التراخى وهذا الضعفِ تنبثق حريةُ المرأة متوجِّهةً بالمرأة إلى الخير أو الشر، على ما تكون أحوالُها وأسبابُها فى الحياة. وهذه الحريةُ فى المدنية الأوربية قد عوَّدت الرجالَ أن يُغْضوا ويتَسَمَّحوا، فتهافَتَ النساء عندهم، تنالُ كلٌّ منهن حكْمَ قلبِها. ويَخْضَعُ الرجل..

على أن هذا الذى يسميه القومُ حريةَ المرأة، ليس حريةً إلا فى التسمية، أما فى المعنى فهو كما ترى:

إما شُرودُ المرأة فى التماسِ الرزقِ حين لم تجد الزوجَ الذى يَعُولُها أو يَكْفيها ويُقيم لها ما تحتاج إليه، فمثلُ هذه هى حُرةٌ حريةَ النكَدِ فى عيشها؛ وليس بها الحريةُ، بل هى مستعبَدةٌ للعمل شرَّ ما تُستعبَدُ امرأة.

وإمـا انطـلاقُ المرأةِ فى عَبَثاتِها وشـهواتِها مُسـتجيبةً بذلـك إلى انطلاق حرية الاسـتمتاع فى الرجال، بمقدار ما يشـتريه المال، أو تُعين عليه القوة، أو يسَـوِّغُه الطيش، أو يجلبه التهتك، أو تدعو إليه الفُنون؛ فمثلُ هذه هى حرةٌ حريةَ سقوطِها؛ وما بها الحرية، بل يستعْبِدُها التمتع.

والثالثة حريةُ المرأة فى انسلاخها من الدين وفضائِله، فإن هذه المدنيةَ قد نسخَتْ حرامَ الأديان وحلالها بحرام قانونىّ وحلال قانونى، فلا مَسْـقطة للمرأة ولا غَضاضةَ عليها قانونًا... فيما كان يُعَدُّ من قبلُ خِزْيًا أقبحَ الخِزْىِ وعارًا أشدَّ العار؛ فمثلُ هذه هى حرةٌ حريةَ فسادِها، وليس بها الحرية، ولكن تستعبِدُها الفَوْضى.

والرابعةُ غَطْرَسـةُ المرأةِ المتعلمة، وكبرياؤها على الأنوثة والذكورة معًا؛ فترى أن الرجـل لم يبلغ بعدُ أن يكونَ الزوجَ الناعمَ كقفّاز الحرير فى يدها، ولا الزَّوجَ المؤنَّث الـذى يقولُ لهـا نحن امرأتان... فهى من أجل ذلك مُطْلَقـةٌ مُخَلاَّة كيلا يكونَ عليها سـلطانٌ ولا إمْرة؛ فمثلُ هذه حرةٌ بانقلاب طبيعتها وزيغها، وهى مستعبدة لهوسها وشذوذها وضلالتها.

حريةُ المرأة فى هذه المدنية أوّلها ما شئتَ من أوصاف وأسماء، ولكن آخرَها دائمًا إما ضَياعُ المرأة وإما فَسادُ المرأة.

والدليلُ علـى الْتِواء الطبيعةِ فى المدنية، اسـتواء الطبيعة فى البادية؛ فالرجال هناك قَوَّامون على النسـاء، والنسـاء بهذا قوّاماتٌ على أنفسهن؛ إذ ينتقمون للمنكرَ انتقامًا يَفُورُ دمًا؛ وبهذه الوحشـية يقرّرون شَـرَفَ العِرض فى الطبيعة الإنسانية، ويجعلونـه فيها كالغريـزة، فيُحَاجِزُون بين الرجال والنسـاء أولَ شـىء بالضمير الشريفِ الذى يجدُ وسائلَه قائمةً من حوله.

* * *

قال الراوى:

وغطتْ وجهَها بيديها وقالت: إنك لا تزال ترجُم بالحجارة... إن فيكَ متوحِّشًا. قلت بل متوحشة...

إنك أنتِ قد تكلمتِ فىَّ، فجمالك الذى يضع الإنسانَ فى ساعةٍ مجنونة ليمتعَه بطيشها، قد وضعنا نحن فى ساعة مفكرة وأمتَعَنا بعقلها؛ وإذا قلتُ جمالك، فقد قلتُ وحيُك؛ إذ لا جمال عندى إلا ما فيه وحى.

أمَا قلتِ: إنك لو خُيِّرتِ فى وجودك لما اخترتِ إلا أن تكونى رجلاً نابغةً يكتبُ ويفكر ويتلقَّى الوحىَ من الوجوه الجميلة؟

فدقتْ صدرَها بيدِها وقالت: أنا؟ أنا لم أقل هذا. ثم أفْكَرَتْ لحظةً وقالت: إذا كنتَ تزعمُ أننى قلتُه، فأظنُّ أننى قلته...

قال (ح): رجل؛ ويكتب؛ ويفكر؛ ولم تقل هى شيئًا من هذا؟ أربعُ غلطاتٍ شنيعة من فساد الذوق.

قالت: بل قل أربعُ غلطات جميلة من فنّ الذوق؛ إن الرجل الظريفَ القوى الرجولة، يجب عليه أن يغلط إذا حدث المرأة...

قال (ح): لتضحكَ منه؟

قالت: لا، بل لتضحك له...

قلت: فلى إليك رجاء.

قالت: إن صوتك يأمر، فقل.

* * *

فماذا قلتُ لها وماذا قالت؟ ..

■■■

الجمال البائس

(٥)

قلتُ لها: إن كلمةَ الكفرِ لا تكون كافرةً إذا أُكْرِه عليها من أكْرِه وقلبُه مطمئن بالإيمان، وكلمةُ الفُجورِ أهون منها وأخفُّ وزنًا وشأنًا، ثم لا تكون إلا فاجِرةً أبدًا، إذ لا إكراهَ على هذه الدَّعارة إكراهًا لا خِيارَ فيه. وما أولُ الدَّعارة إلا أن تمدَّ المرأةُ طَرْفَها من غير حياء، كما يمدُّ اللصُّ يدَه من غير أمانة.

ومن اضطُرَّ إلى الكفر استطاع أن يخبأ مِحْرابَ المسجد فى أعماقِه فيصلى ثمةَ، ولكنَّ الفجورَ لا يتركُ فى النفس موضعًا لدين ولا إيمان؛ إذ هو دائبٌ فى إثارة الغرائز الطبيعية الحيوانية المسترْسِلة بلا ضابط، فيجعلُ المرأةَ تحيا بعيدةً عن ضميرها، فيُضعِف منها أولَ ما يضعفُ آثار الآدابِ والأخلاق، فيُهلكُ فيها أولَ ما يهلكُ إحساسها بمعنى المرأة الإنسانية وشعورَها بمجد هذا المعنى.

فإذا انتهت المرأةُ إلى هذا، لم يكن لها مبدأٌ ولا عقيدة إلا أنَّ على غيرها أن يتحمَّلَ عواقبَ أعمالها، وهذه بعينها هى حالةُ المجنون جنونَ عقله؛ أفلا تكون المرأةُ حينئذٍ مجنونةً جنونَ جسمها... ؟

* * *

فساءها ذلك وبان فيها، ولكنها أمسكتْ على ما فى نفسها؛ والمرأةُ من هؤلاء لا يمشى أمرها فى الناس ولا يتصلُ عيشُها، إلا إذا كثُرتْ طباعُها كثرةَ ثيابها، فهى تخلَعُ وتلبسُ من هذه وتلك لكل يوم ولكل حالة ولكل رجل؛ فينبعثُ منها الغضب وهى فى أنعم الرضى، كما ينبعث الرضى وهى فى أشد الغيظ وكأن لم تغضب ولم ترضَ لأنها ليستْ لأحدٍ ولا لنفسها.

وتساير غضبها ثم قالت: كان كلامك أن لك رجاء إلى، فأنا أحب.....

... أحب أن أعلم.

قلت: وأنا كذلك أحب... أحب أن أعلم.

فضحكتْ وسُرِّى عنها، وثَبتتْ على شفتيها ابتسامةٌ لو جاء مَلَكٌ من السماء ليضعَ في ثغرها ابتسامةً أجملَ منها، لما وجد أجملَ منها.

ثم قالت: تُحب أن تعلمَ ماذا؟

قلت: أحبُّ أن أعلم منك قصةَ هذه الحياةِ ما كان أولُها؟

قالت: لقد قضيتَ من حكمك فينا، ولكنك أخطأت، فلكل ليلٍ مُظلم كوكبهُ؛ والكوكب الوقاد المعلَّق فوق ليل المرأة منا هو إيمانُها؛ نعم إنه ليس كإيمان الناس فى واجباته، لكنه كإيمان الناس فى تعزيته، والله ربُّنا وربُّكم!

قلت: لو أُطيع الله بمعصيته لاستقام لكِ هذا؛ وإنما أنت تصفين الإيمانَ الأولَ الذى كان عملاً، فصار ذكرى، فصارت الذكرى أملاً، فظننتِ الأملَ هو الإيمان.

قالت: ثم إننا جميعًا مكْرَهَاتٌ على هذه الحياة، فما نحن إلا صرْعَى المصادَمة بين الإرادة الإنسانية وبين القَدر.

قلت: ولكن لم تهف واحدة منكن فى غلطتها الأولى وهى مستكْرَهةٌ على غلطة؛ بل هى راغبة فى لذة، أو مبادرة لشهوة، أو طالبة لمنفعة.

قالت: هذا أَحَد الوجهين؛ أما الآخر فالتماسُ الرزق وصلاح العيش؛ فالرجل مع الرجل، رأس مالهِ قوَّتُه، وعمله بقوته؛ ولكن المرأة مع الرجل رأس مالها أنوثتُها، وعمل أنوثتها. وفى الوجْه الأول – وجه اللذة والمنفعة – تحتال كلمة الفُجور على المرأة بكلمات رقيقة ساحرة، منها الحبُّ والزواج والسعادة، فتستسلْم المرأة مضطرةً ليقَع شىء من هذا. وفى الوجْه الثانى – وجهِ الرزق والعيش – تحتال الكلمة الخبيثة الفاجرة على المرأة المسكينة المستضعَفَة بكلمات رهيبة قاتلة، منها الجوع والفقر والشقاء، فتسقط المرأة مضطرةً خيفةَ أن يقعَ شىء من هذا؛ وفى أحد الوجهين يكون الرجلُ هو الفاجرَ لفساد آدابه، وفى الوجه الآخر يكون الفاجرُ هو المجتمَع لفساد مبادئه.

* * *

قلت: أنا لا أنكر أن المرأة إذا سقطتْ فى هذه المدنيَّة، لم تقع أبداً إلا فى موضع غلطة من غلَطات القوانين؛ وآفةُ هذه القوانين أنها لم تُسَن لمنع الجريمة أن تقعَ، ولكن للعقابِ عليها بعد وقوعها؛ وبهذا عجزتْ عن صيانة المرأة وحفظها، وتركتْها لقانون الغريزة الوحشىّ فى هؤلاء الوحوش الآدميين، الذين يأخذُهم السُّعار من هذه الرائحة التى لا يعرفونها إلا فى اثنين: المرأة الجميلة والذهب. فما ألجأت امرأةً حاجتُها أو فقرُها إلى أحدهم ورأى عليها جمالاً، إلا ضرَبَه ذلك السُّعار؛ فإن استخفَّت بَزوَاته وتَعسرَتْ عليه، طردَها إلى الموت، ومنعَها أن تعيش من قِبَلِه؛ وإن صَلحت له وتيسرَتْ، آواها هى وطَرد شرفَها..

وبخلاف ذلك الدين؛ فإنه قائم على منع الجريمة وإبطال أسبابها، فهو فى أمر المرأة يُلْزِمُ الرجل واجباتٍ، ويُلْزم المجتمعَ واجبات غيرَها، ويُلزم الحكومةَ واجبات أخرى.

أما الرجل فينبغى له أن يتزوجَ، ويتحصَّنَ، ويغارَ على المرأة، ويعملَ لها؛ وأما المجتمع فيجب عليه أن يتأدَّب، ويستقيم، ويُعينَ الفردَ على واجباتِ الفضيلة، ويَتَدامَجَ ويَشُدَّ بعضُه بعضًا؛ وأما الحكومة فعليها أن تحمِىَ المرأة، فتُعاقبَ على إسقاطها عِقَابَ الموت والألم والتشهير؛ لتُقيمَ من الثلاثة حُرَّاسًا جبابرَةً، من لا يَخْشَ الله خَشيَها؛ فليس يمكن أبدًا أن يكون فى ديننا موضعُ غلطة تسقُط فيه المرأة.

قال الأستاذ (ح): صدقتَ، فالحقيقةُ التى لا مِراء فيها، أن فكرة الفُجور فكرة قانونية؛ ومادام القانونُ هو أباحها بشروط، فهو الذى قررها فى المجتمع بهذه الشروط؛ ومن هذا التقرير يُقْدِمُ عليها الرجلُ والمرأة كلاهما على ثقة واطمئنان؛ ومن ثمَّ تأتى الجُرْأةُ على اندفاع الناس إلى ما وراء حدود القانون، ومن هذا الاندفاع تأتى الساقطةُ بآخر معانيها وأقبح معانيها.

وتقريرُ سيادة المرأة فى الاجتماع الأوربى، وتقديمها على الرجال، والتأدب معها؛ كلُّ ذلك يجعل جراءةَ السفهاء عليها جراءةً متأدبةً، حتى كأنّ المتحكِّك

منهم فى امرأة يقول لها: من فضلك كونى ساقطة... أما هنا فجراءة السفهاء جراءة ووقاحةٌ معًا، وذلك هو سرُّها.

القانون كأنما يقول للرجال: احتالوا على رضى النساء، فإن رضينَ الجريمةَ فلا جريمة؛ ومن هذا فكأنه يعلمهم أن بَراعة الرجلِ الفاسق إنما هى فى الحيلة على المرأة وإيقاظ الفطرة فى نفسها، بأساليبَ من الملَق والرياء والمكْر، تتركها عاجزةً لا تملك إلا أن تذْعِن وترضى؛ وبهذا ينصرف كلُّ فاجرٍ إلى إبداع هذه الأساليب التى تُطْلِق تلك الفطرةَ من حيَائها، وتُخرجها من عفتها، «تطبيقًا للقانون» ...

ولا سيادةَ فى اجتماعنا للمرأة، ولكنَّ القانونَ جعلها سيدةَ نفسها، وجعلها فوق الآداب كلها، وفوق عقوبة القانونِ نفسه إذا رضيتْ؛ إذا رضيت ماذا...؟

* * *

قلتُ: فإذا كان القانون هنا فى مسألتنا هذه يَعْدِل بالظلم، ويَحمِى الفضيلة بإطلاق حرية الرذيلة؛ فهو إنما يُفسد الدين، ويَصرف الناس عن خوف الله إلى خوفِ ما يخاف من الحكومة وحدها؛ وبهذا لا يكون عملُه إلا فى تصحيح الظاهر من الرجل والمرأة، ويَدع الباطن يُسرُّ ما شاء من خُبثه وحيلتِه وفساده؛ فكأنه ليس قانونًا إلا لتنظيم النِّفاق وإحكام الخديعة؛ فلا جَرم كان قانونًا لحالة الجريمة لا للجريمةِ نفسها؛ فإذا أخذت المرأة مُلاينَةً ورضى فهذا فجورٌ قانونىّ... وإن كانت الملاينة هى عمل الحيلة والتدبير، وإن كان الرضى هو أثر الخداع والمكْر، وإن ضاعت المرأة وسقَطتْ، وذهب شرفُها باطلاً، وألحقه الناس بما لا يكون من تَوبة إبليس فلا يكون أبدًا. أما إذا أخذت المرأة مُكارَهَةً وغَصْبًا، فهذه هى الجريمة فى القانون؛ ويسميها القانون جريمةَ الاعتداء على العِرض، وهى بأن تُسمَّى جريمة العجز عن إرضاء المرأة، أحق وأولى.

على أن المسكينةَ لم تُؤخَذ فى الحالتين إلا غَصْبًا، ولكن اختلفت طريقة الرجلِ الغاصب؛ فإن كلتا الحالتين لم تتأدَّ بالمرأة إلا إلى نتيجة واحدة، هى إخراجها

من شــرفها، وحِرمانُها حقوقَ إنسانيتها فى الأســرة، وطردُها وراء حدود الاعتبار الاجتماعى، وتركُها ثمةَ مُخَلاَّةً لمجارى أمورها، فلا يتيسـُر لها العيش إلا من مثل الرجــل الفاجــر، فلا تكون لها بيئةٌ إلا من أمثاله وأمثالهـــا، كما يجتمع فى الموضع الواحدِ، أهلُ المصيرِ الواحدِ، على طريقةِ القطيع فى المجزرة...

* * *

فقالــت هى: الحقُّ أن هذه الجريمةَ أولها الحب؛ وهى لا تقع إلا من بين نَقيضَيْن يجتمعان فى المرأة معًا: كِبَرُ حبها إلى ما يفوت العقل، وصِغَر عقلها إلى ما ينزل عن الحــب. والمرأة تَظلُّ هادئةً ســاكنةً رزينة، حتى تصادفَهــا اللِّحاظ النارية من العين المقــدَّرة لها، فلا يكون إلا أن تملأها نارًا ولَهَبا؛ ولتكــن المرأة من هِى كائنةٌ، فإنـها حينئــذ كمســتودَع البارود، يَهُــول عِظَمُه وَكِبرَه، وهو لا شــىء إذا اتصلتْ به تلك الشرارة المهاجِمَة.

وليســت حِراسة المرأة شــيئًا يُؤبَه به أو يُعْتَدُّ به أو يسمَّى حراسة، إلا إذا كانت كالتحفظ على مســتودَع البارود من النار؛ فيســتوى فى وسائلها الخوف من الشرارة الصغيرة، والفزَع من الحريق الأعظم؛ فيُحتَاط لاثنيهما بوسائلَ واحدة فى قَدْرٍ واحد واعتبار واحد.

وإذا تُركت المرأة لنفســها تحرُســها بعقلها وأدبها وفضلها وحريتها، فقد تُرِك لنفسه مستودَع البارود تحرسُه جدرانه الأربعة القوية...

والرجــال يعلمــون أن للمرأة مَظاهــرَ طبيعيةً، من الخُيَــلاء والكبرياء والاعتدادِ بالنفــس والمباهاةِ بالعفة؛ ولكن هؤلاء الرجالَ أنفســهم يعلمون كذلك أن هذا الظاهرَ مخلوقٌ مع المرأة كجلْد جسمِها الناعم، وأن تحته أشياء غيرَ هذه تعمل عملَها وتصنع البارود النسائىَّ الذى سينفجر...

* * *

قلــت: إذا كان هذا فَقَبَحَ الله هــذه الحريةَ التى يريدونها للمرأة. هل تعيش المرأةُ إلا فى انتظار الكلمةِ التى تحكمها بلطف، وفى انتظار صاحب هذه الكلمة؟

قالت: إن هذا حقٌّ لا ريب فيه، وأوسعُ النساء حريةً أضيعُهنَّ فى الناس؛ وهل كالمومس فى حريتها فى نفسها؟

ولكن يا شُؤْمَها على الدنيا! إنها هى بعينها كما قلتَ أنت: حريةُ المخلوق الذى يُترك حرًّا كالشَّريد، لتُجرّبَ فيه الحياةُ تجاريبَها. وماذا فى يد المرأة من حريةٍ هى حرية القَدَرِ فيها؟

قلت: ولهذا لا أرجع عن رأيى أبدًا: وهو أنه لا حريةَ للمرأة فى أمة من الأمم، إلا إذا شعر كلُّ رجلٍ فى هذه الأمة بكرامة كل امرأة فيها، بحيث لو أهينتْ واحدةٌ ثار الكلُّ فاستَقَادوا لها، كأن كراماتِ الرجالِ أجمعين قد أهينتْ فى هذه الواحدة؛ يومِئذٍ تُصبح المرأةُ حرةً، لا بحريتها هى، ولكن بأنها محروسة بملايين من الرجال...

فضحكتْ وقالت: (يومئذ)! هذا اسمُ زمان أو اسمُ مكان.... ؟

* * *

قال الأستاذ (ح): ولكنا أبعدْنا عن قصةِ هذه الحياة، ما كان أولها؟

قالت: إن الشبانَ والرجالَ عِلمٌ يجب أن تعلَمه الفتاة قبل أوانِ الحاجة إليه؛ ويجب أن يَقرَّ فى ذهن كل فتاة، أن هذه الدنيا ليست كالدار فيها الحب، ولا كالمدرسة فيها الصداقة، ولا كالمحل الذى تبتاع منه منديلاً من الحرير أو زجاجةً من العطر، فيه إكرامُها وخدمتُها.

وأساسُ الفضيلة فى الأنوثة الحياء؛ فيجب أن تعلم الفتاةُ أن الأنثى متى خرجت من حيائها وتهجَّمتْ، أى توقَّحتْ، أى تبذلتْ، استوى عندها أن تذهبَ يميناً أو تذهبَ شمالاً، وتهيأتْ لكلٍّ منهما ولأيهما اتَّفق: وصاحباتُ اليمين فى كَنف الزوج وظل الأسرة وشرف الحياة، وصاحباتُ الشمال ما صاحباتُ الشمال...؟

قلت: هذا هذا؛ إنه الحياءُ، الحياء لا غيرُه؛ فهل هو إلا وسيلةٌ أعانت الطبيعةُ بها المرأةَ لتسموَ على غريزتها متى وجب أن تسموَ، فلا تلقَى رجلاً إلا وفى دَمِها حارسٌ لا يَغفُل. وهل هو إلا سَلْبٌ جمعته الطبيعةُ إلى ذلك الإيجاب الذى لو انطلق وحده فى نفس المرأة لاندفعتْ فى التبرج والإغراء، وَعَرْض أسرار أنوثتها فى المعرض العام...؟

قالت: ذاك أردتُ، فكلُّ ما تراه من أساليب التجميل والزينة على وجوه الفَتَيات وأجسامِهن فى الطرق، فلا تَعُدَّنه من فَرْط الجمال، بل من قلة الحياء.

واعلم أن المرأة لا تخضعُ حقَّ الخضوع فى نفسها إلا لشيئين: حيائها وغريزتها.

قلت: يا عجبًا! هذا أدقُّ تفسير لقول تلك المرأة العربية: «تجوعُ الحرَّةُ ولا تأكلُ بثَدييها». فإن اختَضعَت المرأةُ للحياء كفَّتْ غريزتَها..

قالت: ... وجعلَها الحياءُ صادقةً فى نفسها وفى ضميرها، فكانت هى المرأةَ الحقيقيةَ الجديرة بالزوج والنسل وتوريثِ الأخلاق الكريمة وحفظِها للإنسانية.

قلت: ومن هذا يكون الإسرافُ فى الأنوثةِ والتبرجِ أمام الرجال كَذِبًا من ضمير المرأة.

قالت: ومن أخلاقِها أيضًا؛ ألا ترى أن أشَّد الإسراف فى هذه الأنوثة وفى هذا التبرج لا يكون إلا فى المرأة العامة.. ؟

قلت: والمرأة العامة امرأةٌ تجاريَّةُ القلب. فكأن المسرفةَ فى أنوثتها وتبرُّجِها، هذه سبيلُها، فهى لا تؤمَنُ على نفسها.

قالت: قد تؤمَن على نفسها، ولكنها أبدًا مُومِسُ الفكر فى الرجال، فيُوشِكُ ألا تُؤمَن؛ وهى رَهنٌ بأحوالها وبما يقع لها، فقد يتقدم إليها الجرىء وقد لا يتقدم، ولكنها بذلك كأنها مُعْلِنةٌ عن نفسها أنها «مستعِدة ألاَّ تُؤمَن» ..

قال (ح) : لكن يقال إن المرأة قد تتبرجُ وتتأنَّث لترى نفسَها جميلةً فاتنة، فيعجبُها حسنُها، فيسرُّها إعجابُها.

قالت: هذا كالقول إن أستاذ الرقص الذى رأيتَه هنا، ينظر إلى نفسه كما ينظر رجلٌ إلى راقصة تتأوَّدُ وتهتزُّ وتَتَرَجْرَج. إن هذا الرقَّاصَ فيه الحركةُ الفنِّية كما هى حركةٌ ليس غير؛ فهو كالميزانِ أو القياسِ أو أىّ آلات الضبط؛ أما فتنةُ الحركة وسحرُها ومعناها من المرأة الفاتنة فى وهم الرجل المفتون بها؛ فهذا كله لا يكونُ منه شىء فى أستاذ الرقص، وإن كان أستاذَ الرقص.

إن أجمـلَ امرأة تَبصُقُ بفمِها على وجهها فى المرآة، إذا مُحِىَ الرجلُ من ذهنها، أو لم يُطـلَّ بعينيه مـن وراء عينيَها، أو لم تكن ممتلئةَ الحـواسِّ به، أو بإعجابِه، أو بالرغبـةِ فـى إعجابه؛ فمهما يكـنْ من جمال هذه فإنها لا تَـرى وجهَها حينئذ إلا كالدنيا إذا خَلتْ من العدل...

***

قلت: ولكنا أبعدنا عن «قصة هذه الحياة ما كان أولها!».

قالت: سـأفعل ذلـك لموضعِكَ عندى: إن قصتـى فى الفصـل الأول منها هى قصةُ جمالى؛ وفى الفصل الثانى هى قصةُ مرض العذراء؛ وفى الفصل الثالث هى قصةُ الغفلة والتهاوُنِ فى الحراسـة؛ وفى الفصل الرابع هى قصةُ انخداع الطبيعةِ النِّسوية المبنية علـى الرقة وإيجاد الحب وتلقِّيه والرغبة فى تنويعهِ أنواعًا للأهلِ والزوج والولد؛ ثم فى الفصل الخامس هى قصةُ لؤم الرجل، كان محبًّا شريفًا يُقْسِمُ بالله جَهْدَ أيمانِه، فإذا هو كالمزوِّر والمحتالِ واللص وأمثالهم ممن لا يُعْرَفون إلا بعد وقوع الجريمة.

ثم سكتت هُنَيهةً، فكان سكوتُها يُتِمُّ كلامَها...

وقال (ح): فما هو مَرَض العذراء الذى كان منه الفصلُ الثانى فى الرواية؟

قالـت: كلُّ عذراءَ فهى مريضـةٌ إلى أن تتزوج؛ فيجب أن يُعْلِمَها أهلُها أن العلاج قد يكون مسـمومًا؛ وينبغى أن يَحُوطوها بقريب من العناية التى يحاط المريضُ بها، فلا يُجعَلُ ما حوله إلا ملائمًا له، ويُمنَع أشـياء وإن أحبَّها ورغِبَ فيها، ويُكْرَهُ على أشياء وإن عافها وصدَف عنها.

قال (ح): فيكون القانونُ الاجتماعىُّ تصديقًا للقانون الدينىّ من أن الذكورةَ هى فى نفسها عَداوةٌ للأنوثة، وأن كلَّ رجل ليس ذا رَحمِ مَحْرَمٍ[1] يجبُ أن يكونَ مرفوضًا إلا فى الحالةِ الواحدةِ المشروعة، وهى الزواج.

---

(١) يقال ذو رحم محرم: أى لا يحل للمرأة، كأبيها وأخيها إلخ.

قالت: فتكون المشكلةُ الاجتماعيـة هى: من ذا يُرغم الذكـورةَ على هذه الحالة الواحدة المشروعة كيلا تضيع الأنوثة؟

قال: ولكن إذا كان سقوطُ الفتاة هو جناية «الزواج المزوَّر» ، فما عسى أن يكون سقوطُ بعض المتزوجات؟

قالـت: هو جنايةُ «الـزواج المنقَّـح»... تريد أنفسُـهن الخبيثةُ تنقيـحَ الزَّوج، والمومِسَات أشرفُ منهن؛ إذ لا يعتدينَ على حق ولا يَخُنَّ أمانة.

ورفَّ على وجهها فى هذه اللحظة شُـعاع من الشـمس كان علـى جبينها كصفاء اللؤلؤ، ثم تحول على خدها كإشـراق الياقوت؛ ورأتنى أتأملُه، فقالت: أنا مُنْتَشِـيةٌ بحظِّى فى هذه الساعات؛ وهذا الشعاعُ إنما جاء يختم نورَها.

ثم كانت السـخرية العجيبة أنها لم تتم كلمةَ النور حتى جاء حظُّها الحقيقى من حياتها... وهو رجل يَتَحَظَّاها؛ كلما أخذتْه عينُها ابتسـمتْ له ابتسـامًا من الذلّ، لو لم تجعلْه هى ابتسـامًا لكان دموعًا؛ ثم وقفتْ وما تتماسَـك من الهم، كأنها تمثال «للجمال البائس» ؛ ثم حَيَّتْ وسلَّمتْ وودَّعت؛ وبعد «واوات» أخرى... مشتْ ساكنةً ومَرْآها يَضِجُّ ويَبكى.

فوداعًا يا أوهامَ الذكاء التى تَلْمِسُ الحقائقَ بقوة خالقة تَزيد فيها!

ووداعًا يا أحلامَ الفكر التى تضع مع كلِّ شىء شيئًا يُغيِّره!

ووداعًا يا حُبَّها...

■■■

عربة اللُّقَطاء...[*]

جلستُ على ساحل الشـاطبى فى (إسكندرية) أتأمل البحر، وقد ارتفَع الضُّحى، ولكنَّ النهارَ لَدْنٌ ناعمٌ رطيبٌ كأن الفجرَ ممتدٌّ فيه إلى الظُّهر.

وجاءت عَربة اللُّقَطَاء فأشرفَتْ على الساحل، وكأنها فى منظرها غمَامةٌ تتحرك، إذ تَعلوهــا ظُلَّةٌ كبيرة فى لون الغَيْم. وهى كعربات النقل، غيرَ أنها مُســوَّرةٌ بألواح من الخشب كجوانب النعش تُمْسِك مَن فيها من الصِّغار أن يتدحْرجوا منها؛ إذ هى تَدرُج وتَتَقَلْقَل.

ووقفتْ فى الشــارع لتُنْزِل ركبَها إلى شـاطئ البحر، أولئك ثلاثون صغيرًا من كل سَـفِيج لَقيط ومَنْبوذ، وقد انكمشـوا وتَضاغَطُوا إذ لا يمكن أن تُمَطَّ العربة فَتَسـعَهم، ولكن يمكن أن يُكْبَسُــوا ويتداخَلُوا حتى يَشْـغَلَ الثلاثة أو الأربعة منهم حَيِّزَ اثنين. ومَن منهم إذا تألَّم سيذهب فيشكو لأبيه... ؟

وتَرى هؤلاء المسـاكينَ خَلِيطًا مُلْتَبِسًـا يُشْـعِرك اجتماعُهم أنهم صَيْدٌ فى شَـبكة لا أطفــالٌ فى عَربة، ويدلك منظرهم البائس الذليل أنهم ليســوا أولادَ أمَّهاتٍ وآباء، ولكنهم كانوا وساوِسَ آباء وأمهات...

* * *

هذه العربة يجرُّها جوادان أحدهما أدهم والآخر كُمَيْت[1]. فلما وقفت لَوَى الأدهم عُنقَه والتفتَ ينظر: أيفرِغون العربةَ أم يزيدون عليها.... ؟ أما الكُمَيْت فحرَّك رأسه وعَلَـكَ لجامَه كأنه يقول لصاحبــه: أن الفكرَ فى تخفيف العبء الذى تَحملُه يجعلُه أثقـلَ عليك مما هــو، إذ يُضيف إليه الهمَّ، والهمُّ أثقل ما حملتْ نفس؛ فما دمتَ فى

(*) كتبها فى مصيفه بسيدى بشر سنة ١٩٣٥م.

(١) الأدهم: الأسود. والكميت: الأحمر.

العملِ فلا تتَوهَّمَن الراحةَ، فإن هذا يُوهِن القوة، ويَخْذُلُ النشاط، ويَجْلِبُ السأم؛ وإنما رُوحُ العمل الصبر، وإنما رُوح الصبر العزم.

ورآهم الأدهم يُنْزِلون اللُّقَطَاء، فاستخَفَّه الطرب، وحرَّك رأسه كأنما يسخرَ بالكميت وفلسفتِه، وكأنما يقولُ له: إنما هو النّزُوعُ إلى الحرية، فإن لم تكن لك فى ذاتها، فلتكنْ لك فى ذاتك، وإذا تعذَّرَت اللذةُ عليك، فاحتفظْ بخَيالها، فإنه وُصْلَتُكَ بها إلى أن تُمكِنَ وتتَسهَّل؛ ولا تجعلَنَّ كلَّ طباعِك طباعا عاملةً كادِحةً، وإلا فأنت أداةٌ ليس فيها إلا الحياةُ كما تريدك، وليكن لك طبعٌ شاعرٌ مع هذه الطباع العاملةِ، فتكونَ لك الحياةُ كما تريدك وكما تريدها.

إن الدنيا شىء واحدٌ فى الواقع؛ ولكنَّ هذا الشىء الواحد هو فى كل خيال دنيَا وحدَها.

***

وفى العربة امرأتان تَقُومان على اللقطاء؛ وكلتاهما تزويرٌ للأم على هؤلاء الأطفال المساكين؛ فلما سكَنَت العربةُ انحدرتْ منهما واحدة وقامت الأخرى تُناوِلُها الصغارَ قائلةً: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة... إلى أن تمَّ العدد وخلا قَفَصُ الدَّجاجِ من الدجاج...!

ومشى الأطفالُ بوجوه يتيمة، يَقرأ من يقرأ فيها أنها مُسْتَسلِمةٌ، مُستكينة، معتَرِفة أن لا حقَّ لها فى شىء من هذا العالَم، إلا هذا الإحسانَ البخْسَ القليل.

جاءوا بهم لينظروا الطبيعةَ والبحرَ والشمس، فغَفَلَ الصغارُ عن كل ذلك وصَرَفوا أعينُهم إلى الأطفالِ الذين لهم آباءُ وأُمَّهات...

***

وا كَبِدى! أضنى الأسى كَبِدِى؛ فقد ضاق صدرى بعد انفساحه، ونالنى وَجَعُ الفكرِ فى هؤلاء التُّعساء، وعَرَتْنى منهم عِلَّة كَدَس الحمَّى فى الدم؛ وانقلبتُ إلى مَثْواىَ، والعربةُ وأهلُها ومكانُها وزمانُها فى رأسى.

فلما طاف بى النومُ طاف كلُّ ذلك بى، فرأيتُنى فى موضعى ذاك، وأبصرتُ العربةَ قد وقفتْ، وتحاوَرَ الأدهم والكُميت؛ فلما أفرغوها وشَعَّرَ الجوادان بخفَّتها التفتا معًا، ثم جمعَا رأسيهما يتحدَّثان!

قال الكُميت: كنتُ قبلَ هذا أجرُّ عربةَ الكلابِ التى تقتلها الشُّرْطَةُ بالسُّم، فآخذ الموتَ لهذه الكلابِ المسكينة، ثم أرجعُ بها مَوْتَى؛ وكنتُ أذهبُ وأجيء فى كل مراد ومُضْطَرَبِ من شوارع المدينة وأزقَّتها وسِكَكِها، ولا أشعر بغير الثِّقْل الذى أجره؛ فلما ابتُليتُ بعربة هؤلاء الصغار الذين يسمونهم اللقطاء، أحسستُ ثقلاً آخرَ وقع فى نفسى وما أدرى ما هو؟ ولكن يُخَيَّلُ إلىّ أنَّ ظلّ كلِّ طفل منهم يُثْقِلُ وحدَه عربة.

قال الأدهم: وأنا فقد كنتُ أجرُّ عربةَ القُمَامةِ والأقذار، وما كان أقذَرَها وأنتَنها، ولكنها على نفسى كانت أطهرَ من هؤلاء وأنظف؛ كنت أجِدُ ريحها الخبيثةَ ما دمت أجرها؛ فإذا أنا تركتُ العربةَ اسْتَروَحْتُ النَّسيم واستطعَمْت الجوّ، أما الآن فالريحُ الخبيثةُ فى الزمن نفسِه، كأن هذا الزمنَ قد أرْوَحَ وأنتنَ منذ قُرِنْتُ بهؤلاء وعرَبتهم.

قال الكُميت: إن ابنَ الحيوان يستقبلُ الوجودَ بأمه، إذ يكونُ وراءها كالقِطْعة المتمِّمة لها، ولا تقبل أمه إلا هذا، ولا يَصْرفُها عنه صارف، فتُرغم الوجودَ على أن يتقبلَ ابنها، وعلى أن يُعطيَه قوانينَه؛ أما هؤلاء الأطفال فقد طرَدَهم الوجود منه كما طرد الله آباءهم وأمهاتِهم من رحمته؛ وقد هُدِيتُ الآن إلى أن هذا هو سرُّ ما نشعر به؛ فلسنا نجرُّ للناس ولكن للشياطين..

***

وهنا وقف على حُوذىّ العربة صديقٌ من أصدقائه فقال: مَن هؤلاء يا أبا على؟

قال الحوذى: هؤلاء هؤلاء يا أبا هاشم.

قال أبو هاشم: سبحانَ الله أما تترك طبعَك فى النكتة يا شيخ؟

قال الحوذى: وهل أعرفُهم أنا؟ هم بِضاعة العربة والسلام: اركبوا يا أولاد، انزلوا يا أولاد. هذا كلُّ ما أسمع.

قال أبو هاشم: ولكن ما بالك ساخطًا عليهم، كأنهم أولادُ أعدائك؟

قال الحوذى: ليت شعرى من يدرى أىُّ رجلٍ سيخرج من هذا الطفل، وأيةُ امرأةٍ ستكون من هذه الطفلة؟

انظر كيف تعلَّقتْ هذه البنت وعمرُها سنتان، فى عُنُق هذا الولد الذى كان من سنتين ابنَ سنتين[1]... لا أرانى أحملُ فى عربتى أطفالاً كالأطفال الذين تحملُهم العربات إلى أبواب دُورهم؛ فإن هؤلاء اللقطاء يُحمَلون إلى باب الملْجأ، وهو بابٌ للحارات والسكك لا يأخذُ إلا منها، فلا يُرسل إلا إليها.

أنا والله يا أبا هاشم، ضيِّقُ الصدر، كاسفُ البال من هذه المِهْنة؛ ويخيَّل إلىَّ أنى لا أحملُ فى عربتى إلا الجنونَ والفُجور والسرقةَ والقتلَ والدِّعارةَ والسكرْ وعواصفَ وزوابعَ...

قال أبو هاشم: ولكنَّ هؤلاء الأطفالَ مساكين، ولا ذنب لهم.

قال الحوذى: نعم لا ذنبَ لهم، غير أنهم هم فى أنفسهم ذنوب؛ إن كلَّ واحد من هؤلاء إن هو إلا جريمة تُثْبِتُ امتدادَ الإثم والشر فى الدنيا؛ ولدتْهم أمهاتُهم لِغَيَّة[2].

فقطع صاحبُه عليه وقال: وهل وَلَدْنَهُمْ إلا كما تلد سائرُ الأمهات أولادَهن؟

قال: نعم، إنه عملٌ واحد، غير أن أحوالَه فى الجهتين مختلفة لا تتكافأ؛ وهل تستوى حالُ من يشترى المتاع، ومن يسرقُ المتاع؟

ههنا باعثٌ من الشهوة قد عجز أن يسموَ سموَّه - وما سموُّه إلا الزواج - فَتَسَفَّل وانحط، ورجَع فِسقًا، وعاد أولُه على آخره: كان أولُه جُرْمًا فلا يزالُ إلى آخره جُرْمًا، ولا يزال أبدًا يعودُ أولُه على آخره؛ فلما حملت المرأة وفاءتْ إلى أمرها، وذهب عنها جنونُ الرجلِ والرجلُ معًا؛ انطوتْ للرجال على الثأر والحِقد والضغينة؛ فلا يكون ابنُ العارِ إلا ابنَ هذه الشرورِ أيضًا.

والأمهاتُ يُعْدِدْن لأجِنَّتهن الثيابَ والأكْسِيةَ قبل أن يُولدوا، ويُهيِّئْن لهم بالفكرِ آمالا وأحلامًا فى الحياة، فيَكْسِبْنَهُم فى بطونهن شعورَ الفرَح والابتهاج وارتقابَ

---

(١) تعبير بالنكتة على طريقة ظرفاء البلديين من أمثال (أبى على)، والمراد أنه ابن أربع سنوات.

(٢) ولدته لغية: أى من سفاح. وضده لرشدة بفتح الراء.

الحياةِ الهنيئة والرغبةَ فى السموِّ بها؛ ولكنَّ أمهات هؤلاء يُعدِدْن لهم الشوارعَ والأزقَّة منذُ البَدْء، ولا تترقَّبُ إحداهن طولَ أشهرِ حَملِها أن يجيئها الوليد، بل أن يتركَها حيًّا أو مقتولاً؛ فيورثْنهم بذلك وهم أجنَّة شعورَ اللَّهفةِ والحسْرة والبُغضِ والمَقْت، ويَطبَعْنَهم على فكرة الخطيئةِ والرغبة فى القتل، فلا يكونُ ابنُ العار إلا ابنَ هذه الرذائل أيضًا.

وتَظلُّ الفاسقةُ مدةَ حملها تسعةَ أشهر فى إحساس خائف، مترقِّب، منفرد بنفسِه، منعزل عن الإنسانية، ناقم، متبرّم، متستر، منافِق؛ فلو كان السَّفِيحُ من أبوين كريمين لجاء ثُعبانًا آدميًّا فيه سُمُّه من هذا الإحساس العنيف. ومتى ألقتْ الفاسقةُ ذَا بطنها[1] قطعته لِتَوِّه من روابط أهله وزمنهِ وتاريخهِ ورمتْ به ليموت؛ فإن هلك فقد هلك، وإن عاش لمثلِ هذه الحياةِ فهو موت آخر شرٌّ من ذلك؛ ومهما يَتَوَلَّهُ الناسُ. والمحسنون، فلا يزالُ أولُه يعود على آخره؛ مما فى دَمِه وطباعِه الموروثة؛ ولا يبرحُ جريمةً ممتدَّةً متطاولة، ولا ينفكُّ قصةً فيها زان وزانيةٌ، وفيها خطيئةٌ ولَعنة.

فهؤلاء كما رأيتَ أولاد الجُرأة على الله، والتعدّى على الناس، والاستخفاف بالشرائع، والاستهزاء بالفضائل؛ وهم البغض الخارج من الحب، والوقاحة الآتية من الخجَل، والاستهتارُ المنبعِثُ من النَّدامة؛ وكلٌّ منهم مسألةُ شرّ تطلبُ حلَّها أو تعقيدَها من الدنيا، وفيهم دماءٌ فوَّارة تجمعُ سمومَها شيئًا فشيئًا كلما كبروا سنةً فسنة.

قال أبو هاشم: ألا لعنة الله على ذلك الرجل الفاسق الذى اغْتَرَّ تلك المرأة فاستزلَّها وهوَّرَها فى هذه المَهْواة. أكان حق الشهوة عليه أعظمَ من حق هذا الآدمىّ. أما كان ينبغى أن يكونَ هذا الآخِرُ هو الأولَ فى الاعتبار، فيعلمَ أن هذا اللقيطَ المسكينَ هو سبيلُه إلى صاحبته، وهو البلاغُ إلى ما يحاولُه منها؛ فيكونَ كأنما دخل بين الاثنين ثالثٌ يراهما... فلعلهما يستَحِيان.

(١) أى وضعت وولدت، وهو تعبير عربى بليغ.

قال الحوذىُّ الفيلسوف: لعنةُ الله على ذلك الرجل، ولَعَنَاتُ الله كلُّها، ولَعناتُ الملائكة والناس أجمعين على تلك المرأة التى انقادتْ له واغترَّت به.

إن الرجلَ ليس شيئًا فى هذه الجريمة، فقد كانت بَصقةٌ واحدةٌ تُغرقُه، وكانت صفعةٌ واحدةٌ تَهزمه، وكان مع المرأة الحكومةُ والشرائعُ والفضائلُ، ومعها جهنمُ أيضا.

ألم تعلم الحمقاء أن الرجلَ الذى ليس زوجًا لها ليس رجلاً معها، وأن الشريعةَ لو أيقنتْ أنه رجلٌ لما حرّمت عليها أن تخالِطه؟ إنه ليس الرجلُ هو الذى ساوَرَ هذه المرأة، بل مادةُ الحياة التى رأت فى المرأة مُستودَعها، فتريدُ أن تقتحِمَ إلى مَقَرّها عَنْوَةً أو خِداعا أو رضًى أو كما يتفق؛ إذ كان قانون هذه المادة أن تُوجَد، ولا شيء إلا أن توجَد؛ فلا تعرفُ خيرًا ولا شرًّا، ولا فضيلةً ولا رذيلة.

لأيِّهما يجبُ التحصين: أللصاعقة المنقضة، أم للمكان الذى يُخشَى أن تنقضَّ عليه؟ لقد أجابت الشريعة الإسلامية: حَصِّنوا المكان. ولكن المدنية أجابت: حصِّنوا الصاعقة...!

* * *

وكانت المرأتان المصاحبتان لجماعة اللُّقطاء تتناجيَان، فقالت الكبرى منهما: يا حَسْرَتَا على هؤلاء الصغار المساكين! إن حياةَ الأطفال فيما فوقَ مادة الحياة، أى فى سرورهم وأفراحِهم؛ وحياةُ هؤلاء البائسين فيما هو دون مادة الحياة، أى فى وجودهم فقط.

وكِبَرُ الأطفال يكون منه إدخالُهم فى نظام الدنيا، وكِبَرُ هؤلاء إخراجُهم من «الملجأ» وهو كلُّ النظام فى دنياهم، ليس بعدَه إلا التشريدُ والفقرُ وابتداء القصة المحزنة.

فقالت الصُّغرى: وَلِمَ لا يفرحون كأولاد الناس، أليست الطبيعةُ لهم جميعًا، وهل تجمعُ الشمسُ أشعتَها عن هؤلاء لتُضاعِفَها لأولئك؟

قالت الأخرى: الطبيعة؟ تقولين الطبيعة؟ إنك يا ابنتى عذراء لم تبدأ فى حياتِك حياةٌ بعد، ولم تجاوبى بقلبك القلبَ الصغيرَ الذى كان تحت قلبك تسعةَ أشهر؛ وإنما أنتِ مع هؤلاء (موظَّفة) لا تعرفين منهم إلا جانبَ النظام وقانونَ الملجأ.

لقد ولدتُ يا ابنتى خمسةَ أطفال، وبالعين البليغة التى أنظرُ بها إليهم أنظر إلى هــؤلاء، فما أراهم إلا منقَطعين من صِلة القلب الإنســانى: يعبَــسُ لهم حتى الجوّ، ويُظلِم عليهم حتى النور؛ ويبدو الطفل منهم على صِغَره كأنه يحملُ الغمَّ المقبلَ عليه طولَ عمره.

يــا لَهْفى على عُود أخضــرَ ناعم رَيَّــانَ كان للثَّمَر فقيل له: كــن للحَطب! الفرحُ يا ابنتى هو شعورُ الحىّ بأنه حىٌّ كما يهوى، ورؤيتُه نفسَه على ما يشاء فى الحياة الخاصــة به. وهؤلاء اللقطاء فى حياة عامَّة قد نُزِعَتْ منها الأمُّ والأبُ والدارُ، فليس لهم ماض كالأطفال، وكأنهم يبدءون من أنفسِهم لا من الآباء والأمهات.

قالت الصغيرة: ولكنهم أطفال.

قالت تلك: نعم يا ابنتى هم أطفال، غيرَ أنهم طُردوا من حقوق الطفولة كما طُردوا من حقوق الأهل. وحسبُك بشقاء الطفل الذى لم يَعرف من حَنان أمه إلا إنها لم تقتلْه، ولا من شفَقتها إلا إنها طَرحَتْه فى الطريق.

إن الطبيعــةَ كلَّها عاجزة أن تعطِىَ أحدَهم مكانًا كالموضــع الذى كان يتبوَّؤُه بين أمه وأبيه.

ليــس الأطفال يــا ابنتى إلا صُوَرًا مُبهمَةً صغيرةً من كل جمال العالم، تفسِّــرها أعينُ ذويهم بكل التفاسير القلبية الجميلة؛ فأينَ أينَ العيونُ التى فيها تفسيرُ هذه الصُّور اللقيطة؟

ألا لعنــة الله والملائكة والناس أجمعين علــى أولئك الرجال الأنذال الطّغَام الذين أَولدوا النساء هؤلاء المنبوذين! يزعمون لأنفسِهم الرجولةَ، فهذه هى رجولتُهم بين أيدينا، هذه هى شهامتُهم، هذه هى عقولهم، هذه هى آدابُهم... !

عجَبًا، إن ســيِّئات اللصوص والقتَلةِ كلها يُنسَــى ويتلاشَى، ولكنَّ سيئاتِ العشاق والمحبين تعيشُ وتكبر...

أكان ذنــبُ المرأة أنهــا صادِقة فصدقَّتْ، وأنها مُخْلِصــة فأخلصتْ، وأنها رقيقة فلانَت، وأنها مُحسنة فرَحمَت، وأنها سليمة القلب فانخدعتْ؟

واكَبِدى للمسكينة! هل انخدعتْ إلا من ناحيةِ الأمومة التى خُلِقت لها؟ هل انخدعتْ إلا الأمُّ التى فيها؟ وهل خدعها من ذلك اللئيم إلا الأب الذى فيه؟

واكَبدِى لمن تُفْجَع بالنكبةِ الواحدة ثلاثَ فجائعَ: فى كرامتها التى ابتُذِلَتْ، وفى الحبيب الذى تبرأ منها، وفى طفلِها الذى قطعته بيدها من قلبها وتركته لما كتب عليه...!

إن هذا لا يُعوّضُه فى الطبيعة إلا أن يكونَ لكل رجل من أولئك الأنذالِ ثلاثُ أرواح، فيُقتَلَ ثلاثَ مرات: واحدةً بالشنق، والثانيةَ بالحرق، والثالثةَ بالرَّجْم بالحجارة.

***

وكان اللقطاء قد تَبَعْثَروا على الساحل جَماعاتٍ وَشتَّى، فوقف أحدُهم على طفل صغير يلعبُ بما بين يديه، وأمُّه على كَثَب منه، وهى تتلهَّى بالمخرَّم تتلَّوى فيه أصابعُها.

فنظر الطفل إلى اللقيط وأومأ إلى جماعته ثم قال له: أأنتم جميعًا أولادُ هاتين المرأتين أم إحداهما؟

قال اللقيط: هما المراقِبَتَان؛ وأنتَ أفليستْ هذه التى معك مُراقِبة؟

قال الطفل: ما معنى مُراقِبة؟ هذه ماما!

قال الآخر: فما معنى ماما؟ هذه مُراقِبة.

قال الطفل: وكلكم أهلُ دار واحدة؟

قال: نحن فى الملجأ، ومتى كبرنا أخذونا إلى دُورنا.

فقال الطفل: وهل تبكى فى الملجأ إذا أردت شيئًا ليعطوك؛ ثم تغضَبُ إذا أعطوك لِيَزيدوك؟ وهل يُسكِتُونك بالقرش والحلْوَى؟ والقُبلة على هذا الخد وعلى هذا الخد؟ إن كان هذا فأنا أذهبُ معكم إلى الملجأ؛ فإن أبى قد ضربنى اليوم، وقد أمر (ماما) أن لا تعطنى شيئًا إذا بكيت، ولا تزيدَنى إذا غضبت، ولا ....

وهنا صاحت المراقبة الصغيرة: تعال يا رَقْم عشرة... فلَوَى اللقيطُ المسكينُ وجهَه، وانْصَاعَ وأدبر.

«ومشَى الأطفالُ بوجوه يتيمة، يقرأ من يقرأ فيها أنها مستسلِمةٌ، مستكِينةٌ، معتَرفة أن لا حقَّ لها فى شىء من هذا العالَم إلا هذا الإحسانَ البخس القليل» ...

الله أكبر(*)

جلسْتُ وقد مضى هَزيعٌ من الليل، أهَيِّيء فى نفسى بِناء قصة أُديرُها على فتىً كما أحَــبَّ.. خبيثٍ داعر، وفتاة كما أحبَّتْ... عذراءَ مُتَماجِنَة؛ كِلاهما قد دَرَسَ وتخرَّجَ فى ثلاثة مَعاهد: المدرسة، والروايات الغرامية، والسِّيما. وهو مصرىٌّ مسلم، وهى مصرية مســيحيَّة. وللفتى هَنَاتٌ وسيئاتٌ لا يتنزَّه ولا يتورَّع؛ وهو مِن شبابه كالماء يغلى، ومن أنَاقتِه بحيث لم يَبْقَ إلا أن تَلْحقَه تاء التأنيث... وقد تشـعَّبت به فنونُ هذه المدنيَّة، فرفَع الله يَدَه عن قلبه لا يُبالى فى أىّ أوْديَتها هَلَك؛ وهو طِلْبُ نســاء، دأبُه التَّجْوالُ فى طُرقهنّ، يَتْبَعُهنَّ ويتعرضُ لهنّ، وقد ألِفَتْه الطرق حتى لو تكلمت لقالت: هذا ضَرْبٌ عجيبٌ من عَرَبات الكَنْس...!

وللفتاة تبرُّجٌ وتهتك، يَعْبَثُ بها العبَثُ نفســه، وقد أخرجتْها فنونُ هذا التأنث الأوربىّ القائم على فلسفة الغريزة، وما يُسمّونه «الأدب المكشوف» كما يُصوّره أولئك الكُتَّابُ الذين نَقَلوا إلى الإنســانية فلســفةَ الشهوات الحرّة عن البهائم الحرة.. فهى تَبْرُزُ حين تَخرج من بيتها، لا إلى الطريق، ولكن إلى نظرات الرجال؛ وتَظهرُ حين تظهر، مُصوّرة لا بتَلْوين نفسِــها مما يجوزُ ومــا لا يجوز، ولكن بتلْوين مرآتها مما يُعجِب وما لا يُعجِب.

وَكِلا اثْنيْهما لا يُقيم وزنًا للدين، والمســلم والمســيحىُّ منهما هو الاسـمُ وحده؛ إذ كان مِــن وَضْع الوالدين (رحمهما الله!) ؛ والدّينُ حرّيــة القَيد لا حرّية الحرية؛ فأنــت بعــد أن تُقيَّدَ رذائلك وضَرَاوتكَ وشـرّك وحيوانيَّتك - أنـت مِن بعد هذا حر ما وسِــعَتْك الأرضُ والسماء والفكر؛ لأنك من بعد هذا مُكَمِّلٌ للإنسانيَّة، مستقيمٌ على طريقتها؛ ولكن هَبْ حِمارًا تَفَلْسَــفَ وأراد أن يكون حرًّا بعقله الحمارىّ؛ أى تقرير

(*) كتبها فى الأسبوع الأخير من رمضان.

المذهب الفلسفى الحمارىّ فى الأدب.... فهذا إنما يبتغى إطلاقَ حريته، أى تسليطَ حِمَاريَّتِه الكامِلة على كل ما يتصل به من الوجود.

وتَمْضِى قصّتى فى أساليبَ مختلفة تَمْتَحِنُ بها فنونُ هذه الفتاة شهوَات هذا الفتى، فلا يزال يَمشى مِن حيث لا يَصل، ولا تزال تمنعه من حيث لا تردُّه؛ وما ذلك من فضيلة ولا امتناع، ولكنها غريزة الأنوثة فى الاستمتاع بُسلطانها، وإثباتِها للرجل أن المرأة هى قوّة الانتظار، وقوّة الصبر؛ وأن هذه التى تحمل جنينَها تسعةَ أشهر فى جوفها، تُمسِكُ رغبتَها فى نفسها مدّة حَملٍ فْكرىٍّ إذا هى أرادت الحياة لرغبتها، ليكونَ لوقوعها وتَحقُّقها مثلُ الميلاد المفْرِح.

ولكنَّ الميلادَ فى قصتى لا يكون لرذيلة هذه الفتاة، بل لفضيلتها؛ فإن المرأة فى رأيى – ولو كانت حياتُها محدودة من جهاتها الأربع بكبائر الإثم والفاحشة – لا يزال فيها من وراء هذه الحدود كلّها قلبٌ طبيعتُه الأمومة، أى الاتصالُ بمصدر الخَلْق، أى كلُّ فضائل العقيدة والدين؛ وما هو إلا أن يتنبه هذا القلبُ بحادث يتّصلُ به فيبلغُ منه، حتى تتحوّلَ المرأةُ تَحوُّلَ الأرض من فصلها المقشَعِرّ المجدب، إلى فصلها النَّضر الأخضر.

ففى قصتى تُذْعن الفتاة لصاحبها فى يوم قد اعتَرتْها فيه مخافةٌ، ونزلَ بها همٌّ، وكادتْها الحياةُ من كَيدها؛ فكانت ضعيفةَ النفس بما طرأ عليها من هذه الحالة. وتخلو بالفتى وفكرُها منصرفٌ إلى مَصدر الغيب، مؤمِّلٌ فى رحمة القدَر؛ ويَخلِبُها الشابُّ خَلاَبَةَ رُعُونتِه وحبِّه ولسانه، فيعطيها الألفاظَ كلَّها فارغةً من المعانى، ويقرُّ بالزواج وهو مُنطوٍ على الطَّلاق بعد ساعة؛ فإذا أوشكت الفتاة أن تُصرَعَ تلك الصَّرعة دَوَّى فى الجوّ صوتُ المؤذنّ: «الله أكبر!».

وتُلْسَعُ الفتاةُ فى قلبها، وتتَّصلُ بهذا القلب رُوحانيَّةُ الكلمة، فتقعُ الحياةُ السماويةُ فى الحياة الأرضية، وتنتبه العذراء إلى أن الله يَشْهَدُ عارَها، ويَفجَؤُها أنها مُقْدِمةٌ على أن تفْسِدَ من نفسها ما لا يُصْلِحُه المستحيلُ فضلاً عن الممكن، وترنو بعين الفتاة الطاهرة من نفسها إلى جسمِ بَغِيٍّ ليستْ هى تلك التى هى؛ وتنظر بعين

الزوجة من صاحبها إلى فاسـق ليس هو ذاك الذى هو؛ ويَحْكى لها المكانُ فى قلبها المفطور على الأمومة - حكايةً تَثُور منها وتشمئزّ، ويَصْرُخُ الطفلُ المِسكينُ صَرْختَه فى أذنها قبل أن يُولَدَ ويُلْقى فى الشارع... !

الله أكبر! صوتٌ رهيبٌ ليس من لغةِ صاحبِها ولا من صَوْتهِ ولا من خِسَّـته، كأنما تُفْرِغُ السـماء فيه مِلءَ سـحابة على رِجْسِ قلبها فتُنْقيه حتى ليس به ذرَّةٌ من دَنَسِهِ الذى رَكِبَهُ السـاعة. كان لصاحبها فى حِسِّ أعصابها ذلك الصوتُ الأسودُ، المنطفئ، المبهَـم، المتَلَجْلِجُ مما فيه من قوَّة شـهواته؛ للمؤذّن صوتٌ آخَر فى رُوحها؛ صوتٌ أحمرُ، مشتعلٌ كمَعْمَعَةِ الحريق، مُجَلْجِلٌ كالرعد، واضحٌ كالحقيقة، فيه قوّةُ الله!

سـمعتْ صوتَ السِّلسلةِ وقَعْقَعتَها تُلوَى وتشَـدُّ عليها، ثم سمعتْ صوتَ السلسلة بعينها يُكسَرُ حديدُها ويتحطَّمُ.

كانت طهارتُها تختنِقُ فنفذتْ إليها النَّسَمات؛ وطارت الحمامةُ حين دعاها صوتُ الجوّ، بعد أن كانت أسَـفَّتْ حين دعاها صوتُ الأرض. طارت الحمامة، لأن الطبيعةَ التفتتْ فيها لفتةً أخرى.

ويكرّر المؤذّنُ فى ختام أذانه: «الله أكبرُ الله أكبر!» فإذا ...

* * *

وتَبَلّدَ خاطرى، فوقفتُ فى بناء القصَّة عند هذا الحد، ولم أدرِ كيف يكون جوابُ «إذا....» فتركتُ فكرى يعمل عَمَلَه كما تُلْهِمه الواعيةُ الباطنة، ونِمْت...

ورأيـتُ فـى نومى أنى أدخُل المسـجدَ لصَلاة العيد وهو يَعُـجُّ بتكبير المصلِّين: «الله أكبـر الله أكبر!» ولهم هَديرٌ كهدير البحرِ فى تَلاطُمِه. وأرى المسـجدَ قد غَصَّ بالنـاس فاتَّصلـوا وتلاحَموا؛ تجِدُ الصفَّ منهم على اسـتوائه كما تجد السـطرَ فى الكتاب ممدودًا محتَبكًا ينتظمهُ وضْعُ واحد، وأراهم تتابعوا صفًّا وراء صفّ، ونَسَـقًا على نَسَـق، فالمسجدُ بهم كالسُّـنْبُلَةِ مُلِئت حبًّا ما بين أوّلها وآخرها؛ كلُّ حبة هى فى لِفٍّ من أهلِها وشملِها، فليس فيهن على الكثرة حَبَّةٌ واحدة تُميِّزُها السنبلةُ فَضلَ تمييز، لا فى الأعلى ولا فى الأسفل.

وأقف متحيرًا مُتَلَدِّدًا ألتفتُ ههنا وههنا، لا أدرى كيف أخلُصُ إلى موضع أجلس فيه، ثم أمضى أتخطَّى الرِّقابَ أطمعُ فى فُرْجَة أقتحمها وما تنفرج، حتى أنتهِىَ إلى الصفّ الأوّل، وأنظرُ إلى جانب المحراب شيخًا بادِنًا يملأ موضعَ رَجلين، وقد نَفَح منه ريحُ المِسك، وهو فى ثياب من سُندُس خُضْر؛ فلما حاذيْتُه جمعَ نفسَه وانكمش، فكأنما هو يُطوَى طيًّا، ورأيت مكانًا وَسِعَنى فحَططتُ فيه إلى جانبه، وأنا أعجَبُ للرجل كيف ضاق ولم أضيِّق عليه، وأين ذهب نِصفُه الضخْم وقد كان بعضه على بعضه زِيَمًا على زِيَم[1] وامتلاءً على امتلاء.

وجعلتُ أحْدسُ عليه ظنى، فوقع فى نفسى أنه مَلَكٌ من ملائكة الله قد تمثَّل فى الصورة الآدمية فاكتتمَ فيها لأمر من الأمر.

وضجَّ الناسُ: «الله أكبرُ الله أكبر!» فى صوت تقشعرُّ منه جُلود الذين يخشَوْنَ ربَّهم، غير أن الناسَ مما ألِفوا الكلمةَ ومما جهلوا من معناها – لا يسمعونها إلا كما يسمعون الكلام؛ أما الذى إلى جانبى فكان ينتفضُ لها انتفاضة رجَّتْنى معه رَجًّا، إذ كنتُ ملتصِقًا به مُناكِبًا له؛ وكأن المسجدَ فى نَفْضه إيانا كان قِطارًا يجرِى بنا فى سرعة السحاب، فكلُّ ما فيه يرتجُّ ويهتزّ. ورأيتُ صاحبى يَذْهَل عن نفسه، ويتلألأ على وجهه نورٌ لكل تكبيرة، كأن هناك مصباحًا لا يزال ينطفئ ويشتعل؛ فقطعتُ الرأى أنه من الملائكة.

ثم أقيمت الصلاةُ وكبَّر أهلُ المسجد، وكنتُ قرأتُ أن بعضهم صلى خلْفَ رجل من عظماء النفوس الذين يعرفون الله حقَّ معرفته؛ قال: فلما كبَّرَ قال: «اللهُ..» ثم بُهِتَ وبقى كأنه جَسَدٌ ليس به رُوح من إجلاله الله تعالى؛ ثم قال: «أكبر» يَعْزِم بها عَزْمًا، فظننت أن قلبى قد انقطعَ من هيبة تكبيره.

قلتُ أنا: أمَّا الذى إلى جانبى، فلما كبر مدّ صوته مدا ينبثق من رُوحه ويستطير، فلو كان الصوتُ نورًا لَمَلأ ما بين الفجر والضُّحى.

* * *

(١) أى كتلا على كتل، والزيم المتفرق من اللحم.

وعرفتُ واللهِ من معنى المسجد ما لم أعرف، حتى كأنى لم أدخلْه من قبل، فكأن هذا الجالسُ إلى جانبى كضوء المصباح فى المصباح؛ فانكشفَ لى المسجدُ فى نوره الرُّوحىّ عن معانٍ أدخلتنى من الدنيا فى دُنْيا على حِدَة. فما المسجد بناء ولا مكانًا كغيره من البناء والمكان، بل هو تصحيحٌ للعالَم الذى يَموج من حَوْله ويضطرب؛ فإن فى الحياة أسبابَ الزَّيغ والباطل والمنافسة والعداوة والكَيْدِ ونحوها، وهذه كلُّها يمحوها المسجدُ إذ يجمع الناسَ مرارًا فى كل يوم على سلامة الصدر، وبراءةِ القلب، وروحانيَّة النفس، ولا تدخله إنسانية الإنسان إلا طاهرةً منزَّهة مُسْبغَةً على حدود جسمها من أعلاه وأسفلِه شِعارَ الطُّهرِ الذى يُسمَّى الوضوء، كأنما يغسلُ الإنسانُ آثار الدنيا عن أعضائه قبل دخوله المسجد.

ثم يستوى الجميعُ فى هذا المسجد استواء واحدًا، ويقفون موقفًا واحدًا، ويخشعون خشوعًا واحدًا، ويكونون جميعًا فى نفسيَّةٍ واحدة؛ وليس هذا وحدَه، بل يَخِرُّون إلى الأرض جميعًا ساجدين لله؛ فليس لِرأس على رأس ارتفاع، ولا لوجه على وجه تمييز؛ ومن ثَمَّ فليس لذات على ذات سلطان. وهل تُحقِّق الإنسانيَّةُ وَحْدَتها فى الناس بأبدعَ من هذا؟ ولعمرى أين يجدُ العالَمُ صوابَه إلا ههنا؟

فالمسجد هو فى حقيقته موضعُ الفكرةِ الواحدةِ الطاهرة المصحِّحةِ لكلّ ما يَزيغُ به الاجتماع، وهو فِكْرٌ واحدٌ لكلّ الرءوس؛ ومن ثَمَّ فهو حَل واحدٌ لكل المشاكل، وكما يُشَقُّ النهر فتقف الأرض عند شاطئيه لا تتقدم، يُقام المسجدُ فتقف الأرضُ بمعانيها التُّرابيَّة خلف جدرانه لا تَدْخُله.

* * *

وما حَرَكَةٌ فى الصلاة إلا أوّلُها «الله أكبر» وآخرُها «الله أكبر»؛ ففى ركعتين من كل صلاة إحدى عشرةَ تكبيرةً يَجْهَرُ المصلُّون بها بلسان واحد؛ وكأنى لم أفطن لهذا من قبل، فأىُّ زمام سياسى للجماهير وروحانيَّتها أشدُّ وأوثقُ من زمام هذه الكلمة التى هى أكبرُ ما فىَ الكلام الإنسانىّ؟

* * *

ولما قُضيَت الصلاةُ سـلَّمْتُ على المَلك وسَلَّم على، ورأيتُه مقبلاً محتفيًا، ورأيتُنِى أثيرًا فى نفسه، وجالت فى رأسى الخواطرُ فتذكَّرتُ القصةَ التى أريد أن أكتبَها، وأن المؤذِّنَ يكرر فى خاتمة أذانِه: «الله أكبرُ الله أكبر» فإذا...

وقلت: لأسْـألنَّه، وما أعظم أن يكونَ فى مقالتى أسطرٌ يلْهِمها مَلَكٌ من الملائكة! ولم أكد أرفعُ وجهى إليه حتى قال:

«... فـإذا لَطْمتان على وجه الشـيطان، فَوَلَّى مُدْبرًا ولم يُعَقِّـبْ؛ ووَضعتِ الكلمةُ الإلهِيَّةُ معناها فى موضعه من قلب الفتاة، فَلأيًا بِلأى ما نَجَت.

إن الديـنَ فى نفس المرأة شـعورٌ رقيق، ولكنه هو الفُولاذُ السـميكُ الصُّلْبُ الذى تُصفَّح به أخلاقُها المدافِعة.

الله أكبر! أتدرى ماذا تقول الملائكة إذا سمعت التكبير؟ إنها تُنْشدُ هذا النشيد:

* * *

بَيْنَ الوقت والوقتِ من اليوم تدُقُّ سـاعةُ الإسلام بهذا الرَّنين: الله أكبرُ الله أكبر، كما تدقُّ الساعةُ فى موضع ليتكلمَ الوقتُ برنينها.

* * *

الله أكبر! بَيْنَ سـاعات وسـاعاتٍ من اليوم تُرْسِـلُ الحياةُ فى هذه الكلمة نداءها تهتِفُ: أيُّها المؤمن! إن كنتَ أصَبتَ فى السـاعات التى مضتْ، فاجتهدْ للسـاعات التى تتلو؛ وإن كنتَ أخطأتَ، فكَفِّرْ وامْحُ ساعةً بساعة؛ الزمن يمحو الزمن، والعملُ يُغَيِّر العمل ودقيقةٌ باقيةٌ فى العمر هى أملٌ كبير فى رحمة الله.

* * *

بين سـاعات وسـاعات، يتناولُ المؤمنُ ميزانَ نفسِـه حين يسـمع: الله أكبر، ليعرفَ الصِّحَّةَ والمرضَ من نِيَّتِه؛ كما يَضَعُ الطبيبُ لمريضه بينَ ساعات وساعات مِيزانَ الحرارة.

* * *

اليــومُ الواحد فى طبيعة هذه الأرض عُمْرٌ طويلٌ للشـرّ، تكاد كلُّ دقيقة بشَـرِّها تكون يومًا مختومًا بلَيْل أسـود؛ فيجب أن تَقسمَ الإنسانيَّةُ يومها بعدد قارَّات الدنيا الخَمْـس، لأن يـومَ الأرض صورةٌ من الأرض؛ وعند كل قسـم: من الفجر، والظهر، والعصر، والمغرب، والعِشـاء – تصيح الإنسـانيةُ المؤمنةُ مُنَبِّهةً نفسَها: الله أكبر، الله أكبر!

* * *

بين سـاعاتٍ وسـاعات من اليوم يَعْرِض كلُّ مؤمن حسـابَه، فيقـومُ بين يَدَىِ الله ويرفعه إليه. وكيف يكون من لا يزال ينتظر طولَ عُمره فيما بين ساعاتٍ وساعاتٍ – الله أكبر.... ؟

* * *

بيـن الوقْتِ والوقـت من النهار والليل تُـدَوّى كلمةُ الـروح: الله أكبر. ويُجيبها الناسُ: الله أكبر. ليعتادَ الجماهير كيف يُقادُون إلى الخير بسهولة، وكيف يحقِّقون فى الإنسـانية معنـى اجتماع أهل البيـت الواحد؛ فتكون الاسـتجابةُ إلى كل نداء اجتماعى مغروسةً فى طبيعتهم بغير اسْتِكْراه.

* * *

النفسُ أسْمى من المادّةِ الدنيئة، وأقوى من الزمن المخرّب، ولا دِينَ لمن لا تشمئزُّ نفسُه من الدناءة بأنَفَة طبيعية، وتحمل همومَ الحياة بقوة ثابتة.

لا تضطربوا؛ هذا هـو النظام. لا تنحرفوا؛ هذا هو النَّهْج. لا تتراجَعوا؛ هذا هو النداء. لن يَكبرَ عليكم شىء مادامت كلمتُكم: الله أكبر......!

■■■

فى اللَّهب ولا تحترق(*)

أفى الممكن هذا؟

لَعُوبٌ حَسَنَةُ الدَّلّ، مُفاكِهة مُداعبِة، تُحيى ليلَها راقصةً مغنية؛ حتى إذا اعتدل الليـلُ ليمضى، وانتبه الفجر ليُقْبِل - انكفأت إلى دارها فَنَضَتْ وَشْـيَها، وخرجتْ من زينتها، وخلعتْ رُوحًا ولبسـت روحًا، وقالت: اللهم إليك، ولبَّيك اللهم لبَّيك. ثم ذهبت فتوضأت وأفاضَتْ النورَ عليها، وقامت بين يدى ربها تصلى...!

* * *

هى حسـناء فاتنة، لو سَـطَع نورُ القمر من شـىء فى الأرض لسطعَ من وجهها. وما تراهـا فى يوم إلا ظهرت لك أحسـنَ ممـا كانت، حتى لتظن أن الشـمسَ تَزيد وجهَها فى كل نهار شُعاعةً ساحرة، وأن كلَّ فجر يترك لها فى الصبح بَريقًا ونَضْرةً من قطَرات النَّدى.

وتحسـبُ أن لهـا دَمًا يَطْعـم فيما يَطعم أنوارَ الكواكب، ويشـرب فيما يشـرب نسماتِ الليل.

وإذا كانت فى وَشْـيها وتَطارِيفها وأصباغها وحِلاها لم تجدها امرأة، ولكن جَمرةً فى صورة امرأة؛ فلها نـور بصيص ولهَب، وفيها طبيعة الإحراق.... إن الذى وضَع على كل جمال ساحر فى الطبيعة خاتَمَ رهْبة، وضع على جمالها خاتَمَ قُرص الشمس.

فإذا رأيتها بتلك الزينة فى رقصها وتَثنِّيها، قلتَ: هذه روضة مُفْتَنَّة اشتهتْ أن تكونَ امرأة فكانت، وهذا الرقصُ هو فنُّ النسيم على أعضائها.

وهى متى نفذتْ إلى البقعة المجدِبةِ من نفسـك أنشـأتْ فى نفسـك الربيع ساعة أو بعض ساعة.

(*) انظر قصة هذه الراقصة وما كان من شأنها وشأنه فى «عمله فى الرسالة» من كتاب «حياة الرافعى».

وتنسجم أنغامُ الموسيقى فى رشاقتها نَغْمةً إلى حركة؛ لأن جسمَها الفاتن الجميلَ هو نفسُه أنغام صامتة تُسمَع وتُرى فى وقت معًا.

وتنسكبُ روحُها الظريفةُ بين الرقص والموسيقى، لتُخرجَ لك بظَرفها صراحةَ الفن من إبهامين، كلاهما يُعاون الآخر.

وهى فى رقصها إنما تفسر بحركاتِ أعضائها أشواق الحياة وأفراحَها وأحزانَها، وتزيد فى لغة الطبيعة لغةَ جسم المرأة.

وكأن الليلَ والنهارَ فى قلبها؛ فهى تبعث للقلوب ما شاءت ضَوءا وظلمة.

وهى إلى القِصَر، غير أنك إذا تأملتَ جمالها وتمامَها، حسبتَها طالت لساعتها.

وإلى النحافة، غير أنك تنظر فإذا هى رابِية كأن بعضَها كان مختبئًا فى بعض.

ويخيل إليك أحيانًا فى فن من فنون رقصها أن جسمَها يتثاءب برعشة من الطرب، فإذا جسمُك يهتزّ بجوابِ هذه الرّعشة، لا يملك إلا أن يتثاءب... ويُجَنُ رقصُها أحيانًا، ولكن لتحقِّقَ بجنونِ الحركة أن العقل الموسيقىّ يُصرِّف كل أعضاء جسمها.

ومهما يكن طيشُ الفنّ فى تأوُّدها ولفتتها ونظرتِها وابتسامِها وضحكها – ففى وجهها دائمًا علامةٌ وقار عابسةٌ تقول للناس: افْهَمونى.

* * *

ولما رأيتُها شَهد قلبى لها بأن على وجهها مع نور الجمال نورَ الوضوء، وأنها مُتحرّزة ممتنعة فى حصن من قلبها المؤمن، يبسط الأمنَ والسلامةَ على ظاهرها، وأن لها عينًا عذراء لا تحاول التعبير، لا سؤالاً ولا جوابًا ولا اعتراضًا بينهما؛ وأن قوةَ جمالها تستظهِرُ بقوة نفسها، فيكونُ ما فى جمالها شيئًا غير ما فى النساء – شيئًا عبقريًّا بالغَ القوة، يكُفُّ الدواعى، ويَحْسمُ الخواطر، ويُرغمُ الإعجابَ أن يكون ذُهولاً وحَيرة، ويُكره الحبَّ أن يرجعَ مَهابة واحتشامًا.

والرواية كلُّها فى باطنها تظهر على ضوء من مصباح قلبها، وما وجهُها إلا الشاشةُ البيضاء لهذه «السيما»، وهل يكون على الوجه إلا أخْيِلُة القلب أو الفكر؟

وعنـدى أن المرأةَ إذا كان لها رأىٌ دينىٌّ ترجعُ إليه، وكان أمرها مجتمِعًا فى هذا الرأى، وكانت أخلاقُها محشودةً له، متَحفِّلةً به - فتلك هى الياقوتة التى تُرمى فى اللهب ولا تحترق، وتظل مع كل تجربة على أول مُجاهدَتِها؛ إذ يكون لها فى طبيعة تركيبها الياقوتىّ ما تهزم به طبيعةَ التركيب النارىّ.

وليـس من امرأة إلا وقد خلق الله لها طبيعةً ياقوتيـة، هى فطرتُها الدينية التى فيهـا: إن بقيـتْ لها هـذه بقيتْ معها تلـك؛ ولكنها حين تنخلع مـن هذه الفطرة تَخذلها الفطرة والطبيعةُ معًا، فيجعلُ الله عِقابَها فى عملها. ويَكلُها إلى نفسها؛ فإذا هى مقبلةٌ على أغلاطها ومَسـاوئها بطُرُق عقلية إن كانت عالمة، وبطرق مفضوحة إن كانت جاهلة. وما بُدٌّ أن تَستَسِرَّ بطباع إما فاسدة وإما فيها قوةُ الاستحالة إلى الفساد؛ ويرجعُ ضميرُها الخالى محاولاً أن يمتلئ من ظاهرها، بعد أن كان ظاهرها هو يمتلئ من ضميرها، وتُصبح المرأة بعد ذلك فى حكم أسباب حياتها، مصرَّفةً بهذه الأسباب، خاضعـةً لما يُصرّفها، ويذهب الدّين وينزل فى مكانه الشـيطان، ويزولُ الاسـتقرارُ ويحلُّ فى محله الاضطراب، وتنطفئ الأشـعة التى كانـت تذيب الغُيوم وتمنعها أن تتراكـم، فإذا الغيومُ ملتـف بعضُها على بعض؛ وتُخذَلُ القوةُ السـامية التى كانت تنصـر المرأة علـى ضعفها فتنصرُها بذلك على أقوى الرجـال؛ فإذا المرأةُ من الضعف إلى تَهَافُت، تَغلبُها الكلمةُ الرقيقة، وتَغترُّها الحيلةُ الواهنة، وتُوافقُ انخداعَها كلُّ رغبة مزَيَّنة، ويستذلها طمعُها قبلَ أن يستذلها الطامعُ فيها؛ ولتكنْ بعد ذلك مَن هى كائنة أصلاً وحسـبًا وتهذيبًا وعقلاً وأدبًا وعلمًا وفلسفة، فلو أنها امرأةٌ من الأسمنت المسلَّح لتفتَّتتْ بالطبيعة التى فى داخِلها، مادامت الطبيعةُ متوجهةً إلى الهدم بعد أن فقدت ما كان يمسكها أن تَهدِمَ وأن تنهدم.

لقد رقَّ الدينُ فى نسـائنا ورجالنا. فهل كانت علامـةُ ذلك إلا أن كلمةَ: «حرام، وحلال» قد تحولت عند أكثرهم وأكثرهن إلى «لائق، وغير لائق»، ثم نزلتْ عند كثير من الشبان والفتيات إلى «معاقَب عليه قانونًا، ومباح قانونًا...» ثم انحطت آخرًا عند السواد والدَّهماء إلى «ممكِن، وغير ممكِن...»؟

* * *

قالت الياقوتة، أعنى الراقصة:

أخذنى أبى من عهد الطفولة بالصلاة، وأثبت فى نفسى أن الصلاةَ لا تصحّ بالأعضاء إن لم يكن الفكرُ نفســه طاهرًا يصلى لله مع الجســم، فإن كانت الصلاةُ بالجسم وحده لم يــزدد المرءُ من رُوح الصلاة إلا بعدًا. وقَرَّ هذا فى نفســى واعتدته، إذ كنتُ أتعبَّد على مذهب الإمام الشافعى رضي الله عنه، فأصحح الفكرَ، وأستحضرُ النيَّةَ فى قلبى، وأنحصرُ بكلى فى هذا الجزء الطاهر قبل أن أقولَ: «الله أكبر»؛ وبذلك أصبح فكرى قادرًا على أن يخلَع الدنيا متى شاء ويلبسها، وأن يخرجَ منها ثم يعودَ إليها؛ ونشأتْ فيه القوةُ المصمِّمةُ التى تجعلُه قادرًا على أن ينصرفَ بى عما يُفسِدُ رُوحَ الصلاة فى نفسى، وهى سرُّ الدين وعمادُه.

ويا لها حكمةً أنْ فرضَ الله علينا هذه الصلوات بين ساعات وساعات، لتبقَى الروح أبــدًا إمــا متصلةً أو مهيَّأةً لتتصل، ولن يَعجزَ أضعفُ النــاس مع روح الدين أن يملكَ نفسَه بضعَ ساعات، متى هو أقرَّ اليقينَ فى نفسه أنه متوجِّه بعدها إلى ربه، فخاف أن يقفَ بين يديه مخطئًا أو آثمًا، ثم هو إذا ملك نفسَه إلى هذه الفريضة ذكر أن بعدها الفريضةَ الأخرى، وأنها بضعُ ســاعات كذلك، فلايزال من عزيمة النفسِ وطهارتها فــى عُمر على صيغــة واحدة لايتبدّل ولا يتغيَّر، كأنه بجملتــه – مهما طال – عملُ بضع ساعات.

قالت الياقوتة: ورأيتُ أبى يصلى، وكذلك رأيتُ أمى، فلا تكاد تُلِمّ بى فكرة آثمة إلا انتصبا أمامى، فأكره أن أســتَلئِمَ إليهما فأكونَ الفاســدةَ وهما الصالحان، واللَئيمةَ وهما الكريمان؛ فدمى نفسه – ببركة الدينِ – يحرسُنى كما ترى.

قلتُ: فهذا الرقص...؟

قالــت: نعم، إنه قُضِىَ علىّ أن أكونَ راقصة، وأن ألتمسَ العيشَ من أســهلِ ثلاثِ طُرُق وألْينِها وأبعدِها عن الفساد، وإن كان الفساد ظاهرَها؛ أريد: الرقص، أو الخدمة فى بيت، أو العملَ فى الســوق. وأنا مُطيقةٌ لحريتى فى الأولى، ولكنى لن أملكهَا فى

الأخيرتين مادام عَلىّ هذا الميسم من الحسن؛ وكم من امرأة متحجِّبة وهى عاريةُ الروح، وكم من سافرة وروحها متحجِّبة، إن كنتَ لا تعلم هذا فاعلمه، وليس السؤال ما سألتَ، بل يجب أن يكون وضعه هكذا: هل ما ترى هو فى ثيابى فقط، أو هو فى ثيابى ونفسى؟

ها أنتَ ذا تُغَلْغِلُ نظرتَك فى عينىَّ إلى المعانى البعيدة، فهل تَرى عينىْ راقصة؟

قلت: لا والله، ما أرى عينَىْ راقصة، ولكنْ عينى مُجاهِد فى سبيل الله...!

فاستضحكتْ وقالت: بل قل: عينى مجاهد يهزم كلَّ يوم شيطانًا أو شياطين.

إنى لأرقصُ وأغنى، ولكن أتدرى ما الذى يُحرزُنى من العاقبة، ويحمينى من وباء هذا الجمهور المريضِ النفس؟ فاعلم أنى لا أشعر بالجمهور ولا بِرُوحِ المسرح، إلا كما أشعر بروح المقبرة والمشيِّعين إليها؛ فهيهات بَعْد ذلكَ هيهات! ومن هذا لا أحِس بقلوبهم ولا بشهوَاتهم، وما أنا بينهم إلا كالتى تؤدّى عملاً فنيًّا على مَلأ من الأساتذة المتحِنين، والنظَّارَةُ يحكمون لها أو عليها؛ فهى فى فكرة الامتحان، وهم لأنفسهم فيما شاءوا...

ولست أنكر أن أكثرهم، بل جميعَهم، يخطئ فى طريقة تناوله السيَّالَ الكهربائى المنبعثَ من نفسى، ولكن لا عَلَىَّ. فهذا السيالُ نفسُه ينبعث مثلُه من الزهر، ومن القمر والكواكب، ومن كل امرأة جميلة تمشى فى الطريق، ومن كل جميل فى الطبيعة، وحتى من الأمكنة والبقاع إذا كان لإنسان فيها ذكرياتٌ قديمة، أو نبَّهتْ ببعض معانيها بعضَ معانيه؟

قالت الياقوتة: فأنا كما ترى؛ أضطرب وجوهًا من الاضطراب فى جذْب الناس ودَفْعِهم معًا. وإذا سَلمت المرأةُ من أن يغلبها الطمع على فكرها، سلمتْ من أن يغلبها الرجلُ عن فضيلتها. وفى النساء حواسُّ مغناطيسية كاشِفَةٌ منبِّهةٌ خُلقت فيهن كالوقاية الطبيعية، لتسلَمَ بها المرأةُ من أن تُخْطِرَ عِفتَها لغرض، أو تُغرّر بنفسها لإنسان، فإنك لتكلم المرأة، وتزيّن لها ما تزيّن، وهى شاعرة بما فى نفسك، وكأنها

تــرى ما فى قلبك ينشــأ ويتدرج تحــت عينيها. وكأنه فى وعاء مــن الزجاج الرقيق الصافى تحمله على كفِّك يَشِــف ويفضَح، لا فى قلب من لحم ودم تخفيه بين جنبيك فيطوى ويكتُم.

وليس يُبطِل هدايةَ هذه الحاسة فى المرأة إلا طمعُها المادىُّ فى المالِ والمتاع والزينة؛ فــإن هذا الطمعَ هو القوى التى يغلب بها الرجل المرأة، فبنفْسِــها غَلَبهَا! وإذا تبذَّلَ طمع امرأة فى رجل فهى مُومس، وإن كانت عذراء فى خدرها.

ويا عجبًا! إن وجودَ الطبيعة فى النفس غير الشعور بها؛ فليس يُشعر المرأةَ بتمام طبيعتها النســائية إلا الزينة والمتاع وما به المتاع والزينـــة؛ فكأن الحكمةَ قد وَقَتْها وعرَّضتْها فى وقت معًا، لتكونَ هى الواقيةَ أو الْـمُخْطِرَةَ لنفســها، فبعملها تُجْزَى، ومن عملها ما تَضحَك وتَبكِى.

قالت الياقوتة: ولذا أخذتُ نفســى ألا أطمعَ فى شــىء من أشياء الناس، وسَخوْتُ عن كل ما فى أيديهم؛ فما يتكرّمون علىّ إلا بهلاكى، وحسْــبى أن يبقَى لعينى قلبى ضوءهما المبصِر. وأنا أعتمد على شهامة الرجل، فإن لم أجدها علمت أنى بإزاء حيوان إنســانى، فأتحذَّره حَذَرى من مصيبةٍ مقبلة. وإذا جاءنى وَقْحٌ خَلَق اللهُ وجهَه الحسَنَ مَسبَّةً له، أو خلقه هو مَسَبَّةً لوجهه القبيح، ذكرت أنى بعدَ ساعة أو ساعات أقوم إلى الصلاة، فلا يزداد منى إلا بعدًا وإن كان بإزائى، فأُغلِظُ له وأتسخَّط، وأُظهِر الغضبَ وأصفعُه صَفعتى.

قلت: وما صفعتُك؟

قالت: إنها صفعة لا تَضْربُ الوجهَ ولكن تُخجله.

قلت: وما هى؟

قالت الياقوتة: هى هذه الكلمة؛ أما تعرفُ يا ســيدى أنى أُصلى وأقولُ «الله أكبر» فهل أنتَ أكبر...؟ أأقيم لك البرهانَ على صَغارك وحقارتك، أأنادى الشرطى...؟!

* * *

تختنق بالرقص وتنتعشُ بالصلاة، وفى كل يوم تختنق وتنتعش.

ولكنى لا أزال أقول:

أفى الممكن هذا؟

أفى المترادف شرعا: رَقَصَتْ وصلَّت...؟

■■■

المشكلة(*)

(١)

قالت لى صاحبةُ «الجمال البائس»[1] فيما قالت: إن المرأةَ الجميلةَ تخاطبُ فى الرجُل الواحد ثلاثة: الرجلَ، وشيطانَه، وحيوانَه. فأما الشيطانُ فهو مَعنا وإن لم نكن معه... وأما الحيوانُ فله فى أيدينا مَقَادَةٌ من الغَباوة، ومَقَادةٌ من الغريزة، إذا شَمَسَ فى واحدة أصْحَبَ فى الأخرى وانقاد؛ ولكن المشكلة هى الرجلُ تكون فيه رجولة.

***

نعم إن المشكلة التى أعْضَلَتْ على الفساد هى فى الرجل القوىّ الرجولة يعرف حقيقةَ وجوده وشرفَ منزلته، ولهذا أوجب الإسلامُ على المسلم أن يكونَ بين الوقت والوقت فى اليوم خارجًا من صلاة.

وإنما الرجولة فى خلال ثلاث: عَمَل الرجل على أن يكونَ فى موضعه من الواجبات كلِّها قبل أن يكون فى هواه، وقبوله ذلك الموضعَ بقبول العامل الواثق من أجْره العظيم، والثالثةُ: قدرتُه على العمل والقَبول إلى النهاية.

ولن تقومَ هذه الخلالُ إلا بثلاث أخرى: الإدراك الصحيح للغاية من هذه الحياة، وجعلِ ما يحبه الإنسانُ وما يكرهُه موافِقا لما أدركَ من هذه الغاية، والثالثةُ: القدرةُ على استخراجِ معانى السرور من معانى الألم فيما أحبَّ وكَره على السواء.

فالرجولةُ على ذلك هى إفراغُ النفس فى أسلوب قوى جَزْل من الحياة، مُتَسَاوق فى نَمط الاجتماع، بليغٍ بمعانى الدين، مصقول بجمال الإنسانية، مُسترسلٍ ببلاغة وقوة وجمال إلى غايته السامية.

(*) تقرأ قصة صاحب هذه المشكلة وما كان من خبره وخبر صاحبته فى «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعى» وللقصة تمام لم ينشر بعد.

(١) مرت مقالات (الجمال البائس) فى هذا الجزء.

ولهـذه الحكمة أسـقطت الأديانُ مـن فضائلها مبـدأ إرضاء النفس فـى هواها، فلا معاملة به مع الله فى إثم أو شـر، وأسـقطه الناسُ من قواعد معاملتهم بعضِهم مع بعـض، فلا يقومُ به إلا الغشُّ والمكرُ والخديعة، وكلُّ خارج على شـريعة أو فضيلة أو منفعة اجتماعية، فإنما ينزِعُ إلى ذلك إرضاء لنفسـه وإيثارًا لها وموافَقةً لمحبتها وتوفيةً لحظها، وعملُه هذا الذى يُلْبِسُـه الوصفَ الاجتماعى السـاقِطَ ويسميه باسمه فى اللغة، كالرجل الذى يُرضِى نفسَـه أن يسـرقَ ليغتنى، فإذا أعْطَى نفسَـه رضاها فهـو اللص؛ وكالتاجر فى إرضاء طمعه هو الغـاشّ، وكالجندى فى إرضاء جُبنه هو الخائن، وكالشابّ فى إرضاء رذيلته هو الفاسق، وهلمّ جَرًّا وهلمّ جَرْجَرَة...

***

وأما بعدُ، فالقصةُ فى هذه الفلسفة قصةُ رجل فاضل مهذَّب قد بلغ من العلم والشباب والمال، ثم امتحنته الحياةُ بمشكلة ذهب فيها نومُ ليله وهدوءُ نهاره حتى كَسَفَتْ بالَه، وفرَّقت رأيه وكابد فيها الموتَ الذى ليس بالموت، وعاش بالحياة التى ليست بالحياة.

قال: فقدتُ أمى وأنا غلام أحوج ما يكون القلبُ إلى الأم، فخشىَ علىَّ أبى أن أستكينَ لذلَّة فَقْدِها فيكونَ فى نشأتى الذلُّ والضَّراعة، وكَبُرَ عليه أن أحسَّ فقدَهَا إحساسَ الطفل تموت أمه فيحملُ فى ضَياعها مثلَ حزنها لو ضاع هو منها؛ فعلَّمنى هذا الأبُ الشفيقُ أن الرجلَ إذا فَقَدَ أمَّه كان شأنه غير شأن الصبى، لأنه له قوةً وكبرياء، وألقى فى رُوعى أنى رجلٌ مثلُه، وأن أمه قد ماتت عنه صغيرًا فكان رجلاً مثلى الآن...

وكان من بَعدها إذا دعانى قال: أيها الرجل، وإذا أعطانى شيئًا قال: خذ يارجل. وإذا سألنى عن شـأنى قال: كيف الرجل؟ وقلَّ يومٌ يمرُّ إلا أسمعنيها مرارًا، حتى توهمتُ أن معى رجلاً فى عقلى خلقته هذه الكلمة. وتمامُ الرجل بشـيئين: اللحيةُ فى وجهه، والزوجة فى داره، فتجىء الزوجةُ بعد أن تظهرَ اللحية لتكون كلتاهما قوةً له، أو وقارًا أو جمالا، أو تكونَ كلتاهما خشـونة، أو لتكونا معًا سـوَادَين فى الوجه والحياة...

أمــا اللحيةُ لى أنا أيُّها الرجلَ الصغيرَ فليس فــى يد أبى ولا فى حيلته أن يجىء بهــا، ولكن الأخرى فى يــده وحيلته؛ فجاءنى ذاتَ نهار وقال لى: أيها الرجل! إن فلانة مُسَمَّاةٌ عليك[1] منذُ اليوم فهى امرأتُك فاذهبْ لترى فيك رجُلهَا.

وفلانة هذه طفلةٌ من ذوات القُرْبى، فأفرحنى ذلك وأبهجَنى؛ وقلت للرجل الذى فى عقلى: أصبحتَ زوجًا أيها الرجل...

وكان هذا الرجلُ الجاثمُ فى عقلى هو غُرورى يومئذ وكبريائى، فكنت أقع فى الخطأ بعد الخطأ وآتى الحماقةَ بعد الحماقة، وكنت طفلاً ولكن غُرورى ذو لحية طويلة...

***

ونشــأتُ على ذلك: صُلْبَ الرأى مُعْتَدًّا بنفســى، إذا هَمَمْتُ مضَيت، وإذا مضيتُ لا ألْوى، وما هو إلا أن يخطرَ لى الخاطر فأركبَ رأسى فيه، ولئن تُكسَرَ لى يَدٌ أو رجل أهونُ علىَّ من أن يكسْــرَ لى رأىٌ أو حُكم، وأكســبنى ذلك خَيالاً أكذبَ خيال وأبعدَه، يخلطُ علىَّ الدنيا خَلْطًا فيدَعُنى كالذى ينظر فى الســاعة وهى اثنا عشــرَ رقما لنصف اليوم الواحد، فيطالِعُها اثنى عشرَ شهرًا للسنة...

وترامتْ حريتى بهذا الخيال فجاوزتْ حدُودَها المعقولة، وبهذه الحرية الحمقاء وذلك الخيال الفاسد، كذَبَتْ علىّ الفكرةُ والطبيعة.

ولســتُ جميــلَ الطلعة إذا طالعتُ وجهــى، ولكنى مع ذلك معتقِــدٌ أن الخطأ فى المرآة... إذ هى لا تُظهِر الرجلَ الوضىء الجميلَ الذى فى عقلى، ولست نابغةً، ولكنَّ الرجــلَ الذى فى عقلى رجلٌ عبقرى. وهذا الذى فى عقلى رجلٌ متزوج؛ فيجب علىَّ أنا الطفلَ أن أكونَ رزينًا رزينًا كوالد عشْرة أولاد فى المدارس العليا...

وذهبــتُ بكل ذلك أرى فلانة زوجتى، فأغلقت البابَ فى وجهى واختبأتْ منى، فقلتُ فى نفســى: أيْهــا الرجلُ، إن هذا نُشُــوزٌ وعِصْيانٌ، لا طاعةٌ وحُب. وســاءنى

(١) هذا هو التعبير العربى الصحيح لقولهم قبل العقد: «مخطوبة لفلان».

ذلـك وغمَّنى وكَبُر علىّ، فأضمرتُ لها الغَـدْر، فثبتتْ بذلك فى ذهنى صورة (الباب المغلَق)، وكأنه طلاق بيننا لا باب...

قال: ثم شـبَّ الرجـلُ فكان بطبيعة ما فى نفسـه كالزوج الـذى يترقَّبُ زوجتَه الغائبـةَ غَيبـةً طويلة، كلُّ أيامِه ظمأ على ظمأ، وكلُّ يوم يمرّ به هو زيادةُ سـنة فى عمر شـيطانه... وكان قد انتهى إلى مدرسته العالية، وأصبح رجل كُتُب وعلوم وفكر وخيال؛ فعرضَتْ لـه فتاة كاللواتى يعرضْن للطلبة فى المدارس العليا، ما منهن على صاحبها إلا كالخَيبة فى امتحان... بيدَ أنَّ (الرجل) لم يعرف من هذه الفتاة إلا أوائلَ المـرأة... ولم يكد يَسْتَشْـرفُ لأواخرها حتى سُمِّيتْ على غـيره، فخُطبتْ، فزفَّتْ؛ زُفَّت بعد نصف زَوج إلَى زوج....

وعرف الرجلُ من الفلسفة التى دَرَسَها أنه يجب أن يكونَ حرًّا بأكثر مما يستطيع، وبأكثرَ من هذا الأكثر... فقالها بملء فيه، وقال للحرية: أنا لك وأنت لى.

قالها للحرية، فما أسرعَ ماردَّت عليه الحرية بفتاة أخرى...

***

نقـول نحن: وكان قد مضى على (الباب المغلَق) تسـعُ سـنوات، فصار منهن بين الشـاب وبين زوجته العقلية تسـعةُ أبواب مغلَقة؛ ولكنها مع ذلك مسَّماةٌ له، يقول أهلُـه وأهلُها: (فلان وفلانـة). وليس (البابُ المغلَق) عندهـم إلا الحياء والصَّيانة، وليسـت الفتاةُ من ورائـه إلا العفافَ المنتَظِر، وليس الفتـى إلا ابنَ الأب الذى سمَّى الفتاةَ له وحبَسهَا على اسمه، وليست القُربى إلا شريعةً واجبةَ الحق نافذةَ الحكم.

وعند أهل الشرف، أنه مهما يبلغْ من حرية المرء فى هذا العصر فالشرفُ مقيَّد.

وعنـد أهل الدين، أن الزواجَ لا ينبغى أن يكون كـزواج هذا العصر قائما من أوله على معانى الفاحشة.

وعند أهل الفضيلة، أن الزوجةَ إنما هى لبناء الأسْرة؛ فإن بلغ وجهُها الغايةَ من الحسن أو لم يبلغ، فهو على كل حال وجهٌ ذو سُلطة وحقوق (رسميَّة) فى الاحترام، لا تقومُ الأسرة إلا بذلك، ولا تقوم إلا على ذلك.

وعند أهل الكمال والضمير، أن الزوجةَ الطاهرةَ المخلِصةَ الحبّ لزوجها. إنما هى معامَلةٌ بين زوجها وبين ربه؛ فحيثما وضعَها من نفسه فى كرامة أو مَهانة، وضع نفسَه عند الله فى مثل هذا الموضع.

وعند أهل العقل والرأى، أن كلَّ زوجة فاضلة، هى جميلةٌ جمالَ الحق؛ فإن لم تُوجِب الحبَّ، وَجَبَتْ لها المودَّة والرحمة.

وعند أهل المروءة والكرم، أن زوجةَ الرجل إنما هى إنسانيتُه ومروءتُه؛ فإن احتملها أعلن أنه رجل كريم، وإن نَبَذَها أعلن أنه رجلٌ ليس فيه كرامة.

أما عند الشيطان (لعنه الله) فشروطُ الزوجة الكاملة ما تشترطُه الغريزة: الحب، الحب، الحب!

* * *

قال الشاب: وإذا أنا لم أتزوج امرأةً تكون كما أشتهى جمالاً، وكما يشتهى فكرى علمًا، كنتُ أنا المتزوج وحدى وبقى فكرى عَزَبًا... وقد عرفتُ التى تصلح لى بجمالها وفكرها معًا، وتبوَّأتْ فى قلبى وأقمتُ فى قلبها؛ ثم داخلْتُ أهلَها، فخلَطونى بأنفسهم، وقالوا: شابٌّ وعَزَب... ومتعلم وسَرِىّ... فلم يكن لدارهم (بابٌ مغلَق)، حتى لو شئتُ أن أصل إلى كريمتهم فى حرام وصلت، ولكنى رجل يحملُ أمانة الرجولة...

أما الفتاةُ فلست أدرى والله أفيها جاذبيةُ نَجم، أم جاذبيةُ امرأة، وهل هى أنثى فى جمالها، أو هى الجمالُ السماوىُّ أتى ينقِّحُ الفُنونَ الأرضيةَ لأهلِ الفن؟

إذا التقينا قالت لى بعينيها: هأنذى قد أرخيتُ لك الزّمامَ، فهل تستطيعُ فرارًا منى؟ ونلتصق فتقول لى بجسمها: أليست الدنيا كلُّها هنا، فهل فى المكان مكانٌ إلا هنا؟ ونفترق فتحصُرُ لى الزمنَ كلَّه فى كلمة حين تقول: غدًا نلتقى.

كلامُها كلامٌ متأدب، ولكنه فى الوقت نفسه طريقةٌ من الخَلاعة، تلفُتك إلى فَمها الحُلو؛ والحركةُ على جسمها حركة مُسْتَحِيَةٌ، ولكنها فى الوقت عينه كالتعبير الفنىّ المتجسمِ فى التمثالِ العارى.

إنها والله قد جعلت شيطانى هو عقلى؛ أما هذا العقلُ يَنْصَحُ ويَعِظ ويقول: هذا خيرٌ وهذا شرٌّ. فهو الشيطانُ الذى يجب أن أتبرأ منه...

* * *

قال: وألمَّ الأبُ بقصةِ فتاهُ، ويَحسُبها نَزْوَةً من الشباب يُخمدها الزواج، فيقول فى نفسه: إن للرجل نظرتين إلى النساء: نظرة إليهن من حيث يختلفن، فتكون كل امرأة غيرَ الأخرى فى الخيال والوهم والمزاج الشعرى، ونظرةً إليهن من حيث يتساوَيْنَ فى حقيقة الأنوثة وطبيعة الاحترام الإنسانى، فتكون كل امرأة كالأخرى ولا يتفاوتن إلا بالفضيلة والمنفعة - ويقرّر لنفسه أن ابنه رجل متعلم ذو دين وبَصَرٍ، فلا ينظر النظرةَ الخياليةَ التى لا تقنع بامرأة واحدة، بل لاتزال تلتمس محاسنَ الجنس ومَفَاتنَه، وهى النظرة التى لا يقوم بها إلا بناء الشعر دون بناء الأسرة، ولا تصلُحُ عليها المرأةُ تلد أولادًا لزوجها، بل المرأة تلد المعانى لشاعرها.

ثم احتاط فى رأيه، فقدر أن ابنه ربما كان عاشقًا مسحورًا، ذا بصيرة مدخولة وقلب هواء وعقل مُلتاث، فيتمرد على أبيه ويخرج عن طاعته، ويحارب أهله وربَّه من أجل امرأة، بَيْدَ أنه قال: إنه هو والده، وهو ربَّاه وأنشأه فى بيت فيه الدينُ والخلُق والشهامةُ والنَّجدة، وأن محاربة الله بامرأة لا تكون إلا عملاً من أعمال البيئة الفاسدة المستهتَرَة، حين تجمع كل معانى الفساد والإباحة والاستهتار فى كلمة (الحرية). وقال: إن البيئة فى العهد الذى كان من أخلاقه الشرفُ والدينُ والمروءة والغيرةُ على العِرْض، لم يكن فيها شىء من هذا، ولم يكن الأبناء يومئذ يعترضون آباءهم فيمن اختاروهن؛ إذ النسلُ هو امتدادُ تاريخ الأب والابن معًا، والأبُ أعرفُ بدنياه وأجدرُ أن يكون مُبرّأ من اختلاط النظرة، فيختار للدين والحَسَب والكمال، لا للشهوة والحب وفنون الخلاعة، ولا محل للاعتراض بالعشق فى باب من أبواب الأخلاق، بل محلُّه فى باب الشهوات وحدها.

ثم جَزَمَ الأبُ أن الولد الذى يجىء من عاشقين، حَرَى أن يرثَ فى أعصابه جنون اثنين وأمراضَهما النفسية وشهواتهما الملتهبة؛ ولهذا وقف الشرع فى سبيل الحب

قبل الزواج لوقاية الأمة فى أولها؛ ولهذا يكثر الضعف العصبى فى هذه المدنية الأوربية وينتشر بها الفساد، فلا يأتى جيلٌ إلا وهو أشد ميلا إلى الفساد من الجيل الذى أعقبه.

ولم يكد ينتهى الأبُ إلى حيث انتهى الرأىُ به، حتى أسرع إلى (الباب المغلَق) يهيئ للزفاف ويتعجَّل لابنه المطيع.. نكبةً ستجىء فى احتفال عظيم..

***

قال الشاب: وجُنَّ جنونى؛ وقد كان أبى من احترامى بالموضع الذى لا يُلْقَى منه، فلجأتُ إلى عمى أستَدْفعُ به النكبةَ، وأتأيَّدُ بمكانِه عند أبى، وبثثْتُهُ حزنى وأفضيتُ إليه بشأنى، وقلت له فيما قلت: افعلوا كلَّ شىء إلا شيئًا ينتهى بى إلى تلك الفتاة، أو ينتهى بها إلىّ، وما أنكر أنها من ذواتِ القُربى، وأن فى احتمالى إياها واجبًا ورجولة، وفى سَترْى لها ثوابًا ومروءة، وخاصةً فى هذا الزمن الكاسِد الذى بلغتْ فيه العَذَارى سنَّ الجدَّات... ولكنَّ القلبَ العاشقَ كافرٌ بالواجب والرجولة، والثوابِ والمروءة، وبالأمّ والأب؛ فهو يملكُ النعمةَ ويريد أن يملكَ التنعُّم بها؛ وكلُّ من اعترضه دونها كان عنده كاللص...

قال: قَبح الله حبا يجعلُ أباك فى قلبك لصًّا أو كاللص.

قلت: ولكنى حر أختارُ من أشاء لنفسى......

قال: إن كنت حرًّا كما تزعم، فهل تستطيع أن تختار غير التى أحببتَها؟ ألا تكَون حرًّا إلا فينا نحن وفى هَدْم أُسرتنا؟

قلت: ولكنى متعلم، فلا أريد الزواجَ إلا بمن......

فقطع علىّ وقال: ليتك لم تتعلم، فلو كنتَ نجارًا أو حدادًا أو حوذيًّا، لأدركتَ بطبيعة الحياة أن الذين يتخَضّعون للحب وللمرأة هذا الخضوع، هم الفارغون الذين يستطيع الشيطانُ أن يَقْضِىَ فى قلوبهم كلَّ أوقات فراغه...

أما العاملون فى الدين، والمُغَامِرون فى الحياة، والعارفون بحقائقِ الأمور، والطامعون فى الكمال الإنسانى، فهؤلاء جميعًا فى شغل عن تربية أوهامِهم، وعن

البكاء للمرأة والبكاءِ على المرأة، ونظرتُهم إلى هذه المرأةِ أعلى وأوسع؛ وغرضُهم منها أجلُّ وأسمى؛ وقد قال نبيُّنا ﷺ: «اتَقوا الله في النساء». أي انظروا إليهن من جانب تقوى الله؛ فإن المرأة تُقْدِم من رجُلها على قلب فيه الحبُّ والكرَاهةُ وما بينهما، ولا تدرى أيُّ ذلك هو حظُّها؛ ولو أن كلَّ من أحب امرأةً نبذ زوجةً، لخربت الدنيا ولفَسَد الرجال والنساءُ جميعًا. وهذه يا بنيَّ أوهامُ وقتِها وعملُ أسبابِها، وسيمضى الوقتُ وتتغيرُ الأسباب وربما كان الناضجُ اليوم هو المتعفِّن غدًا، وربما كان الفجُّ هو الناضجَ بعد.

وهبك لا تحب ذاتَ رَحِمِكَ ثم أكرمتَها وأحسنتَ إليها وسترتَها، أفيكونُ عندك أجملُ من شعورها أنك ذو الفضل عليها؟ وهل أكرمُ الكرم عند النفس إلا أن يكونَ لها هذا الشعورُ فى نفسٍ أخرى؟ إن هذا يا بنىّ إن لم يكن حبًّا فيه الشهوةُ، هو حبٌّ إنسانىٌّ فيه المجد.

* * *

ووقعت المشكلة وزُفَّت المسكينة؛ فكيف يصنع الرجل بين المحبوبة والمكروهة؟[1]

■■■

(١) (رجاء إلى القراء): هذه القصة واقعة، وقد بنى الرجل بامرأته، وهو فى الشهر الذى لا اسم له عنده وإن كان اسمه عند الناس (شهر العسل). فماذا يرى له القارئ من الرأى؟ وماذا ترى القارئة لهذه العروس اللابسة أكفانها فى عين الرجل؟

المشكلة

(٢)

لما فرغتُ من مقالات (المجنون)[1] وأرسلتُ الأخيرةَ منها، قلتُ فى نفسى: هذا الآخِرُ هو الآخِرُ من المجنون وجنونهِ، ومن الفكر فى تخليطِه ونوادره؛ غيرَ أنه عاد إلَّ أخلاطًا وأضغاثًا فكأنى رأيته فى النوم يقول لى: اكتب مقالاً فى السياسة. قلت: مالى وللسياسة وأنا «موظف» فى الحكومة، وقد أخذت الحكومة مِيثَاقَ الموظفين: لَمَا عَرَفُوا من نَقْدٍ أو غَميزةٍ ليكتُمُنَّه ولا يُبَيِّنونه؟ فقال: هذه ليست مشكلة، وليس هذا يصلُح عذرًا، والمخرَجُ سهلٌ والتدبيرُ يسيرٌ والحلُّ ممكِن. قلت: فما هو؟

قال: اكتب ما شئتَ فى سياسة الحكومة، ثم اجعل توقيعَك فى آخر المقال هكذا: «مصطفى صادق الرافعى؛ غير موظف بالحكومة».

فهذه طريقة من طرق المجانين فى حل المشاكل المعقَّدة، لا يكون الحل إلا عقدة جديدة يتم بها اليأس ويتعذَّر الإمكان، وهى بعينها طريقةُ ذلك الطائر الأبله الذى يرى الصائد فيُغمِّضُ عينَه ويلوِى عنقَه ويخبأ رأسَه فى جَناحه ظنًّا عند نفسه أنه إذا لم يرَ الصائد لم يره الصائد، وإذا توهم أنه اختفى تحقَّق أنه اختفى؛ وما عملُه ذاك إلا كقوله للصياد: إنى غيرُ موجود هنا... على قِياسِ «غير موظف»...

* * *

وقد كنت استَفْتَيْتُ القراء فى (المشكلة)، وكيف يتَّقى صاحبُها على نفسه، وكيف تصنع صاحبتُها؛ فتلقيتُ كتبًا كثيرةً أهدتْ إلَّ عقولاً مختلفة؛ وكان من عجائب المقادير أن أول كتاب أُلقى إلَّ منها، كتاب مجنونٍ «نابغة» كنابغة القرن العشرين،

(١) بعد أن كتبنا الفصل الأول من (المشكلة) واستفتينا القراء فى آخره، انتظرنا مدة، وكتبنا فى هذه المدة مقالات (المجنون) فانظرها فى الجزء الثانى.

بعث به من القاهرة، وسمى نفسه فيه (المصلح المنتظر) وهذه عبارته بحرفها ورسمها كما كُتبت وكما تُقرأ؛ فإن نشرَ هذا النص كما هو، يكون أيضًا نصًّا على ذلك العقلِ كيف هو...

قال: «إن هذا الكونَ تَعِبت فيه آراء المصلحين، وكتب الأنبياء زُهاءُ قرون عديدة، ودائمًا نرى الطبيعة تنتصر. ولقد نرى الحيوان يعلم كيف يعيش بجوار أليفه، والطير كيف يركن إلى عش حبيبته، إلا الإنسان. ولقد تفنَّن المشرعون فى أسماء: العادات والتقاليد والْحمِيَّة والشرف والعِرْض، وإن جميع هذه الأشياء تزول أمام سلطان المادة، فما بالكم بسلطان الروح؟

ورأ لهذا الشاب ألا يطيع أباه ولو ذهب إلى ما يسموه الجحيم (كذا) إذا كان بعد أن يعيش الحياة الواحدة التى يحياها ويتمتع بالحب الواحد المقدر له، مادام قلبه اصطفاها وروحه تهواها؛ ولو تركته بعد سنين قليلة لأى داع من دواع الانفصال. (كذا).

وهذا ليس مجرد رأى مجرب، وإنما هو رأى أكبر عقل أنجبته الطبيعة حتى الآن...! وسينتصر على جميع من يقفون أمامه، والدليل أن هذا المقال سيشار إليه فى مجلة (الرسالة)، وهذا الرأى سيعمل به، وصاحب هذا الرأى سيخلد فى الدنيا، وسيضع الأسس والقوانين التى تصلح لبنى الإنسان مع سمو الروح بعد أن أفسدت أخلاقه عبادة المال.

إن الإنسان يحيا حياة واحدة فليجعلها بأحسن ما تكون، وليمتع روحه بما تمتع به جميع المخلوقات سواه. وإلى الملتقى فى ميدان الجهاد».

(المصلح المنتظر) انتهى

وهذا الكتاب يحل (المشكلة) على طريقة «غير موظف»... فليعتقد العاشق أنه غيرُ متزوج فإذا هو غيرُ متزوج، وإذا هو يتقلَّب فيما شاء؛ وتسأل الكاتبَ ثم ماذا؟ فيقول لك: ثم الجحيم...

وإنما أوردنا الكتابَ بطوله وعرضِه لأننا قرأناه على وجهين، فقد نبهتنا عبارة «أكبرعقل أنجبته الطبيعة حتى الآن» إلى أن فى الكلام إشارةً من قوة خفية فى الغيب، فقرأناه على وحيِ هذه الإشارة وهَدْيِها، فإذا ترجمةُ لغةِ الغيب فيه:

«ويحكَ يا صاحبَ المشكلة، إذا أردتَ أن تكونَ مجنونًا أو كافرًا بالله وبالآخرةِ فهذا هو الرأى. كنْ حيوانًا تنتصِرُ فيه الطبيعة والسلام!».

* * *

تلك إحدى عجائب المقادير فى أول كتاب أُلقى إلىّ؛ أما العجيبةُ الثانية فإن آخر كتاب تلقيتُه كان من صاحبة المشكلة نفسِها؛ وهو كتاب آيةٌ فى الظرف وجمال التعبير وإشراقِ النفس فى أسرارها، يَمُورُ مَوْرَ الضبّاب الرقيق من ورائه الأشعة، فهو يَحجبُ جمالاً ليُظْهِرَ منه جمالاً آخر؛ وكأنه يعرِضُ بذلك رأيًا للنظر ورأيًا للتصوُّر، ويأتى بكلام يُقرأ بالعين قراءةً وبالفكر قراءةً غيرها؛ ولفظُها سهلٌ، قريبٌ قريب، حتى كأن وجهَها هو يُحدّثك لا لفظهَا؛ ومادةُ معانيها من قلبها لا من فكرها، وهو قلبٌ سليمٌ مُقْفَلٌ على خواطره وأحزانه، مُسترسِلٌ إلى الإيمان بما كُتب عليه استرساله إلى الإيمان بما كُتِب له، فما به غُرورٌ ولا كبرياء ولا حقد ولا غَضَبٌ، ولا يَكْرُثُهُ ما هو فيه.

ومن نكَدِ الدنيا أن مثلَ هذا القلب لا يُخْلَق بفضائله إلا ليُعاقَبَ على فضائله؛ فغلْظَة الناس عقابٌ لرقته، وغدرُهم نكايةٌ لوفائه، وتَهوُّرُهم ردٌّ على أناته، وحُمقُهم تكديرٌ لسكونه، وكذِبُهُم تكذيبٌ للصدق فيه.

وما أرى هذا القلبَ مأخوذًا بحب ذلك الشاب ولا مُسْتَهامًا به لذاته، وإنا هو يتعلَّق صُوَرًا عقليةً جميلة كان من عجائب الاتفاق أن عَرَضَتْ له فى هذا الشباب أولَ ما عرضتْ على مقدارٍ ما؛ وسيكونُ من عجائب الاتفاق أيضًا أن يزولَ هذا الحب زوالَ الواحدِ إذا وُجدت العشَرة، وزوالُ العشَرة إذا وُجدت المائة، وزوالَ المائة إذا وُجد الألف.

وبعد هذا كلّه فصاحبةُ المشكلة فى كتابها كأنما تكتبُ فى نقد الحكومة على طريقة جعل التوقيع: «فلان غير موظف بالحكومة».... وهى فيما كتبت كالنهر الذى يتحدَّر بين شاطئيه مُدَّعيًا أنه هاربٌ من الشاطئين مع أنه بينهما يَجرى. تحبُّ صاحبها وتلقاه؛ ثم هى عند نفسها غيرُ جانيةٍ عليه ولا على زوجته... فليت شِعْرى عنها، ما عسى أن تكونَ الجنايةُ بعد زواج الرجل غيرَ هذا الحب وهذا اللقاء؟

ونحن معها كأرسطاطاليس مع صديقه الظالم حين قال له: هَبْنا نقْدِرُ على مُحاباتِك فى ألاّ نقولَ إنك ظالم؛ هل تقدرُ أنت على ألاَ تعلم أنك ظالم؟

ورأْيها فى (المشكلة) أن ليس من أحَدٍ يستطيعُ حلَّها إلا صاحبُها، ثم هو لا يستطيع ذلك إلا بطريقة من طريقتين: فإما أن تكون ضحيةُ أبيها وأبيه – تعنى زوجته – ضحيتَه هو أيضًا، ويستهدف لما يناله من أهله وأهلها، فيكونُ البلاء عن يمينه وشماله، ويكابِدُ من نفسه ومنهم ما إنَّ أقَلَّهُ لَيذْهَبُ براحته وينغِّصُ عليه الحبَّ والعيش، (قالت): وإما أن يضحِّىَ بقلبه وعقلِه وبى...

وهذا كلام كأنها تقول فيه: إن أحدًا لا يستطيع حلَّ المشكلة إلا صاحبها، غير مستطيعٍ حلَّها إلا بجناية يذهبُ فيها نعيمُه، أو بجنون يذهب فيه عقله. فإن حلَّها بعد ذلك فهو أحدُ اثنين: إما أحمقُ أو مجنونٌ ما منهما بد...

ولسانُ الغيب ناطقٌ فى كلامها بأن أحسنَ حل للمشكلة هو أن تبقى بلا حل، فإن بعضَ الشر أهونُ من بعض.

* * *

والعجيبةُ الثالثة أن «نابغة القرن العشرين»[1] جاء زائرًا بعد أن قرأ مقالات (المجنون)، فرأى بين يدَّى هذه الكتبَ التى تلقيتها وأنا أعرِضُها وأنظر فيها لأتخيَّر

(١) هو لقب المجنون، فانظر مقالاته فى الجزء الثانى.

منها، فسأل فخبَّرتُه الخبر؛ فقال: إن صاحب هذه المشكلة مجنونٌ... لو امتحنوه في الجغرافيا وقالوا له: ما هى أشهَرُ صناعة فى باريس؟ لأجابهم: أشهر ما تُعرف به باريس أنها تصنع (البودرة) لوجه حبيبتى...

قلتُ: فكيف يرتدُّ هذا المجنونُ عاقلاً؟ وما عِلاجُه عندك؟

قال: وَجِّهْ فى طلب (ا. ش) [*] ليجىء، فلما جاء قال له اكتب: جلس «نابغة القرن العشرين» مجلسَه للإفتاء فى حل المشكلة فأفتى مُرتجلاً:

«إن منطقَ الأشياء وعقليةَ الأشياء صريحان فى أن مشكلةَ الحب التى يَعْسُر حلُّها ويتعذَّر مَجازُ العقلِ فيها، ليست هى مشكلةَ هذا العاشقِ أكرهوه على الزواج بامرأة يحملُها القلبُ أو لا يحملُها، وإنما هى مشكلةُ إمبراطور الحبشة يريدون إرغامَه أن يتزوجَ إيطاليا، ويذهبون يزفُّونها إليه بالدَّبابات والرشاشات والغازات السامة.

«ولو لم يكن رأسُ هذا العاشق المجنون فارغًا من العقل الذى يعملُ عملَ العقل، إذن لكانت مَجارِى عقله مطَّردةً فى رأسه، فانحلَّت مشكلتُه بأسباب تأتى من ذات نفسِها أو ذات نفسِه؛ غير أن فى رأسه عقلَ بطنه لا عقلَ الرأس، كذلك الشَّرِهِ البخيل الذى طبخ قِدْرًا وقعد هو وامرأتُه يأكلان، فقال: ما أطيبَ هذه القِدرَ لولا الزحام... قالت امرأتُه: أىُّ زحام ههنا؟ إنما أنا وأنت. قال: كنتُ أحب أن أكونَ أنا والقدر فقط...

«فعقلُ النَّهِمَ فى رأس هذا كعقل الشهوة فى رأس ذاك؛ كلاهما فاسدُ التقدير لا يعملُ أعمالَ العقول السليمة، ويريد أحدُهما أن تَبْطُلَ الزوجةُ من أجل رِطلٍ من اللحم، ويريد الآخرُ مثلَ ذلك فى رطلٍ من الحب...

«وإذا فسد العقلُ هذا الفسادَ ابتَلى صاحبَه بالمشاكل الصبيانيةِ المضحكةِ: لا تكونُ من شىء كبير، ولا يكونُ منها شىء كبير، وهى عند صاحبها لو وُزِنَتْ كانت قناطيرَ من التعقيد، ولو كِيلَتْ بلغت أرادبَّ من الحَيرة؛ ولو قِيسَتْ امتدَّت إلى فراسخَ من الغُموض.

---

(١) هو الأديب أمين حافظ شرف. ويأتى له ذكر فى مقالات المجنون.

«هاتان المرأتان: (الحبيبة والزوجة)، إما أن تكونا جميعًا امرأتين، فالمعنى واحدٌ فلا مشكلة؛ وإما ألا تكونا امرأتين، فالمعنى كذلك واحدٌ فلا مشكلة؛ وإما أن تكون إحداهما امرأة والأخرى قِرْدة أو هِرْدة، وههنا المشكلة. (حاشية: الهردة من أوضاع نابغة القرن العشرين فى اللغة، ومعناها الأنثى ليست من إناث الأناسىّ ولا البهائم...).

«فإن زعم العاشقُ أن زوجتَه قِردة فهو كاذب، وإن زعم أنها الهِرْدة فهو أكذَب؛ والمشكلة هنا مشكلةُ كل المجانين، ففى مخه موضعٌ أفْرَطَ عليه الشعورُ فأفسده، وأوقع بفساده الخطأ فى الرأى، وابتلاه من هذا الخطأ بالعَمَى عن الحقيقة، وجعل زوجته المسكينةَ هى مَعْرِضَ هذا العمى وهذا الخطأ وهذا الفساد؛ ولا عيب فيها، لأنها من زوجها كالحقيقة التى يتخبَّط فيها المجنونُ مدةَ جنونه، فتكونُ مَجْلى هَذَيانه ومعرِضَ حماقاتِه، وهى الحقيقة غير أنه هو المجنون.

«فإن كانت هذه الحقيقةُ مسألةً حسابيةً استمرَّ المجنون مدةَ جنونه يقول للناس: خمسون وخمسون ثلاثةَ عشَر، ولا يصدِّق أبدًا أنها مائة كاملة؛ وإن كانت مسألةً عمليةً قضى المجنون أيامه يُشْعِل الترابَ ليجعلَه بارودًا ينفجر ويتفَرْقَع، ولا يدخلُ فى عقله أبدًا أن هذا ترابٌ منطفئ بالطبيعة؛ وإن كانت مسألةً قلبية استمر المجنونُ يزعم أن زوجتَه قِردة أو هِرْدة، ولا يشعر أبدًا أنها امرأة.

«فإن صح أن هذا الرجلَ مجنون فعلاجُه أن يُربَط فى المارستان، ثم يجىء أهله كل يوم بزوجته فيسألونه: أهذه امرأة أم قردة أم هردة؟ ثم لايزالون ولايزالُ حتى يراها امرأةً، ويعرفها امرأتَه، فيقال له حينئذ: إن كنت رجلاً فتخلَّق بأخلاق الرجال.

«أما إن كان الرجل عاقلاً مميزًا صحيحَ التفكير ولكنه مريضٌ مرضَ الحب، فلا يرى (النابغة) أشفَى لدائه ولا أنجعَ فيه من أن يَسْتَطِبَّ بهذه الأشْفِيةِ واحدًا بعد واحد حتى يذهب سَقامه بواحد منها أو بها كلِّها:

«الدواء الأول: أن يجمعَ فكرَه قبل نومه فيحصُرَه فى زوجته، ثم لايزال يقول: زوجتى، زوجتى. حتى ينام. فإن لم يذهب ما به فى أيام قليلة فالدواء الثانى.

«الدواء الثانى: أن يتجرّعَ شــربةً من زيت الخروع كل أســبوع... ويتوهَّم كلَّ مرة أنه يتجرعُها من يد حبيبته، فإن لم يشفِه هذا فالدواء الثالث.

«الــدواء الثالث: أن يذهبَ فيبيــتَ ليلةً فى المقابر، ثم ينظر نظرَه فى أى المرأتين يريــد أن يلَقى الله بها وبرضاها عنه وبثوابــه فيها؛ وأيتُهما هى موضعُ ذلك عند الله تعالى، فإن لم يُبصر رُشده بعدَ هذا فالدواءُ الرابع.

«الــدواء الرابع: أن يخــرجَ فى (مظاهرة)... فإذا فُقِئتْ له عينٌ أو كُســرَتْ له يدٌ أو رجْل، ثم لم تحِلَّ حبيبتُه المشكلةَ بنفسها... فالدواء الخامس.

«الدواء الخامس: أن يصنعَ صنيعَ المبتَلى بالحشــيش والكوكايين، فيذهَب فيُســلم نفسَه إلى الســجن ليأخذوا على يَدهِ فينسَى هذا الترفَ العقلى؛ ثم ليعرفَ من أعمال السجن جِدَّ الحياة وهَزلَها، فإن لم ينزعْ عن جهله بعد ذلك فالدواء السادس.

«الدواء السادس: أنه كلما تحرك دَمُه وشاعتْ فيه حرارةُ الحب، لا يذهبُ إلى من يحبهــا، ولا يتوخَّى ناحيتَها، بل يذهب من فَــوْره إلى حَجَّام يحجمُه.. ليطفئ عنه الدمَ بإخراج الدم؛ وهذه هى الطريقةُ التى يصلُحَ بها مجانينُ العشاق، ولو تبدَّلوا بها من الانتحار لعاشوا هم وانتحرَ الحب.

قال «نابغة القرن العشرين»: «فإن بَطَلتْ هذه الأشفيةُ الستةُ، وبقى الرجلُ جَمُوحًا لا يُرَدُّ عن هواه فلم يبق إلا الدواء السابع.

«الدواء الســابع: أن يُضْرَبَ صاحبُ المشكلة خمســين قناةً يُصَكُّ بها[1] واقعةً منه حيثُ تَقَع من رأســه وصدره وظهره وأطرافِه، حتى يَنْهَشمَ عظمُه، وينقَصفَ صُلْبُه، ويَنْشَــدخَ رأْسُه، ويَتَفرَّى جلدُه؛ ثم تُطلَى جراحُه وكُسورُه بالأطْلية والمراهم، وتُوضَعُ له الأَضْمِدَةُ والعصائب ويُتركُ حتى يَبرأ على ذلك:

(١) القناة: هى العصا الغليظة التى يقال لها «الشومة». والصك خاص فى ضرب الرأس، ولكن لما كانت عظام صاحب المشكلة مقصودة فى هذا العلاج... فقد جاز استعمال الصك فى الجسم كله كما رأيت.

أعرَجَ مُتخَلِّعًا مبعثَرَ الخَلْق مكسورَ الأعلى والأسفل، فإن فى ذلك شفاءه التامَّ من داء الحب إن شاء الله...».

قلنا: فإن لم يشفه ذلك ولم يصرف عنه غائلةَ الحب؟

قال: فإن لم يشفه ذلك فالدواء الثامن.

الدواء الثامن: أن يُعادَ عِلاجُه بالدواء السابع.....

■■■

المشكِلَة

(٣)

أمـا البقيةُ مـن هذه الآراء التى تلقيتُها فكل أصحابهـا متوافِقُون على مثل الرأى الواحدِ، من وجوب إمساكِ الزوجة والإقبالِ عليها، وإرسالِ «تلك» والانصراف عنها، وأن يكـونَ للرجل فى ذلـك عزمٌ لا يَتَقَلْقَل ومَضَاء لا يَنْثَنـى، وأن يصبرَ للنَّفْرة حتى يستأنِسَ منها فإنها سـتتحوَّل، ويجعلَ الأناة بإزاء الضجَر فإنها تُصلِحه، والمروءَة بـإزاء الكُره فإنها تَحْمِلُه، وليترك الأيـامَ تعملُ عملَها فإنه الآن يعترضُ هذا العملَ ويُعطله، وإن الأيام إذا عمِلَتْ فسـتغيِّر وتبدِّل؛ ولا يُسـتقَلُّ القليلُ تكون الأيامُ معه، ولا يُستكثَر الكثيرُ تكونُ الأيامُ عليه.

والعَديـدُ الأكبرُ ممن كتبـوا إلىَّ، يحفظون على صاحب المشـكلة ذلك البيانَ الذى وضعناه على لسـانه فى المقال الأول، ويُحاسِـبُونه به، ويُقيمون منه الحجةَ عليه، ويقولـون له: أنت اعترفت، وأنت أنكرت، وأنت رددتَ على نفسـك، وأنت نَصَبْتَ الميـزانَ فكيـف لا تقبلَ الوزنَ به؟ وقد غفلوا عـن أن المقالَ من كلامنا نحن، وأن ذلك أسلوبٌ من القول أدرناه ونَحَلْنَاه ذلك الشابَّ، ليكونَ فيه الاعتراضُ وجوابه، والخطأ والردُّ عليه؛ ولُنظهِرَ به الرجلَ كالأبله فى حَيرته ومشـكلته، تنفيرًا لغيره عن مثل موقفِه، ثم لنحرّكَ به العِللَ الباطنةَ فى نفسـه هو، فنصرفَه عن الهوى شـيئًا فشيئًا إلى الرأى شـيئًا فشيئًا، حتى إذا قرأ قصةَ نفسِـه قرأها بتعبير من قلبه وتعبير آخر من العقل، وتَلَمَّحَ ما خَفىَ عليه فيما ظهر له، واهتدى من التقييد إلى سبيل الإطلاق، وعرف كيف يُخلصُ بين الواجب والحب اللذين اختلطا عليه وامتزَجَا له امتزاجَ الماء والخمر. وبذلك الأسـلوب جاءت المشـكلةُ معقَّدةً منحلَّةً فى لسانِ صاحبها، وبقى أن يُدفعَ صاحبُها بكلام آخرَ إلى موضع الرأى.

وكثـــيرٌ من الكتاب لم يزيدوا علــى أن نبَّهوا الرجلَ إلى حق زوجته، ثم يدعون الله أن يرزقه عقلاً... وقد أصاب هؤلاء أحسـَن التوفيق فيما ألهمُوا من هذه الدعوة، فإنما جاءت المشـكلة من أن الرجلَ قد فقد التمييزَ وجُنَّ بجنونين: أحدهما فى الداخل من عقله، والثانى فى الخارج منه؛ فأصبح لا يبالى الإثمَ والبغضَ عند زوجته إذا هو أصاب الحظْوة والسـرور عند الأخرى؛ فتَعدَّى طَوْرَه مـع المرأتين جميعًا، وظلم الزوجةَ بأن اسْتَلَبَ حقها فيه، وظلم الأخرى بأن زادَها ذلك الحقَّ فجعلها كالسارقة والمعتدية.

وقد تمنى أحدُ القراء من فلسطين[1] أن يرزقَه الله مثلَ هذه الزوجة المكروهة كراهةَ حــب، ويضعَه موضعَ صاحب المشـكلة، ليُثبتَ أنه رجلٌ يحكُـم الكرهَ ويصرفُه على ما يشاء، ولا يرضَى أن يحكمه الحبُّ وإن كان هو الحب.

وهذا رأىٌ حَصيفٌ جيِّد، فإن العاشـقَ الذى يتلعَّب الحبُّ به ويصدُّه عن زوجته، لا يكونُ رجلا صحيحَ الرجولة، بل هو أسـخفُ الأمثلةِ فــى الأزواج، بل هو مُجرمٌ أخلاقى يَنْصبُ لزوجته من نفســه مثالَ العاهر الفاسق، ليدفعها إلى الدَّعارة والفِسْق من حيث يَدرى أولا يدرى؛ بل هو غبىٌّ، إذ لا يعرفُ أن انفرادَ زوجته وتراجُعَها إلى نفسِها الحزينة يُنشئ فى نفسها الحنين إلى رجل آخر؛ بل هو مغفَّل، إذ لا يدرك أن شريعة السنّ بالسنّ والعينِ بالعين، هى بنفسها عند المرأة شريعةُ الرجُل بالرجل...

والمــرأة التى تجد من زوجها الكَراهِيَــةَ لا تعرفُها أنها الكراهةُ إلا أوَّلَ أولَ ؛ ثم تنظــر فإذا الكراهةُ هى احتقارُها وإهانتُها فى أخصّ خصائصِها النِّســوية، ثم تنظر فــإذا هى إثارة كبريائهــا وتحدِّيها، ثم تنظر فإذا هَى دفْــعُ غريزتها أن تعمل على إثبات أنها جديرة بالحب، وأنها قادرة على النقمة والمجازاة؛ ثم تنظر فإذا برهانُ كل ذلــك لا يجىء من عقل ولا منطقٍ ولا فضيلة، وإنما يأتى من رجُل... رجلٍ يحقق لها هى أن زوجَها مغفَّل وأنها جديرةٌ بالحب.

* * *

(١) هذه الآراء التى ســننقلها قد تصرفنا فى جميعها بالعبارة، ولكنا لم نخرج عما يرمى إليه صاحب الرأى وما أقام رأيه عليه.

وكأن هذا المعنى هو الذى أشارت إليه الأديبة (ف . ز .) وإن كانت لم تَبْسُطْه، فقد قالت: إن صاحبَ هذه المشكلة غبىّ، ولا يكونُ إلا رجلا مريضَ النفس مريضَ الخلُق، وما رأيتُ مثلَه رجلا أبعدَ من الرجل.. ومثلُ هذا هو فى نفسهِ مشكلة فكيف تُحَلُّ مشكلتُه؟ إنه من ناحية زوجته مغفَّل، لا وصفَ له عندها إلا هذا؛ ومن جهة حبيبته خائن، والخيانة أولُ أوصافِه عندها.

«وهذا الزوجُ يسمِّم الآن أخلاقَ زوجته ويُفْسِد طباعَها، وينشئ لها قصة فى أولها غباوتُه وإثمه، وسيتركها تُتمُّ الرواية فلا يعلم إلا الله ما يكونُ آخرها. وبمثل هذا الرجل أصبح المتعلماتُ يعتقدن أن أكثرَ الشُّبان إن لم يكونوا جميعًا، هم كاذبون فى ادعاء الحب، فليس منهم إلا الغَواية؛ أو هم محبون يكْذِبُ الأملُ بهم على النساء، فليس منهم إلا الخيبة.

قالت: «وخيرُ ما تفعله صاحبةُ المشكلة أن تصنع ما صنعته أخرى لها مثلُ قصتها: فهذه حين علمتْ بزواج صاحبها قذفتْ به من طريقِ آمالها إلى الطريق الذى جاء منه، وأنزلته من دَرجَة أنه كلُّ الناسِ إلى منزلة أنه ككل الناس، ونبَّهتْ حزمَها وعزيمَتها وكبرياءها، فرأته بعد ذلك أهونَ على نفسها من أن يكونَ سببا لشقاء أو حسرة أوهمّ، وابتعدتْ بفضائلها عن طريقِ الحب الذى تعرف أنه لا يستقيم إلا لزوجة وزوجِها، فإذا مشَت فيه امرأةٌ إلى غير زواج، انحرفَ بها من هنا، واعوَجَّ لها من هنا، فلم ينته بها فى الغاية إلا أن تعودَ إلى نفسها وعليها غبارُه، وما غبارُ هذا الطريق إلا سوادُ وجه المرأة...

«وقد جهَد الرجلُ بصاحبته أن تتخذه صديقًا، فأبت أن تتقبَّلَ منه برهانَ خيبتها... وأظهرت له جَفْوَةً فيها احتقار، وأعلمته أن نكْثَ العَهْدِ لا يخرجُ منه عهد، وأن الصداقةَ إذا بدأتْ من آخر الحب تغير اسمُها وروحُها ومعناها، فإما أن تكون حينئذ أسقطَ ما فى الحب، أو أكذبَ ما فى الصداقة.

ثم قالت الأديبة: «وهى كانت تحبه، بل كانت مُسْتَهامَةً به، غير أنها كانت أيضًا طاهرةَ القلب، لا تريد فى الحبيب رجلاً هو رجلُ الحِيلة عليها فتُخْدَع به،

ولا رجلُ العار فتُسَبُّ به، وفى طهارة المرأة جزاء نفسِها من قوة الثقة والاطمئنان وحسنِ التمكن؛ وهذا القلبُ الطاهرُ إذا فقد الحبَّ لم يفقد الطمأنينة، كالتاجر الحاذقِ إن خَسِر الربح لم يفلِس، لأن مهارته من بعض خصائِصها القدرة على الاحتمال، والصبرُ للمجاهدة.

قالت: «فعلى صاحبةِ المشكلة التى عرفت كيف تحب وتُجِلُّ، أن تعرفَ الآن كيف تَحتقر وتَزدرى».

* * *

وللأديبة (ف . ع) رأىٌ جَزْلٌ مُسَدَّد؛ قالت: «إنها هى قد كانت يوما بالموضع الذى فيه صاحبة المشكلة، فلما وقعت الواقعة أنِفتْ أن تكونَ لصَّةَ قلوب، وقالت فى نفسها: إذا لم يُقْدَرْ لى، فإن الله هو الذى أراد، وإنى أستحى من الله أن أحاربَه فى هذه الزوجة المسكينة! ولئن كنتُ قادرةً على الفوز، إن انتصارى عليها عند حبيبى هو انتصارها على عند ربى، فلأخسرْ هذا الحبَّ لأرابح الله برأس مال عزيز خَسِرتُه من أجله، لأُبْق على أخلاق الرجل ليبقَى رجلا لامرأته، فما يسرنى أن أنال الدنيا كلَّها وأهدمَ بيتا على قلْب، ولا معنى لحب سيكون فيه اللّؤم بل سيكون ألأمَ اللؤم.

قالت: وعلمت أن الله (تعالى) قد جعلنى أنا السعادةَ والشقاء فى هذا الوضع ليرَى كيف أصنع، وأيقنت أن ليس بين هذين الضدين إلا حِكْمتى أو حُمقى، وصحَّ عندى أن حسنَ المداخَلة فى هذه المشكلة هو الحلُّ الحقيقى للمشكلة.

قالت: «فتغيرتُ لصاحبى تغيرًا صناعيًّا، وكانت نيَّتى له هى أكبرَ أعوانى عليه، فما لبث هذا الانقلابُ أن صار طبيعيًا بعد قليل؛ وكنت أستمدُّ من قلب امرأته إذا اختانَنى الضعفُ أو نالنى الجزَع، فأشعرُ أن لى قوةَ قلبين. وزدتُ على ذلك النصحَ لصاحبى نُصحًا مُيَسَّرًا قائمًا على الإقناع وإثارة النَّخْوة فيه وتبصيره بواجبات الرجل، وترفقتُ في التوصل إلى ضميره لأثبتَ له أن عزةَ الوفاء لا تكونُ بالخيانة، وبيَّنتُ له أنه إذا طلَّقَ زوجَته من أجلى فما يصْنَع أكثرَ من أن يقيمَ البرهانَ على أنه لا يصلح لى زوجا؛ ثم دللَتهُ برفق على أن خيرَ ما يصنعُ وخيرَ ما هو صانعٌ لإرضائى

أن يقلِّدنى فى الإيثار وكَرم النفس، ويحتَذينى فى الخير والفضيلة، وأن يعتقدَ أن دموعَ المظلومين هى فى أعينهم دموع، ولكنها فى يد الله صواعقُ يضربُ بها الظالم.

قالت: «وبهذا وبعد هذا انقلب حبُّه لى إكبارًا وإعظاما، وسما فوق أن يكونَ حبًّا كالحب؛ وصار يجدنى فى ذاتِ نفسه وفى ضميره كالتوبيخ له كلما أراد بامرأته سوءًا أو حاول أن يَغُضَّ منها فى نفسه. واعتاد أن يُكْرِمَها فأكرمها، وصَلُحَتْ له نيتُه فاتصل بينهما السبَب، وكَبِرَت هذه النيةُ الطيبةُ فصارت ودًّا، وكَبِر هذا الودُّ فعاد حبًّا، وقامت حياتهما على الأساسِ الذى وضعته أنا بيدى، أنا بيدى...

أما أنا...؟»

***

وكتب فاضل من حلوان: «إن له صديقًا ابتُلى بمثل هذه المشكلة فركب رأسَهَ فما ردَّه شىء عن الزواج بحبيبته، وَزُفَّ إليها كأنه مَلِكٌ يدخل إلى قَصْرِ خيَاله؛ وكان أهلُه يعذلونه ويلومونه ويُخلِصون له النُّصحَ ويجتهدون فى أمره جُهْدهم، إذ يرون بأعينهم ما لا يرى بعينه، فكان النصح ينتهى إليه فيظنه غِشا وتَلبيسًا، وكان اللَّومُ يبلغه فيراه ظُلمًا وتحاملاً، وكان قلبُه يُترجِم لهُ كلَّ كلمة فى حبيبته بمعنى منها هى لا من الحقائق، إذ غلبتْ على عقله فبِها يَعْقل، وذهبتْ بقلبه فبِها يُحِس، واستبدَّت بإرادته فلها يَنقاد، وعادت خواطرُه وأفكارُه تدورُ عليها كالحواشى على العبارة المغلقة فى كتاب؛ واستقرَّتْ له فيها قوةٌ من الحب، أمرُها إذا أرادتْ شيئًا أن تقولَ له كُن...

«ثم مضت الليلةُ بعد الليلة، وجاء اليومُ بعد اليوم، والموجُ يأخذُ من الساحل الذرَّة بعد الذرة والساحلُ لا يشعر، إلى أن تصرَّمت أشهرٌ قليلة، فلم تلبث الطبيعةُ التى ألَّفت الرواية وجعلتها قبل الزواج روايةَ المَلِك والملِكة، وقصةَ التاج والعرش، وحديثَ الدنيا ومُلكِ الدنيا – لم تلبث أن انتقلتْ على فجأة فأدارت الرواية إلى فصلِ السخرية ومنظرِ التهكم، وكشفت عن غرضها الخفىّ وحلَّت العُقدة الروائية.

قال: «ففرغ قلبُ المرأة من الحب، وظَمِئ إلى السُّكر والنَّشوة مرةً أخرى من غير هذه الزجاجة الفارغة... وبَرَدَ قلبُ الرجل، وكان الشيطانُ الذى يتَسَعَّر فيه نارًا شيطانًا خبيثًا، فتحولَ إلى لوح من الثلج له طولٌ وعرض...

«وجَدَّت الحياةُ وهزَلَ الشيطان، فاسْتَحْمَقَ الرجلُ نفسه أن يكونَ اختار هذه المرأةَ له زَوجة، واستجْهَلَتْ المرأةُ عقلَها أن تكون قد رضيت هذا الرجلَ زوجا، وأنكَرهَا إنكارًا أوّلُه الملامة، وأنكرته إنكارًا آخَر أوله التبرُّم؛ وعاد كلاهما من صاحبه كإنسان يكلفُ إنسانا أن يخلُقَ له الأمس الذى مضى!

«وضربت الحياة ضَرْبةً أو ضربتين فإذا أبْنِيَةُ الخَيال كلُّها هَدْم هَدْم، وإذا الطبيعة مؤلّفةُ الرواية.. قد ختمتْ روايتها وقَوَّضتِ المسرح، وإذا الأحلامُ مفسَّرة بالعكس: فالحب تأويلُه البغض، واللذة تفسيرُها الألم، و«البودرة» معناها الجير... وتغيَّر كلُّ ما بينهما إلا الشيطانَ الذى بينهما، فهو الذى زوّج وهو بعينه الذى طلَّق...»

***

وكتب أديب من بغداد يقول: «إنه كان فى هذا الموضع القَلق موضع صاحب المشكلة، وإن ذات قُرباه التى سُمِّيتْ عليه كانت مُلَفَّفَةً له فى حُجُب عِدَّة لا فَى حجاب واحد، وقد وُصِفتْ له باللغة.. وفى اللغة: ما أحْسَن وما أجمل وما أظرف، وكأنها ظَبىٌ يتلفَّت ، وكأنها غُصنٌ يميل، وكأن سُنةَ وجهها البَدر!

قال: «وشُبِّهتْ له بكل أدوات التشبيه، وجاءوا فى أوصافها بمذاهبِ الاستعارة والمجاز، فأخذها قصيدةً قبل أن يأخذها امرأة؛ وكان لم ير منها شيئًا، وكانت لغة ذوى قَرابته وقرابتها كلُغَة التجارة فى ألسنةِ حُذّاق السماسرة: ما بهم إلا تَنْفِيق السِّلْعة ثم يُخَلُّون بين المشترى وحظِّه.

قال: «فرسخ كلامُهم فى قلبى، فعقدتُ عليها، ثم أعْرَستُ بها، ونظرتُ فإذا هى ليست فى الكلمةِ الأولى ولا الأخيرةِ مما قالوا ولا فيما بينهما... ثم تعرفت فإذا هى تكْبَرنى بخمسَ عشرةَ سنةَ... ورأيت اتِّضاعَ حالها عندى فأشفقت عليها، وبتُّ الليلةَ الأولى مُقْبلاً على نفسى أؤامرها وأناجيها، وأنظر فى أى موضع رَأْىٍ أنا؛

وتأملت القصةَ، فإذا امرأةٌ بين رحمةِ الله ورحمتى، فقلت: إن أنا نزعت رحمتى عنها ليُوشِكنَ الله أن ينزعَ رحمته عنى، وما بينى وبينه إلا أعمالى؛ فقلت: يا نفسى، إنها أن تَكُ مثقَالَ حَبَّة من خَرْدَل فتكُنْ فى صخرةٍ أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله. وإنما أتقدم إلى عفوِ الله بآثام وذنوبٍ وغلطاتٍ، فلأجعلْ هذه المرأة حسَنتى عنده، وما علىَّ من عمر سيَمضى وتبقَى منه هذه الحسنة خالدةً مخلَّدةً.

«إنها كانت حاجةَ النفس إلى المتاع فانقلبت حاجةً إلى الثواب، وكانت شهوةً فرجعت حكمة، وكنت أريد أن أبلغ ما أحبُّ فسأبلغ ما يَجِب. ثم قلت: اللهمّ إن هذه امرأةٌ تنتظرها ألسنةُ الناس إما بالخير إذا أمسكتُها، وإما بالشر إذا طلقتُها، وقد احتمتْ بى؛ اللهم سأكفيها كلَّ هذا لوجهك الكريم!

قال: «ورأيتُنى أكون ألأمَ الناس لو أنى كشَفتُها للناس وقلت انظروا... فكأنما كنت أسأت إليها فأقبلت أترضَّاها، وجعلت أماسحُها وألاينُها فى القول، وعدلْت عن حظ نفسى إلى حظ نفسها [1]، واستظهرت بقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ سورة البقرة الآية ٢١٦، واعتقدت الآية الكريمةَ أصحَّ اعتقاد وأتمَّه، وقلت: اللهمّ اجعلْها من تفسيرها.

قال: «فلم تمض أشهرٌ حتى ظهر الحمل عليها، فألقى الله فى نفسى من الفرح ما لا تَعْدِل له الدنيا بحذافيرها، وأحسست لها الحبَّ الذى لا يقال فيه جميل ولا قبيح، لأنه من ناحية النفس الجديدة التى فى نفسها (الطفل). وجعلت أرى لها فى قلبى كل يوم مدَاخِلَ ومخارج دونها العشق فى كل مَداخِله ومخارِجه، وصار الجنين الذى فى بطنها يتلألأ نوره عليها قبل أن يخرج إلى النور، وأصبحت الأيام معها ربحًا من الزمن فيه الأمل الحلو المنتظَر.

قال: «وجاءها المخاض، وطرَّقَتْ بغلام؛ وسمعت الأصواتَ ترتفع من حُجْرتها: ولد! ولد! بَشروا أباه. فوالله لكأن ساعةً من ساعات الخلد وقعتْ فى زمنى أنا من دون

(١) استوفينا بيان هذه المعانى فى مقالة (قبيح جميل).

الخلق جميعًا وجاءتنى بكل نعيم الجنة؛ وما كان مُلْك العالم – لو ملكتُه – مستطيعًا أن يهبنى ما وهبتنى امرأتى من فَرَح تلك الساعة، إنه فَرحٌ إلهىٌّ أحسست بقلبى أن فيه سلامَ الله ورحمتَه وبركتَه، ومن يومئذ نَطَق لسان جمالها فى صوت هذا الطفل. ثم جاء أخوه فى العام الثانى، ثم جاء أخوهما فى العام الثالث؛ وعرفت بركة الإحسان من اللطف الرَّبانى فى حوادثَ كثيرة، وتنفَّسَتْ علىَّ أنفاس الجنة وفسَّرتِ الآية الكريمة نفسَها بهؤلاء الأولاد، فكان تفسيرها الأفراح، والأفراح، والأفراح».

* * *

ويرى صديقُنا الأستاذ (م . ح . ج) أن صاحبَ المشكلة فى مشكلةٍ من رجولته لا من حبه؛ فلو أن له ألف روح لما استطاع أن يعاشرَ زوجَته بواحدة منها، إذ هى كلُّها أرواحٌ صبيانية تبكى على قطعة من الحلوى ممثلة فى الحبيبة... ولو عرف هذا الرجل فلسفة الحب والكره، لعرف أنه يصنع دموعَه بإحساسه الطفْلىِّ فى هذه المشكلة؛ ولو أدرك شيئًا لأدرك أن الفاصلَ بين الحب والكره منزوعٌ من نفسه، إذ الفاصل فى الرجل هو الحزم الذى يُوضَع بين ما يجب وما لا يجب.

إنه مادام بهذه النفس الصغيرة فكلُّ حل لمشكلته هو مشكلةٌ جديدة، ومِثْلُه بلاء على الزوجة والحبيبة معًا، وكلتاهما بلاء عليه، وهو بهذه وهذه كمحكوم عليه أن يُشْنَقَ بامرأة لا بمشنقة...

هذا عندى ليس بالرجل ولا بالطفل إلى أن يُثْبِتَ أنه أحدهما؛ فإن كان طفلاً فمن السخرية به أن يكونَ متزوجًا، وإن كان رجلا فليَحلَّ هو المشكلةَ بنفسه، وحلَّها أيسر شىء: حلها تغيير حالته العقلية.

* * *

ونحن نعتذر للباقين من الأدباء والفضلاء الذين لم نذكر آراءهم، إذ كان الغرض من الاستفتاء أن نظفرَ بالأحوال التى تشبه هذه الحادثة، لا بالآراء والمواعظ والنصائح. أما رأينا ففى البقية الآتية.

■■■

المشْكِلَة

(٤)

صاحبُ هذه المشــكلةِ رجلٌ أعور العقل... يرى عقلُه من ناحية واحدة، فقد غاب عنــه نصف الوجود فى مشــكلته؛ ولو أن عقلَه أبصَر من الناحيتين لما رأى المشــكلةَ خالصةً فى إشــكالها، ولوجَدَ فى ناحيتها الأخرى حظًا لنفســه قد أصابه، ومذهبًا فى الســلامة لم يُخطِئه؛ وكان فى هذه الناحية عذاب الجنون لو عذبه الله به، وكان يُصبح أشقَى الخلق لو رماه الله فى الجِهَة التى أنقذه منها. فتهيأتْ له المشكلة على وجهِها الثانى.

ماذا أنت قائلٌ يا صاحبَ المشــكلة لو أن زوجتَك هذه المسكينةَ المظلومة التى بنَيْتَ بهــا، كانت هى التــى أُكْرِهَتْ على الرضى بــك، وحُمِلَتْ على ذلك مــن أبيها، ثم كنت أنت لها عاشــقًا، وبها صَبًّا، وفيها مُتَدَلِّها؛ ثم كانت هى تحبُّ رجلاً غيرَك، وتَصُبو إليه، وتفتتنُ به، وقد احترقَتْ عشــقًا له؛ فــإذا جَلَوْها عليك رأتك البَغيضَ المَقِيتَ، ورأتكَ الدَّميم الكَريه، وفَزِعَتْ منك فزعها من اللّص والقاتل؛ وتمدُّ لها يدَك فَتَتَحَاماها تحامَيها المجذومَ أو الأبرص، وتكُلمها فتُحَمُّ بَرْدًا من ثِقَل كلامك، وتفتَحُ لها ذراعيك فتحســبهُما حَبْلَين من مشــنقتين، وتتحبَّبُ إليها فإذا أنتَ أسمجُ خلقِ الله عندهــا، إذ تحاول فى نذالة أن تحِــلّ منها محلَّ حبيبها؛ وتقبلُ عليها بوجهك فــتراه من تَقَذّرِها إياكَ، واشمئزازها منك، وجهَ الذبابة مكبَّرًا بفظاعة وشــناعة فى قــدر صورة وجه الرجل، ليتجاوَزَ حدَّ القبــح إلى حدّ الغَثَاثة، إلى حدّ انقلابِ النفسِ من رؤيته، إلى حدّ القَىْء إذا دنا وجهُك من وجهها..؟!

ماذا أنت قائلٌ يا صاحبَ المشــكلة لو أن مشــكلتَك هذه جــاءت من أن بينك وبين زوجتك (الرجلَ الثانى) لا المرأةَ الثانية؟ ألستَ الآن فى رحمة من الله بك، وفى نعمة

كفَّتْ عنك مُصيبة، وفى موقف بين الرحمة والنعمة يقتضيك أن تَرقُبَ فى حكمك على هذه الزوجة المسكينة حكمَ الله عليك؟

* * *

تقول الحب والخيال والفن. وتذهبُ فى مذاهبها؛ غيرَ أن «المشكلة» قد دلت على أنك بعيدٌ من فهم هذه الحقائق، ولو أنت فهمتها لما كانت لك مشكلة ، ولا حسبتَ نفسَك منحوسَ الحظ محرومًا، ولا جهلتَ أن فى داخلِ العين من كل ذى فن عينًا خاصةً بالأحلام كيلا تعمَى عينُه عن الحقائق.

الحب لفظٌ وهمى موضوع على أضداد مختلفة: على بُركان وروضة، وعلى سماء وأرض، وعلى بكاء وضحك، وعلى هموم كثيرة كلها هموم، وعلى أفراح قليلة ليست كلها أفراحا؛ وهو خِداعٌ من النفس يضع كلَّ ذكائه فى المحبوب، ويجعلُ كل بَلاَهته فى الحب، فلا يكونُ المحبوبُ عند محبه إلا شخصًا خياليا ذا صفة واحدة هى الكمال المطلق، فكأنه فوق البشريةِ فى وجود تامّ الجمالِ ولا عيبَ فيه، والناسُ من بعده موجودون فى العيوب والمحاسِن.

وذلك وهم لا تقومُ عليه الحياةُ ولا تصلُح به، فإنما تقومُ الحياةُ على الروح العملية التى تضعُ فى كل شىء معناه الصحيحَ الثابت؛ فالحبُّ على هذا شىء غيرُ الزواج، وبينهما مثلُ ما بين الاضطراب والنظام؛ ويجب أن يُفهَم هذا الحبُّ على النحو الذى يجعلُه حبا لاغير، فقد يكون أقوى حب بين اثنين إذا تحابَّا هو أسخفَ زواج بينهما إذا تزوجا.

وذو الفن لا يُفِيدُ من هذا الحب فائدتَه الصحيحة إلا إذا جعله تحت عقله لا فوق عقله، فيكون فى حبه عاقلا بجنون لطيف... ويترك العاطفةَ تدخلُ فى التفكير وتضعُ فيها جمالَها وثورتَها وقوَّتَها؛ ومن ثَمَّ يرى مجاهَدَة اللذة فى الحب هى أسمى لذاته الفكرية، ويعرفُ بها فى نفسه ضَرْبًا إلهيًّا من السَّكينة يُوليه القدرةَ على أن يقهرَ الطبيعةَ الإنسانية ويصرِّفها ويُبدعَ منها عملَه الفنىَّ العجيب.

وهذا الضربُ من السموّ لا يبلغه إلا الفكرُ القوى الذى فازَ على شهواته وكبحَها وتحمَّلها تَغلى فيه غَلَيانَ الماء فى المِرْجَل ليخرُجَ منها ألطفُ ما فيها، ويحوِّلَها حركةً فى الروح تنشأ منها حياةُ هذه المعانى الفنية؛ وما أشبهَ ذا الفنِّ بالشجرة الحية: إن لم تَضْبطْ ما فى داخلها أصحَّ الضبط، لم يكن فى ظاهرها إلا أضعفُ عملها.

ومثلُ هذا الفكر العاشق يحتاج إلى الزوجة حاجتَه إلى الحبيبة، وهو فى قوته يجمعُ بين كرامة هذه وقُدْسِيَّة هذه، لأن إحداهما تُوازنُ الأخرى، وتعدِّلها فى الطبع، وتخفف من طُغيَانها على الغريزة، وتُمسْك القَلبَ أن يتبدَّد فى جوّه الخيالى.

* * *

والرجُل الكاملُ المفكِّرُ المتخِّيل إذا كان زوجًا وعَشق، أو كان عاشقًا وتزوَّج بغير من يهواها، استطاع أن يبتدعَ لنفسه فنًّا جميلاً من مسَرات الفكر لايجده العاشق ولا يناله المتزوج؛ وإنه ليرى زوجَته من الحبيبة كالتمثال جَمَدَ على هيئة واحدة، غير أنه لا يُغْفِل أن هذا هو سرٌّ من أسرار الإبداع فى التمثال، إذ تلك هيئة استقرارِ الأسمى فى سموه؛ فإن الزوجة أمومةٌ على قاعدتها، وحياةٌ على قاعدتها؛ أما الحبيبة فلا قاعدةَ لها، وهى معان شاردةٌ لا تستقرُّ، وزائلة لا تثبت، وفنها كلُّه فى أن تبقَى حيث هى كما هى، فجمالُها يحيا كلَّ يوم حياةً جديدةً مادامت فنًّا مَحْضًا، وما دام سرُّ أنوثتها فى حجابه.

ومتى تزوج الرجلُ بمن يحبها انتهك له حجابُ أنوثتِها فبطَل أن يكون فيها سر، وعادت له غيرَ من كانت، وعاد لها غيرَ من كان؛ وهذا التحولُ فى كل منهما هو زوال كلّ منهما من خَيال صاحبه؛فليس يصلُح الحبُّ أساساً للسعادة فى الزواج، بل أحْرِ به إذا كان وجْدًا واحتراقًا أن يكون أساسًا للشؤم فيه؛ إذ كان قد وضع بين الزوجين حدا يعينُ لهما درجةً من درجةٍ فى الشّغف والصبابة والخيال، وهما بعدَ الزواج متراجعان وراء هذا الحد ما من ذلك بد، فإن لم يكن الزوجُ فى هذه الحالة رجلاً تامَّ الرجولة، أفسدت الحياةَ عليه وعلى زوجته صبيانيةُ روحه فالتمس فى الزوجة مالم يَعُدْ فيها، فإذا انكشفَ فراغُها ذهب يلمسُه فى غيرها، وكان بلاء عليها وعلى نفسه

وعلى أولاده قبل أن يولدوا؛ إذ يضع أمام هذه المرأة أسوأ الأمثلة لأبى أولادها، ويفسد إحساسهَا فيفسدُ تكوينَها النفسىَّ؛ وما المرأة إلا حسُّها وشعورُها[1].

* * *

فالشأن هو فى تمام الرجولة وقوتِها وشهامتِها وفُحُولتِها، إن كان الرجلُ عاشقًا أو لم يكُنْه. وما من رجل قوى الرجولَة إلا وأساسه ديانتهُ وكرامتُه؛ وما من ذى دين أو كرامة يقع فى مثل هذه المشكلة ثم تُظْلَم به الزوجة أو يحيف عليها أو يُفسِدُ ما بينه وبينها من المداخَلة وحسن العِشْرة، بَلْهَ أن يراها كما يقولُ صاحب المشكلة (مصيبة) فُيجَافيها ويبالغَ فى إعْناتِها ويشفِىَ غيظَه بإذلالها واحتقارها.

وأىُّ ذى دين يأمنُ على دينه أن يَهلكَ فى بعض ذلك فضلاً عن كل ذلك؟ وأى ذى كرامة يرضى لكرامته أن تنقلبَ خسة ودناءةً ونذالةً فى معاملة امرأة هو لا غيره ذنبُها؟

إن أساسَ الدين والكرامة ألاّ يخرجَ إنسانٌ عن قاعدة الفضيلة الاجتماعية فى حل مشكلته إن تورط فى مشكلة؛ فمن كان فقيرًا لايسرق بحجة أنه فقير، بل يكدُّ ويعمل ويصبر على ما يعانيه من ذلك؛ ومن كان محبًّا لايَستنزِل المرأة فيُسقطها بحجة أنه عاشق؛ ومن كان كصاحب المشكلة لا يظلم امرأته فيمقتها بحجة أنه يعشق غيرها؛ وإنما الإنسانُ مَن أظهر فى كل ذلك ونحو ذلك أثرَه الإنسانى لا أثرَه الوحشىَّ، واعتَبر أمورَه الخاصةَ بقاعدة الجماعة لابقاعدةِ الفرد. وإنما الدينُ فى السموَّ على أهواء النفس؛ ولا يَتَسامى امرؤٌ على نفسه وأهواء نفسه إلا بإنزالها على حكم القاعدة العامة، فمن هناكَ يتسامى، ومن هناك يبدو علوُّه فيما يبلغُ إليه...

وإذا حل اللصُّ مشكلته على قاعدته هو فقد حلَّها، ولكنه حلٌّ يجعله هو بجملته مشكلةً للناس جميعًا، حتى ليرى الشرعُ فى نظرته إلى إنسانية هذا اللص أنه غير حقيق باليد العاملة التى خُلقت له فيأمرُ بقطعها.

---

(١) هذا كله من بعض الحكمة فى أن الإسلام لايبيح اختلاط الزوجين قبل العقد، إذ لا يعرف الدين الإسلامى من الزوجين إلا أسرة يجب أن تبنى بما بينهما، وتصان بما يصونها، وقد أشرنا إلى الحكمة مرة أخرى فى المقالة الأولى من المشكلة.

وعلى هذه القاعدة فالجنسُ البشـرىُّ كله ينـزل منزلة الأبِ فى مناصرته لزوجة صاحب المشكلة والاستظهارِ لها والدفاع عنها، مادام قد وقع عليها الظلم من صاحبها، وهذا هو حكمها فى الضمير الإنسانى الأكبر، وإن خالف ضميرَ زوجها العدو الثائر الذى قطعها من مَصادر نفسِـه ومَوَاردها. أما حكم الحبيبة فى هذا الضمير الإنسانى فهو أنها فى هذا الموضع ليست حبيبة ولكنها شحَّاذَة رجال...

* * *

لسنا ننكر أن صاحبَ هذه المشكلة يتألم منها ويتلذع بها من الوقْدَةِ التى فى قلبه؛ بيـد أننا نعرفُ أن ألم العاقل غـيرُ ألم المجنون، وحزنَ الحكيم غيرُ حزنِ الطائش؛ والقلبُ الإنسـانى يـكاد يكون آلةً مخلوقةً مع الإنسـان لإصلاح دنياه أو إفسـادِها؛ فالحكيـمُ من عرف كيف يتصـرف بهذا القلب فى آلامه وأوجاعِه، فلا يصنع من ألمه ألما جديدًا يزيده فيه، ولا يُخرِجُ من الشر شرًّا آخرَ يجعله أسوأ مما كان. وإذا لم يجد الحكيم ما يشـتهى، أو أصاب ما لا يشـتهى، استطاع أن يخلقَ من قلبه خَلقًا معنويًا يُوجِـدُه الغِنىَ عن ذلك المحبـوب المعدوم، أو يوجدُه الصبر عن هذا الموجود المكروه؛ فتتوازَنُ الأحوالُ فى نفسـه وتعتدلُ المعانـى على فكره وقلبه؛ وبهذا الخلق المعنوى يسـتطيع ذو الفن أن يجعل آلامَه كلَّها بدائع فن[1]. وما هو فكرُ الحكماء إلا أن يكونَ مصنعًا ترسَلُ إليه المعانى بصورة فيها الفَوْضَى والنقصُ والألم، لتخرج منه فى صورة فيها النظامُ والحكمةُ واللذةُ الروحية.

يعشق الرجلُ العامىُّ المتزوج، فإذا الساعةُ التى أوبَقَتْه فى المشكلة قد جاءته معها بطريقـة حلها: فإما ضَرَب امرأته بالطـلاق، وإما أهلكَها باتخاذ الضَّرة عليها، وإما عذبهـا بالخيانة والفجُور، لأن بعضَ العبث من الطبيعـة فى نفس هذا الجاهل هو بعينه عَبثُ الطبيعة بهذا الجاهل فى غيره، كأن هذه الطبيعة تُطلقُ مدافعَها الضخمةَ على الإنسانية من هذه النفوس الفارغة...

(١) استوفينا هذه المعانى فى كثير مما كتبنا، وبعضها فى مقالات (الجمال البائس)...

وليس أسهلُ على الذكر من الحيوان أن يحلَّ مشكلةَ الأنثى حلاً حيوانيا كحلْ هذا العامىّ، فهو ظافر بالأنثى أو مقتولٌ دونها مادام مطلَقًا مخلًّى بينه وبينها، والحقيقةُ هنا حقيقته هو، والكونُ كله ليس إلا منفعةً شهوانية، وأسمى فضائله ألا يَعجَزَ عن نيل هذه المنفعة.

ثم يعشقُ الرجلُ الحكيم المتزوج فإذا لمشكلته وجهٌ آخر، إذ كان من أصعب الصعب وجودُ رجل يحل هذه المشكلة برجولة، فإن فيها كرامةَ الزوجة وواجبَ الدين وفيها المروءة، وفيها مع ذلك عَبَثُ الطبيعة وخداعُها وهزْلُها الذى هو أشدُّ الجِد بينها وبين الغريزة؛ وبهذا كله تنقلب المشكلةُ إلى معركة نفسية لا يَحْسِمُها إلا الظفر، ولا يُعينُ عليها إلا الصبر، ولا يُفلح فى سياستها إلا تحمل آلامها، فإذا رُزق العاشقُ صبرًا وقوةً على الاحتمال فقد هانَ الباقى وتيسرت لذةُ الظفر الحاسم، وإن لم يكن هو الظفر بالحبيبة؛ فإن فى نفس الإنسان مواقع مختلفةً وآثارًا متباينةً للَّذة الواحدة، وموقعٌ أرفعُ من موقع، وأثرٌ أبهجُ من أثر؛ وألذُّ من الظفر بالحبيبة نفسها عند الرجل الحكيم الظفرُ بمعانيها، وأكرمُ منها على نفسه كرامةُ نفسه. وإذا انتصر الدين والفضيلةُ والكرامةُ والعقلُ والفن، لم يبق لخيبة الحب كبيرُ معنىً ولا عظيمُ أثر، ويتوغَّل العاشقُ فى حبه وقد لَبِسَتْه حالةٌ أخرى كما يكْظِم الرجلُ الحليم على الغَيظ: فذلك يحب ولا يَطيش، وهذا يغتاظ ولا يغضَب. والبطلُ الشديدُ البأس لا ينبغُ إلا من الشدائد القوية، والداهيةُ الأريبُ لا يخرج إلا من المشكلات المعقَّدة، والتقىُّ الفاضل لا يُعرفُ إلا بين الأهواء المستحكِمة. ولَعمرى إذا لم يستطع الحكيمُ أن ينتصرَ على شهوة من شهوات نفسه، أو يُبطِل حاجةً من حاجاتها، فماذا فيه من الحكمة، وماذا فيه من النفس؟

* * *

وما عقَّد (المشكلة) على صاحبها بين زوجته وحبيبته، إلا إنه بخياله الفاسد قد أفسد القوةَ المصلِحة فيه، فهو لم يتزوج امرأته كلَّها... وكأنه لا يراها أنثى كالنساء،

ولا يُبصر عندها إلا فُروقاً بين امرأتين: محبوبة ومكروهة؛ وبهذا أفسد عينهَ كما أفسد خياله؛ فلو تعلَّم كيف يراها لرآها، ولو تعوَّدها لأحبها.

إنه من وهمه كالجواد الذى يشعر بالمَقادة فى عنقه؛ فشعورُه بمعنى الحبل وإن كان معنىً ضئيلاً عطَّل فيه كلَّ معانى قوته، وإن كانت معانىَ كثيرة. وما أقدَرك أيها الحبُّ على وضع حبال الخيل والبغال والحمير فى أعناق الناس!

* * *

وقد بقى أن نذكر، توفيةً للفائدة، أنه قد يقع فى مثل هذه المشكلة من نقصت فُحُولَتُه من الرجال، فيدَلِّسُ على نفسه بمثل هذا الحب، ويبالغ فيه، ويتجرَّم على زوجته المسكينة التى ابتُليت به، ويختَلِقُ لها العِلَل الواهية المكذوبة، ويُبغضُها كأنه هو الذى ابتُلَى بها، وكأن المصيبةَ من قِبَلها لا من قِبلَه؛ وكل ذلك لأن غريزته تحولت إلى فكره، فلم تعد إلاصُوَرًا خياليةً لا تعرف إلا الكذب. وقد قرر علماء النفس أن من الرجال من يكره زوجتَه أشدَّ الكره إذا شعر فى نفسه بالمهانة والنقص من عجزه عنها... فهذا لا يكونُ رجلا لامرأته إلا فى العداوة والنقمة والكراهية وما كان من باب شِفَاء الغيظ، وامرأتهُ معه كالمعاهَدة السياسية من طَرَف واحد: لا قيمة ولا حرمة؛ وإذا أحب هذا كان حبه خياليا شديدا، لأنه من جهة يكون كالتعزية لنفسه، ومن جهة أخرى يكون غيظًا لزوجته، وردًّا بامرأة على امرأة...

■■■

الفهرس